رحلات

أنطون تشيخوف

من سيبيريا
جزيرة ساخالين

مكتبة

ترجمة: عبدالله حبه

إهداء لـ ..

للورود الطبيعية

التى تنمو على الجزائر

ليس تلك الورود

التى تجعلنا نبدو كالمجانين

من سيبيريا
جزيرة ساخالين
مكتبة | 1348

رحلات

Author: **Чехов, Антон Павлович**

Title: **А.Чехов. Из Сибири .Остров Сахалин**

Translated by: **Abdullah Haba**

P. C. : **Al–Mada**

First Edition: **2021**

اسم المؤلف: أنطون تشيخوف

عنوان الكتاب: من سيبيريا جزيرة ساخالين

ترجمة: عبدالله حبه

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: **2021**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Al–Mada

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 · + 964 (0) 780 808 0800 · + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 · + 961 706 15017 · + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد، متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 · + 963 11 232 2275 · + 963 11 232 2289 · ص.ب: 8272

13 9 23

مكتبة

t.me/soramnqraa

أنطون تشيخوف

مكتبة | 1348

من سيبيريا
جزيرة ساخالين

ترجمة: عبدالله حبه

ИНСТИТУТ ПЕРЕВОДА

ينشر هذا الكتاب بدعم من
معهد الترجمة بموسكو - روسيا الاتحادية

Published with the support
of the Institute for Literary Translation (Russia)

مكتبة
t.me/soramnqraa

رحلة في «جحيم» ساخالين...

أراد تشيخوف أن يسجل للحقيقة والتاريخ وللأجيال القادمة وقائع فترة قاتمة من الأحداث الأليمة في جزيرة ساخالين المنعزلة في أقصى روسيا، بعد انتهاء عهد القنانة في روسيا القيصرية، لتكون منطلقاً في عمل جميع الباحثين عن مستقبل أفضل للبلاد. إن الكاتب نفسه لم يذكر أسباب إقدامه على القيام برحلة إلى جزيرة المنفيين هذه من دون الحصول على توصيات من أية جهة رسمية، بالإضافة إلى ما رافقها من أخطار على صحته، وهو المريض بالتدرن الرئوي، وفي فترة الربيع بالذات حين تبدأ فيوض الأنهار في سيبيريا وتزداد الأمطار والعواصف. لكنه قام بهذه المغامرة بدعم صديقه ألكسي سوفورين رئيس تحرير صحيفة «نوفويه فريميا» الذي مول الرحلة مقابل إرسال «يوميات مسافر» لنشرها في الصحيفة. لكنه لم يكتب من هذه اليوميات إلا القليل حول سيبيريا، أما الكتاب «جزيرة ساخالين» فقد كتبه بموسكو بعد عودته من الرحلة.

انطلق تشيخوف من محطة قطار ياروسلافلسكي في موسكو في 21 أبريل عام 1890 إلى مدينة أومسك آخر محطة في سيبيريا، ومنها توجه في عربة يجرها حصانان في رحلة لمسافة آلاف الكيلومترات وسط الغابات والمستنقعات عبر سيبيريا والشرق الأقصى واستغرقت 81 يوماً. وحدث ذلك بعد أن منح الكاتب لتوه جائزة بوشكين عن مجموعته القصصية «في الغسق»، وحقق نجاحاً كبيراً ككاتب قصصي ومسرحي، حيث كانت المجلات الأدبية ترحب بنشر قصصه، بينما كانت المسارح تقدم أعماله الفودفيلية ومسرحياته باستمرار.. اختلف الكاتب عن معاصريه في أنه عالج قضايا لم يطرحها الآخرون في أعمالهم، وكان يرى ما لا يلاحظه الآخرون،

ونقل ظواهر الحياة العادية المبتذلة إلى الصعيد الفلسفي. وبهذا اختلف عن الكتاب الروس الكبار من معاصريه في كونه نسيج وحده. وقد وصفه الكاتب الكبير ليف تولستوي بأنه «بوشكين الناثر». فتراه يصور بصدق ما يدور في خلد السجين الذي يرسف في الأغلال، وما تفكر فيه الفتاة ابنة الـ 16 عاماً الجالسة إلى النافذة، التي أرغمت على الزواج من سجان جلف يكبرها بثلاثة عقود من السنين، وما يدور في خلد الطفلة التي أُنزلت للتو جثة أمها في القبر.

وبدا أن تشيخوف لم يكن بحاجة قط إلى هذه الرحلة لدعم سمعته ككاتب. لكنه هو نفسه لم يكن راضياً عن إبداعه، وربما كان ذلك أحد دوافع قراره على القيام برحلته إلى ساخالين لاكتساب تجارب حياتية جديدة والحصول على مادة جديدة لأعماله القادمة. لقد أراد تقديم شيء جديد وبأسلوب جديد إلى القارئ الروسي. واختتم رحلته بالسفر من ساخالين على متن الباخرة «بطرسبورج» عائداً إلى أوديسا عبر سنغافورة وسيلان وبورسعيد.

إن الوضع في السجون والمنافي بروسيا كان في تلك الفترة يحظى باهتمام بالغ في الأوساط التقدمية الروسية. وجاء كتاب «جزيرة ساخالين» بمنزلة صرخة داوية تدين السلطة القيصرية والمجتمع الروسي عموماً، ولهذا حظرت الرقابة نشر فصلين من الكتاب.

وقد قررت ترجمة الكتاب إلى العربية لأن القارئ العربي لا يعرف أدب تشيخوف بصورة كافية حتى الآن، إذ لم تترجم إلى العربية غالبية قصصه التي يربو عددها على 900 قصة، كما أن بعض أعماله لم تترجم من الروسية، بل من لغات وسيطة، مما ترك أثره في وقوع أخطاء فاحشة في الترجمة أحياناً. وقد ترجم صديقي الراحل أبو بكر يوسف بعض أعماله في أربعة مجلدات، بينما ترجمت أنا بعض قصصه ومسرحياته التي لم تترجم سابقاً ونشرتها دار «المدى» سابقاً. إن هذا الكتاب يمثل تحولاً في إبداع تشيخوف حيث إن القصص والمسرحيات التي كتبها بعد هذه الرحلة تتسم باتجاه آخر أكثر عمقاً، ولو أن أسلوبه الساخر لم يتغير. ويتبين ذلك من بعض قصصه التي كتبها بعد عودته من ساخالين مثل «جوسيف» حول وضع الجنود و«النساء»

ولا سيما مآسي النساء السجينات والمومسات في سن 14 عاماً، و«قصة رجل مجهول الهوية» حول السجناء السياسيين في الجزيرة. وقصة يجور الطيب القلب. وتتضمن قصصه الواردة في هذا الكتاب المزيد من الجرأة في نقد الأوضاع الاجتماعية وفي وصف الموظفين المسؤولين. ويلاحظ في قصصه في السنوات الأخيرة من حياته الميل إلى إيراد أقوال شاهد العيان، والمجادلات الحوارية بين الأبطال، ورؤية المؤلف «الانتقائية» للأحداث التي تكشف موقفه الإنساني والأخلاقي من الأوضاع في بلاده.

إن هذا الكتاب ليس من أدب الرحلات، كما أنه ليس يوميات مسافر، بل يتألف من مقالات وصور قلمية وقصص وحوارات ووثائق وإحصائيات. والمؤلف ليس سائحاً ولا «واعظاً» ولا «متنبئاً»، بل أراد أن يطلع القارئ على حياة لم يعرفها من قبل. علماً أنه شطب لاحقاً الكثير من مقاطع الكتاب التي اعتبرها «زائفة»، لأنه أراد أن ينقل إلى القارئ الحقيقة فقط عن الواقع الروسي آنذاك. إنه صنف جديد من الإبداع يجمع بين الأدب والعلم والإعلام، ويجسد التطلعات الإنسانية والديمقراطية للكاتب.

كما أن هذا الكتاب خال من الإثارة كما في الروايات البوليسية، بل يمثل دراسة موضوعية لحياة السجناء والمنفيين في الجزيرة تعتمد على الوثائق الرسمية والانطباعات الشخصية والأحاديث مع السجناء اليائسين أو الحالمين بالهرب وبحياة أفضل مثل أبطال «بيت الموتى» لدوستويفسكي. إن تشيخوف لا يهتم بوصف الطبيعة العذراء الرائعة الجمال في ساخالين، لكونها ترتبط بأوضاع المحكومين بالأشغال الشاقة والمرضى الراسفين في الأغلال والعاملين في الزمهرير في المناجم أو في صيد الأسماك أو بناء السجون أو البيوت والكنائس. على الرغم من أن صديقه الرسام إيليا ليفيتان وصفه بأنه خير من يصف الطبيعة، ويتبين ذلك في القسم الأول من هذا الكتاب فقط لدى وصفه الطبيعة في سيبيريا. ويتحدث تشيخوف بدلاً من وصف الطبيعة عن أسطورة المنفيين حول أكمة على ساحل البحر أقيمت فوقها مشنقة يهتز حبلها مع اشتداد الريح، أو عن صبية في الخامسة من العمر تمسك بسلاسل أبيها السجين لدى نزولهما من السفينة. ويصف تشيخوف بصورة أساسية معاناة السجناء في داخل الزنزانات وفي أماكن العمل عندما

يسحبون جذع شجرة ضخمة لمسافة عدة كيلومترات في ظروف البرد والجوع والحاجة إلى التكسب أو لدى معاقبتهم بالجلد. لا يمكن أن يحيا الإنسان في كل مكان بلا نقود، فكما قال الجاحظ «إن الدرهم هو القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا». لهذا يتحدث تشيخوف عن السرقة بصفتها عنصراً ملازماً للفساد في مجتمع السجناء وإدمانهم شرب الخمر أو لعب القمار والصبر على الإهانات والجلد بالعصي أو السياط، وتناول طعام السجن الفاسد، وإرغام النساء على ممارسة الدعارة. علاوة على الوضع البائس للأطفال الذين رافقوا آباءهم وأمهاتهم إلى السجن والمنفى. ووصف الكاتب مشهد عقوبة الجلد على الفلقة بحضوره. كما يورد الكاتب أحاديث السجناء الذين ألقت بهم الأقدار إلى سجون ساخالين، وتحليل شخصية كل واحد منهم، ولا سيما الأبرياء الذين حكم عليهم بالسجن المؤبد بوشاية أو بشهادة زور. لكنه تعمد من باب اللباقة عدم ذكر الأسماء الحقيقية لأبطال قصصه الذين لم يخف تعاطفه معهم. قال تشيخوف: إن الحياة في الزنزانات المشتركة تحول الفرد إلى عبد وبمرور الزمن تقود السجين إلى الانحطاط. إن غرائز الإنسان المستقر، وصاحب العمل، ورب الأسرة، تخمد فيه وتغلب عادات الحياة المتوحشة، وتتدهور صحته، ويدلف إلى الشيخوخة، ويضعف معنوياً.

لقد طرح تشيخوف في هذا الكتاب مسألة ضمير الكاتب وموقفه من المجتمع، وهي مسألة تطرح بحدة في الأدب الروسي بشكل خاص. إنها تتجسد في أعمال غالبية الكتاب الروس من جوجول وتولستوي ودوستويفسكي وتشيخوف وحتى شولوخوف وبلاتونوف وبولجاكوف، ولا تجد في الأدب الإنجليزي أو الفرنسي أو الأمريكي وغيرها انعكاساً لها بهذه الحدة. فلا يكتب الأديب الإنجليزي عن جرائم الاستعمار البريطاني في الهند حين كان الثوار الهنود يربطون إلى فوهات المدافع لكي تنطلق القذائف منها وتحول أجسادهم إلى أشلاء، ولم يهتم الأديب الإنجليزي بمسح قرى بأكملها بواسطة القصف المدفعي والجوي في الخليج والعراق وكردستان أو مشانق دنشواي وتدمير بورسعيد. كما لم يوثق الكاتب الفرنسي جرائم سلطات بلاده في المستعمرات بشمال أفريقيا ووسطها وفي سورية ولبنان.

أما الكاتب الأمريكي فلم يفكر أصلاً في توثيق أكبر جريمة في التاريخ وهي إبادة شعوب أمريكا الأصليين من الهنود الحمر الذين تحتجز بقاياهم في المحاجر حتى اليوم، كما لا يفكر في توثيق جرائم الجنود الأمريكيين في فيتنام وأفغانستان وفي سجن «أبوغريب» في العراق. وتبقى مسألة ضمير الكاتب التي تجسدت في مأثرة تشيخوف في ساخالين من أهم القضايا التي تواجه الأدب في شتى العصور.

عبدالله حبه – موسكو

من سيبيريا

-1-

– لم الطقس عندكم في سيبيريا بهذه البرودة؟

أجابني الحوذي: – هذه إرادة الرب!

حقاً، نحن في شهر مايو، وأصبحت الغابات خضراء في روسيا وتغرد فيها العنادل، بينما تزهر في الجنوب منذ وقت بعيد أشجار الأقاصيا والليلك، أما هنا في الطريق من تيومين إلى مينسك، فالأرض سمراء، والغابات عارية، وتغطي البحيرات طبقة جليد معتمة، وما زال الثلج متراكماً في الوديان الضيقة.

لكنني لم أر في حياتي قط مثل هذا العدد من الطيور. إنني أرى كيف تتجول البطات البرية في الحقول، وكيف تسبح في البرك وفي الأخاديد على جانبي الطريق، وكيف تنطلق فجأة فوق العربة تقريباً وتحلق بكسل إلى حرش أشجار البتولا. ويتردد في وسط الكون صوت عذب مألوف، ولدى التطلع إلى الأعلى ترى فوق رأسك على علو منخفض زوجاً من الغرانق، فتشعر لسبب ما بالكآبة. ها قد مضت الأوزات البرية، وانطلق في أعقابها سرب من طيور التمّ الجميلة البيضاء كالثلج.. وتطلق الأنين في كل مكان طيور الشنقب، بينما تردد طيور النورس النحيب...

نحن نسبق عربتين مغلقتين وحشداً من الرجال (الموجيك)[1] والنساء القرويات. إنهم من المهاجرين.

– من أية محافظة أنتم؟

1- كانت لفظة موجيك الروسية تعني في القرن التاسع عشر الرجل الجلف الغليظ والجاهل وترتبط بالفلاحين عموماً (المترجم).

– من كورسك

يسير في خلف الجميع موجيك لا يشبه الآخرين. إنه حليق الذقن، وشارباه أشيبان، وعلى رأسه طرطور غير مفهوم، صنع من قماش منزلي خشن يتدلى من خلفه، ويحمل تحت إبطيه آلتي كمان ملفوفتين بمنديلين. لاحاجة للسؤال عمن هو ومن أين جاء بآلتي الكمان. إنه رجل طائش، غير وقور، عليل، وحساس تجاه البرد، ميال إلى الفودكا، ووديع، وعاش حياته كلها نافلاً لا يحتاج إليه أحد لدى أبيه في البداية، ومن ثم لدى أخيه. ولم يعطوه إرثاً، ولم يزوجوه... إنه رجل غير حقيقي! كان يشكو في العمل من القر، ويسكر لدى تجرع كأسين، ويثرثر عبثاً، ولا يجيد سوى العزف على الكمان، وكذلك العبث مع الصبيان فوق الموقد. كان يعزف في الحانة، وفي حفلات الزفاف، وفي الحقل، وبأية مهارة كان يعزف! لكن الأخ باع الكوخ والماشية وجميع ممتلكاته، ويمضي الآن مع أسرته كلها إلى سيبيريا البعيدة. والرجل الأعزب يمضي معهم أيضاً، فلا مفر من ذلك. ويأخذ معه آلتي الكمان كلتيهما... وعندما سيصلون إلى المكان المقصود سيكابد برد سيبيريا، ويمرض ويموت بهدوء، وتذهب روحه إلى بارئها بسكون، ولن يلحظ أحد ذلك، بينما ستباع الآلتان، اللتان كانتا تجعلان قريته تمرح وتحزن، ويشتريها كاتب – غريب أو منفي مقابل قطعتي نقود من فئة عشرة كوبيكات، ويعمد أبناء الغريب إلى قطع الأوتار، وكسر مشط الكمان وصب الماء في داخل الآلة... فعد إليهم أيها العم!

إنني التقيت المهاجرين حين كنت في الباخرة العائمة في نهر كاما. وأذكر رجلاً في الأربعين من العمر بلحية صهباء. كان يجلس على مصطبة في الباخرة، ووضع عند قدميه أكياساً فيها الحوائج البيتية، بينما جلس فوق الأكياس أطفال ينتعلون أحذية صنعت من القش (لوباتكي)، ويوصوصون أعينهم بسبب البرد والرياح الشديدة التي تهب من ضفاف كاما الخاوية. وتفيض سحنته بتعبير: «إنني استسلمت لحكم القدر». وتنم عيناه عن السخرية، لكن هذه السخرية توجه إلى أعماقه، إلى روحه، وإلى حياته الماضية كلها، التي خدعته بقسوة.

إنه يقول: – لكن لن يحدث ما هو أسوأ! ، – ويبتسم بشفته العليا فقط.

ولا يصدر جواب عن ذلك سوى الصمت ولا يطرح أي سؤال، لكنه يكرر بعد هنيهة:

– لن يحدث ما هو أسوأ مما جرى!

– سيكون أسوأ، – يقول من المصطبة الأخرى موجيك – غير مهاجر أشقر ذو نظرات حادة، – سيكون الوضع أسوأ!

إن هؤلاء الذين يمضون الآن في الطريق إلى جانب عرباتهم، يبقون صامتين. ووجوههم مربدة، وعابسة... أنا أتطلع إليهم وأفكر. يستطيع الرجل غير العادي والبطل فقط أن يتخلى نهائياً عن الحياة التي بدت له غير طبيعية، ويضحي لهذا الغرض بموطنه وبعشه الحبيب...

فيما بعد، بعد فترة قصيرة، نسبق طابوراً من السجناء، ويمضي في الطريق 30–40 سجيناً، ويسير من الجانبين الجنود بأسلحتهم، بينما تسير في الخلف عربتان. ويشبه أحد السجناء كاهناً أرمنياً، أما الآخر الطويل القامة ذو اللحية المدببة والجبهة العريضة، فيبدو أنني رأيته سابقاً وراء منصة البائع في صيدلية، والثالث – ذو سحنة شاحبة دلفت إلى الذبول وتنم عن الجد، كما لدى الراهب – الصائم. لا يستطيع المرء التطلع إلى الجميع. وقد أصاب الإجهاد السجناء والجنود وأخذ منهم التعب كل مأخذ: الطريق رديئة، ولا تتوفر القوة لمواصلة السير... بينما بقيت مسافة عشر فرستات لبلوغ القرية التي سيبيتون فيها. وعندما سيصلون إلى القرية، سيتناولون بسرعة وجبة الطعام، ويحتسون الشاي البني، ثم يرقدون للنوم، وفور ذلك سيلتصق بهم البق، العدو الذي لا يقهر، لكل من هدّه التعب ولديه رغبة شديدة في النوم.

تبدأ الأرض في المساء بالتجمد وتتحول الأوحال إلى كتل من النتوءات الصغيرة تتقافز فوقها العربة، وتطقطق وتصرف صريفاً بمختلف الأصوات. القر! لا توجد مساكن ولا بشر... ولا يتحرك أي شيء في الجو المعتم، ولا يصدر أي صوت، ويسمع فقط صوت ارتطام العربة بالأرض المتجمدة، بينما تحلق 2–3 بطّات بضجيج بعد أن أيقظتها شعلة النار لدى إيقاد سيجارة...

وصلنا إلى النهر. يجب العبور إلى الضفة الأخرى بواسطة العبّارة. لكن لا أحد على الضفة الأخرى.

قال الحوذي: – إنهم عبروا إلى الجهة الأخرى، اللعنة عليهم! هيا، ياصاحب السعادة، نصيح.

يعني الصياح هنا الصراخ من الألم، والبكاء، وطلب المساعدة، وعموماً الصراخ. في سيبيريا لا يعج بالصراخ الدب فقط، بل وكذلك العصافير والفئران. ويقال بصدد الفأر: «وقع في قبضة القط – ولهذا يصرخ».

بدأنا بالصياح. النهر عريض، ولا ترى الضفة الأخرى في الظلام الحالك... بدأت ساقاي ومن ثم جسدي كله بمعاناة القر بسبب البرد والرطوبة في النهر... واصلنا الصياح خلال نصف ساعة، لكن لم تصل العبّارة. وسرعان ما شعرت بالسأم من مشهد الماء، ومن النجوم المتناثرة في السماء، ومن هذا السكون الثقيل والمطبق كما في القبر. ودفعاً للسأم بدأت أتحدث مع العجوز فعرفت أنه تزوج في سن 16 عاماً، وكان لديه 18 ابناً وابنة توفي ثلاثة منهم فقط، وأن أباه وأمه ما زالا على قيد الحياة. علماً أن الأب والأم من أتباع الطائفة «الكيرجاكية» أي من المنشقين الذين لا يدخنون، ولم يزورا في حياتهما كلها أية مدينة باستثاء إيشيم، وأنه، أي العجوز، سمح لنفسه حين كان شاباً بالعبث – أي بالتدخين. وعلمت منه أنه في هذا النهر المعتم والقاسي أسماك الحفش والسلمون الأبيض والكراكي لكن لا أحد يصطادها وما من أية عدة للصيد.

وأخيراً سمعنا طرطشة منتظمة، وظهر في النهر جسم أخرق، قاتم اللون. إنها العبّارة. وتشبه هيئتها عبّارة صغيرة، فيها خمسة من الجذافين، ويشبه المجذافان الطويلان فيها ذوا الزعنفتين العريضتين ملاقط السرطان.

رست العبارة عند الضفة. بدأ الجذافون بإطلاق الشتائم. كانوا يطلقون الشتائم بغيظ، وبلا أي سبب، ربما لكونهم بين النوم واليقظة. وقد يعتقد المرء لدى سماع شتائمهم أنه توجد أمهات ليس فقط لدى عربتي، بل ولدى الأحصنة ولديهم أنفسهم، بل ولدى الماء والعبارة والمجاذيف. ولعل أرقَّ شتيمة وغير مؤذية لدى الجذافين هي – «لتأخذك القرحة» أو «قرحة

في فمك!». ما علاقة القرحة بالأمر، هذا ما لم أفهمه، على الرغم من أنني استفسرت عن ذلك. كنت أرتدي معطفاً قصيراً وجزمتين كبيرتين وأعتمر قبعة فرو، لكن لم ير أحد في الظلام، أنني «صاحب السعادة»، ولهذا صاح أحد الجذافين بي بصوت مبحوح:

– هيه أنت، يا صاحب القرحة، ما لك تقف فاغراً فمك؟ فك وثاق حصان الجر.

صعدنا العبارة. وأمسك الجذافون بالمجذافين وهم يطلقون الشتائم. علماً أنهم ليسوا من الفلاحين المحليين بل من المنفيين الذين أرسلوا إلى هنا بموجب أحكام المجتمع بسبب حياتهم الشائنة. علماً أنهم لا يرغبون في العيش في القرية التي نسبوا إليها – فهم يشعرون بالسأم، ولا يجيدون حراثة الأرض أو فقدوا العادة في حرثها. كما لا يعجبهم العمل في أراضي الغير، وجاءوا إلى هنا للعمل في وسائل النقل. إن وجوههم تنم عما عانوه من مشاق وهي ذابلة ومحطمة! وأي تعبير يرتسم على وجوههم. يبدو أن هؤلاء الأفراد، الذين نقلوا إلى هنا بواسطة عبارات السجناء. وقد رُبط كل اثنين منهم بالقيود، وساروا في الطريق إلى أماكن النفي، وباتوا في الأكواخ الريفية حيث كان ينهش أجسادهم البق بشكل لا يطاق، قد تخشبوا حتى مخ العظام. والآن حين يتسكعون ليلاً ونهاراً فوق الماء البارد، ولا يرون شيئاً سوى الضفاف العارية، تجدهم فقدوا كل دفء الحنان إلى الأبد، الذي كان لديهم، ولم يبق لديهم في الحياة سوى شيء واحد هو: الفودكا والمومس، والمومس، والفودكا.. إنهم لم يعودوا في هذه الدنيا كبشر، بل كوحوش، ويعتقد العجوز حوذي عربتي، أن وضعهم في العالم الآخر سيكون سيئاً، إنهم سيذهبون إلى جهنم عقاباً على آثامهم.

-2-

في ليلة 6 مايو نقلني في العربة من قرية أباتسكويه الكبيرة (تبعد 375 فرستا[1] عن تيومين)، عجوز في الستين من العمر. وقبل أن يقرن الحصانين إلى العربة، ذهب للتمتع بالبخار في الحمام، ووضع على جسمه كؤوس الحجامة. ولم هذه الكؤوس؟ قال إن ظهره يؤلمه. علماً أنه قوي البنية بشكل لا يناسب عمره، وهو سريع الحركة، كثير الكلام، لكن مشيته غير جيدة: يبدو أنه مصاب بتيبس الظهر.

كنت جالساً في عربة «تارانتاسيك» مكشوفة يجرها حصانان. وكان العجوز يلوّح بسوطه، ويصرخ، لكنه لم يعد يصرخ كالسابق، بل صار يتأوه أو ينوح مثل الحمامة المصرية.

تراءت من بعيد على جانبي الطريق وفي الأفق البعيد نيران تتلوى كالأفعى: يحترق عشب العام الماضي الذي يجري إضرام النار فيه هنا عن قصد. علماً أنه رطب ولا يحترق إلا بصعوبة، ولهذا فإن ألسنة اللهب تزحف ببطء، فتارة تتعالى في عدة أجزاء، وتارة تخمد، ثم يندلع اللهب مجدداً. وتنطلق الشرارات من النيران، وتتصاعد فوق كل واحد منها سحابة بيضاء من الدخان. إنه مشهد جميل حين تلتهم النيران الأعشاب العالية فجأة، ويرتفع عمود اللهب فوق الأرض إلى ارتفاع ستة أقدام، وتنطلق منه سحابة كبيرة من الدخان ثم تهبط فوراً كما لو أنها تغوص في أعماق الأرض. والشيء الجميل أكثر حين تزحف ألسنة اللهب إلى غابة أشجار البتولا، وعندئذ تجري إنارة الغابة كلها، وترى الجذوع البيضاء

1- فرستا – مقياس روسي قديم للطول يعادل 1060 متراً (المترجم).

بجلاء، وتمتزج أشباح أشجار البتولا مع البقع الضوئية. يشعر المرء بشيء من الفزع لدى رؤية هذه الإنارة كلها.

انطلقت عربة ترويكا البريد نحونا بأقصى سرعة وهي تطقطق فوق النتوءات الصغيرة في الطريق. وعاجل العجوز للانحراف جانباً إلى اليمين، وفور ذلك مرت بنا عربة بريد ضخمة وثقيلة يجلس فيها الحوذي في طريق العودة. لكن سمع هدير جديد: إذ انطلقت باتجاهنا عربة ترويكا بريدية أخرى وكذلك بأقصى سرعة. فعاجلنا في الانحراف نحو اليمين، لكن لدهشتي وفزعي، استدارت العربة لسبب ما ليس إلى اليمين، بل نحو اليسار باتجاهنا مباشرة. ماذا لو وقع صدام؟ وحالما طرحت على نفسي هذا السؤال، انطلقت كدكدة، وتحولت عربتنا وترويكا البريد إلى كتلة معتمة واحدة، وانتصبت عربتنا «التارانتاس» رأساً على عقب، وسقطت أنا على الأرض. وانهالت فوقي جميع حقائبي وحزمي... وبينما كنت أنا في حالة ذهول، وراقداً على الأرض، سمعت صوت اقتراب ترويكا ثالثة. «أعتقد أن هذه ستصرعني في أغلب الظن». لكن، والحمد لله، لم أصب بأي كسر، وأصابتني خدوش غير مؤلمة وأستطيع النهوض من الأرض. وثَبتُ وهرولت جانباً وأنا أصرخ بأعلى صوتي:

- قف! قف!

نهض شبح ما من عربة البريد الفارغة، وأمسك بالأعنة، وتوقفت عربة الترويكا الثالثة بالقرب من حقائبي تقريباً.

مضت دقيقتان من الصمت. سادت حالة من الذهول البليد، كما لو أننا جميعاً لم نفهم ما جرى. فعريش العربة انكسر، وعدة الحصان قد خلعت، وأقواس الأحصنة مرمية على الأرض، بينما تتنفس الخيول بصعوبة، إذ أصابها الذهول أيضاً، ويبدو أنه لحقها الأذى الشديد. نهض العجوز من الأرض، وهو يطلق الأنين والتأوهات. عادت عربتا الترويكا الأوليان، بينما اقتربت عربة الترويكا الرابعة، ثم الخامسة...

بعد ذلك بدأ تبادل الشتائم العنيفة.

صرخ الحوذي الذي اصطدم بنا: - لحقتك العلة! وأصابتك قرحة في فمك! أين كانت عيناك، أيها الكلب العجوز؟

بينما صاح العجوز بصوت يفيض بالنشيج: - من المذنب؟ أنت المذنب، بينما أنت تطلق السباب؟

وكما تبين من الشتائم فإن سبب الاصطدام كان كالآتي: انطلقت إلى أباتسكويه خمس عربات ترويكا لنقل البريد في طريق العودة. وبموجب القانون يجب على الحوذيين في الاتجاه المقابل السير على مهل، لكن حوذي المقدمة الذي غلبه الشوق والحماس وأراد الوصول إلى المكان الدافئ بأسرع وقت، انطلق بالخيل بأسرع ما يمكن، أما في العربات الأربع الباقية فقد نام الحوذيون ولم يوجد من يقود عربات الترويكا. وقد انطلقت العربات الأربع بأقصى سرعة في أعقاب الأولى. لو كنت نائماً في عربتي أو لو انطلقت عربة الترويكا الثالثة في أعقاب الثانية فوراً، لما كان الأمر سيختتم طبعاً بسلام بالنسبة إلي.

كان الحوذيون يتبادلون الشتائم بأعلى صوت. ولابد أن صراخهم كان سيسمع على بعد عشر فرستات. تواصل السباب بعنف. ما أكثر ما تطلب الأمر من ذكاء ونضوج وقذارة روحية بغية تبادل مثل هذه الكلمات والعبارات القبيحة، التي هدفها إهانة وتدنيس الإنسان بكل ما هو مقدس وعزيز ومحبب لديه! ولا يجيد الشتائم بهذه الصورة سوى الحوذيين وسائقي عربات الشحن في سيبيريا، ويقال إنهم تعلموا ذلك من السجناء. ويطلق المذنب عادة أقذع الشتائم وبأعلى صوت.

قال العجوز مدافعاً عن نفسه: - لا تسب، أيها الأحمق!

- ماذا؟ - سأل الحوذي المذنب، وهو فتى في الـ 19 من العمر، مقترباً من العجوز بهيئة التهديد، ووقف أمامه وجهاً لوجه. - ماذا؟

- هدئ من روعك، فلست رهيباً بهذا القدر!

- ماذا؟ أجب: ماذا سيحدث؟ سأرفع حطام القوس وأنهال به على يافوخك، ياقرحة!

يبدو من لهجة الكلام أن معركة ستنشب بينهما. وشعرت بوحدة شديدة يصعب وصفها في الليل، قبيل الفجر، وسط هذا الحشد البشري المتوحش الذي يتبادل الشتائم، وعلى مرأى من النيران القريبة والبعيدة، التي لا تدفئ

بأي قدر الهواء الليلي البارد، وبالقرب من الخيول المضطربة والجامحة التي تجمعت في كتلة واحدة وهي تطلق الصهيل.

كان العجوز يدمدم ويرفع ساقيه عالياً - بسبب المرض - ويلف ويدور حول العربة والحصانين، ويفك، حيثما أمكن، الحبال والأحزمة من أجل أن يشد بها عريش العربة المكسور، ومن ثم راح يشعل عود ثقاب ويزحف على بطنه في الطريق بحثا عن السير الذي يربط به الحصان. واستخدمت لهذا الغرض أحزمة حقائبي أيضاً. بدت طلائع الفجر في الشرق، وكانت تصرخ منذ وقت طويل الأوزات البرية التي استيقظت، وفي نهاية المطاف رحل الحوذيون، بينما بقينا نحن واقفين في الطريق ونصلح العربة. وقد حاولنا مواصلة السير، لكن العريش المربوط - انفك! .. ووجب علينا التوقف مرة أخرى.. البرد!

وصلنا إلى القرية بجهد خطوة فخطوة. توقفنا عند بيت ريفي من طابقين.

صاح العجوز: - إيليا إيفانوفتش، هل الأحصنة في البيت؟

أجاب صوت خافت ما من النافذة: - في البيت!

استقبلني في البيت الريفي رجل طويل القامة يرتدي ثوباً أحمر، وحافي القدمين، وناعس، وابتسم لسبب ما بين النوم واليقظة.

- لقد غلبني البق، ياصديقي! - قال ذلك، وهو يبتسم لسبب ما ابتسامة عريضة أكثر. - نحن لا نشعل الموقد عن قصد. عندما يكون المكان بارداً فإن البق لا يمشي. هنا لا يزحف البق والصراصير، بل إنها تمشي، أما المسافرون فلا يرحلون بل يهرولون. ويسأل: «إلى أين أنت تهرول ياصاحب السعادة؟» ومعنى ذلك: «إلى أين أنت راحل؟».

بينما كان يجري في الفناء تشحيم العربة وتعليق الأجراس، وبينما كان إيليا إيفانوفتش يرتدي ملابسه، وهو الذي سينقلني الآن، بحثت في الركن عن مكان مريح، ووضعت رأسي على كيس يحتوي على شيء ما، أظن أنها الحبوب، غلبني تواً السهاد العميق. ورادوني في الحلم أنني أرقد في فراشي، وفي حجرتي، ورأيت في الحلم أنني أجلس في بيتي وراء الطاولة، وأروي إلى أهلي كيف اصطدمت عربتي التي يجرها حصانان بعربة الترويكا

التي تنقل البريد، لكني بعد مضي دقيقتين أو ثلاث سمعت إيليا إيفانوفتش وهو يسحبني من أكمامي ويقول:

– انهض، ياصاحبي، الخيول جاهزة.

أي استهزاء بالكسل وبالنفور من البرد الذي زحف كالأفعى على ظهري طولاً وعرضاً! ها أنذا أواصل الرحلة.. كان نور الفجر قد بزغ واصطبغت السماء بلون الذهب عند الشروق. وغطى الندى المتجمد الطريق والأعشاب في الحقول وأشجار البتولا الفتية البائسة، كما لو أنها قد غطيت بطبقة من السكر. فيما قطقطت في مكان ما ذكور طيور الصيهوج الأسود.

8 مايو

-3-

ليس في المسار السيبيري من تيومين إلى تومسك أية بلدات أو دساكر بل هناك فقط قرى كبيرة تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة 20 و25 وحتى 40 فرستا. ولا ضياع في الطريق حيث لا يوجد مالكو أطيان هنا، ولا ترى معامل ولا مطاحن ولا فنادق... والشيء الوحيد الذي يذكّر بوجود الإنسان هو أسلاك التلغراف التي تهتز لدى هبوب الريح، وكذلك أعمدة تحديد الفرستات.

وفي كل قرية كنيسة، وأحياناً كنيستان، كما فيها مدارس، وأعتقد أنها موجودة في جميع القرى. البيوت الريفية خشبية، وغالباً ما تكون بطابقين، والسقوف مصنوعة من ألواح الخشب. ويعلق عند كل بيت ريفي على السياج أو على شجرة البتولا بيت الزرزور، على علو منخفض حتى يمكن أن تطاله اليد. وتحظى الزرازير هنا بمحبة الجميع، ولا تمسها حتى القطط. لا توجد حدائق.

في الساعة الخامسة صباحاً أنا جالس في حجرة الضيافة (الأوظة) في بيت حوذي حر وأحتسي الشاي، بعد ليلة كابدت فيها الزمهرير والسفر الشاق. والحجرة مضيئة وواسعة، ومؤثثة جيداً، يحلم بها فحسب أي موجيك عندنا في كورسك أو موسكو. النظافة فيها عجيبة: فلا ترى أية قشة أو لطخة. الجدران بيضاء، والأرضية خشبية حتماً، مطلية أو مغطاة بأبسطة ملونة من القنب. وثمة طاولتان وديوان وعدة كراس وصوان لحفظ الأواني، وعلى رفوف النوافذ أصص الأزهار. وفي الركن سرير فوقه تل من حشيات الريش والوسائد بأغطية حمراء، وبغية الصعود إلى هذا التل يجب استخدام الكرسي ثم الغوص فيه. وأهل سيبيريا يحبون النوم في فراش ناعم.

تشيخوف مع ذويه عشية السفر إلى ساخالين

وتمتد من الأيقونة في ركن الحجرة سلسلة من الصور الشعبية الرخيصة في كلا الجانبين، بينها بورتريه القيصر، بعدة نسخ حتماً، والقديس جرجيس الظافر و«الملوك الأوروبيون» وبينها وجدت لسبب ما صورة شاه بلاد فارس، وبعد ذلك صور القديسين وتحتها كتابات لاتينية وألمانية وبورتريه نصفي لكل من باتنبرغ وسكوبيليف، ثم صور القديسين مجدداً... وتزين الجدران أيضاً بورق لف الحلوى (الملبس) ورقع قناني الفودكا والبطاقات اللاصقة للسجاير، وهذا الفقر لا يتناسب البتة مع الفراش الوثير والأرضية المطلية. لكن ما العمل؟ فالإقبال كبير هنا على الأعمال الفنية، لكن الرب

لا يعطي هذه الأرياف الفنانين. انظر إلى الباب الذي رسمت عليه شجرة ذات زهور زرقاء وحمراء وطيور ما تشبه الاسماك أكثر من الطيور، وتنبت هذه الشجرة من زهرية، ويتبين من هذه الزهرية أن من رسمها أوروبي، أي أحد المنفيين، ونقش هذا المنفي أيضاً الدائرة في السقف والزخارف على المدفأة. التصوير غريب لكن الفلاح المحلي عاجز عن إنجازه. فهو لا ينزع القفافيز طوال تسعة أشهر ولا يعدل أصابعه، فتارة يسود الزمهرير حتى درجة أربعين تحت الصفر، وتارة يغطي الفيضان مسافة عشرين فرستا. ثم يأتي الصيف القصير - إنه يشعر بآلام في ظهره بسبب العمل وتتوتر العروق في جسده. فمتى يجد الفرصة للرسم؟ وبما أنه يصارع الطبيعة طوال العام فهو لا يمكن أن يكون رساماً أو موسيقياً أو مغنياً. ونادراً ما تسمع في القرية ألحان الأرمونيكا، ولا تتوقع أن يرفع الحوذي عقيرته بالغناء.

فُتح الباب وظهرت عبر الجدران الحجرة الأخرى المضيئة وذات الأرضية الخشبية. يجري العمل هناك على قدم وساق. تعجن ربة البيت العجين على الطاولة، وهي امرأة في الخامسة والعشرين من العمر، طويلة القامة، ونحيفة، ذات سحنة تنم عن الطيبة والوداعة. وينساب نور الشمس الصباحي على عينيها وصدرها ويديها، ويبدو كما لو أنها تعجن العجين مع نور الشمس. أما الفتاة - شقيقة رب البيت فتخبز الفطائر الرقيقة، بينما تسمط الطباخة الخنزير الذي ذبح لتوه، ويصنع رب البيت أحذية اللباد (فالنكا) من الصوف. أما العجائز فلا يعملون شيئاً على ما يبدو فالجدة جالسة فوق الموقد، وتدلت ساقاها، وهي تطلق التأوهات، أما الجد فيرقد على المصطبة العريضة عند الموقد ويسعل، لكنه عندما لاحظني نزل إلى الأسفل وتوجه عبر مدخل البيت إلى حجرة الضيافة. لديه رغبة في تبادل الأحاديث... وبدأ من القول إن الربيع الآن بارد، ولم يكن بهذه الصورة منذ وقت بعيد. وتصور غداً عيد القديس نيقولاي، وبعد يوم غد عيد صعود العذراء، بينما تساقط الثلج ليلاً، وتجمدت في الطريق إلى القرية امرأة ما، ويصيب الماشية الهزال بسبب قلة العلف، وتصاب العجول بالإسهال بسبب البرد.. ثم سألني من أين أنا، وإلى أين ذاهب ولماذا، وهل أنا متزوج أم لا، وهل إن النساء على حق بشأن نشوب الحرب عاجلاً.

سمع صوت بكاء طفل. عندئذ فقط لاحظت وجود مهد بين السرير والموقد. وتركت ربة البيت العجين وهرعت إلى الحجرة.

قالت لي وهي تهز المهد وتبتسم بوداعة: هل سمعت يا تاجر بما حدث عندنا! جاءت إلينا منذ شهرين سيدة برجوازية (ميشانكا) مع طفلها من أومسك.. كانت بملابس السادة، لكن.. إنها ولدت الطفل في تيوكالينسك، وهناك عمدته، وبعد الولادة أصيبت بوعكة صحية في الطريق وصارت تعيش عندنا في هذه الحجرة. تقول إنها متزوجة، ولكن من يعرف؟ فلا يكتب ذلك على الجبين، وكانت بلا هوية شخصية. ربما أن الطفل غير شرعي...

تمتم الجد: – ليس من واجبنا إعطاء الأحكام على الآخرين.

تابعت ربة البيت كلامها: – لقد عاشت عندنا فترة أسبوع، ثم قالت: «أنا سأسافر إلى زوجي في أومسك، ليبق ساشا عندكم. وسآتي لأخذه بعد أسبوع. فأنا أخشى أن يصيبه البرد في الطريق...» فقلت لها: «اسمعي ياسيدة، الرب يمنح الناس الأطفال، البعض يرزق بعشرة والبعض بعشرين طفلاً، لكنه عاقبني مع زوجي، فلم يهبنا أي طفل. فاتركي لنا ساشا. وسنأخذه ابناً لنا». تأملت هنيهة ثم قالت: حسناً، انتظري، سأستشير زوجي وبعد أسبوع سأبعث لكم برسالة. فأنا لا أجرؤ على ذلك بدون موافقة زوجي». تركت ساشا لدينا ورحلت. وهاقد مضت فترة شهرين، ولم تأت بنفسها ولم تبعث برسالة. هذا عقاب الرب. نحن أحببنا ساشا مثل طفلنا العزيز، بينما نحن لا نعرف هل هو ابننا أم ابن آخرين.

فنصحتها قائلاً: – يجب أن تكتبوا رسالة إلى هذه البرجوازية.

قال رب البيت من غرفة مدخل البيت: لا بد من الكتابة!

دخل حجرة الضيافة وتطلع إلي بصمت كما لو أنه يستفسر: هل سأقدم لهم نصيحة أخرى؟

قالت ربة البيت: – كيف سنكتب لها؟ إنها لم تبلغنا ما هو لقبها. ماريا بتروفنا – هذا مجمل الأمر. زد على ذلك أن أومسك مدينة كبيرة ولن تجدها هناك. أو ابحث عن الريح في البرية!

– إذن لن نجدها! – وافق رب البيت على كلامها ورنا إلي كما لو أنه يريد أن يقول: «ساعدنا، بحق الرب».

قالت ربة البيت وهي تعطي الطفل المصاصة: - نحن اعتدنا على ساشا. حينما يصرخ نهاراً أو ليلاً ينتاب سويداء القلب شعور آخر، كما لو أن بيتنا أصبح بيتاً آخر. لكن قد تحل الساعة التي تأتي فيها تلك السيدة وتأخذه منا...

احمرت عينا ربة البيت، وانحدرت منها الدموع، وغادرت حجرة الضيافة مسرعة. بينما لوح رب البيت برأسه في أعقابها وضحك وقال:

- إنها عادة.. الشفقة، كما هو معروف!

هو نفسه قد اعتاد عليه، ويشعر بالشفقة، لكنه يجد صعوبة في الاعتراف بذلك. يالهم من أناس طيبين.

بينما كنت أحتسي الشاي وأصغي إلى الحديث حول ساشا، كانت حقائبي متروكة بلا رقابة في الفناء، في العربة. وعندما سألت عما إذا كانت ستسرق أجابوني بابتسامة:

- من يسرق هنا؟ عندنا لا يسرقون حتى في الليل.

فعلاً فأنا لم أسمع خلال رحلتي كلها عن سرقة أحد المسافرين. إن الأخلاقيات هنا من هذه الناحية عجيبة، والتقاليد طيبة. ولدي قناعة راسخة بأنني لو أسقطت محفظة النقود في العربة فإن الحوذي الحر الذي يجدها سيعيدها إلي، حتى من دون التطلع إلى محتويات المحفظة. علماً أنني نادراً ما كنت أتنقل في عربات البريد. ويمكنني قول شيء واحد حول الحوذيين في عربات البريد. لقد وجدت في سجلات الشكاوى التي كنت أطالعها في المحطات دفعاً للسأم شكوى واحدة فقط في حدوث سرقة: إذ فقد أحد المسافرين كيساً فيه جزم، لكن هذه الشكوى بقيت بلا عواقب كما يتبين من قرار رؤساء البريد، حيث تم العثور على الكيس عاجلاً وأعيد إلى صاحبه. وجرت العادة هنا حتى عدم التحدث عن حوادث السرقة في الطريق. ولا يسمع شيء عنها. أما المشردون الذين التقيتهم وأثاروا الرعب في قلبي، حينما جئت إلى هنا، فهم يبعثون الخوف في المسافر مثل الأرانب والبط.

وقدمت لي مع الشاي الفطائر الرقيقة المصنوعة من دقيق الحنطة وفطائر محشوة بالقريشة والبيض، والزلابية ومعجنات «كالاشي» الحلوة. علماً أن الفطائر رقيقة ودسمة، أما «الكلاشي» فتشبه من حيث المذاق والشكل

الكعكات الحلقية الصفراء والمسامية التي يبيعها الأوكرانيون في أسواق تاغانروغ وروستوف – على – الدون. والخبز في كل مكان على طول مسار الطريق في سيبيريا لذيذ جداً. ويجري خبزه يومياً وبكميات كبيرة. ودقيق الحنطة رخيص هناك: 30–40 كوبيكاً لكل بود[1].

لكن الخبز وحده لا يشبع الفرد. وإذا ما طلبت عند الظهر شيئاً مطبوخاً فهم يقدمون في كل مكان «حساء البط» لا غير. لكن لا يمكن تناول هذا الحساء فهو: سائل عكر تطفو فيه قطع من لحم وأحشاء البط البري، من دون تنظيف محتوياتها. وفي كل بيت ريفي قفص للطيور. ولا يعرفون في سيبيريا أية قوانين للصيد ويصطادون الطيور طوال العام. وسرعان ما سيقضون على جميع الطيور هنا. والطيور كثيرة لمسافة 1500 فرستا بين تيومين وتومسك، لكنك لن تجد أية بندقية صالحة للاستعمال ومن بين كل مائة صياد تجد صياداً واحداً فقط يجيد إصابة الهدف. وعادة يزحف الصياد نحو البط على بطنه فوق النتوءات والعشب المبلل، ويطلق النار فقط من وراء الأحراش من مسافة 20–30 خطوة في هيئة الجلوس، علماً أن بندقيته التالفة تخطئ إصابة الهدف خمس مرات، وعندما يطلق النار يشعر بصدمة شديدة في كتفه وخده، وإذا ما أفلح في إصابة الهدف، فتنتظره فاجعة صغيرة: فيجب أن ينزع الجزمتين والسراويل ويغوص في الماء البارد. لا توجد هنا كلاب للصيد.

9 مايو

مكتبة
t.me/soramnqraa

1- *البود يعادل* 16. 38 كيلوغراماً – المترجم.

-4-

هبت ريح باردة وشديدة، وبدأ هطول الأمطار، التي طالما انتظرها الناس نهاراً وليلاً. في موضع يبعد 18 فرستا عن أرتيش قال الموجيك فيودور بافلوفتش، الذي قادني إليه الحوذي الحر إنه لا يجوز مواصلة السفر، لأن المراعي على ضفاف نهر أرتيش قد غرقت بسبب الأمطار. وقد جاء كوزما يوم أمس من بوستينسكي، وكاد يغرق الخيول. ويجب الانتظار.

فسألت: كم يجب أن ننتظر؟

– من يعرف. اسأل الرب.

توجهت إلى الكوخ. كان يجلس في حجرة الضيافة هناك شيخ بقميص أحمر، يتنفس بصعوبة ويسعل. أعطيته مسحوق دوفر – فخفّت حدة السعال، لكنه لا يثق بالطب، ويقول إن حالته أصبحت أفضل لأنه «جلس فترة طويلة».

جلست ودار في ذهني: هل أبقى للمبيت؟ لكن هذا الشيخ سيواصل السعال طوال الليل، كما يوجد بقّ، ومن يتكفل بأن المياه لن تمتد بشكل أوسع أكثر غداً؟ كلا، الأفضل أن أسافر!

قلت لصاحب البيت: – لنسافر، يافيودور بافلوفتش. لن أنتظر.

فوافق باقتضاب: كما تحب. وأمل ألا نبيت وسط المياه.

انطلقنا. إن المطر لا يتساقط بل يلطمني بكل قوة. فالعربة مكشوفة. سرنا مسافة ثماني فرستات في طريق موحلة، لكننا انطلقنا مع هذا خبباً.

قال فيودور بافلوفتش: – ياله من طقس! في الحقيقة أنني لم أذهب إلى هناك منذ وقت بعيد، ولم أر الفيضان، لكن كوزما أخافني. ربما، سنمضي، إن أراد الرب.

انداحت أمامنا بحيرة واسعة.. إنها المراعي الغارقة. والرياح تتلاعب

فيها، وتصخب، وترفع الوحل. وترى هنا وهناك جزراً صغيرة ومقاطع من الأرض لم تغمرها المياه. ويتبين لنا اتجاه الطريق من الجسور والطرق المعبدة بجذوع الأشجار. وتمتد بعيداً وراء البحيرة ضفة أرتيش العالية، إنها رمادية غامقة وعابسة، وعلت فوقها سحائب ثقيلة ورمادية: بينما يشوب الضفة بياض الثلج في بعض المناطق.

بدأنا السير في البحيرة. إنها ليست عميقة والعجلات غاطسة في الماء بعمق ربع أرشين[1] فقط. يبدو أنه من الممكن السير، لولا الجسور. إذ وجب بالقرب من كل جسر النزول من العربة والوقوف في الوحل أو في الماء. وبغية عبور الجسر يجب أولاً وضع ألواح وجذوع أشجار ملقاة على الجسر فوق الطرف الأعلى منه. ثم نقود الحصانين الواحد بعد الآخر فوق الجسر، ويقوم فيودور بافلوفتش بفك أعنة الحصانين ويعطيني إياها للإمساك بهما، وأنا أمسك الأعنة الباردة والقذرة، لكن الحصانين يجمحان، ويتراجعان إلى الخلف، وتنتزع الريح مني ملابسي، ويلطم وجهي المطر. هل نرجع؟ لكن فيودور بافلوفتش يلتزم الصمت، إنه في أغلب الظن ينتظر عندما أطلب أنا الرجوع. لكنني صامت أيضاً.

قهرنا أحد الجسور والثاني والثالث.. وفي أحد الأماكن علقنا بالأوحال وكادت العربة تنقلب، وفي مكان آخر حرن الحصانان، بينما كانت البطات وطيور النورس تحوم فوقنا كما لو أنها تسخر منا. وأرى من سحنة فيودور بافلوفتش، ومن حركاته المتمهلة، وصمته، أنه لا يجاهد لأول مرة بهذا الشكل، وأنه شهد ما هو أسوأ، وأنه اعتاد منذ وقت بعيد على الوحل الذي يصعب السير فيه، والمياه، والمطر البارد. إنه يكسب رزقه في الحياة بجهد جهيد!

بلغنا جزيرة صغيرة. ووجدنا كوخاً من دون سقف، ومشى الحصانان فوق الروث المبتل. وخرج من الكوخ لدى صياح فيودور بافلوفتش موجيك ملتح، حاملاً وتداً طويلاً، وراح يشير لنا إلى الطريق. كان يسير أمامنا صامتاً، ويقيس العمق بالوتد ويفحص التربة ثم أشار لنا إلى الطريق. بينما كنا نسير وراءه. وقادنا إلى درب طويل وضيق تطلق عليه تسمية الهضبة (سلسلة

1- الأرشين مقياس طول روسي يعادل 71 سنتيمتراً. المترجم.

الجبال)، ويجب علينا أن نسير في هذه الهضبة، وعندما تنتهي، يجب أن نسير إلى اليسار، ثم إلى اليمين ونمضي نحو هضبة أخرى تمتد إلى نهاية الرحلة.

سادت العتمة، ولم يعد هناك لا بط ولا طيور نورس. لقد علمنا الموجيك الملتحي كيفية السفر، وعاد إلى مسكنه منذ وقت بعيد. انتهت الهضبة الأولى، وخضنا المياه مرة أخرى، وسرنا نحو اليسار ثم نحو اليمين. وأخيراً بلغنا الهضبة الثانية. إنها تمتد حتى طرف الضفة.

إن نهر أرتيش واسع. لو عبره القوزاقي يرماك في أثناء الفيضان لكان قد غرق حتى بلا دروع. والضفة هنا عالية وشديدة الانحدار وخاوية تماماً. وترى وهدة، وفي هذه الوهدة، كما يقول فيودور بافلوفتش، يمضي الطريق نحو الجبل، ونحو قرى بوستينيه، التي يجب أن أصل إليها. علماً أن هذه الضفة قليلة الانحدار، وأعلى من المستوى بمقدار أرشين. إنها عارية وموحلة وزلقة في المظهر، وترتطم بها بعنف أمواج عكرة ذوات تيجان بيض، ثم تتراجع عنها فوراً. كما لو أنها تلامس بتقزز هذه الضفة الخرقاء والموحلة التي يمكن أن تحيا فيها فقط الضفادع وأرواح ذوي الخطايا الكبيرة. إن نهر أرتيش لا يضج ولا يزأر، ويبدو أنه يدق في قاعه على توابيت ما. هذا انطباع ملعون!

اقتربنا من البيت الذي يعيش فيه النوتيون. خرج أحدهم وقال إنه لا يمكن العبور إلى الضفة الأخرى بسبب رداءة الطقس ويجب الانتظار حتى الصباح.

بقيت للمبيت. كنت أسمع طوال الليل كيف يشخر النوتيون والحوذي صاحبي، وكيف يصطفق المطر بالنوافذ وتهرهر الرياح، وكيف يدق أرتيش الغاضب على التوابيت... عند الفجر ذهبت إلى الضفة، كان المطر مستمراً، بينما خفَّت حدة الرياح، ومع ذلك لا يمكن ركوب العبارة. وجرى نقلي في قارب.

تتولى أعمال النقل هنا تعاونية من النوتية – الفلاحين وليس بينهم أي منفي، والجميع من الأهل أبناء المنطقة. إنهم أناس طيبون، ولطفاء. وعندما عبرت النهر، وصعدت إلى التل اللزج، بغية الوصول إلى الطريق حيث كان حصان بانتظاري، تمنوا لي التوفيق ورحلة سعيدة، والصحة الجيدة، والنجاح في أعمالي.. لكن أرتيش غاضب...

12 مايو

-5-

إن هذا الفيضان بمنزلة قصاص! لم يعطونا خيول البريد في كوليفان، وقالوا إن المروج على كلتا ضفتي نهر أوب قد غمرتها مياه الفيضان. ولا يمكن السفر. وتم إيقاف نقل حتى البريد وينتظرون ورود أمر خاص بهذا الصدد.

نصحني الكاتب في المحطة بالسفر في عربات مستأجرة ما إلى بلدة اسمها فيون، لكي أنتقل منها إلى كراسني يار. وسيتم نقلي من كراسني يار في القارب لمسافة 12 فرستا إلى دوبروفينو وهناك ستعطى لي خيول البريد. وهذا ما سأفعله: سأذهب إلى فيون ومنها إلى كراسني يار.. واقتادوني إلى الموجيك أندريه الذي لديه قارب.

قال أندريه، وهو موجيك في الخمسين من العمر، نحيف القوام، وبلحية صهباء: القارب موجود، موجود! القارب موجود. لقد نقل في الصباح محلّف المحكمة إلى دوبروفينو وسيعود عاجلاً. انتظر واشرب الشاي.

شربت الشاي، ثم اعتليت للنوم كومة من حشيات الزغب والوسائد، وعندما استيقظت، سألت عن القارب - لكنه لم يرجع بعد. قامت النساء في حجرة الضيافة بتسخين الموقد وبالمناسبة، فقد انهمكن في صنع الخبز. ولكن القارب لم يرجع.

قال رب البيت، وهو يهز رأسه: - لقد أرسلنا فتى لا يعتمد عليه! إنه أخرق بطيء الحركة مثل امرأة، لا بد أنه فزع من شدة الرياح ولهذا بقي هناك. يالها من رياح عاصفة! ماذا لو شربت ياسيدي قدحاً آخر من الشاي؟ لابد أنك تشعر بالكآبة؟

حمل فتى معتوه بأطمار ممزقة، وحافي القدمين، وأصابه البلل تحت

المطر، الحطب ودلواً من الماء إلى المجاز. وكان يتطلع إليّ في حجرة الضيافة بين الفينة والفينة، ويظهر لي رأسه الأشعث وغير الممشط، ويثأئئ بسرعة بشيء ما مثل العجل، ثم يتراجع. وبدا لي أنني سأبدأ أنا نفسي بالهذيان بعد النظر إلى سحنته المبللة وعينيه الجامدتين بلا وميض وسماع صوته.

جاء إلى رب البيت بعد الظهر موجيك طويل القامة وبدين جداً، ذو قذال عريض كقذال الثور، وبقبضتين ضخمتين، ويشبه ساقياً روسياً مترهلاً في خمارة، اسمه بيوتر بتروفتش. إنه يعيش في القرية المجاورة ولديه مع شقيقه هناك خمسون حصاناً، وينقل الأحرار (غير السجناء والمنفيين) ويوفر لمحطة البريد عربات الترويكا، ويفلح الأرض، ويتاجر بالماشية، والآن يسافر إلى كوليفان للقيام بعمل تجاري.

سألني: – هل أنت من روسيا؟

– من روسيا.

– أنا لم أزرها قط. هنا الناس يسافرون إلى تومسك، وفور ذلك يتفاخر أحدهم بذلك كما لو أنه قام برحلة حول العالم كله. ويكتب في الجرائد أنه ستمد إلينا قريباً السكك الحديدية. قل، ياسيدي، كيف يتم ذلك؟ الماكينة تسير بالبخار – هذا أنا أفهمه جيداً. لكن كيف إذا ما وجب عليها المرور عبر القرية، حينئذ ستدمر البيوت وتسحق البشر!

أوضحت له الأمر بينما أصغى إليّ بانتباه وقال: «ياللعجب!». وعرفت من الأحاديث أن هذا الرجل البدين زار تومسك وإركوتسك وإيربيت، حيث تعلم، حين كان متزوجاً، القراءة والكتابة. إنه ينظر إلى رب البيت الذي زار تومسك فقط بشيء من التسامح والشموخ، ولا يرغب في الإصغاء إليه. وعندما يعرضون عليه أو يقدمون له شيئاً يقول بأدب: «لا تكلف نفسك».

جلس رب البيت والضيف لشرب الشاي. وقدمت امرأة شابة، زوجة ابن صاحب البيت، الشاي على صينية وانحنت لهما، بينما تناولا القدحين وصارا يحتسيان الشاي بصمت. بينما كان السماور ينشنش جانباً عند الموقد. وصعدت مرة أخرى فوق كومة حشيات الزغب والوسائد، ورقدت وانهمكت بالمطالعة، وبعد ذلك نزلت وبدأت بالكتابة. مضت فترة طويلة

جداً، بينما مازالت المرأة تواصل الانحناء، كما يواصل رب البيت والضيف احتساء الشاي.

صاح المعتوه في المجاز: - بيه - با! ومي- ما!

لا يوجد قارب! وخيّم الظلام في الفناء، وأشعلوا في المجاز شمعة من الشحم. أخذ بيوتر بتروفتش يسألني خلال فترة طويلة عن وجهتي وأسباب سفري، وهل ستنشب الحرب، وما هو سعر مسدسي، ثم أصابه السأم من الحديث. جلس وراء الطاولة صامتاً، ومسح خديه بقبضتيه ثم استغرق في التفكير. اشتعلت الفتيلة كلياً في الشمعة. وفتح الباب بلا ضجيج، ودخل المعتوه وجلس على الصندوق، وقد كشف عن ذراعيه حتى الكتفين، وذراعاه نحيفتان ورفيعتان مثل عكازتين. ثم جلس وحدق في الشمعة.

قال رب البيت: - اخرج من هنا، اخرج!

- مي- ما! - تأتأ الصبي وأحنى ظهره وخرج إلى المجاز. - بي- با!

المطر يقرع على النوافذ. جلس رب البيت والضيف لتناول حساء البط. ليس لهما رغبة في الأكل، لكنهما يأكلان فقط من أجل دفع السأم. وبعد ذلك فرشت المرأة على الأرض الحشيات والوسائد، ونزع رب البيت والضيف ملابسهما ورقدا أحدهما إلى جانب الآخر.

ياللسأم! بغية التسلية استعدت في ذاكرتي الأفكار حول أقاليم موطني حيث يسود الآن الربيع ولا يطرق المطر البارد على النوافذ، وتذكرت كما لو كان ذلك عن قصد الحياة الراكدة والخاملة. وتراءى لي أن الفتيلة قد احترقت هناك ويصرخ أحدهم: «مي - ما! بي - با!». لست راغباً في الرجوع إلى الوراء.

فرشت على الأرض معطف الفرو القصير، ورقدت ووضعت شمعة إلى جانب رأسي. رفع بيوتر بتروفتش رأسه وتطلع إلي.

قال هامساً بغية ألا يسمعه صاحب البيت: - أريد أن أوضح لك الآتي - إن الشعب هنا في سيبيريا جاهل، وبلا موهبة. ويجلبون إليه من روسيا معاطف الفرو القصيرة وقماش الشيت والأواني والمسامير، لكنه هو نفسه لا يجيد أي عمل. إنه فقط يفلح الأرض وينقل الأحرار (غير السجناء والمنفيين)، ولا شيء أكثر... إنهم لا يحسنون حتى صيد الأسماك. شعب كئيب ولا سمح الله أن

أكون بمثل هذا السأم. المرء يحيا معهم ويزداد بدانة بلا قياس، بينما لا شيء يرضي الروح والفكر! ياسيدي، إن النظر إليهم شيء يبعث على الشفقة! فالإنسان هنا يستحق التقدير، إنه رقيق القلب، ولا يسرق، ولا يسيء إلى أحد، ولا يسرف في معاقرة الخمر. إنه ذهب، لا إنسان، لكن لدى التطلع إليه تراه لا يساوي قرشاً، وبلا أي نفع، مثل ذبابة أو بعوضة. اسأله: من أجل أي شيء يحيا؟

قلت: - الإنسان يعمل، ويتوفر له الطعام والملبس. فماذا يحتاج أكثر من هذا؟

- مع ذلك يجب عليه أن يفهم لأي غرض يعيش. إنهم في روسيا يدركون ذلك في أغلب الظن!

- لا، إنهم لا يدركون ذلك.

- هذا مستحيل، - قال بيوتر بتروفتش، وبعد هنيهة من التأمل أضاف: - الإنسان ليس حصاناً. وعلى سبيل المثال لا توجد لدينا حقيقة في سيبيريا كلها. وإذا ما كانت قد وُجدت في زمن فإنها ماتت منذ وقت بعيد. ويجب على الإنسان أن يبحث عن هذه الحقيقة. أنا موجيك غني، ولي تأثير على عضو المحكمة، وبوسعي أن ألحق الأذى بصاحب البيت هذا غداً: وسينفق في السجن، وسيمضي أبناؤه للتسول في الطرقات، لا توجد علي أية سلطة، ولا توجد حماية له، ولهذا نحيا بلا حقيقة... ومعنى ذلك يسجل في شهادة الميلاد فقط أننا بشر، باسم بيوتر أو أندريه، أما في واقع الحال - فنحن ذئاب. أو التفكير في الرب مثلاً.. إنها مسألة ليست مزحة، بل رهيبة، أما رب البيت فيرقد ويرسم ثلاث مرات فقط علامة الصليب، كما لو أن هذا كل شيء. إنه يغتني ويخفي النقود، ولابد أنه جمع ثمانمائة روبل، وسيشتري المزيد من الخيل، ولكن هل سأل نفسه، من أجل ماذا؟ فهو لن يأخذها معه إلى العالم الآخر! قد يسأل لكنه لا يفهم: هو ناقص العقل.

تحدث بيوتر بتروفتش طويلاً... وأخيراً انتهى من الكلام، ولاحت تباشير الفجر، وصاحت الديكة.

ثأثأ المعتوه: - بي - با!

بينما لم يصل الزورق بعد!

13 مايو.

-6-

أعطوني الحصانين في دوبروفينو. وسأواصل السفر. لكن لدى بلوغ مسافة 45 فرستا عن تومسك قيل لي إنه لا يجوز مواصلة السفر، لأن نهر توم فاض وأغرق المروج والطرق. يجب عليّ مجدداً ركوب قارب. وتكررت القصة نفسها كما حدث في كراسني يار: عبر الزورق إلى الضفة الأخرى، وفجأة هبت رياح عاتية وتصاعدت الأمواج العالية في النهر، وهذا الرجل لم يستطع الرجوع... سننتظر!

تساقط الثلج في الصباح وغطى الأرض لمسافة فرستا ونصف الفرستا (هذا في 14 مايو)، وفي منتصف النهار هطل المطر وجرف الثلج كله، وفي المساء، في أثناء غروب الشمس، وبينما كنت واقفاً على الضفة رأيت قارباً يصارع الأمواج ومتجهاً نحونا، وتساقط المطر ونتف الثلج... وفي الوقت نفسه حدثت ظاهرة لا تتفق كلياً مع الثلج والبرد: لقد سمعت بوضوح قصف الرعد. رسم الحوذيون علامة الصليب وقالوا إن هذا دليل على حدوث الدفء.

القارب كبير. ووضعوا في البدايه فيه حمولة عشرين بوداً من البريد، ثم متاعي، وغطوا هذا كله بقماش الهباية الليفي المبلل... جلس ساعي البريد، وهو كهل طويل القامة، فوق رزمة، بينما جلست فوق حقيبتي. وجلس بالقرب من قدميّ جندي صغير، يغطي النمش وجهه كله. أما معطفه فيمكن أن يسيل منه الماء إذا عصرته، كما يسيل الماء من قبعته على رقبته.

– باركنا يارب! هيا بنا نقلع!

كنا نعوم مع التيار، بمحاذاة شجيرات الصفصاف الأرجوانية. وروى

الجذافون بأنه غرق، قبل عشر دقائق، حصانان، أما الصبي الذي كان يجلس في العربة فقد نجا بأعجوبة، بالتشبث بغصن شجيرة الصفصاف.

قال قائد الدفة: - جذفوا، جذفوا، ياشباب، وبعد ذلك سنتحدث. اعملوا جهدكم!

هبت على النهر، كما يحدث ذلك قبيل العاصفة الرعدية، رياح عاتية.. ومالت أشجار الصفصاف على الماء وانبعث منها الحفيف، وفجأة غمرت النهر العتمة، واندفعت أمواج متلاطمة...

قال قائد الدفة بهدوء: - ياشباب، استديروا نحو الأحراش، يجب الانتظار!

بدأنا بالاستدارة نحو شجيرات الصفصاف، لكن أحد الجذافين لاحظ أنه إذا تدهورت حالة الطقس فسنبقى طوال الليل وسط شجيرات الصفصاف وسنغرق مع ذلك، ولهذا يجب مواصلة العوم؟ وقدم اقتراحاً بالتصويت وتقررت مواصلة السفر...

أصبح النهر أكثر قتامة، والرياح شديدة والمطر يلطم جوانبنا، بينما ما زالت الضفة بعيدة، وبقيت وراءنا الشجيرات التي كان يمكن التشبث بها في حالة المحنة... لزم ساعي البريد الذي شهد في حياته شتى المحن والخطوب الصمت، ولم يتحرك، بينما بدا وكأن الجذافين جمدوا في مكانهم ولزموا الصمت أيضاً. وشاهدت كيف اصطبغت رقبة الجندي بالحمرة فجأة. وشعرت بضيق في قلبي، وفكرت فقط فيما سيحدث لو انقلب القارب، وعندئذ سأنزع أولاً معطف الفرو القصير، ثم الجاكيت، ثم...

لكن لاحت الضفة أقرب فأقرب، وراح الجذافون يعملون بحيوية أكثر، وزالت كآبة الروح شيئاً فشيئاً، وعندما أصبحنا على مسافة لا تزيد على ثلاثة ساجينات فقط من الضفة شعرت فجأة بالخفة والمرح، وصرت أفكر:

«شيء جيد أن يكون المرء جباناً! عندئذ لا يحتاج إلى الكثير من أجل أن يصبح مرحاً جداً!».

15 مايو

-7-

إنني لا أحب حين أرى المثقف المنفي واقفاً عند النافذة ويتطلع صامتاً إلى سقف البيت المجاور. بم يفكر في هذا الوقت؟ أنا لا أحب حينما يتحدث معي هذا المثقف عن أمور تافهة ويتطلع في وجهي بتعبير كما لو أنه يريد القول: «أنت ستعود إلى بيتك، بينما أنا لن أعود». أنا لا أحب ذلك، لأنني أشعر عندئذ بالشفقة البالغة عليه.

غالباً ما يستخدم التعبير بأن حكم الإعدام لا يصدر الآن إلا في الحالات القصوى لكنه تعبير غير دقيق تماماً. إن جميع تدابير العقوبات القصوى التي يستبدل بها حكم الإعدام، تواصل مع هذا الاحتفاظ بأهم وأكبر سمة له، وبالذات – مدى الحياة، والمؤبد، ولديها جميعاً هدف واحد موروث عن حكم الإعدام مباشرة وهو إبعاد المجرم عن الوسط البشري العادي إلى *الأبد*، أما الإنسان الذي ارتكب جريمة نكراء، فيموت في الواقع بالنسبة إلى المجتمع الذي ولد وشب فيه. كما هو الحال في أزمان سيادة حكم الإعدام. وبموجب تشريعاتنا الروسية، الإنسانية الطابع نسبياً، تصدر جميع العقوبات القصوى، الجنائية والإصلاحية، مدى الحياة. وكانت الأشغال الشاقة تقترن حتماً بالنفي المؤبد. والنفي رهيب بحد ذاته لأنه يستمر مدى الحياة. إن الذي يَصدر الحكمُ عليه بالانضمام إلى فصائل السجناء، من أجل تمضية فترة العقوبة، حينما يرفض المجتمع قبوله في صفوفه، يتم نفيه إلى سيبيريا. ويتسم الحرمان من الحقوق في جميع الحالات تقريباً بطابع مدى الحياة وهلمجرا. ولهذا فإن جميع الإجراءات التأديبية المذكورة آنفا لا تمنح المجرم الهدوء الأبدي في القبر. وهذا بالذات ما يمكن أن يتفق مع شعوري حيال حكم الإعدام، ومن جانب آخر، فإن الحكم المؤبد، وإدراك

أن الأمل في حياة أفضل مستحيل، وأن المواطن المتمثل في شخصي يموت إلى الأبد، وأن أية جهود شخصية لن تبعثه في كياني، تتيح الاعتقاد بأن حكم الإعدام في أوروبا وعندنا لم يلغ، بل تغيرت صورته فقط متحولة إلى شكل أقل نفوراً في مشاعر الإنسان. إن أوروبا اعتادت خلال فترة طويلة جداً على أحكام الإعدام لكي تتخلى عنها من دون وضع عراقيل طويلة ومنهكة أمامها.

لدي قناعة أكيدة بأنه بعد مرور 50–100 عام سينظر إلى عقوباتنا المؤبدة بشعور من الحيرة والارتباك، كما ننظر الآن إلى جدع الأنوف أو قطع أصابع اليد اليسرى. ولدي قناعة راسخة أيضاً بأنه مهما كان صادقاً وواضحاً إدراكنا بأن هذه الظواهر التي عفا عليها الزمن، مثل عقوبة السجن والنفي مدى الحياة، قد أصبحت عتيقة وباطلة، فإننا نقف عاجزين تماماً عن تقديم المساعدة في هذه المصيبة. وبغية استبدال العقوبات مدى الحياة بأخرى رشيدة أكثر وتتجاوب مع العدالة بقدر أكبر، تنقصنا في الوقت الحاضر المعرفة والخبرة، وبالتالي، الجرأة. إن جميع المحاولات في هذا المنحى، غير حاسمة ووحيدة الجانب، ويمكن أن تقودنا فقط إلى ارتكاب أخطاء شنيعة وإلى التطرف – هذا مصير جميع المبادرات التي لا تقوم على المعرفة والخبرة. ومهما بدا الأمر محزناً وغريباً فإننا لا نتمتّع حتى بالحق في اتخاذ قرار يناسب اللحظة الراهنة، وما الذي يصلح لروسيا – السجن أم النفي، لأننا لا نعرف البتة ما هو السجن وما هو النفي. انظروا إلى أدبياتنا حول السجن والنفي: أي إدقاع فيه! ثمة مقالتان أو ثلاث واسمان أو ثلاثة، وبعده لن تجد شيئاً مهماً بحثت، كما لو أنه ليس في روسيا سجون ولا منافٍ ولا أشغال شاقة. وبعد مضي 20–30 عاماً ستكرّر الإنتلجنسيا المفكرة عندنا عبارة تفيد بأن كل مجرم هو نتاج مجتمعه. لكنها لا تهتم البتة بهذا النتاج! إن سبب هذه اللامبالاة حيال السجناء والرازحين في المنافي، غير المفهومة في دولة مسيحية وفي الأدبيات المسيحية، تكمن في فقدان المعرفة للغاية لدى الحقوقي الروسي. فهو قليل المعرفة كما أنه مقيد بالتقاليد المهنية كما لو بذرت فيه بذور نبات القراص. إنه يقدم الامتحانات في الجامعة فقط من أجل كسب المقدرة على الحكم على الإنسان، وإدانته بإصدار الحكم عليه بالسجن أو النفي. وعندما يحصل على الوظيفة ويتلقى الرواتب، فهو

يحاكم ويصدر الأحكام فقط. أما إلى أين سيذهب المجرم بعد المحكمة ولماذا، وما هو السجن أو ما هي سيبيريا، فهو لا يعرف ولا يهتم بذلك، ولا يدخل ذلك في دائرة اهتماماته وصلاحياته: فهذا الأمر من شأن الجنود الذين يرافقون طوابير السجناء والسجانين ذوي الأنوف الحمراء!

طبقاً لأقوال الأهالي السذّج المحليين والموظفين والحوذيين سواء الذين ينقلون الركاب أم الحمولات الذين تسنّى لي التحدث معهم فإن المثقفين المنفيين - من ضباط وموظفين سابقين وكتاب العدل والمحاسبين وممثلي جيل الشباب الذهبي الذين يجري نفيهم إلى هنا لارتكابهم جرائم تزوير الوثائق واختلاس أموال الدولة وممارسة الاحتيال وهلمجرا، فإنهم يعيشون منعزلين وبصورة متواضعة. ويستثنى منهم فقط الأفراد الذين يتسمون بمزاج نوزدريوف (أحد أبطال رواية «الأنفس الميتة» لغوغول - المترجم). وهؤلاء مهما كانت أعمارهم وجميع أحوالهم يبقون على حالهم أنفسهم، لكنهم لا يجلسون في مكان واحد، ويعيشون حياة الترحل كالغجر، وهم كثيرو الحركة إلى درجة يصعب فيها على عيون المراقب تتبعهم. وعلاوة على أمثال نوزدريوف غالباً ما يكون بين المثقفين أفراد «تعساء» يتسمون بالهستيريا الشديدة وانعدام الأخلاق والأنذال علانية، لكن هؤلاء جميعاً يعدون على الأصابع، ويعرفهم كل شخص، ويشار إليهم بالبنان. أما الأغلبية الساحقة فهم، وأكرّر ذلك، يعيشون حياة متواضعة.

في الفترة الأولى حين يصل المثقفون إلى مكان النفي تبدو عليهم سمات الارتباك والذهول. إنهم وديعون ومغلوبون على أمرهم. علماً أن أغلبهم فقراء، وقليلو الحيلة، وتعليمهم سيئ ولا يحسنون عمل أي شيء سوى الاستنساخ، وغالباً ما يكون عملهم بلا قيمة. ويبدأ بعضهم ببيع قمصانهم المصنوعة من القماش الهولندي والشراشف والمناديل، وينتهون بعد 2-3 أعوام بالوفاة في فقر مدقع (توفي في تومسك منذ فترة قريبة المدعو كوزفليوف، الذي مارس دوراً بارزاً في المحاكمة الخاصة بالجمارك في تاغانروغ. وقد دفن جثمانه على حساب أحد المحسنين من المنفيين أيضاً). أما الآخرون فيمارسون شيئاً فشيئاً عملاً ما ثم يقفون على أقدامهم. إنهم يمارسون التجارة والمحاماة ويكتبون في الصحف المحلية

ويعملون كنساخين وهلمجرا. ونادراً ما يتجاوز مكسبهم 30-35 روبلاً في الشهر.

إن حياتهم تتسم بالملل. فالطبيعة السيبيرية تبدو لهم قياساً إلى الروسية ذات نمط واحد وفقيرة وبلا طعم. ويسود الزمهرير في عيد صعود السيد المسيح إلى السماء، بينما يتساقط الثلج في عيد العنصرة. الشقق في المدن حقيرة، والشوارع قذرة، وكل شيء في الحوانيت غالي الثمن، وغير طازج ومبتذل. ولا يجد المرء الكثير مما اعتاد عليه الأوروبي مهما كان الثمن الذي يدفعه. وأفراد الإنتلجنسيا المحلية، المفكرة أو غير المفكرة، يشربون الفودكا منذ الصباح وحتى المساء، علماً بأنهم يشربون بصورة بشعة وبفظاظة وبحماقة. إنهم لا يعرفون الحدود ولا يسكرون. وبعد أول عبارتين سيسألك المثقف المحلي حتماً: «هل نشرب الفودكا؟». ويشرب معه دفعاً للسأم الرجل المنفي، وفي البداية يمتعض، ثم يعتاد على الأمر وفي نهاية المطاف يدمن على السكر طبعاً. إذا ما تحدثنا عن الإدمان على السكر فإن غير المنفيين يفسدون أخلاق السكان، بينما يفسد السكان أخلاق المنفيين. والمرأة هنا تبعث أيضاً على السأم مثل الطبيعة في سيبيريا. إنها بلا تلاوين، وباردة، ولا تجيد اختيار الملبس، ولا تغني، ولا تضحك، وتفتقر إلى الظرف، وكما قال أحد الأهالي القدماء في حديث معي: «إنها خشنة لدى لمسها». وعندما سيولد بمرور الزمن روائيون وشعراء محليون فلن تكون المرأة البطلة في رواياتهم وأشعارهم، كما أنها لن تلهمهم ولن تستثيرهم لاجتراح الأفعال السامية، وإنقاذ أحد ما، و«الذهاب إلى أقصى المعمورة». وليس في المدن أية وسائل تسلية باستثناء الحانات والحمامات العائلية وبيوت الدعارة الكثيرة، العلنية والسرية، التي يرغب الرجل السيبيري جداً في ارتيادها. وفي الأمسيات الخريفية والشتوية الطويلة يجلس المنفي في بيته أو يذهب إلى أحد الساكنين القدامى لشرب الفودكا، وهما يشربان معاً قنينتين ونصف دزينة من الجعة، وبعد ذلك يطرح السؤال المعتاد: «هل سنذهب إلى *هناك*؟» أي إلى بيت الدعارة. السأم والسأم! كيف يسلي الإنسان المنفي روحه؟ هل يطالع كتاباً ما مهملاً مثل «أمراض الإرادة» للكاتب ريبو أو يلبس في

أول يوم ربيعي مشمس سراويل فاتحة اللون - وهذا كل شيء. إن ريبو يبعث على الملل، هل يناسب الأمر مطالعة الكتاب حول أمراض الإرادة، إذا ما كانت الإرادة الإرادة نفسها مفقودة؟ إن المرء يشعر بالبرد لدى ارتداء السراويل الفاتحة اللون، لكنها تمثل مع ذلك نوعاً من التغيير!

16 مايو

-8-

إن الطريق العمومي السيبيري هو ربما من أكبر، وأعتقد من أحقر الطرق في العالم. علماً أنه يحتمل من تومين إلى تومسك بفضل الظروف الطبيعية وليس بفضل الموظفين. هنا منخفض خال من الغابات. في الصباح يهطل المطر، وفي المساء يجف كل شيء. وإذا ما كان الدرب حتى نهاية مايو مغطى بتلال من الجليد الناشئ لدى ذوبان الثلوج، فيمكن السفر في البرية باختيار أي طريق جانبي. ومن تومسك تبدأ غابات التايغا والتلال. لكن التربة لن تجف هنا عاجلاً، ولا حاجة لاختيار الطريق الجانبي، حيث يجب عليك المضي في الطريق العمومي خلافاً لإرادتك. ولهذا يبدأ المسافرون بعد تومسك بإطلاق الشتائم ويبدون التعاون بهمة في الكتابة في سجلات الشكاوى. ويقرأ السادة الموظفون بعناية هذه الشكاوى ويكتبون على كل شكوى: «بلا تعقيب». فلماذا يكتبون؟ إن الموظفين الصينيين قد ابتكروا منذ وقت بعيد الختم.

رافقني من تومسك إلى إركوتسك ضابطان برتبة ملازم ثان وطبيب عسكري. أحدهما ملازم في سلاح المشاة، يعتمر قبعة فرو كثة، والآخر ملازم في شعبة الطوبوغرافيا، وثبتت في زيه كتافيات. وكنا لدى الوصول إلى كل محطة، وسِخين ومبلّلين وناعسين ومعذبين بسبب السفر ببطء والاهتزازات، ننهار على الدواوين ونبدي سخطنا: «أي طريق رديء، وفظيع!». بينما يقول لنا كتاب المحطة والرؤساء فيها: – هذا شيء بسيط، انتظروا حتى الوصول إلى كوزولكا!

كانوا يخيفوننا بكوزولكا في كل محطة، بدءاً بتومسك – كان الكتبة يبتسمون بغموض، بينما يقول القادمون إلى هناك بشماتة: «أنا وصلت الآن

وحان الحين لكي تسافر أنت!». إنهم يبثون الرعب في خيالنا لدرجة أننا نبدأ في الحلم برؤية طيور ذات مناقير طويلة وعيون خضر.

تطلق تسمية كوزولكا على الطريق البالغ طولها 22 فيرستا بين محطتي تشيرنوريتشسكايا وكوزولسكايا (بين مدينتي آتشينسكي وكراسنويارسك). وتتراءى النُذُر هذه الطريق قبل محطتين أو ثلاث محطات من بلوغ المكان المخيف. قال أحد المسافرين القادمين إنه انقلبت عربته أربع مرات، واشتكى آخر من أن عريش عربته انكسر، بينما لزم ثالث الصمت، وكان يجيب عن السؤال هل إن الطريق جيدة حسب رأيه بقوله: «جيدة جداً، ليأخذها الشيطان!». ويتطلع نحوي بشفقة، كما لو كنت ميتاً، لأن لدي عربة خاصة بي.

قال لي وهو يطلق زفرة: – في أغلب الظن أن عربتك ستتحطم وستغوص في الأوحال! الأفضل لك أن تسافر بعد تغيير العربة والأحصنة.

كانت النُذُر تبدو مخيفة أكثر كلما اقتربنا من كوزولكا. وحدث في المساء، في مكان قريب من تشيرنوريتشينسك أن انقلبت فجأة العربة التي يستقلها رفاقي في السفر، وتطاير في الأوحال الملازمان والطبيب، ومعهم جميع الحقائب والرزم والسيوف وصندوق حفظ الكمان. وفي الليل حان دوري. فلدى الوصول إلى قرب محطة تشيرنوريتشينسك أبلغني الحوذي فجأة بأنه التوى الزناد في عربتي (وهو المسمار الملولب الحديدي الذي يربط مقدمة العربة بالجزء المحوري فيها، وحينما يلتوي أو ينكسر تجلس العربة على الأرض). وبدأ إصلاحها في المحطة. وقام خمسة حوذيين، تنبعث منهم رائحة الثوم والبصل، بشكل مقرف ويولد الغثيان، بقلب العربة القذرة على جانبها، ثم بدأوا بإخراج الزناد الملتوي منها بواسطة المطرقة. وقالوا لي أيضاً إنه حدث في العربة أيضاً شرخ في وسادة ما، وتدلى منها اللسان الرابط، فسقطت ثلاث صمولات، لكنني لا أفهم شيئاً من هذا، كما لا أريد أن أفهم... ظلام داج وبرد وسأم، ولدي رغبة في النوم...

هناك في الحجرة في المحطة مصباح ذو نور ضعيف. وتسود في المكان رائحة الكيروسين والثوم والبصل. رقد في أحد الدواوين الملازم ذو قبعة الفرو واستسلم إلى الوسن، بينما جلس فوق الديوان الآخر رجل ما بلحية

وهو يسحب الجزمتين بجهد، فقد تلقى لتوه الأمر بأن يذهب إلى مكان ما لإصلاح التلغراف، بينما لديه رغبة في النوم وليس في الذهاب إلى مكان ما. أما الملازم ذو الكتافيات والطبيب فهما جالسان وراء الطاولة، ووضعا رأسيهما فوق أذرعهما واستغرقا في النوم. تعالى شخير صاحب قبعة الفرو، بينما تردد في الفناء طرق المطرقة.

جرى تبادل الأحاديث. تدور جميع الأحاديث في المحطات في كل مكان من الطريق حول موضوع واحد: نقد المسؤولين المحليين وكيل الشتائم على الطريق. ويلقى أكبر اللوم على دائرة البريد والتلغراف، ولو أنها تدير الطريق السيبيري فقط، لكنها لا تتحكم بالأمور فيه. ويبدو كل ما يقال في المحطات فظيعاً فحسب بالنسبة إلى أحد القادمين المتعبين، الذي بقيت له مسافة ما يربو على ألف فرستا فقط من أجل الوصول إلى أركوتسك. إن جميع الأحاديث حول أن عربة أحد أعضاء الجمعية الجغرافية، الذي سافر مع زوجته، أصيبت بعطب مرتين وفي نهاية المطاف اضطر للمبيت في الغابة، وحول أن سيدة ما أصيبت برضوض في رأسها بسبب ارتجاجات العربة، بينما جلس مساهم ما فترة 16 ساعة في الوحل وأعطى الرجال الموجيك 25 روبلاً من أجل انتشاله ونقله إلى المحطة، وحول أن أحداً لم يصل بعربته إلى المحطة بسلام، – إن جميع هذه الأحاديث يتردد صداها في الروح، مثل صرخة طائر رهيب.

اعتماداً على الأحاديث فإن عربات البريد تتضرر أكثر من غيرها. ولو أخذ رجل طيب ما على عاتقه المهمة الشاقة لمتابعة حركة البريد السيبيري من بيرم إلى إركوتسك، وتسجيل انطباعاته لحصل على رواية تجعل القارئ يذرف الدموع. ولنبدأ من القول إن جميع هذه البالات والشوالات الجلدية، التي تحمل الدين والتنوير والتجارة والنظام والنقود إلى سيبيريا، تضطر بلا أي حاجة إلى الانتظار أياماً كاملة في بيرم فقط، لأن السفن الكسولة تتأخر دوماً إلى موعد وصول القطار. والبريد في حالة صراع تقريباً من تيومين إلى تومسك، حيث تسود في الربيع وحتى يونيو فيضانات الأنهار الرهيبة والأوحال التي لا يمكن الخروج منها، وأذكر أنني في إحدى المحطات وبفضل الفيضان اضطررت للانتظار يوماً كاملاً، وانتظر معي البريد أيضاً.

وتنقل حزم البريد الثقيلة عبر النهر والمروج التي تغمرها المياه في زوارق صغيرة لا تنقلب فقط لأن أمهات سعاة البريد السيبيريين يصلين من أجلها. وفي الطريق من تومسك إلى أركوتسك تتعثر عربات البريد لفترة 10-20 ساعة في الأوحال بمختلف المواضع مثل كوزوليك وتشيرنوريتشينسك، والتي لا تعد ولا تحصى. وفي 27 مايو حدثوني في إحدى المحطات كيف انهار الجسر على نهر كاتشا تحت ثقل البريد وكادت الخيول وحمولة البريد تغرق - هذه واحدة من المغامرات المعتادة التي أصبحت منذ وقت بعيد مألوفة بالنسبة إلى البريد في سيبيريا. وفيما كنت أسافر إلى أركوتسك لم تسبقني خلال ستة أيام عربة بريد واحدة قادمة من موسكو. وهذا يعني أنها تأخرت أكثر من أسبوع، وأنها لقيت شتى الحوادث خلال أسبوع كامل.

إن سعاة البريد في سيبيريا - شهداء. إنهم يحملون على كاهلهم عبئاً (صليباً) ثقيلاً. إنهم أبطال لا يريد الوطن بإصرار الاعتراف بهم. إنهم يعملون كثيراً، ويقارعون الطبيعة أكثر من أي أحد آخر، وأحياناً يكابدون آلاماً لا تطاق، بينما يجري تسريحهم وطردهم من العمل وتفرض عليهم الغرامات أكثر مما يمنحون من الإكراميات والعلاوات. هل تعرفون كم يتقاضون شهرياً، وهل رأيتم مرة واحدة في حياتكم ساعي بريد منح ميدالية؟ ربما أنهم أكثر نفعاً من الذين يكتبون: «يبقى بلا تعقيب»، بينما انظر كم هم خائفون وكئيبون ووديعون في حضورك...

في نهاية المطاف جرى الإعلان أن العربة جاهزة، ويمكن مواصلة السفر.

- انهض! - أيقظ الطبيب الضابط ذا قبعة الفرو - حالما نعبر هذه الكوزولكا اللعينة يكون الوضع أفضل.

وقال الضابط الملتحي مطمئناً: - أيها السادة، الشيطان ليس مخيفاً كما يعتقد.

حقاً أن كوزولكا ليست أسوأ من المحطات الأخرى. وإذا راودكم الخوف فيمكن قطع مسافة الـ 22 فرستا هذه مشياً على الأقدام...

وأضاف الكاتب: - هذا إذا لم تغُص في الوحل...

لاحت في السماء بشائر الفجر. حسناً... لم يغادر الحوذيون الفناء، بينما تراهم يقولون: «يا لهذه الطريق، رحمتك يا رب!». سرنا في البداية في

القرية.. مناطق ذات وحل سائل تغوص فيه العربات، وتتعاقب مع مناطق جافة وأخاديد، وتبرز أضلاع جذوع الأشجار في الطريق المعبدة بها ومن بين الجسور الصغيرة، الغارقة في الروث السائل، مما يجعل الناس تنقبض أوراحهم، بينما تتحطم عرائش العربات...

ها قد انتهت القرية، وسرنا في كوزولكا الرهيبة. إن الطريق هناك فظيعة حقاً، لكنني لم أعتبرها أسوأ مثلاً من الطريق بالقرب من مارينسك أو تشيرنوريتشينسك الآنفة الذكر. تصوروا ممراً عريضاً، ينداح على امتداده سد ترابي بارتفاع أربعة ساجينات، يتألف من الطين والزبالة، - هذه هي الطريق. وإذا تطلعت إلى هذا السد من الجانب فيتراءى لك أنه ينبت من تحت الأرض سد ترابي كبير، كما في العلبة الموسيقية. وعلى كلا جانبيه - أخدودان. ويمتد درب عريض على امتداد السد الترابي، وبعمق نصف أرشين وأكثر، ويتقاطع مع كثير من الطرق، وبهذا يبدو السد الترابي كله مجموعة من السلاسل الجبلية، بينها ما هو شبيه بسلاسل جبال كازبيك وإيلبروس. وقد جفت ذرى هذه الجبال وتدبدب فوقها العجلات، بينما ما زال الماء يطرطش في سفوحها. وبوسع الحاوي الماهر جداً فقط جعل العربة تمضي فوق هذا السد الترابي بحيث تكون منتصبة، وعادة تكون العربة دائماً في وضع لم نعتد عليه، مما يرغمنا في كل لحظة على أن نصرخ في الحوذي: «ياحوذي، ستنقلب عربتنا!». وتغوص العجلات من جهة اليمين في الطين المطروق العميق، بينما تكون العجلات في الجهة اليسرى منتصبة فوق ذرى الجبال، وتغوص عجلتان في الوحل، بينما تكون الثالثة فوق الذروة، أما الرابعة فتتدلى معلقة في الهواء... تتخذ العربة آلاف الأوضاع، وعندئذ يمسك المرء رأسه بيديه تارة، وتارة أخرى يمسك بكلا جنبيه، ويتأرجح في كل الاتجاهات ويعض لسانه، بينما تتمرد حقائبه وصناديقه، وتتراكم بعضها فوق بعض وفوقه هو أيضاً. انظر إلى الحوذي: كيف يتسنى له الجلوس في مقعده مثل لاعب الأكروبات؟

لو نظر إلينا أحد ما من الجانب لقال إننا لا نسافر، بل أصابنا مس من الجنون. إننا نريد السير بعيداً عن السدود الترابية ونسير على طرف الغابة، سعياً إلى إيجاد طريق جانبي، لكننا نلاقي النتوءات والجذوع والجسور

الصغيرة. بعد مسيرة قصيرة توقف الحوذي، واستغرق في التفكير هنيهة، ثم صرخ بوهن وكآبة، وبتعبير من يريد أن يقترف فعلة دنيئة كبيرة فوراً، واندفع بالعربة في الطريق نحو الحفرة مباشرة. صدرت طقطقة: وسمعت كدكدة في العجلات الأمامية، ثم كدكدة في العجلات الخلفية! - كنا نعبر الحفرة. ثم صعدنا الساتر الترابي بكدكدة أيضاً. وتصاعد البخار الكثيف من الحصانين، واقتلعت أعمدة الربط وأحزمة الصدر وانزلقت الأقواس جانباً. - «هيا، ياأماه!» - صرخ الحوذي وهو يلوّح بالسوط بكل قوته، - «هيا ياصاحبي! أكلت القرحة روحك!». وبعد أن جرت الخيول العربة حوالي عشر خطوات توقفت. بعد ذلك لن تواصل السير مهما ضربت الأحصنة بالسوط، ومهما أطلقت عليها الشتائم. وأخذنا ننحدر إلى الأخدود وننزل من الساتر الترابي، ونبحث مجدداً عن طريق جانبي ما، ومن ثم نستغرق في التفكير مجدداً وننعطف نحو الساتر - وهكذا بلا نهاية.

نحن نجد مشقة في السير، مشقة كبيرة جداً، لكنها تزداد أكثر إذا ما فكرنا بأن هذه المنطقة الشنيعة والمتموجة من الأرض، هذا الجدري الأسود، هي العرق الوحيد الذي يربط أوروبا بسيبيريا! ويقال إن المدنية تسيل في هذا العرق في سيبيريا. نعم، يقال ويقال الكثير، ولو أصغى إلينا الحوذيون وسعاة البريد أو هؤلاء الموجيك المبللون والقذرون الذين يخوضون في الأوحال حتى الركبتين بالقرب من عربتهم لنقل البضائع، الذين ينقلون إلى أوروبا الشاي، فماذا يكون رأيهم في أوروبا، وصدقها وسلامة نيتها!

بالمناسبة، انظر إلى عربة نقل البضائع. ثمة أربعون عربة محملة بصناديق الشاي تجرجر حمولاتها بصعوبة فوق الساتر الترابي... وأنصاف العجلات مخفية في آثار المرور في الطريق، وتمد الخيول الهزيلة أعناقها إلى الأمام... بينما يسير الحمالون إلى جانب العربات. إنهم ينتشلون أرجلهم من الأوحال ويساعدون الأحصنة في السير، إنهم فقدوا قواهم منذ وقت بعيد... توقف قسم من العربات. ماذا حدث؟ لقد تحطّمت العجلة في إحدى العربات.. كلا، الأفضل عدم النظر إلى هذا! وبغية الاستهزاء بالحوذيين وسعاة البريد والحمالين والأحصنة أمر أحد ما بأن تكوَّم على جانبي الطريق تلال من الطوب المكسر والأحجار. وهذا بمنزلة تذكير بأن الأمور ستكون أسوأ في

القريب العاجل. ويقال إنه يعيش في المدن والقرى على المسار السيبيري أناس يتلقون الرواتب لقاء إصلاح الطرق. لو صدق ذلك لكان يجب أن تضاف إليهم الرواتب لكي لا يصلحوا الطرق لأن الطرق تصبح بعد إصلاحاتهم أسوأ فاسوأ. وحسب أقوال الفلاحين فإن إصلاح طريق مثل طريق كوزولكا يجري كالتالي: في نهاية يونيو أو بداية يوليو، حين يكون موسم انتشار بعوض الموشكرا في أوجه - لسعاته تمثل طريقة الإعدام المصري المحلية - «يساق» الناس من القرى ويصدر إليهم الأمر بأن يردموا آثار العربات الجافة والحفر بأعواد الحطب ونثر الطوب المكسر والأحجار، التي تتحول بين الأصابع إلى مسحوق، ويستمر الإصلاح حتى نهاية الصيف. وبعد ذلك يتساقط الثلج ويغطي الطريق بالحفر والأخاديد الوحيدة في العالم التي تولد مرض غثيان البحر، وبعد ذلك يأتي الربيع والوحل، ومن ثم يبدأ إصلاح الطريق مجدداً - وهكذا يستمر الحال من عام إلى آخر.

قبيل السفر إلى تومسك تعرفت على وكيل في المحكمة ورافقته حتى بلوغ محطتين أو ثلاث محطات. وأذكر كيف جلسنا في بيت أحد اليهود، وبينما كنا نأكل حساء سمك الأخفس، دخل الشرطي المحلي وأبلغه بأن الطريق فسدت كلياً في مكان ما، وأن المقاول المسؤول عن إصلاح الطريق لا يريد إصلاحها...

أمر الوكيل: - ادعوه إلى هنا!

دخل بعد فترة قصيرة رجل صغير القامة، رث الثياب، بمسحة فيها اعوجاج. نهض الوكيل من مقعده واندفع نحوه...

وصرخ بصوت فيه مناحة: - كيف تتجرأ، أيها الدنيء، على عدم إصلاح الطريق؟ لا يجوز المرور فيها، الأعناق تكسر، وكتب المحافظ، كما كتب مدير الشرطة، وفي النهاية أكون أنا المذنب لدى الجميع، بينما أنت، أيها النذل، لتأكل القرحة روحك، واللعنة عليك، وبوزك اللعين، - أين تنظر؟ ها؟ يالك من حقير! أنا آمرك بإصلاح الطريق غداً. وغداً سأقفل راجعاً، وإذا رأيت أن الطريق لم تصلح، سأجعل بوزك ملطخاً بالدم، وأشوّه وجهك يا قاطع الطريق! انصر- ف!

رمش الرجل الصغير بعينيه، وتصبب العرق منه، وجعل مسحته أكثر

اعوجاجاً ومرق إلى الباب. أما الوكيل فقد عاد إلى الطاولة، وجلس وقال مبتسماً:

– حقاً، بعد نساء بطرسبورغ وموسكو لا تعجبك النساء هنا، لكن إذا بحثت جيداً فيمكن أن تجد فتاة هنا...

يهمني أن أعرف ماذا يستطيع الرجل الصغير أن ينجز من العمل حتى يوم غد؟ وماذا يمكن عمله في فترة قصيرة كهذه؟ كما لا أعرف هل هو حسن الحظ أو سوء الحظ بالنسبة إلى المسار السيبيري فالوكلاء لا يبقون في مناصبهم فترة طويلة، ويجري تغييرهم باستمرار. ويقال إن وكيلاً معيناً مجدداً جاء إلى قطاعه وجمع الفلاحين وأمرهم بحفر خنادق على جانبي الطريق، أما خليفته الذي لم يرغب في أن يتخلف عن سلفه في الابتكار فقد جمع الفلاحين وأمرهم بردم الخنادق. أما الثالث فأمر أن تعبد الطرق في قطاعه بطبقة من الطين بسمك نصف أرشين[1]. أما الرابع والخامس والسادس والسابع – فقد سعى كل واحد منهم أن يدلو بدلوه في ملء المنحل بالعسل...

لكن الطريق تبقى طوال العام كله عسيرة على المرور: في الربيع – الأوحال في الصيف – الأخاديد والحفر والإصلاح، وفي الشتاء – الكثبان. أما الانطلاق بسرعة الذي استحوذ على الروح لدى ف. ف. فيجل وفي وقت لاحق لدى إ. أ. غونتشاروف، فهو غير ممكن الآن إلا في الشتاء في الفترة التي تكون الطرق فيها سالكة بواسطة السفر في المزلجة. حقاً أن الكتاب المعاصرين يبدون إعجابهم بالانطلاق بسرعة في سيبيريا، ذلك أنه من غير المناسب عند المجيء إلى سيبيريا عدم اختبار متعة الركوب السريع، ولو في الخيال فقط...

من الصعب أن تراودنا الآمال في أن تكف كوزولكا عن تحطيم محاور وعرائش وعجلات العربات. والموظفون في سيبيريا لم يشاهدوا في حياتهم كلها طرقاً أفضل. إنها تعجبهم، كما أن سجلات الشكاوى والمراسلات والانتقادات التي يوجهها المسافرون في سيبيريا ذات منفعة قليلة شأنها شأن الأموال التي تعتمد من أجل إصلاحها.

1- الأرشين – مقياس طول روسي قديم يساوي 71 سنتيمتراً (المترجم).

-9-

إذا ما كان المنظر الطبيعي يثير اهتمامك بالدرجة الأولى فإنك ستشعر بالسأم لدى السفر من روسيا إلى سيبيريا، من الأورال وإلى حد بلوغ نهر ينيسي. إن المنخفضات الباردة وأشجار البتولا المائلة والبرك والمستنقعات، وفي بعض الأماكن البحيرات، والثلوج في مايو والضفاف المقفرة والكئيبة لروافد نهر أوب - فهذا كله ما يتسنى الاحتفاظ به في الذاكرة من السفر في الألفين الأوّلين من الفرستات. أما الطبيعة التي يتغنى بها أبناء الأقليات القومية، ويحترمها الهاربون عندنا، والتي ستتحول بمرور الزمن إلى مناجم ذهب لا تنضب بالنسبة إلى شعراء سيبيريا، الطبيعة الأصيلة والجبارة والرائعة فتبدأ من نهر ينيسي فقط.

ربما أنني لن أسيء إلى عشاق الفولجا الغيارى إذا قلت إنني لم أر في حياتي نهراً أكثر روعة من ينيسي. هب أن الفولجا أنيق ومتواضع وحزين وجميل، لكن ينيسي عظيم وجبار لا يشق له غبار، ولا يعرف لمن يهب قوته وفتوته. وفي الفولجا بدأ الإنسان بجسارة ثم انتهى بإصدار الأنين، الذي يتردد صداه في أغنية، وتحولت الآمال المتألقة والذهبية لديه إلى عجز، جرت العادة أن تطلق عليه تسمية التشاؤم الروسي. أما في ينيسي فالحياة بدأت بالأنين وتنتهي بالجرأة التي لا نراها حتى في أحلامنا. هذا ما اعتقدته على أقل تقدير حين وقفت على ضفة ينيسي العريض وتطلعت بنهم إلى مياهه التي تجري بسرعة فائقة وبعنف إلى المحيط المتجمد. ثمة ازدحام على ضفاف ينيسي. وتسابق الأمواج غير العالية إحداها الأخرى، وتتزاحم وتشكل دوائر مغلقة، ويبدو غريباً أن هذا المارد لم يكتسح بعد الضفاف ولم يحفر القاع. تقوم على هذه الضفة كراسنويارسك، أفضل وأجمل المدن

السيبيرية، وتذكرني الجبال هنا بالقوقاز، فهي ضبابية وحالمة. وقفت ودار في خلدي: أية حياة كاملة وذكية وجريئة ستسود في هذه الضفاف بمرور الزمن! أنا حسدت سيبيرياكوف الذي ركب السفينة من بطرسبورغ إلى المحيط المتجمد بغية الوصول من هناك إلى مصب ينيسي، وتمنيت أن تفتتح الجامعة ليس في تومسك بل هنا في كراسنويارسك. راودتني أفكار كثيرة مختلفة، لكنها اضطربت وتزاحمت كالمياه في ينيسي، وغمرني شعور طيب...

سرعان ما تبدأ غابات التايغا الكثيفة الشهيرة بعد ينيسي فوراً. وقد تحدّث وكتب الكثير عنها، ولهذا ينتظر المرء منها ما يمكن أن تعطيه. في البداية يشعر المرء بشيء من خيبة الأمل. إذ تنتصب طوال الطريق من الجانبين أشجار عادية من الصنوبر واللارقس والشوح والبتولا. ولا توجد أشجار يبلغ عرض جذوعها خمس أذرع، ولا الذرى التي تجعل الرأس يدوخ لدى النظر إليها، والأشجار هناك ليست أكبر من تلك الموجودة في منتزه سوكولنيكي بموسكو. وقيل لي إن غابات التايغا يسودها السكون، والنباتات فيها بلا رائحة. كنت أنتظر ذلك، لكن حين مررت بالتايغا كنت طوال الوقت أسمع زقزقة الطيور ودندنة الحشرات، أما الأشجار الصنوبرية التي تغمرها الشمس فتنبعث منها رائحة القطران الشديدة، بينما غطيت فسحات الغابة على جانب الطريق بزهور زرقاء فاتحة ووردية وصفراء، تلاطف ليس البصر وحده. يبدو أن الذين كتبوا عن التايغا لم يروها في الربيع، بل في الصيف، حين تكون الغابات ساكنة في روسيا أيضاً، ولا تنبعث منها أية روائح.

إن قوة وسحر غابات التايغا ليست في الأشجار العملاقة والسكون المطبق، بل في أنه ربما تعرف الطيور المهاجرة فقط أين تنتهي. ففي الأيام الأولى لمشاهدتها لا يعيرها المرء أي اهتمام، بينما يدهش في اليوم الثاني والثالث، وفي اليومين الرابع والخامس يكابد المرء مزاجاً كما لو أنه لم يغادر قط هذه المعجزة الخضراء. وعندما يعتلي أكمة عالية، تغطيها الأشجار، ينظر إلى الأمام نحو الشرق، باتجاه الطريق، يرى تحته الغابة، وفي مكان أبعد يرى تلاً، أشعث بما فيه من أشجار، وخلفه تل آخر، أشعث بالصورة ذاتها، ووراءه تل ثالث وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية... وغداة غد تنظر من الأكمة

إلى الأمام – فتبدو أمامك الصورة ذاتها... إنك تعرف أنه سيكون أمامك أنغارا وإركوتسك، وأن وراء الغابات التي تمتد على جانبي الطريق نحو الشمال والجنوب، على امتداد عدة مئات من الفرستات، أراضي لا يعرفها حتى الحوذيون والفلاحون الذين ولدوا في التايغا. إن خيالهم أكثر جرأة من خيالنا، لكنهم لا يقدمون على القول اعتباطاً ما هي أبعاد التايغا ويجيبون عن سؤالك: «لا نهاية لها!». إنهم يعرفون فقط أنه يأتي في الشتاء من الشمال البعيد فوق الأيائل أناس ما من أجل شراء الحبوب، أما مَن هؤلاء الناس ومِن أين هم، فلا يعرف ذلك حتى الشيوخ الذين بلغوا من العمر أرذله.

يسير على هون رجل هارب بالقرب من أشجار الصنوبر ويحمل غلاية على ظهره. وتبدو أفعاله الشائنة وآلامه، وهو نفسه، ضئيلة وتافهة بالمقارنة مع التايغا الجبارة! إنه يضيع هنا في التايغا، ولن يكون في هذا الضياع أية حكمة أو شناعة مثل هلاك بعوضة. وما دام لا توجد كثافة من السكان فإن التايغا قوية ولا تقهر، أما عبارة «الإنسان ملك الطبيعة» فإنها لا تبدو عبارة ضعيفة وزائفة بذلك القدر، كما هو الحال هنا. وإذا ما تواطأ، على سبيل الفرضية، جميع الناس القاطنين على المسار السيبيري من أجل القضاء على التايغا واستخدموا لهذا الغرض الطبر والنار، فستتكرر عندئذ حكاية طائر الزمير الذي أراد أن يحرق البحر. ويحدث أحياناً أن تلتهم الحرائق مساحة خمس فرستات من الغابات، لكن هذه الحرائق لا تلاحظ بين إجمالي الغابات، وبعد مرور عشرة أعوام تنبت في مكان الحريق غابات أكثر كثافة وقتامة من السابقة. وقام أحد العلماء حين كان في الضفة الشرقية بإضرام النار بالصدفة في الغابة. وفي لحظة خاطفة التهمت النيران جميع المنطقة الخضراء المرئية. وقد ذهل العالِم من الصورة غير العادية الماثلة أمامه فاعتبر نفسه أنه «سبب الكارثة الرهيبة». وماذا تعني بالنسبة إلى التايغا مساحة عشر فرستات؟ وفي أغلب الظن ستنبت الآن في مكان الحريق السابق غابة كثيفة، تجوبها الدببة بطمأنينة، وتحلق فيها طيور الدج الصغير، بينما تركت أفعال ذلك العالِم آثاراً في الطبيعة أكبر من الخطب الرهيب الذي أثار مخاوفه. إن المعيار البشري العادي لا ينفع في التايغا.

وما أكثر الأسرار التي تخفيها غابات التايغا في أعماقها! يتسلل بين

الأشجار طريق أو ممر ثم يضيع في ظلام التايغا. إلى أين يؤدي؟ هل إلى مصنع نبيذ سري، أم إلى قرية ما، لم يسمع أحد بها لا رئيس الشرطة ولا الوكيل، أو ربما يؤدي إلى مناجم الذهب التي اكتشفتها زمرة من المتشردين؟ وأية حرية طائشة ومغرية تنبعث من هذا الممر الغامض!

يروي الحوذيون أنه تعيش في التايغا الدببة والذئاب والأيائل والسمورات والعنز البري. ويقضي الرجال الموجيك الذين يعيشون في هذا المسار، حين لا يكون لديهم عمل في البيت، عدة أسابيع في التايغا ويصطادون الوحوش هنا. وفن الصيد هنا بسيط للغاية: إذا ما أطلقت البندقية النار فالحمد لله، أما إذا لم تطلق النار، فلا تسأل الرحمة من الدب. وشكا لي أحد الصيادين أن بندقيته تكبو خمس مرات متتالية ولا تطلق النار إلا بعد المرة السادسة. وثمة مجازفة كبيرة في الذهاب بمثل هذا «السلاح الثمين» إلى الصيد بلا سكين أو عصا بهيئة شوكة مدببة. والبنادق المباعة هنا سيئة وغالية الثمن، ولهذا غالباً ما تصادف في المسار السيبيري حدادين يصنعون السلاح. وعموماً ولدى الحديث عن الحدادين فهم أصحاب مواهب، ويلاحظ ذلك على الأخص في التايغا حيث يبرزون بين أصحاب المواهب الآخرين الكثيرين. وقد دعتني الحاجة للتعرف على حداد وصفه لي الحوذي كالآتي: «أو-و، هذا أستاذ كبير في مهنته! إنه حتى يصنع الأسلحة». وذكرتني لهجة الحوذي وتعبير وجهه بأحاديثنا حول مشاهير الرسامين. وكانت عربتي «التارانتاس» قد أصيبت بعطب، ووجب إصلاحها، وجاء إليّ بتوصية من الحوذي رجل نحيف وشاحب الوجه بحركات تنم عن العصبية، وحسب جميع العلامات فهو موهوب وسكير كبير. وكما يفعل الطبيب الممارس الجيد الذي يشعر بالسأم لدى علاج شخص ما من مرض لا يحظى باهتمامه، ألقى نظرة خاطفة وعلى مضض على عربتي وحدّد التشخيص بإيجاز ووضوح، ثم فكر قليلاً، ولم يقل لي أي شيء، بل سار في الطريق بكسل، ثم التفت وقال للحوذي:

– حسنا؟ انقل «التارانتاس» إلى ورشة الحدادة.

لقد ساعده في إصلاح «التارانتاس» أربعة نجارين. كان يعمل بلا اكتراث وبلا رغبة، وبدا كما لو أن الحديد اتخذ مختلف الأشكال بلا إرادته. وكان غالباً ما يدخن، وينبش بلا أية حاجة كومة القمامة الحديدية، ثم ينظر إلى

الأعلى نحو السماء، حينما كنت أطلب منه العجلة، - هذا ما يفعله الفنانون بتراخٍ حينما يطلب منهم أداء أغنية أو تلاوة مقطع مسرحي ما ونادراً كان يعمدُ إلى رفع المطرقة عالياً، كما لو أنه يريد التغنج أو يرغب في إثارة دهشتي أو دهشة النجارين، فينطلق الشرر في كل الاتجاهات ويحل بضربة واحدة مسألة معقدة جداً تتطلب الفطنة. واكتست اللوحة الحديدية الخفيفة الشكل المطلوب بالضربة الخرقاء والثقيلة التي بدا أن كل شيء سيتطاير بسببها من السندان وتهتز الأرض، حتى إن القملة ما كانت لتحتج على ذلك. وقد استلم مني مقابل العمل خمسة روبلات ونصف الروبل، فأخذ الخمسة لنفسه، وأعطى النصف إلى النجارين الأربعة. فشكره هؤلاء ودفعوا العربة إلى المحطة، وفي أغلب الظن، أنهم حسدوا صاحب الموهبة الذي يعرف قيمته حتى في التايغا، ويسلك سلوك المستبد كما هو الحال عندنا في المدن الكبيرة.

20 يونيو

جزيرة ساخالين

(ملاحظات في الطريق)

-1-

مدينة نيقولايفسك - على ضفاف آمور - الباخرة «بايكال» - رأس برونغه والمدخل إلى ليمان. - شبه جزيرة ساخالين - لابيروز. براوتون - كروزينشتيرن ونيفيلسكوي. - الباحثون اليابانيون. - رأس جاوره - الساحل التتاري. - دي كاستري.

في 5 يوليو عام 1890 وصلت في الباخرة إلى مدينة نيقولايفسك إحدى مدننا الواقعة في أقصى الشرق. ونهر آمور هنا عريض جداً، وبقيت مسافة 27 فرستا لكي نصل إلى البحر. المكان مهيب وجميل، لكن الذكريات حول ماضي هذا الإقليم، وأحاديث رفاق الطريق حول الشتاء القاسي، وحول الطباع والعادات المحلية التي لا تقل قسوة، والقرب من أماكن احتجاز المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ومظهر المدينة المهمل نفسه، والآيلة إلى الانقراض، يقضي كلياً على الرغبة في التمتع بمشاهدة المناظر الطبيعية.

تأسست نيقولايفسك منذ فترة قريبة جداً، في عام 1850 من قبل جينادي نيفيلسكي الذائع الصيت، وهذا يعتبر الحدث الوضّاء الوحيد في تاريخ المدينة. وفي أعوام الخمسينيات والستينيات حين غرست المدينة قسراً على ضفاف آمور، من دون إبداء الرحمة بالجنود والمعتقلين والمهاجرين، كان يأتي إلى نيقولايفسك الموظفون الذين أداروا الإقليم، وجاء إليها أيضاً مختلف أصناف المغامرين الروس والأجانب، وأقام المستوطنون، الذين أغرتهم الوفرة غير العادية للأسماك والحيوانات، ويبدو أن المدينة لم تخلُ من الاهتمامات البشرية، وحتى حدث أن أحد العلماء القادمين إليها وجد أنه من الواجب والممكن أن يلقي في النادي هنا محاضرة عامة. أما الآن فقد ترك نصفَ البيوت

تقريباً أصحابها، وهي شبه مهدمة وتتطلع إليك النوافذ المعتمة بلا إطارات، وكأنها ثقوب العيون في الجماجم. ويحيا الدهماء حياتهم في النوم والسكر، وعموماً يعيش السكان شبه جياع، ويقتاتون بما يمنحهم الرب لهم. ويكتفون بتصدير الأسماك إلى ساخالين، وبسرقة الذهب، وباستغلال أبناء الشعوب الصغيرة المحلية، وبيع البونتات، أي قرون الأيائل، التي يصنع منها الصينيون أقراصاً مثيرة جنسيا. وقد تسنى لي في الطريق من خاباروفسك إلى نيقولايفسك أن التقي عدداً غير قليل من المهربين. علماً أنهم لا يخفون هنا حرفتهم. وأراني أحدهم المسحوق الذهبي واثنين من القرون وقال بفخر: «لقد كان والدي مهرباً أيضاً!». ويتمثل استغلال أبناء الشعوب الصغيرة الأخرى، علاوة على جعلهم يدمنون على السكر الاعتيادي، واستغفالهم وهلمجرا، في شكل مبتكر أحياناً. فقد كان التاجر إيفانوف في نيقولايفسك، المتوفى حالياً، يسافر في كل صيف إلى ساخالين ويأخذ من أبناء قومية الجيلياك هناك الدية، ومن يتأخر في الدفع مصيره معاناة التعذيب والشنق.

ليس في المدينة فنادق. وسمح لي بأخذ قسط من الراحة في الجمعية العمومية بعد الغداء في قاعة ذات سقف واطئ - يقال إنه تقام هناك حفلات رقص بالو في الشتاء. وعندما سألت أين أستطيع المبيت هزوا اكتافهم بحيرة فقط. ليس في اليد حيلة، واضطررت للمبيت ليلتين في الباخرة، وعندما عدت إلى خاباروفسك، بقيت كالسرطان فوق الرمل: إلى من أتوجه؟ متاعي على رصيف الميناء، وأنا أتجول فوق الضفة، ولا أعرف ماذا سأفعل بنفسي. علماً أنه كانت ترسو مقابل المدينة، على مسافة فرستا أو ثلاث فرستات الباخرة «بايكال» التي سأستقلها للسفر إلى المضيق التتاري. لكن يقال إنها ستقلع بعد أربعة أو خمسة أيام وليس قبل ذلك، مع أن راية الرحيل قد رفعت فوق صاريتها. هل أذهب إلى «بايكال»؟ لكن هذا أمر غير لائق، ولن يسمح لي بالصعود إليها، وسيقال لي إنني جئت مبكراً. هبت الرياح، وعبس آمور واضطرب كالبحر. وغلبتني الكآبة. ذهبت إلى الجمعية، وقضيت فترة طويلة لدى تناول الغداء وسمعت من الطاولة المجاورة الأحاديث حول الذهب والبونتات وفنان الألعاب السحرية الذي وصل إلى نيقولايفسك، وحول ياباني ما، يقلع الأسنان بلا ملقط، بل بأصابعه فحسب. وإذا ما أصغى المرء بإمعان ولفترة طويلة، لدار في دخيلة نفسه، ياربي، كم أن

الحياة هنا بعيدة عن روسيا! وبدءاً بالسمك المقدد الذي يتناولونه هنا بصفة مازة للفودكا، وانتهاء بالأحاديث، يتحسس المرء في دخيلته شيئاً ما غير روسي في كل شيء. بينما كنت أسافر في الباخرة في نهر آمور غمرني شعور بأنني لست في روسيا، بل في مكان ما في باتاجونيا أو تكساس، علاوة على الحديث عن الطبيعة الأصيلة غير الروسية، وبدا لي طوال الوقت أن نمط حياتنا الروسية غريب تماماً عن نمط حياة أهالي مناطق آمور الأصليين، وأن بوشكين وغوغول لا يفهمان هنا، ولهذا لا حاجة إليهما، وأن تاريخنا ممل، ونحن أنفسنا القادمين من روسيا أجانب. ولم ألاحظ هنا أي اهتمام بالأمور الدينية والسياسية. ورجال الكنيسة الذين رأيتهم في آمور يتناولون النزر القليل من الطعام في أثناء الصيام، وحدثوني عن أحدهم، الذي يرتدي قفطاناً حريرياً أبيض. أنه يقوم بسرقة الذهب ويتبارى في هذا مع رعيته الروحيين. وإذا أردت أن تولد السأم والتثاؤب لدى أحد أبناء مناطق آمور فحدثه عن السياسة وعن الحكومة الروسية وعن الفن الروسي. والأخلاقيات هنا متميزة بصورة خاصة وتختلف عن أخلاقياتنا. وتصبح معاملة المرأة هنا بروح الفروسية بمنزلة طقس من طقوس العبادة تقريباً وفي الوقت نفسه لا يعتبر عيباً التنازل عن زوجتك إلى رفيقك مقابل دفع مبلغ من المال، أو وهو الأفضل: من جانب غياب الاعتقادات البالية الطبقية - فالمرء هنا يقف على قدم المساواة مع المنفي، ومن جانب آخر لا يعتبر خطيئة إطلاق النار في الغابة على صيني متشرد، مثل الكلب، وحتى اقتناص أحد الغورباتشيين سراً.

دعني أواصل الحديث عن نفسي. عندما لم أجد مكاناً للمبيت قررت في المساء التوجه إلى الباخرة «بايكال». لكن واجهتني هناك مصيبة أخرى: فقد اشتدت الأمواج في النهر، ولم يوافق أصحاب الزورق الجيلياكيون على العبور مهما دفعت لهم من نقود. ورحت مجدداً أذرع الضفة جيئة وذهاباً، ولا أعرف ماذا سأفعل. علماً أن الشمس مالت إلى المغيب وأصبحت الأمواج في آمور قاتمة. وصارت الكلاب الجيلياكية تنبح نباحاً شديداً في هذه الضفة وتلك. لماذا جئت إلى هنا؟ - وجهت هذا السؤال إلى نفسي، وبدت لي رحلتي خطوة طائشة للغاية. وأثارت قلقي بصورة مزعجة فكرة أن مناطق النفي باتت قريبة، وأنني بعد بضعة أيام سأنزل على تربة ساخالين، من دون أن تكون لدي أية رسالة توصية، ويمكن أن يطلب مني العودة من حيث أتيت. وفي نهاية المطاف وافق اثنان من

الجيلياك على نقلي مقابل روبل في زورق، صنع من ثلاثة ألواح، ووصلت إلى «بايكال» بسلام.

علماً أن هذه الباخرة من طراز السفن البحرية المتوسطة الحجم، وبدت لي مقبولة تماماً بعد ركوب البواخر في بحيرة بايكال ونهر آمور. وتقوم هذه الباخرة عادة برحلات بين نيقولايفسك وفلاديفستوك والموانئ اليابانية، وتنقل البريد والجنود والسجناء والمسافرين والحمولات، وبصورة رئيسية الحمولات الحكومية. وبموجب العقد الموقع مع الخزانة التي تدفع لها مبلغاً طائلاً، فإنها يجب أن تقوم عدة مرات في السنة برحلات إلى ساخالين: إلى مخفر ألكسندروفسك وإلى مخفر كورساكوفسك الجنوبي. والتعريفة عالية جداً، وأعتقد أنه لا مثيل لها في العالم. ولا يفهم البتة اقتران الاستيطان الذي يتطلب قبل كل شيء توفر الحرية وسهولة التنقل، بالتعريفات العالية. إن الصالة والحجرات في «بايكال» ضيقة، لكنها نظيفة ومؤثثة على الطراز الأوروبي تماماً، وهناك بيانو. والخدم فيها من الصينيين ذوي الظفائر الطويلة، وتطلق عليهم التسمية الإنجليزية – بوي. والطباخ صيني أيضاً، لكن أطباق الطعام روسية ولو أنها جميعاً حارة المذاق بسبب الكاري وتنبعث منها روائح تشبه رائحة أزهار الكوريلوبسيس.

لقد طالعت الكثير عن العواصف والكتل الجليدية في المضيق التتاري – وتوقعت أن ألتقي على متن «بايكال» صيادي الحيتان ذوي الأصوات المبحوحة، ويتناثر من أفواههم لدى الحديث علك التبغ، بينما وجدت في الواقع رجالاً مهذبين تماماً. وقبطان الباخرة السيد «ل» من أبناء الإقليم الغربي، ويبحر في البحار الشمالية منذ أكثر من 30 عاماً، وجابها طولاً وعرضاً. ورأى في حياته الكثير من العجائب، ويعرف أشياء كثيرة وحديثه ممتع. وبما أنه طاف نصف حياته حول كامتشاتكا وجزر كوريل، لذا يتمتع بالحق أكثر من عطيل (بطل مسرحية شكسبير– المترجم) في إمكانية الحديث عن «الصحارى المقفرة، واللجج الرهيبة، والصخور المنيعة». وأنا مدين له بكثير من المعلومات الصالحة لي في هذه الكتابات. ولديه ثلاثة مساعدين هم: السيد «ب» ابن أخي عالم الفلك الشهير «ب»، واثنان سويديان – إيفان مارتينتش وإيفان فينيامينتش، وهما رجلان طيبان وبشوشان.

في 8 يوليو، وقبيل الغداء، أقلعت «بايكال» من الميناء. وكان يرافقنا ثلاثمائة جندي بقيادة ضابط وعدة سجناء. ورافقت أحد السجناء صبية في الخامسة من العمر، هي ابنته التي تشبثت بقيوده لدى صعود السلالم. كما وجدت سجينة حكم عليها بالأشغال الشاقة جلبت إليها الانتباه رافقها زوجها طوعاً إلى الأشغال الشاقة[1]. ووجد بالإضافة لي والضابط عدة مسافرين من الدرجة الأولى من الجنسين، بينهم حتى بارونة. دع القارئ لا يدهش من وجود عدد كبير من الإنتلجنسيا هنا في المكان المقفر. وفي آمور ومقاطعة بريموريه تشكل الإنتلجنسيا نسبة كبيرة بينما عدد السكان قليل عموماً. وعدد أفرادها هنا أكثر مما في أية محافظة روسية. وعلى ضفاف آمور مدينة يقطن فيها 16 من الجنرالات والعسكريين والموظفين. وربما أن عددهم الآن أصبح أكبر مكتبة سُر مَن قرأ

كان النهار هادئاً وصاحياً. والجو حار على متن الباخرة، وخانق في القمرات. ودرجة حرارة الماء +18 درجة مئوية. إن هذا الجو يشبه الجو في البحر الأسود. ولوحظ اندلاع حريق في الضفة اليمنى. وكانت تندلع من كتلة الغابة الخضراء ألسنة اللهب القانية، وتتصاعد أعمدة الدخان في كتلة طويلة سوداء بلا حركة عالقة فوق الغابة... إن الحريق هائل، لكن يسود المكان الهدوء والسكون. ولا يهتم أحد بهلاك الغابة. ويبدو أن الثروة الخضراء هنا تعود ملكيتها إلى الرب فقط.

وصلنا بعد الغداء، وفي حوالي الساعة السادسة، إلى رأس برونغه. هنا تنتهي آسيا، ويمكن القول إن آمور يصب هنا في المحيط العظيم، لو لم تعترض طريقه جزيرة ساخالين. وينداح أمام بصرنا ليمان واسع، وترى من بعد سواحل ضبابية - إنها جزيرة المحكومين بالأشغال الشاقة. أما من جهة اليسار فيختفي في العتمة ساحل يمتد إلى الشمال المجهول ضائعاً وسط تعرجاته. يبدو أن نهاية العالم تقع هنا، وما من مكان بعدها يمكن الإبحار إليه. وغمر روحي شعور يبدو أنه كشعور

1- يرابط السجناء على متن السفن في آمور ومنها «بايكال» مع ركاب الدرجة الثالثة. لكنني عندما خرجت للنزهة في الفجر رأيت أن الجنود والنساء والأطفال والصينيين والمعتقلين بالقيود كانوا غارقين في النوم، وقد استند أحدهم إلى الآخر، وغطتهم قطرات الطل، وكان الجو بارداً. أما الحارس فقد وقف وسط هذا الحشد من الأجساد ماسكاً بندقيته بكلتا يديه، وكان نائماً أيضاً.

أوديسيوس (بطل ملحمة هوميروس الشهيرة - المترجم) حين عبر بحراً مجهولاً وشعر بغموض بلقاء كائنات غريبة غير عادية. وفعلاً رأيت من جهة اليمين، لدى الانعطاف نحو الليمان مباشرة، حيث ترقد قرية جيلياتية صغيرة، كائنات غريبة تنطلق نحونا في قاربين، وهي تصيح بلغة غير مفهومة وتلوّح بأيديها. ويصعب القول ماذا كان في أيديها، لكنها حين اقتربت منا لاحظت طيوراً رمادية.

أوضح أحدهم قائلاً: - إنهم يريدون أن يبيعوا الطرائد من الأوز لنا.

استدرنا نحو اليمين. كانت إشارات تحديد المسار على امتداد طريقنا. لم يغادر القبطان برج القيادة، كما لم يخرج الميكانيكيون من حجرتهم. وبدأت «بايكال» بالسير بصورة أبطأ فأبطأ كما لو أنها تتلمس الطريق. لقد وجب التزام الحذر البالغ إذ يمكن أن تجنح السفينة هنا. كانت السفينة تبحر بعمق 12 ونصف قدم وفي بعض الأماكن بعمق 14 قدماً، وحتى تم في بعض الأماكن تحسس انزلاق القارينة الطولانية للسفينة فوق الرمل. إن هذا المجرى الملاحي الضحل مع الصورة المميزة له يعطي سواحل المضيق التتاري وساخالين الخصوصية التي جعلت أوروبا تعتقد خلال فترة طويلة أن ساخالين عبارة عن شبه جزيرة. ففي عام 1787، في يونيو، نزل الرحالة الفرنسي الشهير الكونت لا بيروز على ساحل ساخالين الغربي، فوق درجة 48، وتحدث هناك مع الأهالي المحليين. وبموجب الكتابات التي تركها فإنه وجد على الساحل ليس أبناء شعب أينو القاطنين هنا فقط، بل وكذلك الجيلياك الذين جاءوا للتجارة، وهم من الأهالي المعروفين لديه جيداً لدى اللقاء معهم على سواحل ساخالين والمضيق التتاري. وكانوا يرسمون على الرمل ويشرحون له أن الأرض التي يعيشون فيها هي جزيرة وأن هذه الجزيرة بعيدة وتفصلها مضايق عن أراضي القارة وإيسو (اليابان)[1] وفيما بعد لدى الإبحار لاحقاً نحو الشمال على امتداد الساحل الغربي عول لابيروز على أن يجد مخرجاً من بحر شمال اليابان إلى بحر أخوتسكويه وبهذا

1- كتب لابيروز أنهم يطلقون على جزيرتهم اسم تشوكو، ولكن ربما أن هذا الاسم نسبه الجيلياكيون إلى مكان ما آخر، وأنه لم يفهمهم. ويوجد على خارطة كراشينينيكوف (عام 1752) على الساحل الغربي لساخالين نهر تشوخا. هل هناك علاقة بين تشوخا هذا وتشوكو؟ بالمناسبة، كتب لابيروز أن الجيلياكيين رسموا هذا النهر أيضاً لدى رسم جزيرة ساخالين وتسميتها بتشوكو. وهذه الكلمة تعني بلغتهم «نحن».

يقلص الطريق إلى كامتشاتكا إلى حد كبير. لكنه كلما توغل أكثر نحو الأعلى يغدو المضيق ضحلاً أكثر فأكثر. ويقل العمق في كل ميل بمقدار ساجين واحد (الساجين يعادل ستة أقدام – المترجم). وواصل الرحالة الفرنسي الإبحار نحو الشمال حتى أتاحت أبعاد سفينته الوصول إلى عمق 9 ساجينات، فتوقف. إن ازدياد العمق بصورة تدريجية وبانتظام، والتيار غير الملحوظ تقريباً في المضيق، جعلاه يعتقد أنه يرابط ليس في مضيق بل في خليج، وبهذا فإن ساخالين ترتبط بالقارة بواسط برزخ. وفي دي – كاستري التقى مرة أخرى بالجيلياكيين. وعندما رسم لهم على الورق جزيرة، منفصلة عن القارة، أخذ أحدهم القلم منه ورسم خطاً عبر المضيق، وأوضح أن الجيلياكيين يعبرون هذا المضيق أحياناً بواسطة قواربهم، وأنه حتى ينمو العشب فيه – هكذا فِهِمَ لابيروز. وهذا الأمر زاد من قناعته بأن ساخالين – شبه جزيرة[1].

جاء بعد تسعة أعوام إلى مضيق تتارسكي الإنجليزي ف. بروتون. كانت سفينته صغيرة لا تعوم في العمق إلى أكثر من 9 أقدام، ولهذا تسنى له المضي أبعد من لابيروز. وقد توقف عند عمق 12 قدماً، وأرسل مساعده إلى الشمال من أجل إجراء القياسات، فوجد هذا في طريقه وسط الأماكن الضحلة أعماقاً تقل تدريجياً. وتقوده تارة إلى ساحل ساخالين، وتارة أخرى إلى السواحل الرملية المنخفضة في الجانب الآخر، وتولدت صورة كما لو أن الساحلين يلتقيان ولا يوجد أي ممر. وهذا جعل بروتون يصل إلى النتيجة ذاتها التي توصل إليها لابيروز.

لقد ارتكب الخطأ ذاته رحالتنا الشهير كروزينشتيرن الذي درس سواحل الجزيرة في عام 1805. وكان قد أبحر إلى ساخالين ولديه فكرة مسبقة، إذ استخدم خارطة لابيروز. وأبحر على امتداد الساحل الشرقي واجتاز الرؤوس الشمالية لساخالين، ودخل المضيق نفسه، واتجه من الشمال إلى الجنوب، وبدا أنه كان على وشك فك رموز اللغز، لكن انخفاض العمق تدريجياً إلى ½ 3 ساجين، والوزن النوعي للمياه، والشيء الرئيسي الفكرة المسبقة، قد أرغمته

1- بالمناسبة نورد هنا ملاحظة أدلى بها نيفيلسكي: يضع الأهالي المحليون عادة خطاً بين السواحل من أجل إظهار أنه من الممكن التنقل من ساحل إلى آخر بواسطة القارب، أي هناك مضيق بين الساحلين.

على الاعتراف بوجود برزخ لم يره بأم عينه. لكن راوده مع ذلك بعض الشك. فقد كتب: «في أغلب الظن أن ساخالين كانت في زمن ما، وربما في الزمن القريب، جزيرة». ثم عاد وقد راوده شيء من عدم الارتياح في قرارة نفسه: وعندما وقع بصره لأول مرة في الصين على كتابات بروتون «غمره الفرح الشديد»[1].

لقد تم تصحيح الخطأ في عام 1849 من قبل نيفيلسكي. لكن مكانة أسلافه كانت لا تزال كبيرة، ولهذا فحينما أعلن اكتشافاته في بطرسبورغ، لم يصدقوه واعتبروا فعلته وقاحة تستحق العقاب، و«خلصوا» إلى أن من الواجب تجريده من رتبته، ولا يعرف ما كانت ستقود إليه الأمور، لو لم يشفع له القيصر نفسه الذي اعتبر أقواله نوعاً من الشطارة والنبل والروح الوطنية[2]. لقد كان رجلًا نشيطاً وبمزاج حار، ومتعلماً، واتصف بنكران الذات، وبالروح الإنسانية، وسيطرت عليه حتى نخاع العظام فكرته التي التزم بها بتعصب، وبطهارة الأخلاق. وكتب أحد معارفه عنه: «لم أعرف شخصاً أكثر نزاهة منه». وحصل في الساحل الشرقي وفي ساخالين على مكانة لامعة في غضون خمسة أعوام لا أكثر، لكنه فقد ابنته، التي توفيت بسبب الجوع ودب فيه الهرم والشيخوخة، كما أصبحت زوجته عليلة، وكانت امرأة «شابة وفاتنة وبشوشة، تحملت جميع المحن ببطولة»[3].

1- مما يدل على ذلك بحد ذاته اتفاق ثلاثة من الباحثين المرموقين على تكرار الخطأ نفسه. ولئن لم يكتشفوا المدخل إلى آمور فالسبب أنه توفرت لديهم موارد ضئيلة جداً للبحث، والشيء الرئيسي - أنهم كأفراد أفذاذ كانوا يشتبهون وكادوا يحزرون تقريباً الحقيقة الأخرى ووجب عليهم أخذها بنظر الاعتبار. وقد ثبت في الوقت الحاضر أن البرزخ وشبه جزيرة ساخالين ليسا من الخرافات، وقد وجدا فعلاً في زمان ما.

وترد قصة وافية عن دراسة ساخالين في كتاب أ. م. نيكولسكي «جزيرة ساخالين وحيواناتها من الفقريات». ويمكن أن نجد في هذا الكتاب أيضاً سجلاً وافياً للمراجع حول ساخالين.

2- ترد التفاصيل في كتابه «مآثر ضباط البحرية الروس في الشرق الأقصى الروسي. 1849-1855».

3- قطعت يكاترينا إيفانوفنا زوجة نيفيلسكي على صهوة الحصان لدى سفرها من روسيا إلى زوجها مسافة 1100 فرستا خلال 23 يوماً، وعلى الرغم من مرضها عبرت المستنقعات الموحلة وغابات التايغا الجبلية الوحشية وبلغت طريق الصيادين التي يغمرها الجليد. وروى ن. ك. بوشنياك الرفيق الموهوب لنيفيلسكي الذي اكتشف الخليج الإمبراطوري حين كان في سن 20 عاماً في مذكراته: «ولجنا إيان جميعاً

وبغية إنهاء الحديث حول البرزخ وشبه الجزيرة أعتقد أنه ليس من النافل ذكر بعض التفاصيل الأخرى. ففي عام 1710 رسم الباحثون الصينيون بأمر الإمبراطور الصيني خارطة تتاريا، واستخدم الباحثون في إعدادها الخرائط اليابانية، وهذا جلي للعيان، لأنه لم يعرف رحلة لابيروز مضيق تتارسكي (التتاري) سوى اليابانيين. وقد أرسلت إلى فرنسا وأصبحت معروفة، لأنها نشرت في أطلس العالم الجغرافي دانفيل[1]. وأصبحت هذه الخارطة ذريعة لحدوث بعض سوء الفهم، تدين ساخالين إليه بتسميتها. توجد في الخارطة على الضفة الغربية لساخالين، وبالذات مقابل مصب نهر آمور، عبارة كتبها المبشرون هي: «Sghalien–angahana» وتعني باللغة المنغولية: «صخور النهر الأسود». وفي أغلب الظن أن هذه التسمية تعود إلى جرف أو رأس ما عند مصب آمور. لكنهم في فرنسا فهموا الأمر بشكل مغاير ونسبوا التسمية إلى الجزيرة نفسها. ومن هنا جاءت تسمية ساخالين، التي اعتمدها كروزينشترن من أجل الخرائط الروسية. بينما أطلق اليابانيون على ساخالين اسم كارافتو، وتعني الجزيرة الصينية.

معاً في الباخرة «بايكال» ثم انتقلنا إلى العوامة الخشبية «شيليخوف». وعندما بدأت العوامة بالغرق لم يستطع أحد إقناع السيدة نيفيلسكايا بالنزول إلى الضفة قبل الآخرين. وقالت: «إن القبطان والضباط هم آخر من يغادر، وأنا سأغادر العوامة بعد أن يغادرها جميع النساء والأطفال». وهذا ما فعلته. علماً أن العوامة كانت قد مالت عندئذ إلى جانبها..». بعد ذلك كتب بوشنياك إنه كان غالباً ما يلتقي السيدة نيفيلسكايا، ولم يسمع وكذلك رفاقه قط أية شكوى أو ملامة حيالها، بل بالعكس، إذ كان يلاحظ فيها دوماً الهدوء والاعتراف بكبرياء بالوضع المر ولكن الرفيع الذي وجب عليها أن تكون فيه. وكانت تقضي الشتاء وحيدة، حيث إن الرجال يكونون عادة في مهام العمل، ودرجة الحرارة في الغرف تعادل 5 درجات. وفي عام 1852 حين لم تصل من كامتشاتكا سفن نقل المواد الغذائية، أصبح الجميع في وضع بائس للغاية. ولم يتوفر الحليب من أجل الأطفال الرضع، كما لم تتوفر الأطعمة الطازجة للمرضى، وتوفي عدة أشخاص بسبب داء الأسقربوط. عندئذ وضعت نيفيلسكايا البقرة الوحيدة لديها في متناول الجميع. وكانت تعامل أبناء الشعوب الصغيرة المحلية ببساطة وبعناية حتى لاحظ ذلك أفراد الأقوام البدائية المتوحشة. علماً أنها كانت آنذاك في سن 19 عاماً فقط.

1- «Nouvel Atlas de la Tartarie Chinoise et de Thibet». 1737.

وصلت بحوث اليابانيين إلى أوروبا إما في وقت متأخر جداً، حين لم تعد هناك حاجة إليها، أو أجريت عليها تعديلات غير موفقة. وتبدو ساخالين في خارطة المبشرين بشكل جزيرة، لكن دانفيل أبدى عدم ثقته بها ورسم برزخاً بين الجزيرة وأراضي القارة. علماً أن اليابانيين كانوا أول من بدأ بدراسة الجزيرة في عام 1613، لكن الباحثين في أوروبا لم يعيروا اهتماماً كبيراً لذلك. لهذا فعندما قرر الروس واليابانيون لاحقاً البحث في مسألة لمن تعود ساخالين، كتب الروس فقط[1] عن حق أول باحث لها.

لقد حلت منذ وقت بعيد ضرورة إجراء دراسة وافية لسواحل تتاريا وساخالين. علماً أن الخرائط الحالية لا تفي بالحاجة – ويتبين ذلك من أن السفن الحربية والتجارية غالباً ما تجنح على الرمل أو على الصخور، أكثر مما تكتب عنه الصحف. وبفضل الخرائط الرديئة، على الأغلب، يبدي ربابنة السفن الحذر الشديد هناك، وكذلك الريبة والنرفزة. علماً أن قبطان «بايكال» لا يثق بالخريطة الرسمية وينظر إلى خريطته هو، التي رسمها بيده، ويجري التعديلات عليها في أثناء الإبحار.

وبغية تجنب الجنوح في الأماكن الضحلة قرر السيد «ل» عدم الإبحار ليلاً، وبعد الغروب ألقينا المرساة عند رأس جاورا. وينتصب في الرأس نفسه، فوق الجبل، بيت ريفي منفرد يعيش فيه الضابط البحري السيد «ب» الذي يضع الشارات في مسار الملاحة ويراقبها، بينما تمتد وراء البيت الريفي غابة التايغا الموحشة. وأرسل القبطان إلى السيد «ب» اللحم الطازج، وقد انتهزت هذه الفرصة فنزلت إلى البر في القارب. وبدلاً من المرسى وجدت هناك صخوراً لزجة كبيرة، وجب القفز فوقها، وتقود في الجبل إلى الكوخ سلالم من جذوع الأشجار غرست في الأرض بصورة معلقة تقريباً، ولهذا وجب لدى الصعود الإمساك بها بقوة. وياللفظاعة!

1- قام مساح الأراضي الياباني ماميا رينزو في عام 1808 بجولة في القارب على امتداد الساحل الغربي، ووصل إلى ساحل تتارسكي عند مصب آمور نفسه، وأبحر عدة مرات من الجزيرة إلى أراضي القارة ذهاباً وإياباً. وكان أول من أثبت أن ساخالين جزيرة. أما العالم الطبيعي الروسي ف. شميدت فقد مدح كثيراً هذه الخارطة واعتبرها «ممتازة جداً لأنه كما يبدو للعيان قائمة على التصاوير المستقلة».

فبينما كنت أصعد الجبل وأقترب من الكوخ أحاط بي سرب من البعوض، وكأنه سحابة، وسادت العتمة، وشعرت بلسع وجهي ويدي، ولم أستطع حماية نفسي. وأعتقد أن المرء إذا بقي للمبيت في العراء هناك، من دون إحاطة نفسه بشعلات النار، فيمكن أن يهلك أو على أقل تقدير سيجن ويختبل.

يقسم البيت الريفي إلى قسمين: يقطن في الجانب الأيسر البحارة، وفي الجانب الأيمن - الضابط مع أسرته. لم يكن رب البيت موجوداً. ولقيت سيدة أنيقة الملبس ومثقفة، هي زوجته، مع ابنتيها الصغيرتين اللتين لسعهما البعوض. وجدران الحجرات جميعاً خضراء بلون أشجار الشوح، وعلقت على النوافذ ستائر من قماش الشاش، وتفوح في المكان رائحة الدخان، لكن على الرغم من ذلك يوجد البعوض هنا، ويلسع الصبيتين المسكينتين. علماً أن أثاث الحجرة متواضع، شبيه بما يوجد في المعسكرات، لكنها مرتبة بشكل جميل ينم عن الذوق الجيد. وعُلقت على الجدران صور بينها لوحة رأس امرأة رسمت بقلم الرصاص. وقد تبين أن السيد «ب» رسام.

سألت السيدة: - هل الحياة هنا جيدة؟

- جيدة، لولا البعوض فقط.

علماً أنها لم تبتهج لاستلام اللحم الطازج، وقالت إنها اعتادت مع طفلتيها منذ وقت بعيد على تناول اللحم المملح ولا تحب اللحم الطازج.

ثم أضافت قائلة: - بالمناسبة، طبخنا يوم أمس سمك السلمون المرقط.

رافقني حتى القارب بحار عبوس، بدا كأنه حدس ما يدور في ذهني ورغبتي في السؤال عنه، فتنهد وقال:

- لا يأتي المرء إلى هنا بإرادته!

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي واصلنا الرحلة في جو هادئ ودافئ كلياً. الساحل التتاري جبلي التضاريس ويزخر بالقمم أي الذرى الحادة الأسطوانية. وتغطيه عتمة خفيفة مائلة إلى الزرقة. إنه دخان الحرائق في الغابات البعيدة الذي يقال إنه يكون أحياناً كثيفاً جداً حتى يشكل خطراً على البحارة بقدر لا يقل عن خطر الضباب. وإذا ما حلق الطير من البحر مباشرة عبر الجبال فإنه لن يجد أي مسكن وأي مخلوق حي لمسافة خمسمائة فيرستا وأكثر... الساحل يصطبغ بالخضرة المتسمة بالمرح في نور الشمس، ويبدو أنها تحيا بأفضل حال من دون

الإنسان. في الساعة السادسة وصلنا إلى أضيق موضع في المضيق، بين رأسي بوغوب ولازاريف، ويرى عن قرب جداً كلا الساحلين، وفي الساعة الثامنة مررنا بمحاذاة «قبعة نيفيلسكي» – وهي تسمية الجبل الذي تجلله ذروة تشبه القبعة. كان الصباح ساطعاً وتمتعت أكثر لإدراكي باعتزاز أنني أرى هذه السواحل.

في الساعة الثانية بعد الظهر ولجنا خليج دي – كاستري. علماً أنه المكان الوحيد الذي تلجأ إليه السفن المارة في المضيق في أثناء العواصف، ولولاه لأصبحت الملاحة مستحيلة عند سواحل ساخالين، غير المضيافة البتة. وحتى ينتشر التعبير التالي: «اهرب إلى دي – كاستري». الخليج رائع وشكلته الطبيعة كما لو كان بطلب أحد ما. إنه بركة دائرية، يبلغ قطرها حوالي ثلاث فرستات، وضفافه عالية، تحميه من الرياح، مع مخرج ضيق إلى البحر. وإذا ما حكمنا بموجب الشكل الخارجي فإن الخليج مثالي، ولكن، ويالأسف! – هذا ما يتراءى لنا فقط. إذ يكتسي الخليج بالجليد خلال سبعة أشهر من العام، كما أنه غير محمي كثيراً من الريح الشرقية والمياه فيه ضحلة لدرجة أن السفن تلقي مراسيها على مسافة فرستين من الساحل. وتحرس المخرج إلى البحر ثلاث جزر أو بالأحرى ثلاث شعب صخرية تكسب الخليج سناء متميزاً. وتطلق على إحداها تسمية الشعبة المحارية. وتتوفر في المياه هناك محارات كبيرة جداً ودسمة.

على الساحل عدة بيوت وكنيسة. ويقطن هناك رئيس المخفر ومدير إدارته ورجال التلغراف. وصعد إلينا في الباخرة موظف محلي، وهو رجل كئيب ويبعث على السأم، وتحدث كثيراً أثناء الغداء، كما شرب كثيراً، وروى لنا مزحة قديمة حول الأوز التي أصابتها التخمة لدى التهام العنب البري من المشروب الكحولي، إنها سكرت، فاعتقد الناس أنها ميتة، وجرى نتف ريشها وألقي بها جانباً، ولكنها ثابت إلى رشدها فيما بعد وعادت إلى البيت عارية بلا ريش. وأكد الموظف أن هذه الحادثة وقعت في دي – كاستري في فناء بيته بالذات. لا يوجد قسيس في الكنيسة. ويتم استدعاؤه لدى الحاجة من مارينسك. ونادراً ما يكون الطقس جيداً هنا، نادراً جداً كما هو الحال في نيقولايفسك. وقيل إن بعثة مساحة عملت هناك في ربيع هذا العام. وفي شهر مايو كله ظهرت الشمس في ثلاثة أيام فقط. وهكذا تفضل واعمل بلا شمس!

وجدنا في المكلا سفينتين حربيتين «بوبر» و«تنغوس» وحراقتين. وبقي في ذاكرتي أمر آخر: فحالما أنزلنا المرساة، سادت العتمة في السماء، وتجمعت نذر العاصفة الرعدية، واكتسبت المياه لوناً أخضر ساطعاً غير اعتيادي. بينما وجب أن تفرغ «بايكال» حمولة أربعة آلاف بود (البود وحدة وزن روسية قديمة تساوي 16,38 كيلوغراماً – المترجم) من البضائع الحكومية ولهذا وجب المبيت في دي – كاستري. وبغية تزجية الوقت مارست مع الميكانيكي صيد السمك من سطح الباخرة. واصطدنا أسماكاً كبيرة ضخمة الرؤوس من صنف السمك الثوراني الرأس لم أر مثيلاً لها في البحر الأسود أو بحر آزوف. كما اصطدنا أسماك موسى المفلطحة.

يجري إفراغ الحمولات هنا ببطء شديد دائماً، مما يولد الإزعاج وفساد الدم. علماً أن هذا قدر جميع موانئنا الشرقية. وفي دي – كاستري يجري إفراغ الحمولات إلى عبّارات صغيرة تستطيع الرسو على الساحل فقط في أثناء المد، ولهذا فإنها بعد تحميلها غالباً ما تجنح في الأماكن الضحلة. ويحدث أحياناً أن الباخرة قد تتوقف هناك بسبب إفراغ مئات من أكياس الدقيق خلال الفترة من الجزر إلى المد. وتسود الفوضى وغياب النظام أكثر في نيقولايفسك. وهناك رأيت من مكان وقوفي على سطح «بايكال» كيف انقطع الحبل المعدني الذي يسحب عبارة كبيرة تقل مائتي جندي، فحمل التيار العبارة إلى المكلا في البحر، وتوجهت مباشرة إلى سلسلة المرساة لسفينة شراعية كانت ترابط بالقرب منا. وقد وجفت قلوبنا بانتظار تلك اللحظة حين تحطم العبارة السلسلة، ولكن لحسن الحظ أن أخيار الناس أمسكوا بالحبل في الوقت المناسب، واكتفى الجنود بمعاناة الخوف فقط.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-2-

موجز من الجغرافية – الوصول إلى شمال ساخالين – الحريق – المرفأ – في البلدة – الغداء عند السيد «ل» – التعارف – الجنرال كونونوفيتش – وصول الحاكم العام – غداء بمرافقة الألعاب النارية.

تقع ساخالين في بحر أخوتسكويه. وتحجب الجزيرة عن المحيط حوالي ألف فيرستا من ساحل سيبيريا الشرقي والمدخل في مصب نهر آمور. وتتسم بالاستطالة من الشمال إلى الجنوب وشكلها حسب رأي أحد الباحثين يشبه شكل سمكة الحفش. ويتحدد موقعها الجغرافي كالتالي: من 45 درجة و54 ثانية إلى 54 درجة و53 ثانية من خطوط العرض شمالاً ومن 141 درجة و40 ثانية إلى 144 درجة و53 ثانية من خطوط الطول شرقاً. والجزء الشمالي من ساخالين الذي يمر عبره خط تجمد التربة الدائم، يتفق من حيث الموضع في خطوط العرض مع محافظة ريازان وجنوب القرم. ويبلغ طول الجزيرة 900 فيرستا، وأكبر عرض لها يعادل 125 وأقل عرض 25 فيرستا. علماً أنها أكبر من اليونان بمرتين وأكبر من الدانمارك بمرة ونصف.

إن تقسيمها السابق إلى جزء شمالي وأوسط وجنوبي غير مريح عملياً، ولهذا تقسم الآن فقط إلى جزءين شمالي وجنوبي. والثلث العلوي من الجزيرة غير صالح للسكن من حيث المناخ والتربة ولهذا لا يؤخذ في الحساب، أما الثلث الأوسط فيسمى ساخالين الشمالية، والأدنى – ساخالين الجنوبية.. ولا حدود دقيقة بين القسمين الأخيرين. ويعيش المنفيون حالياً في القسم الشمالي، على ضفاف نهر دويكا وعلى ضفاف نهر تيم. ويصب

نهر دويكا في المضيق التتاري، بينما يصب تيم في بحر أخوتسكويه. ويلتقي النهران على الخارطة في منابعهما. كما أنهم يعيشون على الساحل الغربي، في منطقة غير كبيرة تمتد من منبع وحتى مصب دويكا. وتقسم ساخالين الشمالية إداريا إلى دائرتين: ألكسندروفسك وتيموفسك.

بعد المبيت في دي - كاستري انطلقنا في ظهر اليوم التالي، 10 يوليو، إلى عرض البحر في المضيق التتاري نحو مصب دويكا حيث مخفر ألكسندروفسك. وكان الجو في هذه المرة هادئاً وصحواً، وهو شيء نادر الحدوث جداً هنا. وسبح اثنان من الحيتان في البحر الأملس، وهما يطلقان النافورات إلى الأعلى، والحيتان تعوم أزواجاً، وهذا مشهد رائع وأصيل، كان يسلينا طوال الطريق. لكنني أعترف بأن مزاجي لم يكن رائقاً، وكلما اقتربنا من ساخالين غلبتني الكآبة والقلق أكثر. لم أكن هادئاً. وعندما علم الضابط الذي كان يرافق الجنود سبب ذهابي إلى ساخالين دهش جداً وصار يؤكد لي أنني لا أتمتع بالحق في الاقتراب من أماكن احتجاز سجناء الأشغال الشاقة والمعتقلات لأنني لست موظفاً حكومياً. طبعاً أنا كنت أعرف أنه ليس لدي حق، لكن مع ذلك جعلتني أقواله أشعر بالفزع، وخفت أن أجد في ساخالين أيضاً وجهة النظر هذه.

عندما ألقينا المرساة في الساعة التاسعة مساء كانت تتصاعد من غابات التايغا في ساخالين ألسنة النيران الكبيرة في خمسة مواضع. ولم أر عبر العتمة والدخان الذي افترش البحر أرصفة الميناء والمباني، واستطعت فقط مشاهدة أنوار المخفر الشاحبة وبينها اثنان أحمران. وبدا لي شيئاً خيالياً المشهد الفظيع الذي تشكل من الظلام الحالك، وأشباح الجبال والدخان واللهب وألسنة شرارات النار. وكانت تحترق في الجانب الأيسر نيران رهيبة، وفوقها - الجبال، التي تتعالى فوقها في عباب السماء هالة حمراء ناشئة عن الحرائق البعيدة، وبدا كما لو أن ساخالين كلها تحترق. وفي الجانب الأيمن ينتصب رأس جونكير بشكل كتلة قاتمة ثقيلة، ويشبه قمة إيو- داغ في القرم. وينبعث من الفنار في ذروته نور ساطع، بينما تنبسط في الماء، بيننا وبين الساحل، ثلاث صخور مدببة هي - «الأخوة الثلاثة». والدخان يغطي كل شيء كما في جهنم.

فنار آنيفا

اقترب زورق من الباخرة، وسحب وراءه عوامة. لقد جلب السجناء من أجل تفريغ حمولة الباخرة. وتردد الحديث باللغة التتارية والشتائم.

صرخ أحدهم من الباخرة: – لاتسمحوا لهم بالصعود إلى الباخرة! لا تسمحوا لهم! إنهم سينهبون الباخرة كلها ليلاً.

– هنا في ألكسندروفسك الوضع لا بأس به. – قال لي الميكانيكي بعد أن لاحظ الانطباع الشديد لدى رؤية الساحل. – وسترى غير هذا عند دويه! إن الساحل هناك عمودي كلياً، وفيه وديان ضيقة قاتمة وطبقات من الفحم.. المشهد كئيب! وقد حدث مرة أن نقلنا في «بايكال» إلى دويه حوالي 200–300 سجين حكم عليهم بالأشغال الشاقة، وعندما رأوا الساحل انخرط كثير منهم في البكاء.

قال القبطان: – ليسوا هم بل نحن المحكوم علينا بالأشغال الشاقة. الوضع هنا الآن هادئ، ولكن تأمل الوضع في الخريف: رياح وعواصف وبرد والأمواج تعلو فوق سطح الباخرة، وقد نهلك!

بقيت للمبيت في الباخرة. وفي الفجر، في حوالي الساعة الخامسة،

أيقظوني بضجيج: «أسرع، أسرع! الزورق يتجه إلى الساحل آخر مرة! والآن سنرفع المرساة ونرحل!». بعد هنيهة كنت جالساً في الزورق، وإلى جانبي موظف شاب تبدو على وجهه سمات الغضب والنعاس. أطلق القارب صفيراً، واتجهنا نحو الساحل، وسحبنا وراءنا عبارتين فيهما سجناء. وكان السجناء الذين أنهكهم العمل ليلاً والأرق خاملين وعابسين. ولزموا الصمت طوال الوقت. وأنا أذكر الآن بعض القوقازيين ذوي الملامح الحادة وقبعات الفرو المائلة على الحواجب.

قال لي الموظف: - اسمح لي بالتعرف عليك. أنا الكاتب الإداري «د».

كان هذا أول معارفي في ساخالين، وهو شاعر صاحب القصيدة الهجائية «ساخالينو» التي مطلعها: «قل لي يادكتور، فليس عبثاً..». وكان غالباً ما يزورني ويتنزه معي في ألكسندروفسك وأطرافها. وكان يروي لي الفكاهات أو يردد بلا توقف أشعاره، ويعكف في ليالي الشتاء الطويلة على كتابة روايات ليبرالية، وفي بعض الأحيان كان يحب التذكير بأنه كاتب إداري من الطبقة العاشرة. وعندما خاطبته إحدى النساء التي جاءت إليه لبعض شؤونها بالسيد «د»، زعل وصرخ في وجهها: «أنا لست السيد «د» بل صاحب السعادة!». وسألتُه في طريقنا إلى الساحل بصدد الحياة في ساخالين، وكيف الأحوال هناك، تنهد باستياء وقال: «سترى ذلك بنفسك!». كانت الشمس قد تعالت في السماء. أما قتامة وعتمة الأمس اللتان أفزعتاني في خيالي، فقد غرقتا الآن في ألق الفجر، وأعطى جونكيير البدين والأخرق مع الفنار و«الأخوة الثلاثة» والسواحل الشاقولية العالية التي ترى على بعد عشرات الفيرستات على كلا الجانبين، والضباب الشفاف فوق الجبال ودخان الحرائق، أعطى صورة لا بأس بها مع سطوع الشمس وألق البحر.

لا خلجان هنا والسواحل خطرة، ويدل هذا بجلاء على تحطم السفينة السويدية «أطلس» قبل فترة قصيرة من وصولي وتربض الآن على الساحل. وتتوقف البواخر عادة على مسافة 1060 متراً من الساحل ونـادراً ما تقترب أكثر. علماً أن الرصيف موجود، لكن فقط من أجل رسو القوارب والعوامات. وهو عبارة عن رصيف خشبي بهيئة حرف T، وثمة أوتاد من جذوع سميكة من أشجار اللارقس ثبتت بقوة في قاع البحر، مكونةً صناديق

مملوءة بالحجارة إلى أعلاها. ويتألف سطح الرصيف من ألواح، مدت فوقها قضبان من أجل دحرجة العربات الصغيرة على امتداد الرصيف كله. وفي نهاية الرصيف كوخ جيد البنيان هو مكتب إدارة رصيف الميناء. وإلى جانبه تنتصب صارية سوداء عالية. المبنى متين لكنه لن يعمر طويلاً. يقال إنه في أثناء هبوب عاصفة هوجاء تصل الأمواج إلى نافذة المبنى أحياناً ويتطاير رذاذها حتى إلى عارضة الشراع. بينما يهتز الرصيف كله.

كان يتجول على الساحل بالقرب من الرصيف حوالي خمسين سجيناً من المحكومين بالأشغال الشاقة: بعضهم يرتدي الوزر والآخرون يرتدون السترات والجاكيتات المصنوعة من الجوخ. وعندما ظهرت أمامهم رفع الخمسون فرداً جميعهم قبعاتهم - أظن أن أي أديب لم يتمتع حتى الآن بمثل هذا الاحترام. كانت ترابط على الساحل عربة قرن إليها حصان. ووضع السجناء أمتعتي في العربة، بينما اعتلى مقعد الحوذي رجل بلحية سوداء يرتدي سترة وقميصاً تدلى خارج السروال. فانطلقنا.

- إلى أين تأمر بالذهاب ياصاحب السعادة؟ - سألني الحوذي، وقد استدار نحوي ورفع قبعته.

فسألته ما إذا كان في مكان ما مسكن للأجرة، حتى لو كان يتألف من غرفة واحدة.

- سنجد حكماً، ياصاحب السعادة، سنجد حكماً مسكناً للأجرة.

سارت العربة مسافة فرستين حتى مخفر ألكسندروفسكي في طريق ممتاز. وبالمقارنة مع طرق سيبيريا فهو درب نظيف وأملس، فيه قنوات على الجانبين لتصريف المياه ومصابيح. وبدا لي أنه ترف فحسب. ومد بمحاذاته طريق السكك الحديدية. لكن الطبيعة في الطريق تذهل الناظر بفقرها. فتبدو في الأعلى فوق الجبال والتلال، التي تحيط وادي ألكسندروفسك، الذي يجري فيه نهر دويكا، جذوع أشجار محترقة أو تنبجس، مثل إبر حيوان النيص، جذوع أشجار اللارقس التي جففتها الرياح أو الحرائق، وفي الأسفل في الوادي ثمة نتوءات صغيرة وغلال حمضية - هي من بقايا المستنقعات الوعرة السابقة هناك. إن الشق الحديث العهد في التربة في الأخاديد يكشف

كل بؤس تربة المستنقعات المحترقة مع طبقة تتألف من عدة سنتيمترات من التربة السوداء الرديئة. لا توجد أشجار صنوبر أو بلوط أو قيقب بل أشجار اللارقس فقط النحيفة والبائسة، كما لو أنها نهشت من قبل أحد ما، علماً أنها لا تعتبر هنا زينة الغابات والحدائق، كما هو الحال عندنا في روسيا، بل علامة على وجود تربة المستنقعات الرديئة والمناخ القاسي.

إن مخفر ألكسندروفسكي، أو باختصار ألكسندروفسك، عبارة عن بلدة صغيرة هادئة من الطراز السيبيري، يقطن فيها حوالي ثلاثة آلاف نسمة. وليس فيها أي مبنى من الحجر، بل شيد كل شيء فيها من الخشب، وبصورة رئيسية من جذوع أشجار اللارقس: الكنيسة والبيوت والأرصفة. وهناك مقر حاكم الجزيرة، ومركز الحضارة الساخالينية. ويقع السجن بالقرب من الشارع الرئيسي، لكن منظره الخارجي لا يختلف كثيراً عن الثكنة العسكرية، ولهذا فإن ألكسندروفسك لا تتسم بطابع السجن القاتم، كما توقعت أن أجدها.

جاء بي الحوذي إلى حي ألكسندروفسكايا سلوبودا في أطراف البلدة، حيث مسكن الفلاح «ب» من المنفيين. وأروني المسكن. فناء صغير يحيطه سياج متين من جذوع الأشجار على الطريقة السيبيرية مع السقائف في كل مكان. ويتألف المسكن من خمس غرف واسعة ونظيفة ولكن لا أثر فيها للأثاث. وجلبت صاحبة المسكن، وهي امرأة شابة، طاولة ومن ثم بعد عدة دقائق جلبت طابورية.

قالت: – نحن نؤجر هذا المسكن مع الحطب بـ 22 روبلاً – وبلا حطب بـ 15 روبلاً.

وبعد مرور ساعة جاءت حاملة السماور، وقالت مع تنهيدة عميقة:

– لقد جئت إلى هذه الهاوية!

يجدر بالذكر أنها جاءت إلى هنا حين كانت صبية مع أمها التي رافقت زوجها المحكوم بالأشغال الشاقة. والآن أصبحت زوجة فلاح من المنفيين، وهو عجوز عبوس قاتم النفس، رأيته في لحظة خاطفة لدى مروره في الفناء. كان يعاني من مرض ما، ورقد في الفناء تحت السقيفة وراح يتأوه.

قالت ربة البيت: – أظن أن الناس في محافظة تامبوف يحصدون الغلال الآن، ، بينما لا أرى هنا سوى ما تعافه النفس.

فعلاً ليس هناك ما يستمتع به النظر: يُرى من النافذة صف من شتلات الملفوف، وتجاورها أخاديد قبيحة، بينما تتراءى من بعيد شجرة اللارقس العجفاء اليابسة. دخل رب البيت وهو يئن ويمسك خاصرته بيده وصار يشكو من سوء المحاصيل والمناخ البارد ورداءة التربة. وكان قد أنهى بسلام فترة الأشغال الشاقة والإبعاد، ولديه الآن بيتان وخيل وأبقار، ويعمل لديه عدد كبير من العمال بينما لا يعمل هو نفسه أي شيء، وهو متزوج من شابة، والشيء الرئيسي صار يتمتع منذ وقت بعيد بالحق في الانتقال للإقامة في أراضي القارة بروسيا – ومع ذلك جأر بالشكوى.

في منتصف النهار تجولت في البلدة. في أحد أطرافها بيت جيد البنيان مع جنينة صغيرة ولوحة نحاسية على الباب، وإلى جانب البيت حانوت في الباحة ذاتها. فدخلته لكي أشتري بعض الطعام. يمتلك «المتجر» و«المستودع التجاري – القومسيوني» – وهذه تسمية الحانوت المتواضع كما يكتب في الوصل المطبوع والمسجل باليد الذي أحتفظ به، الرجل المنفي والمقيم هناك «ل»، ضابط الحرس السابق، الذي أدانته قبل 12 عاماً محكمة ناحية بطرسبورغ لارتكابه جريمة قتل. وقد أنهى فترة محكوميته وصار الآن يمارس التجارة، كما ينفذ بعض التكليفات المختلفة المتعلقة بالطرق وغير ذلك، ويتلقى مقابل ذلك راتب مراقب أقدم. وزوجته امرأة حرة، سليلة نبلاء، وتعمل مساعدة طبيب في مستشفى السجن. وتباع في الحانوت النجوم للكتافيات وحلوى «راحات- لقم» ومناشير ومناجل «وقبعات نسائية، صيفية، من آخر موضة، ومن خيرة التصاميم، بسعر يتراوح ما بين 4 روبلات و50 كوبيكاً و12 روبلاً للقبعة الواحدة». وبينما كنت أتحدث مع البائع دخل صاحب الدكان نفسه بجاكيت حريرية وربطة عنق ملونة. فتعارفنا.

وقال لي: – ألا تتفضل لتناول الغداء عندي؟

فوافقت ودخلنا البيت. التأثيث مريح. هناك أثاث من طراز فيينا وزهور وجهازأريستون أمريكي ومقعد هزاز يجلس ويهتز فيه «ل» بعد الغداء. ووجدت في غرفة الطعام إلى جانب ربة البيت أربعة ضيوف من الموظفين. وأحدهم، وهو عجوز بلا شوارب وبفودين أشيبين، يشبه في السحنة الكاتب

المسرحي إبسن، وقد تبين أنه بمرتبة طبيب أصغر في المستشفى المحلي، والآخر، وهو عجوز أيضاً، قدم نفسه بصفته ضابط أركان قوات القوزاق في أورنبورغ. وترك هذا الضابط لدي منذ أولى الكلمات انطباعاً بأنه رجل طيب السريرة جداً ويتمتع بروح وطنية كبيرة. إنه وديع وحصيف في إطلاق الأحكام، لكن حينما يدور الحديث في السياسة، يخرج عن طوره ويبدأ بالحديث بحماس خال من التكلف عن جبروت روسيا واحتقاره للألمان والإنجليز الذين لم يرهم في حياته قط. ويقال إنه عرج في طريقه إلى ساخالين على سنغافورة من أجل أن يشتري منديلاً لزوجته لكن طلب منه أن يستبدل النقود الروسية بالدولارات، فبدا عليه الاستياء وقال: «هيهات أن أستبدل نقودنا الأرثوذكسية بنقود أثيوبية ما!». ولهذا لم يشترِ المنديل.

قدم في الغداء الحساء والدجاج والأيس كريم. كما قدم النبيذ.

سألت: - متى يزول آخر ثلج هنا تقريباً؟

فأجابني «ل»: - في شهر مايو.

فقال الطبيب شبيه إبسن: - هذا غير صحيح، بل يزول في يونيو.

وقال «ل»: - أنا أعرف مستوطناً أعطت حنطة كاليفورنيا لديه محصول من نوع سام - 22.

فعارضه الطبيب مرة أخرى:

- هذا غير صحيح. إن ساخالينك لا تعطي أي محصول. إن هذه الأرض ملعونة.

بينما قال أحد الموظفين: - اسمح لي بالقول إن محصول الحنطة في عام 82 بلغ سام -40. أنا أعرف ذلك جيداً.

وقال لي الطبيب: - لا تصدقهم. إنهم يخدعونك.

ورويت في أثناء الغداء أيضاً أسطورة تقول إنه حينما استولى الروس على الجزيرة ثم صاروا يسيئون معاملة الجيلياكيين (أبناء الجزيرة) فإن الساحر «شامان» الجيلياكي لعن ساخالين وتنبأ بأنه لن يأتي منها أي نفع.

تنهد الطبيب وقال: - وهذا ما حدث.

بعد الغداء عزف «ل» على آلة الأريستون. ودعاني الطبيب للإقامة عنده،

وفي مساء اليوم نفسه انتقلت إلى الشارع الرئيسي للمخفر، في أحد البيوت، القريبة من الدوائر الرئيسية. ومنذ هذا المساء بدأ اطلاعي على أسرار ساخالين. فروى لي الطبيب أنه قبل وصولي بفترة قريبة في أثناء الفحص الطبي للماشية في رصيف البحر، حدث له سوء تفاهم كبير مع حاكم الجزيرة، وحتى أن الجنرال لوح في نهاية المطاف بعصاه نحوه. وفي اليوم التالي تم تسريحه من عمله بموجب طلب استقالة لم يقدمه. وأراه الطبيب حزمة من الأوراق التي كتبها، حسب قوله، دفاعاً عن الحقيقة وانطلاقاً من محبة الإنسان. وكانت عبارة عن نسخ من العرائض والشكاوى والتقارير و... الوشايات[1].

– لن يعجب الجنرال أنك أقمت عندي، قال الطبيب ذلك وغمز بعينه بصورة ذات مغزى.

في اليوم التالي زرت حاكم الجزيرة ف. و. كونونوفتش. وقد استقبلني بمودة بالغة على الرغم من التعب وضيق الوقت، وتحدث معي حوالي الساعة. إنه رجل واسع العلم كثير الاطلاع، وعلاوة على ذلك لديه خبرة عملية كبيرة لأنه قبل تعيينه في ساخالين عمل فترة 18 عاماً في إدارة مؤسسات الأشغال الشاقة في كارا. حديثه جميل، وكتابته جميلة، ويترك انطباعاً بأنه رجل صادق وتزخر نفسه بالتطلعات الإنسانية. أنا لن أنسى ارتياحي من المحادثة معه وأدهشتني أقواله المستمرة حول رفض العقوبات الجسدية. إن ج. كينان يكيل له المديح والثناء في كتابه المعروف.

وعندما علم الجنرال أنني أنوي البقاء في ساخالين عدة أشهر حذرني من أن الحياة هنا شاقة ومملة.

وقال: – الجميع يهربون من هنا، السجناء والمستوطنون والموظفون. وأنا لا أريد الرحيل بعد لكنني أشعر بالإرهاق بسبب العمل الذهني الذي ثمة حاجة إلى الكثير منه هنا، بفضل، تشعب العمل بصورة رئيسية.

1- إليكم نموذجاً من الوشاية المرسلة بواسطة التلغراف: «وفقاً لواجب ضميري، والمادة العشرين بعد المائة، المجلد الثالث، أرى ضرورة تكليف سعادتكم بحماية القانون والعدالة مما يمارسه «ن» من رياء وتزوير وتعذيب».

ووعد بأن يقدم لي المعونة الكاملة لكنه رجاني الانتظار: إن ساخالين تستعد لاستقبال الحاكم العام، والجميع مشغولون بذلك.

ثم قال لدى توديعي: - يسرني أنك تقيم عند طبيبنا، وستعرف جوانب الضعف فينا.

كنت قبل وصول الحاكم العام إلى ألكسندروفسك أقيم في شقة الطبيب. وكانت الحياة هناك غير طبيعية البتة. فحينما كنت أستيقظ في الصباح كنت أسمع مختلف الأصوات التي تذكرني بالمكان الذي أنا فيه. فكان يسير في الشارع الهوينا بمحاذاة النوافذ المفتوحة السجناء بقيودهم وسلاسلهم، وتصدرعنها صوت رتيب، بينما كان الجنود - الموسيقيون في المقابل حيث الثكنات العسكرية يتدربون على عزف الألحان العسكرية استعداداً لمجيء الحاكم العام، علماً أن الفلوت كان يصدر لحناً من مقطوعة ما، والترومبون من مقطوعة أخرى، والفاغوت من مقطوعة ثالثة، وفي النتيجة تحدث فوضى لا نظير لها. بينما كانت تغرد في غرفتنا طيور الكناري من دون كلل، وكان رب البيت - الطبيب يسير جيئة وذهاباً من ركن إلى آخر، وهو يقلب القوانين ماشياً، ويردد أفكاره بصوت عال:

- إذا ما قدمت طلباً وفقاً للمادة كذا إلى جهة ما، وهلمجرا.

أو كان يجلس مع ابنه لكتابة نص من وصية ما. ولدى الخروج إلى الشارع يسود القيظ هناك. وتجري الشكوى حتى من الجفاف، بينما يسير الضباط لابسين السترات الرسمية، وهذا لا يحدث في كل صيف. الحركة في الشوارع هنا أكبر بكثير مما في مدن الأقاليم عندنا، ويمكن تفسير ذلك بالاستعدادات لقرب وصول رئيس الإقليم، وبصورة رئيسية، لأن غالبية السكان هنا في سن العمل، ويقضون غالبية أوقاتهم خارج البيوت. علاوة على ذلك يتجمع هنا في مساحة صغيرة سجن يضم أكثر من ألف شخص، وثكنات عسكرية تضم 500 فرد. ويجري بسرعة بناء الجسر على نهر دويكا، ويجري بناء الأقواس، والقيام بأعمال التنظيف والصبغ وكنس الشوارع والسير في مشية عسكرية. بينما تنطلق في الشوارع عربات الترويكا والعربات الزوجية الأحصنة ذات الأجراس - إنهم يعدون الخيل

من أجل الحاكم العام. وكانوا في عجلة من أمرهم، ويعملون حتى في أيام الأعياد.

يتوجه في الشارع إلى دائرة الشرطة حشد من الجيلياكيين، أبناء المنطقة الأصليين، بينما تنبح نحوهم بغضب كلاب ساخالين السائبة الوديعة، علماً أنها تنبح فقط حيال الجيلياكيين. بينما سارت مجموعة أخرى من السجناء مكبلة بالقيود، بقبعات وبدونها، ويتردد صليل السلاسل، وتسحب عربة ثقيلة محملة بالرمل، بينما يتعلق الصبيان بمؤخرة العربة، ويسير في الجانب الحراس بوجوه محمرة جداً ومعروقة، وهم يحملون البنادق على الأكتاف. وبعد أن يفرغ الرمل في الساحة أمام بيت الجنرال، يعود المكبلون بالقيود من حيث جاءوا في الطريق ذاته. ويسمع صليل السلاسل بلا توقف. بينما يمضي سجين يرتدي رداء فضفاضاً فيه صورة الأس الديناري متنقلاً من فناء إلى آخر ويبيع الثمار العنبية البرية. عندما أسير في الشارع ينهض الجالسون احتراماً لي، بينما يرفع جميع المارة قبعاتهم لدى لقائي.

يسير السجناء والمستوطنون في الشوارع بحرية باستثناءات قليلة، وهم من دون قيود وسلاسل ومن دون حراسة. وتجدهم في كل خطوة ماشين زرافات ووحداناً. إنك تجدهم في الباحة وفي البيت، لأنهم يعملون كحوذيين وحراس وطباخين وطباخات ومربيات. إن القرب منهم كان يولد في الفترة الأولى لدي الحيرة بسبب عدم اعتياد ذلك، ويجعلني أصاب بالذهول والارتباك. وعندما تسير بمحاذاة مبنى ما تجد السجناء المحكومين بالأشغال الشاقة حاملين البلطات والمناشير والمطارق. وقد يتردد في ذهنك أنهم سيرفعونها وينهالون بها عليك! أو قد تزور أحد المعارف فلا تجده في البيت وتجلس لكتابة قصاصة ورق له بينما يقف وراءك خادمه في الانتظار - وهو من السجناء ومعه سكين كان يقشر به البطاطس في المطبخ قبل قليل. وقد يحدث في الفجر في حوالي الساعة الرابعة أن تستيقظ لدى سماع خشخشة، وتتطلع - ترى أحد السجناء ماشياً نحوك على أصابع قدميه، وحابساً أنفاسه. ما هذا؟ ولِمَ؟ «لقد نظفت الجزم ياصاحب السعادة». وسرعان ما اعتدت على ذلك. الجميع يعتادون، حتى النساء والأطفال. وبوسع السيدات هنا الاطمئنان كلياً،

حينما يسمحون لأطفالهم بالذهاب للنزهة مع مربيات صدرت بحقهن أحكام بالسجن المؤبد.

كتب أحد الصحفيين أنه كان يجبن لدى المرور بكل دغل، وحينما يلتقي السجناء في الطريق والممرات في الغابة، كان يتحسس المسدس تحت معطفه. لكنه اطمأن فيما بعد، حينما خلص إلى استنتاج بأن «السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة هم قطيع من الغنم، الجبناء، والكسالى وشبه الجياع والمتزلفين». إن من يعتقد أن السجناء الروس لا يقتلون ولا يسرقون من يلقوه بسبب الجبن والكسل، معناه أن رأيك في الإنسان عموماً سيئ أو لا يعرف الإنسان أصلاً.

وصل البارون أ. ن. كورف الحاكم العام لإقليم بريامورسكي إلى ساخالين في 19 يوليو على متن السفينة الحربية «بوبر». وكان في استقباله في الساحة الكائنة بين بيت حاكم الجزيرة والكنيسة حرس الشرف والموظفون وحشد من المستوطنين والسجناء. وعزفت الموسيقى ذاتها التي تحدثت عنها آنفاً. وحمل إليه الخبز والملح عجوز حسن المظهر، وسجين سابق، حقق ثروة في ساخالين، ولقبه بوتيومكين. بينما وقف في الساحة الطبيب صاحب البيت الذي أقطن فيه لابساً الفراك الأسود والقبعة وحاملاً بيديه الالتماسات والعرائض. علماً أنها المرة الأولى التي رأيت فيها مثل هذا الحشد في ساخالين، ولم تخف عني مشاهدة خصوصيته البائسة. فهو يتألف من رجال ونساء في سن العاملين، كما كان هناك شيوخ وأطفال، بينما لم يكن بينهم شبان البتة. وبدا لي أن الفتيان والفتيات في سن من 13 إلى 20 عاماً لا وجود لهم أبداً في ساخالين. وطرحت على نفسي بصورة عفوية السؤال: هل يعني ذلك أن الشباب حين يشبون يغادرون الجزيرة لدى توفر أدنى فرصة لهم؟

في اليوم التالي لوصول الحاكم العام شرع بتفقد السجون والمستوطنات. وكان المستوطنون الذين كانوا ينتظرون مجيئه بفارغ الصبر يسلمون إليه الالتماسات ويبلغونه شفهياً مطالبهم. وكان كل واحد منهم يتحدث عن نفسه أو يتحدث أحدهم بالنيابة عن جميع الآخرين، وبما أن فن الخطابة يزدهر في ساخالين، فلم تخلُ المسألة من إلقاء الخطب. وردد المستوطن ماسلوف من بلدة ديربينسكي في خطابه عدة مرات وصف الحاكم بأنه «الحاكم العطوف

الفذ». ومما يؤسف له أنه لم يطلب جميع مقدمي العرائض والالتماسات من البارون أ. ن. كورف ما ينبغي القيام به. ففي روسيا يمارس تأثيره في مثل هذه الأحوال جهل الموجيك الذي يبعث على الكدر: إنهم لم يطلبوا افتتاح المدارس ولا العدالة ولا كسب الرزق، بل طلبوا شتى التفاهات مثل العلاوات الحكومية أو تبني الطفل - صفوة القول أنهم قدموا التماسات يمكن أن يقررها الموظفون المحليون. علماً أن أ. ن. كورف أبدى الاهتمام والعناية بمطالبهم، وتأثر بشكل بالغ من وضعهم المزري ووعد وبعث الآمال في حياة أفضل لهم[1].

وعندما قدم مساعد مدير السجن في آركوف تقريره بقوله: «إن كل شيء على ما يرام في دسكرة آركوف»، أشار له البارون إلى براعم المحاصيل الشتوية والربيعية وقال: «كل شيء على ما يرام في دسكرة آركوف باستثناء عدم توفر محاصيل الحبوب فيها». وفي سجن ألكسندروفسك قدم إلى السجناء اللحم الطازج وحتى لحم الأيائل بمناسبة قدومه، وتفقد جميع الزنزانات وتقبل الشكاوى وأمر بنزع السلاسل من كثير من السجناء المكبلين بالقيود.

في 22 يوليو وبعد الصلاة والاستعراض العسكري (كان يوم إجازة) جاءني حارس السجن وأبلغني بأن الحاكم العام يود رؤيتي. فتوجهت إليه. واستقبلني أ. ن. كورف بكل لطف ومودة وتحدث معي حوالي نصف ساعة بحضور الجنرال كونونوفتش. علماً بأنه طرح علي السؤال فيما إذا كان لدي أي تكليف رسمي. فأجبت: لا.

وسأل البارون: على أقل تقدير هل لديك تكليف من مؤسسة علمية أو صحيفة؟

كانت في جيبي بطاقة المراسل، ولكن بما أنني لم أعتزم نشر أي شيء عن ساخالين في الصحف، ولم أرغب في تضليل الناس في تعاملهم معي بكل ائتمان، كما يبدو، فأجبت بالنفي.

1- حتى الآمال التي لن تتحقق. ففي إحدى الدساكر قال البارون إن الفلاحين المنفيين سيتمتعون بالحق في الانتقال إلى القارة ثم قال: «وبعد ذلك يمكنكم العودة إلى الوطن، إلى روسيا».

قال البارون: - أنا أسمح لك بزيارة أي مكان والتحدث إلى أي شخص. ليس لدينا ما نخفيه. شاهد كل شيء هنا، وستمنح رخصة لدخول جميع السجون والمستوطنات، وسيكون بوسعك الاطلاع على الوثائق اللازمة من أجل عملك، - باختصار ستكون الأبواب مفتوحة أمامك في كل مكان. لكنني لا أستطيع أن أسمح لك بشيء واحد هو التعامل مع السجناء السياسيين لأنني لا أتمتع بالحق في السماح لك بذلك.

قال البارون لدى السماح لي بالانصراف:

- غداً ستتحدث أيضاً. فتعال واجلب معك الأوراق.

في اليوم نفسه حضرت المأدبة الرسمية التي أقامها حاكم الجزيرة في شقته. وهناك تعرفت على جميع العاملين في إدارة ساخالين تقريباً. وفي أثناء المأدبة عزفت الموسيقى، وأُلقيت الخطب. وألقى أ. ن. كورف رداً على رفع نخب صحته كلمة قصيرة، بقيت في ذاكرتي مقاطع منها: «إنني اقتنعت بأن «البائسين» يعيشون في ساخالين أفضل من أي مكان في روسيا وحتى في أوروبا. ويتعين علينا عمل المزيد في هذا المجال، لأن درب الخير لا نهاية له». علماً أنه زار ساخالين قبل خمسة أعوام ووجد الآن أن التقدم الذي تحقق كبير ويفوق جميع التوقعات. إن كلمات الإطراء التي تفوه بها لا تتفق في الوعي مع بعض الظواهر مثل الجوع وممارسة جميع النساء المنفيات الدعارة والعقوبات الجسدية القاسية، لكن وجب على سامعيه تصديق كلامه: فالوقت الحاضر يعتبر بالمقارنة مع كان عليه قبل خمسة أعوام ما يكاد يعتبر بداية العصر الذهبي.

أطلقت في المساء الألعاب النارية. وجابت حشود الجنود والمستوطنين والسجناء الشوارع التي أضاءتها أوعية زيت التنوير والشعلات البنغالية. وفتحت أبواب السجن. أما نهر دويكا البائس والقذر، وضفافه العارية، فقد زين من الجانبين بالمصابيح الملونة والشعلات البنغالية التي انعكست في مياهه، وبدا الآن ذا سناء، وحتى فخماً، ولكنه مضحك مثل ابنة الطباخة التي ألبست فستان السيدة لكي تقيسه على سبيل التجربة. بينما عزفت الموسيقى وأنشد المغنون في حديقة بيت الحاكم. وبلغ الأمر حتى إطلاق النار من

المدفع وانفجر المدفع. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل هذه الأفراح، سادت الكآبة في الشوارع. فلا تنشد هناك الأغاني ولا تعزف الأرمونيكا ألحانها ولا يوجد سكير واحد. كان الناس يتسكعون كالأشباح، وصامتين كالأشباح. فالأشغال الشاقة تبقى أشغالاً شاقة حتى لدى الإنارة بالشعلات البنغالية، أما الموسيقى فحين يصغي إليها من بعيد الإنسان الذي لن يعود إلى موطنه قط، فلا تبعث فيه سوى الكآبة القاتلة.

عبارة لنقل السجناء

عندما جئت إلى الحاكم العام حاملاً أوراقي، لتسجيل حديثه، طرح رؤيته بشأن الأشغال الشاقة والمعتقلات في ساخالين وطلب أن أسجل كل ما قاله، وأنا نفذت ذلك، طبعاً، عن كل طيب خاطر. واقترح أن يكون عنوان كل ما كتبته كالتالي: «وصف حياة التعساء». وتولدت لدي القناعة من محادثتنا الأخيرة، ومما أملاه علي ودونته، بأنه رجل سمح ونبيل لكنه لا يعرف «حياة التعساء» عن قرب جداً كما كان يعتقد. وإليكم عدة سطور مما أملاه علي: «لا يحرم أحد من الأمل في أن يكتسب حقوقه كاملة. ولا توجد عقوبة مدى الحياة. إن الحكم المؤبد بالأشغال الشاقة مدته 20 عاماً. والأعمال ليست

شاقة. إن عمل السجين لا يجلب للعامل أية منفعة شخصية - وهنا تكمن مشقته، وليس في الإجهاد البدني. لا قيود ولا حراس ولا رؤوس حليقة».

كان الطقس في النهار في تلك الأيام طيباً - فالسماء صافية والهواء رائق، وتشبه الأيام عندنا في الخريف. كما كانت الأمسيات رائعة: إنها تذكرني بالغرب المتألق والبحر الأزرق المشوب بالعتمة والقمر الناصع البياض البارز من وراء الجبال. وبغتة تبرز صورة خيالية: فقد انحدر نحوي فوق القضبان سجين برداء أبيض في عربة صغيرة، ملوحاً بعصا طويلة. وتملكني الفزع.

سألت الحوذي: - هل يجب علينا أن نتراجع إلى الوراء؟

أدار الحوذي السجين الحصانين، ثم تطلع إلى الجبال والأنوار وقال:

- الحياة بائسة هنا، ياصاحب السعادة. عندكم في روسيا أفضل.

-3-

إحصاء النفوس– محتوى البطاقات الإحصائية – عم كنت أسأل وبماذا كانوا يجيبون– البيت الريفي وساكنوه – آراء المنفيين بإحصاء النفوس.

بغية الحصول على الفرصة للاطلاع على حياة غالبية المنفيين في جميع المناطق السكنية لجأت إلى أسلوب هو الوحيد في وضعي. لقد أجريت إحصاء للنفوس. وقد زرت الدساكر وسجلت فيها أصحاب البيوت وأفراد عوائلهم والمستأجرين والعمال. وبغية تسهيل عملي وتقليص الوقت عرضوا علي شاكرين مساعدين، لكن بما أن الهدف الرئيسي من الإحصاء ليس نتائجه بل الانطباعات التي تولدها عملية الإحصاء نفسها، لذا فقد لجأت إلى مساعدة الآخرين في أحوال نادرة جداً. وفي جوهر الأمر لا يمكن أن يوصف بالإحصاء العمل الذي ينجزه شخص واحد في غضون ثلاثة أشهر. ولا يمكن أن تتميز نتائجه بالدقة والكمال، لكن نظراً لعدم توفر المعطيات الجادة في المصادر الرسمية وفي مكاتب الإدارة، فربما كانت أرقامي ذات منفعة.

استخدمت في الإحصاء البطاقات التي طبعت من أجلي في مطبعة مديرية الشرطة. وكانت عملية الإحصاء تتألف مما يلي: أوردت قبل كل شيء وفي السطر الأول من كل بطاقة اسم المخفر أو الدسكرة. وفي السطر الثاني: رقم البيت حسب التسلسل الرسمي لتسجيل البيوت. وفي السطر الثالث: وضع الشخص المسجل: المنفي، المستوطن، الفلاح من المنفيين، والوضع الحر. وكنت أسجل الأحرار فقط في الحالات عندما يشارك

الشخص الحر بصورة مباشرة في الأعمال التابعة للمنفي، وعلى سبيل المثال، إذا كان مرتبطاً معه برابطة الزواج، الشرعي واللا شرعي، والمنتمي عموماً إلى أسرته، ويعيش في بيته كعامل أو ساكن وهلمجرا. وتعار أهمية كبيرة في ساخالين إلى الوضع الاجتماعي للشخص. ولا ريب في أن المحكوم بالأشغال الشاقة يشعر بالضيق من تسميته، وعندما يسأل عن صفته يجيب أنا «عامل». وإذا ما كان قبل الحكم عليه بالأشغال الشاقة جندياً، فإنه يضيف إلى ذلك حتما: «أنا من الجنود ياصاحب السعادة». وعندما تنتهي فترة محكوميته حسب تعبيره يصبح مستوطناً. ولا تعتبر هذه الصفة وضيعة البتة، حيث إن كلمة «المستوطن» لا تختلف كثيراً عن المهاجر، ناهيك عن الحقوق التي تقترن بهذه التسمية. وعندما يسأل المستوطن من هو يجيب: «أنا حر». وبعد مرور عشرة أعوام، ولدى توفر الشروط المناسبة، حسب النظام حول أوضاع المنفيين، يحصل المستوطن بعد ستة أعوام على صفة فلاح من المنفيين. وعندما يسأل الفلاح عن صفته يجيب بلا اعتزاز، كما لو أنه لا يمكن أن يدرج في عداد الآخرين ولو صفة خاصة: «أنا فلاح». لكن من دون إضافة عبارة «من المنفيين». أنا لم أسأل المنفيين عن تسمياتهم السابقة لأنه توجد في هذا البند في المكاتب الحكومية معطيات كافية. علماً أنهم لا يتحدثون عن أسمائهم السابقة المفقودة، كما لو أنها نسيت، باستثناء الجنود، لا يذكرها البرجوازيون الصغار أو التجار أو رجال الدين، ويذكرون فقط وضعهم السابق بإيجاز – أحرار. وإذا أسهب أحد ما في الحديث عن ماضيه، فإنه يبدأ عادة بالقول: «عندما كنت أعيش حراً..» وهكذا دواليك.

ويدرج في السطر الرابع الاسم واسم الأب واللقب. وفيما يتعلق بالاسم أقول فقط إنني لم أكتب، حسب اعتقادي، بشكل صحيح أي اسم من أسماء النساء التتاريات. ففي الأسرة التتارية، حيث توجد فتيات كثيرات، ولا يتقن الأب والأم اللغة الروسية، يصعب استكناه التسمية ولهذا أكتبها كيفما اتفق. كما أن الأسماء التتارية لا تكتب بشكل صحيح في الأوراق الرسمية.

ويحدث أحياناً حينما يسأل الموجيك الأرثوذكسي الروسي عن اسمه يجيب مازحاً: «كارل». وهذا المتشرد قد غير اسمه في الطريق إلى اسم ألماني ما. وكما أتذكر فقد سجلت اثنين بهذا الاسم: كارل لانجر وكارل

كارلوف. وهناك محكوم بالأشغال الشاقة اسمه نابليون. وامرأة متشردة باسم براسكوفيا واسمها أيضاً ماريا. أما بصدد الألقاب، ففي ساخالين لغرابة الصدف الكثير ممن يحملون لقب بوغدانوف وبيسبالوف. وثمة ألقاب طريفة كثيرة: شكانديبا، جيلودوك (المعدة) وبيزبوجني (الكافر) وزيفاكا (المتثائب). وكما قيل فإن الألقاب التتارية باقية على حالها في ساخالين على الرغم من حرمانهم من جميع حقوق الوضع الاجتماعي والإضافات التي تدل على المرتبة الرفيعة والألقاب السامية. أنا لا أعرف مدى صحة ذلك لكنني سجلت الكثيرين ممن يحملون لقب خان وسلطان وأوغلي. والاسم السائد لدى المتشردين هو إيفان واللقب نيبومنياشي (فاقد الذاكرة). وأورد عدة أسماء لمتشردين: مصطفى نيبومنياشي، وفاسيلي بيزأوتيتشيستفا (بلا وطن) وفرانس نيبومنياشي وإيفان نيبومنياشي 20 عاماً، وياكوف بيسبروزفانيا (بلا لقب) والمتشرد إيفان 35 عاماً[1]، ورجل مجهول الاسم.

وأوردت في هذا السطر أيضاً علاقة الشخص المسجل بصاحب البيت: الزوجة، الابن، الخليلة، العامل، المستأجر، ابن صاحب البيت وهلمجرا. ولدى تسجيل الأطفال أفرق بين الأبناء الشرعيين وغير الشرعيين، الأصليين والأبناء بالتبني. بالمناسبة غالباً ما نجد في ساخالين أبناء بالتبني، ووجب عليّ أن أسجل ليس الأطفال بالتبني فقط، بل وكذلك الآباء الذين يتبنوهم. وغالباً ما ينظر القاطنون في البيوت إلى رب البيت بصفته من المشاركين في ملكيته أو المشاركين فيها مناصفة. وفي كلتا الدائرتين الشماليتين اثنان أو حتى ثلاثة مالكين للضيعة الواحدة، وهذا هو الحال في أكثر من نصف الضياع. ويأتي المستوطن إلى قطعة الأرض ويبني بيتاً ويوفر التجهيزات والمعدات والماشية، وبعد عامين أو ثلاثة يلحق به مالك آخر أو تعطى قطعة الأرض الواحدة إلى اثنين من المستوطنين دفعة واحدة. وهذا ناجم عن عدم رغبة الإدارة أو عدم قدرتها على إيجاد أماكن جديدة للاستيطان. ويحدث أحياناً أن يطلب المنفي الذي انتهت فترة محكوميته أن يسمح له بالاستقرار في هذا المخفر أو الدسكرة حيث لا توجد ضياع، وعندئذ يجري إسكانه بلا

1- هذا الرقم جزء من اللقب وعمره الحقيقي 48 عاماً.

رغبته في إحدى الضياع الجاهزة القائمة. ويزداد عدد أصحاب الملكيات المتعددة بعد إعلان المراسيم السامية حين تضطر الإدارة إلى البحث عن أماكن لإسكان مئات الأفراد فوراً.

أما السطر الخامس فهو: العمر. والنساء اللواتي تجاوزت أعمارهن الأربعين عاماً لا يذكرن جيداً أعمارهن ويجبن عن السؤال بعد تفكير طويل. والأرمن من محافظة يريفان لا يعرفون البتة أعمارهم. وأجابني أحدهم قائلاً: «ربما، ثلاثون، وربما خمسون». وفي هذه الحالات يتعين تحديد السن بصورة تقريبية، ومن ثم يجب التحقق من الأمر بموجب القوائم الرسمية. وعادة يقلص الشباب في سن 15 عاماً وأكثر أعمارهم. وقالت «عروس» أو فتاة تمارس الدعارة منذ وقت بعيد إنها في سن 13–14 عاماً. ومجمل القضية أن الأطفال والمراهقين في الأسر الفقيرة يتلقون العلاوات من خزانة الدولة حتى سن 15 عاماً فقط. ولهذا لا يذكر الشباب وآباؤهم وأمهاتهم الحقيقة عن أعمارهم.

وخصص السطر السادس للديانة.

أما السطر السابع فهو: أين ولدت؟ كانت الإجابة عن هذا السؤال تتم بلا مشقة، والمشردون فقط يذكرون بحذر بعض الخزعبلات أو «لا أذكر». وأجابت الفتاة ناتاليا نيبومنياشنايا حين سألتها في أية محافظة ولدت بقولها: «في جميعها بقدر قليل». علماً أن أبناء الإقليم الواحد يدعمون بعضهم بعضاً بشكل ملحوظ، ويشنون حملة معاً، وعندما يهربون يفعلون ذلك معاً أيضاً. وأبناء تولا يذهبون إلى ضيعة ابن جلدتهم، وأبناء باكو يذهبون إلى ابن جلدتهم من باكو. ويبدو أنه توجد روابط إقليمية. وعندما غاب أحدهم أعطى أبناء جلدته كل التفاصيل عنه.

السطر الثامن: منذ أي عام تقطن في ساخالين؟ نادراً ما يجيب ساكن ساخالين عن هذا السؤال فوراً، وبلا توتر. إن عام الوصول إلى ساخالين – عام التعاسة الشديدة، إنهم لا يعرفونه أو لا يتذكرونه. سألت امرأة حكم عليها بالأشغال الشاقة في أي عام جيء بها إلى ساخالين، فأجابت بفتور، من دون أن تفكر: «من يعرف ذلك؟ لابد أنه عام 83». فتدخّل الزوج أو

الخليل: - «لم الثرثرة عبثاً؟ لقد جئت في عام 85». فتوافق على ذلك بتنهد قائلة: «ربما في عام 85». بدأنا بالحساب، وتبين أن الموجيك على حق. الرجال ليسوا بطيئين في إعطاء الجواب كالنساء، علماً أنهم لا يجيبون فوراً، بل يستغرقون في التفكير ويسهبون في الحديث.

سألت أحد المستوطنين: - في أي عام جاءوا بك إلى ساخالين؟

- أنا جئت مع وجبة جلادكي الأولى، - قال ذلك بعدم ثقة، وهو يجيل النظر في رفاقه.

وجلادكي الوجبة الأولى، يعني أنه جاء مع أول «متطوع» وصل إلى ساخالين في عام 1879. وهذا ما دونته. أو يرد الجواب التالي: «أنا أمضيت ستة أعوام في الأشغال الشاقة. بينما أصبحت من المستوطنين منذ ثلاثة أعوام.. فحسب». - «معنى ذلك أنك في ساخالين في العام التاسع؟» - «كلا البتة. قبل ساخالين رزحت في السجن المركزي فترة عامين». وهكذا دواليك. أو يرد الجواب التالي: «أنا جئت في العام الذي قتل فيه دربين». أو: «حين توفي ميتسول». وكان المهم بالنسبة إلي على الأخص الحصول على أجوبة صائبة من الذين جاءوا إلى هنا في أعوام الستينيات والسبعينيات. ورغبت في عدم تفويت أحد منهم، ولكن لم يتسن لي ذلك، في أغلب الظن. كم بقي من الذين جاءوا إلى هنا قبل 20-25 عاماً؟ - يمكن القول إن هذا السؤال هو كالقدر بالنسبة إلى استيطان ساخالين.

وفي السطر التاسع كتبت المهنة الرئيسية والحرفة.

في السطر العاشر دونت المعلومات حول - معرفة القراءة والكتابة. وعادة كان السؤال يطرح بالشكل التالي: «هل تحسن القراءة والكتابة؟». - لكنني أسأل كالتالي: «هل تحسن القراءة؟». - وقد أنقذني ذلك في حالات كثيرة من تلقي إجابات غير صحيحة، لأن الفلاحين، الذين لا يحسنون الكتابة ويستطيعون قراءة النصوص المطبوعة فقط، يصفون أنفسهم بأنهم لا يجيدون القراءة والكتابة. وهناك أفراد يصفون أنفسهم بالجهلة من باب التواضع. «من أين لنا ذاك؟ وأين نحن من معرفة القراءة والكتابة؟» - ولدى تكرار السؤال فقط يقولون: «كنت في وقت ما أحسن قراءة النصوص المطبوعة، أما الآن

فقد نسيت. نحن من الجهلة، وبكلمة واحدة – نحن من الموجيك». كما أن الذين لا يبصرون جيداً والعميان يصفون أنفسهم بالجهلة.

كان السطر الحادي عشر يتعلق بالوضع العائلي، الأرامل، العزاب؟ وإذا كان متزوجاً فأين تزوج: في الوطن، في ساخالين؟ وكلمات «متزوج، أرمل، أعزب» لا تحدد في ساخالين بعد الوضع العائلي. فهنا غالباً ما يحكم على المتزوجات على العيش بعزلة بلا زوج، لأن أزواجهن يعيشون في الوطن ولا يطلقونهن، أما العزاب والأرامل فيعيشون حياة المتزوجين ولديهم نصف دزينة من الأطفال. ولهذا كنت أدون كلمة «وحيد» بصدد الذين يمارسون حياة العزوبة ليس بصورة شكلية بل فعلاً، ولو أنهم يعتبرون متزوجين. ليس في روسيا مكان آخر ينتشر فيه الزواج غير الشرعي بصورة مكشوفة على نطاق واسع ويكتسب شكلاً متميزاً كما في ساخالين. إن الزواج غير الشرعي، أو كما يصفونه هنا المعايشة الحرة مع امرأة، لا تجد معارضة من قبل الرؤساء أو رجال الدين بل بالعكس تلقى التشجيع والتأييد. وثمة دساكر لا تجد البتة زواجاً شرعياً فيها. ويكوّن الأزواج الأحرار المزارع والضياع وفق الأسس نفسها التي يتمتع بها الأزواج الشرعيون. إنهم يولدون الأطفال من أجل المستوطنات، ولهذا لا توجد أسباب لوضع قواعد خاصة لهم لدى التسجيل.

أخيراً، السطر الثاني عشر: هل يحصلون على علاوات من خزانة الدولة؟ أردت أن أستوضح من الإجابات عن هذا السؤال أي قسم من السكان لا يستطيع الاستغناء عن الدعم المادي من الخزانة، أو بعبارة أخرى، من يطعم المستوطنة: هل تطعم نفسها بنفسها؟ يتلقى العلاوات من خزانة الدولة حتماً بشكل مواد غذائية أو حاجيات، أو نقود، جميع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، والمستوطنون في الأعوام الأولى بعد انتهاء المحكوميات، والعجزة والأطفال في العوائل الفقيرة. وأشرت بالإضافة إلى هؤلاء المتقاعدين المعترف بهم رسمياً الذين يعيشون على حساب خزانة الدولة، إلى المنفيين الذين يتلقون منها الرواتب لقاء مختلف الخدمات، مثل المعلمين والكتاب والمراقبين وغيرهم. لكنني لم أحصل على الجواب الكامل. فبالإضافة إلى العلاوات العادية، من مواد غذائية ورواتب، تمنح أيضاً على نطاق واسع

علاوات لا يمكن إدراجها في البطاقات، ومثلاً: العلاوة لدى الزواج، وشراء الحبوب من المستوطنين بأسعار عالية مقصودة، والشيء الرئيسي تزويدهم بالبذور والماشية وغير ذلك بقروض. وثمة مستوطن مدين للخزانة بعدة مئات من الروبلات لكنه لن يسددها أبداً، بينما يتعين عليّ أن أسجله بصفته لا يتلقى أي دعم.

لقد شطبت على طول كل بطاقة نسائية بالقلم الأحمر، وأعتقد أن هذا مريح أكثر من استحداث بند خاص بالجنس. وكنت أسجل فقط وجود أعضاء الأسرة، وإذا قيل لي إن الابن الأكبر سافر إلى فلاديفستوك طلباً للرزق، بينما يعمل الثاني في مستوطنة ريكوفسكويه، فإنني لا أسجل الأول قطعاً، بينما أسجل الثاني في البطاقة وفقاً لمحل إقامته.

كنت أتجول من بيت إلى بيت، وأحياناً كان يرافقني أحد السجناء أو المستوطنين، الذي أخذ لنفسه دور الدليل دفعاً للسأم. وأحياناً كان يتبعني من مسافة ما، كظلي، حارس مسلح بمسدس. وكان يكلف بهذه المهمة تحسباً لوجود حاجة تتطلب مني تقديم بعض الإيضاحات. وعندما كنت أوجه إليه أحد الأسئلة أرى جبينه يغرق بالعرق فوراً ويجيب قائلاً: «أنا لا أعرف، ياصاحب السعادة!». وعادة كان مرافقي الحافي القدمين وبلا قبعة يهرول أمامي حاملاً المحبرة بيديه ويدفع الباب بصخب، ويلحق بقول شيء ما لصاحب البيت في المدخل - ربما فرضيته بشأن إحصائياتي. وفي ساخالين بيوت مختلفة، تبعاً للشخص الذي بناها، فإذا كان من سيبيريا يكون البيت صغيراً ومبنياً من جذوع الأشجار، بطول ستة أرشينات وبثلاث نوافذ، وبلا أية زخارف خارجية، وسقفه من التبن واللحاء ونادراً ما يكون من الألواح الخشبية. ولا توجد باحة عادة. ولا تنمو إلى جانبه أية شجرة. ونادراً ما يُبنى مستودع أو حمام من الطراز السيبيري. وإذا وجدت كلاباً فإنها خاملة وليست شريرة وتنبح فقط، كما قلت آنفاً، فقط على الجيلياكيين، ربما لأنهم يلبسون أحذية مصنوعة من جلود الكلاب. ولأمر ما فإن هذه الكلاب المسالمة وغير المؤذية مقيدة بالسلاسل. وإذا وجدت خنازير فتعلق الأجراس على أعناقها.

أنا أسأل صاحب البيت: لم يربط الكلب والديك عندكم بالسلاسل؟

فيجيب مازحاً: - الجميع عندنا في ساخالين مقيدون بالسلاسل. هذا حال الأرض هنا.

يضم البيت حجرة واحدة مع موقد روسي. الأرضية خشبية. هناك طاولة وطابوريتان أو ثلاث طابوريات ومصطبة وسرير مع الفراش أو فراش جهز على الأرض. أو بشكل آخر، حيث لا يوجد أي أثاث بل هناك في وسط الغرفة على الأرض حشية من الريش فقط، ويبدو أنه كان هناك من نهض لتوه من النوم فيها، وعلى رف النافذة قدح مع فتات طعام. ويتبين من مظهرها أنها ليست غرفة بل زنزانة انفرادية. حيثما توجد نساء وأطفال، وما يشبه على أي حال المعدات وحاجيات الفلاح، يتحسس مع ذلك فقدان شيء هام، فلا يوجد هناك جد وجدة، ولا الأيقونات القديمة، وأثاث الأجداد، ومعنى ذلك أن موجودات البيت تفتقد الماضي والتقاليد. لا يوجد ركن الأيقونات، أو أنه فقير وباهت، بلا سراج وزخارف، - لا توجد عادات. الوضع يتسم بالعشوائية، ويبدو كما لو أن الأسرة لا تعيش في بيتها بل في شقة مستأجرة، أو يبدو كما لو أنها وصلت للتوّ ولم تجد الفرصة لتدبير أمورها. لا توجد قطة، وفي الأمسيات الشتوية لا يسمع صوت صرار الليل.. والشيء الرئيسي لا يوجد وطن.

إن المَشاهد التي رأيتها لم تدل عادة على الاستقرار وتوفُّر وسائل الراحة في البيت وكذلك على رسوخ التجهيزات. وغالباً ما كنت ألتقي في البيت رب البيت نفسه، الوحيد، الفقير والبائس، الذي يبدو أنه تجمد بسبب العطالة والملل، وهو يرتدي ثوباً فضفاضاً، بينما يضع المعطف على كتفيه على عادة السجناء، وإذا ما كان قد خرج من السجن منذ فترة قريبة، فتلقى على الطاولة قبعة بلا حافة. والموقد بلا نار، والأواني تتألف فقط من قدر وقنينة ملفوفة بالورق. علماً أنه يتحدث هو نفسه عن حياته وعن محتويات بيته بشيء من السخرية، وباحتقار تشوبه البرودة وعدم المبالاة. ويقول إنه جرب شتى المهن لكن بلا أية فائدة، ولم يتبق لديه سوى: التلويح على كل شيء بيدِهِ. وفيما كنت أتحدث معه اجتمع الجيران في البيت وبدأ الحديث حول مختلف المواضيع: حول الرؤساء في الإدارة والطقس والنساء... إن السأم يدفع الجميع إلى التحدث والإصغاء بلا نهاية. ويحدث أحياناً أن

أجد في البيت بالإضافة إلى رب البيت حشداً من الساكنين والعاملين، بينما يجلس في العتبة ساكن مستأجر - سجين يربط شعره بحزام رفيع، وينهمك في صنع الخفاف. تنبعث هناك رائحة الجلد والقطران. بينما يرقد في حجرة المدخل أطفاله، وهناك تجلس زوجته في العتمة والزحام، علماً أنها جاءت في أعقابه طوعاً، وانشغلت في صنع الفطائر المحشوة بالعنبية فوق طاولة صغيرة. إن هذه الأسرة جاءت من روسيا منذ فترة وجيزة. كما في البيت نفسه خمسة رجال يصف كل واحد منهم نفسه على حدة بأنه إما مستأجر أو عامل أو خليل، ووقف أحدهم بجانب الموقد، منتفخ الأوداج، وجاحظ العينين، ويحمل شيئاً يمسكه بيده، أما الآخر، ويبدو أنه مهرج، فتنم سحنته عن البلاهة، ويدمدم بكلمات ما، بينما يضحك الآخرون في قبضات أيديهم. بينما جلست فوق الفراش الفاسقة البابلية، ربة البيت لوكيريا نيبومنياشايا، شعثاء الشعر، بدينة، يغطي وجهها النمش. إنها تسعى إلى الإجابة عن أسئلتي بشكل مضحك أكثر وتهز في الوقت نفسه ساقيها. وتشع عيناها بالخبث، ونظراتها زائغة، وأستطيع الحكم من وجهها الغائر الخدين الذي يجسد اللامبالاة، كم كابدت خلال حياتها القصيرة حتى الآن من السجون والترحيل والأمراض. ولوكيريا تقرر في البيت طراز الحياة العام. وبفضلها يتأثر الوضع كله وحياة المتشرد المشدوه والتائه. وهنا لا مجال للحديث عن التجهيزات المنزلية. كما حدث أن وجدت في أحد البيوت جماعة كبيرة كانت تلعب القمار قبل دخولي. وبدا على وجوههم الارتباك والسأم والانتظار: متى سأخرج من أجل الإمساك بالورق مجدداً؟ أو دخلت أحد البيوت فلم أجد فيه أثراً للأثاث، والموقد عار، ويجلس بمحاذاة الجدار في صف رهط من الشركس، بعضهم يعتمرون قبعات الفرو وآخرون برؤوس حليقة تماماً وبلا أغطية للرأس، ويبدو أن رؤوسهم صلبة، وينظرون إليّ من دون أن يرف لهم جفن. وإذا ما وجدت في البيت الخليلة فقط فإنها تكون عادة راقدة في الفراش، وتجيب عن أسئلتي، مع التثاؤب والتمطي، وعندما أخرج تعود إلى النوم مجدداً.

كان المنفيون ينظرون إلي باعتباري شخصية رسمية، وإلى إحصاء النفوس باعتباره من الإجراءات الشكلية التي غالباً ما تجري هنا عادة. علماً

أن بعض الفضول كان يراود المنفيين هنا لأنني لست من الأهالي المحليين، ولست موظفاً ساخالينياً. ويوجه إلي السؤال:

- لماذا تسجلنا جميعاً؟

عندئذ كانت تطرح شتى الفرضيات. وقال البعض إن الرئاسة العليا ربما تريد أن توزع العلاوات على المنفيين، بينما أكد آخرون أن الرئاسة قررت في نهاية المطاف نقل الجميع إلى القارة، - وهنا تسود قناعة راسخة وبإصرار على أن سجناء الأشغال الشاقة والمنفيين سينقلون إن عاجلا أو آجلا إلى القارة، - وتبدي فئة ثالثة شكوكها بالقول إنهم لا ينتظرون أي خير، لأن الرب نفسه قد تخلى عنهم، ويقال هذا من أجل استثارة اعتراضي. ويتردد من المدخل أو من فوق الموقد صوت يسخر كما يبدو من جميع هذه الآمال والافتراضات، ويجسد الوهن والسأم والكآبة:

- إنهم يواصلون الكتابة والكتابة، ثم يواصلون الكتابة، ورحماك ياملكة السماوات!

لم يحدث لي إبان وجودي في ساخالين أن كابدت الجوع وعانيت من أية حرمانات عموماً. لقد قرأت ما يفيد بأن المهندس الزراعي ميتسول الذي أجرى دراسات في الجزيرة كان يعاني من الفاقة الشديدة وحتى اضطر إلى أكل كلبه. لكن الأوضاع تغيرت كثيراً منذ ذلك الحين. إن المهندس الزراعي الحالي يجوب في طرق ممتازة، وحتى في أكثر الدساكر فقراً توجد هيئات رقابة، أو ما يسمى وحدات الإغاثة حيث يمكن أن يجد المرء فيها دائماً الملجأ الدافئ والسماور والفراش. وعندما يتوجه الباحثون إلى عمق الجزيرة، إلى التايغا، يأخذون معهم المعلبات الأمريكية، والنبيذ الأحمر، والأطباق، والشوك والمخدات وكل ما يمكن أن يوضع على كاهل السجناء الذين يحلون في ساخالين محل حيوانات الحمل. وقد يحدث الآن أيضاً أن يأكل الناس اللحم الفاسد مع الملح أو يأكل بعضهم بعضاً. لكن هذا لا يخص السياح أو الموظفين.

في الأبواب التالية سأقدم وصفاً لمراكز الحراسة وفي الوقت نفسه سأطلع القارئ على أعمال السجناء وعلى السجون، حيث تسنى لي التعرف

عليها خلال فترة قصيرة. وأعمال السجناء في ساخالين متباينة بأكبر قدر، إنها لا تتخصص في استخراج الذهب أو الفحم، بل تشمل جميع جوانب الحياة في ساخالين ومنتشرة في كل المناطق السكنية في الجزيرة. إن أصناف عمل السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة تشمل قطع الأشجار والبناء وتجفيف المستنقعات وصيد الأسماك وحصاد العشب وتحميل البواخر، وهذه الأعمال اندمجت بحكم الضرورة مع الحياة في الجزيرة لدرجة أن إبرازها بصورة منفصلة والتحدث عنها كشيء مستقل موجود في الجزيرة، لا يمكن إلا لدى إلقاء نظرة روتينية فقط إلى المسألة، التي تبحث في الأشغال الشاقة قبل كل شيء عن المناجم والأعمال في المصانع.

سأبدأ من وادي ألكسندروفسكي، من الدساكر الواقعة على نهر دويكا. وكان هذا الوادي الواقع في شمال ساخالين أول منطقة اختيرت للسكن ليس لأنها درست أفضل من جميع المناطق أو تتجاوب مع متطلبات الاستيطان، بل بالصدفة فحسب، بفضل كونها الأقرب إلى دويه حيث بدء نقل المحكومين بالأشغال الشاقة إليها.

-4-

نهر دويكا. - وادي ألكسندروفسكي. - بلدة ألكسندروفسك. - بروديا كا كراسيفي. - مخفر ألكسندروفسك. - ماضيه. - الخيام. - باريس الساخالينية.

كان عرض نهر دويكا، أو كما يسمونه - ألكسندروفكا، في عام 1881، حين قام بدراسته عالم البحوث الحيوانية بولياكوف، في مجراه الأسفل يبلغ حتى عشرة ساجنات، وتتراكم على ضفافه أكداس من الأشجار الساقطة في الماء، بينما يغطى مجراه الأسفل بأشجار قديمة تتألف من التنوب واللارقس والحورة الرومية وصفصاف الغابات. وتتداح في كل مكان المستنقعات الهشة الوعرة. إن النهر في الوقت الحاضر يشبه بركة ضيقة طويلة. كما أنه من حيث العرض والضفاف العارية كلياً والمجرى الضعيف يذكرني بنهر كانافا بموسكو.

لا بد من قراءة وصف بولياكوف لوادي ألكسندروفسكي والتطلع إليه الآن، ولو بصورة عابرة، لكي نفهم مدى ضخامة الجهد الثقيل، والشاق حقاً، الذي بذل من أجل استيطان هذا المكان. كتب بولياكوف: «يبدو وادي ألكسندروفسكي من علو الجبال المجاورة مكاناً خانقاً ومقفراً تغطيه الغابات.. وتغطي غابة صنوبر هائلة مناطق كبيرة في قاعه». ويصف المؤلف المستنقعات والسبخات الوعرة، والتربة المقفرة والغابات «حيث لا توجد سوى الأشجار العملاقة الرابضة فوق جذورها، وغالباً ما تنتشر في الأرض جذوع الأشجار الضخمة شبه المتعفنة، والساقطة بسبب القدم أو العواصف. وغالباً ما تنبجس بين الجذوع وفي الجذور نتوءات صغيرة

يغطيها الطحلب، وإلى جانبها حفر وخنادق». الآن تقوم هناك مدينة كاملة محل التايغا والمستنقعات والأخاديد، وشقت الطرق، وتنمو الحشائش الخضراء في المراعي، وتمتد حقول الجوادار والبساتين، وبدأت تتردد الشكاوى بشأن قلة الأشجار.

يضاف إلى العمل الكثير والصراع مع الطبيعة، حين كان العمال يقفون في مياه المستنقعات حتى الحزام، اشتداد الزمهرير والأمطار الباردة والحنين إلى الوطن والإساءات وعقوبة الجلد بالعصي - عندئذ تنبجس في خيالي أشباح رهيبة. وليس عبثاً إن كان أحد الموظفين في ساخالين، وهو رجل طيب، يتلو لي في كل مرة نذهب فيها معاً إلى مكان ما قصيدة نيكراسوف «الدرب الحديدي».

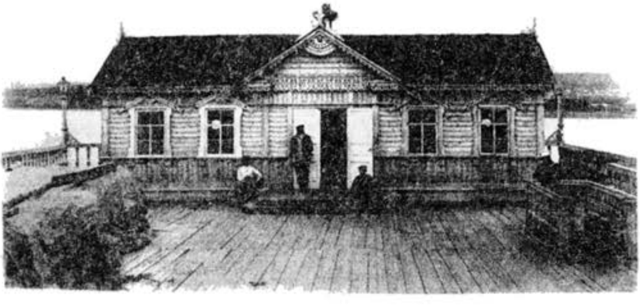

رصيف المرسى في ألكسندروفسك

يصب في نهر دويكا نهير صغير من الجهة اليمنى عند مصب النهر، ويطلق عليه اسم نهير ألكسندروفسكي الصغير. وتقوم على ضفتيه بلدة أو دسكرة «سلوبودكا» ألكسندروفسك. وقد أشرت إليها آنفاً. إنها تقع في أطراف المخفر وقد التحمت معه، لكن بما أنها تتميز عنه ببعض الصفات، وتحيا بصورة مستقلة، لذا يستحق الأمر التحدث عنها بصورة خاصة. إنها

إحدى أقدم المستوطنات. وبدأ الاستيطان فيها فور تطبيق نظام إسكان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في دويه. وكما كتب ميتسول فإن الدافع لاختيار هذا المكان بالذات، وليس غيره، يكمن في توفر الرياض الفاخرة والغابة الكثيفة الجيدة والنهر الصالح للملاحة والتربة الخصبة... وكتب هذا المتعصب الذي وجد في ساخالين أرض الميعاد: «يبدو أنه لا مجال للشك في إنجاز الاستيطان بنجاح، لكن من مجموع ثمانية أشخاص أرسلوا إلى ساخالين لهذا الغرض في عام 1862 استقر أربعة فقط على ضفاف دويكا». ماذا كان يستطيع هؤلاء الأربعة عمله؟ إنهم حرثوا الأرض بالفأس والمعزقة وبذروا البذور، وحصلوا في الربيع بدلاً من المحاصيل الربيعية على محاصيل شتوية، وانتهى الأمر بأنهم طلبوا إعادتهم إلى بر القارة. وفي عام 1869 تأسست مزرعة بدلاً من سلوبودكا. ووجب عندئذ معالجة مشلكة هامة جداً هي: هل يمكن أن يستخدم في العمل الزراعي بنجاح العمل القسري للمنفيين؟ وقام السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة خلال ثلاثة أعوام بأعمال اجتثاث الأحراش وبناء البيوت وتجفيف المستنقعات وشق الطرق وزراعة الحبوب، ولكن بعد انتهاء محكومياتهم لم يرغبوا في البقاء هناك، وطلبوا من الحاكم العام نقلهم إلى القارة لأن زراعة الحبوب لم تعط أي شيء، ولم يكسبوا أي أجر. وتمت الاستجابة لطلباتهم. لكن ما كان يسمى بالمزرعة واصل البقاء. وأصبح سجناء دويكا بمرور الزمن من المستوطنين، وجاء من روسيا سجناء جدد مع عوائلهم، ووجب إسكانهم. وصدر الأمر باعتبار أرض ساخالين خصبة وصالحة من أجل الاستيطان الزراعي، وحيث الحياة يمكن أن تنتظم بصورة طبيعية، وتكونت هناك شيئاً فشيئاً بصورة مصطنعة، وقسرية، وبإنفاق أموال طائلة وبجهود القوى البشرية. وفي عام 1879 وجد الدكتور أفغوستينوفتش في سلوبودكا 28 بيتاً[1].

في الوقت الحاضر توجد في سلوبودكا 15 ضيعة. والبيوت هناك بسقوف

1- أفغوستينوفتش. بعض المعلومات حول ساخالين. مقطع من كتاب الأسفار. - مجلة «سوفريمنيك»، 1880 / العدد1. وتوجد أيضاً مقالته «الرحلة إلى جزيرة ساخالين». - الوقائع الحكومية». 1879، العدد 276.

من ألواح الخشب، وهي واسعة، وتتالف أحياناً من عدة غرف، والمباني الملحقة في الفناء جيدة، وهناك حدائق. كما يوجد حمام لكل بيتين.

ويرد في السجل أن مساحة الحقول المحروثة ¾ 39، منها حقول الأعلاف ½ 24 ديسياتيناً. وعدد الخيول 23 والأبقار والأغنام 47.

وتعتبر سلوبودكا من حيث نوعية الضياع فيها بلدة أرستقراطية: فهناك مستشار من الطبقة السابعة متزوج من ابنة أحد المستوطنين، وآخر حر جاء إلى الجزيرة للالتحاق بوالدته المحكوم عليها بالأشغال الشاقة، وسبعة فلاحين منفيين واثنان من سجناء الأشغال الشاقة فقط.

ومن بين 22 عائلة تقطن هنا توجد 4 عوائل غير شرعية. وتقترب سلوبودكا من حيث أعمار سكانها من القرية العادية. علماً أن سن العامل فيها لا يغلب بحدة كما في البلدات الأخرى، ففيها أطفال وصبيان وصبايا وشيوخ تتجاوز أعمارهم 65 عاماً وحتى 75 عاماً.

ويطرح السؤال كيف تفسر الرفاهية النسبية لسلوبودكا حتى على الرغم من قول الأهالي المحليين «لا يمكن أن يعيش المرء من الزراعة»؟ ويمكن جواباً عن ذلك إيراد عدة أسباب تنسب في الظروف العادية إلى الحياة الصحيحة والمستقرة والمرفهة. فمثلاً، إن نسبة كبيرة من المستوطنين الكبار السن الذين جاءوا إلى ساخالين قبل عام 1880 قد تأقلموا بنجاح مع الأرض هنا واستصلحوها. وثمة شيء هام أيضاً فقد التحقت بـ 19 رجلاً في ساخالين نساؤهم، وجميع القاطنين في المزارع هنا لديهم عوائل. وعدد النساء كاف نسبياً، ولهذا يوجد 9 رجال فقط وحدهم، علماً أن أي واحد منهم لا يحيا حياة العزوبية. وعموماً فقد حالف الحظ بلدة سلوبودكا ويمكن أن نذكر من بين الظروف الطيبة أيضاً وجود نسبة عالية ممن يحسنون القراءة والكتابة: 26 رجلاً و11 امرأة.

بالإضافة إلى الحديث عن المستشار من الطبقة السابعة الذي يشغل في ساخالين وظيفة مهندس مساحة، ولا أعرف السبب الذي يجعل أصحاب الضياع الأحرار والفلاحين المنفيين لا ينتقلون إلى القارة إذا ما كانوا يتمتعون بهذا الحق؟ يقال إن ما يبقيهم في سلوبودكا هو النجاح في الزراعة،

لكن هذا لا يشمل الجميع. فلا يمتلك مروج الحشائش والأراضي الزراعية جميع أصحاب البيوت بل بعضهم فقط. والمروج والماشية موجودة لدى 8 من أصحاب الضياع، ويزرع الأراضي 12، وعلى أي حال فإن مساحات الأراضي الزراعية هنا ليست كبيرة إلى حد يمكننا القول إن الوضع الاقتصادي جيد حصراً. ولا توجد أية مصادر إضافية لكسب الرزق ويوجد متجر لدى واحد فقط هو الضابط السابق «ل». كما لا توجد معطيات رسمية تفسر السبب الذي يجعل أهالي سلوبودكا أغنياء. ولهذا نلجأ بلا إرداة إلى حل اللغز إلى مصدر السمعة السيئة الوحيد في هذه الحال. ففي الأزمان السابقة كانت تمارس تجارة الكحول على نطاق واسع في سلوبودكا. علماً أن ترويج الكحول وبيعه ممنوعان منعاً باتاً في ساخالين. وولّد هذا نوعاً خاصاً من التهريب. وكان الكحول يجلب في أوعية بشكل قوالب السكر، وفي السماورات، وحتى يكاد ينقل في الأحزمة، وفي غالب الأحيان في البراميل وأواني المطبخ العادية، علماً أن الموظفين الصغار المحليين يتم شراء ذممهم. أما كبار الموظفين فكانوا يتجاهلون الأمر. وكانت قنينة الفودكا الرديئة تباع في سلوبودكا بمبلغ 6 وحتى 10 روبلات. وكانت جميع السجون في شمال ساخالين تحصل على الفودكا من هنا بالذات. ولم يكن يتورع عن شربها حتى الموظفون المدمنون على شرب الخمر. وأنا أعرف واحداً منهم كان أثناء تواصل السكر مستعداً أن يتخلى للسجناء عن كل ما يملك بغية الحصول على قنينة خمر.

في الوقت الحاضر يسود الهدوء في سلوبودكا أكثر فيما يخص الكحول. الآن يجري الحديث عن حرفة أخرى – هي تجارة الحاجات العتيقة للسجناء – «سقط المتاع». فيجري شراء الأردية والقمصان ومعاطف الفرو القصيرة بأسعار زهيدة، وتباع كل هذه الأسمال في نيقولايفسك. كما توجد صناديق القروض السرية. ووصف البارون أ. ن. كورف في أثناء الحديث معه مخفر ألكسندروفسك بأنه باريس الساخالينية. وتتم في سلوبودكا بالذات جميع الصفقات في «باريس» الصاخبة والجائعة هذه.. فيما يخص الأمورالشيقة والسكيرة والظريفة والضعيفة، حينما يريد المرء أن يشرب الخمر أو يبيع شيئاً ما سرقه أو يبيع روحه إلى الشيطان. ويوجد في الفسحة بين ساحل

البحر والمخفر، باستثناء طريق السكك الحديدية، وسلوبودكا الآنفة الذكر، أحد المعالم البارزة الأخرى. إنها وسيلة النقل عبر دويكا. ويوجد في الماء بدلاً من القارب أو العبارة صندوق عائم كبير مربع تماماً. وربان هذه السفينة الوحيدة من نوعها هو السجين المحكوم بالأشغال الشاقة كراسيفي، الذي لا يذكر أصله. لقد تجاوز السبعين من العمر. إنه أحدب، ولوحا الكتفين في جسمه بارزان، وأحد أضلاعه مكسور، وإبهام إحدى يديه مقطوع، وتغطي جسده كله ندوب ناجمة عن لسع السياط وضرب العصي في زمن ما. لا أثر للشيب في شعره، ويبدو كما لو أن شعر رأسه قد فقد لونه، والعينان زرقاوان، صافيتان، وفيهما نظرات تنم عن الطيبة والمرح. إنه يرتدي الأطمار ويمشي حافي القدمين. كما أنه سريع الحركة وكثير الكلام ويحب الضحك. في عام 1855 هرب من الخدمة العسكرية «بسبب الحماقة» وأصبح متشرداً، ويصف نفسه بأنه مجهول النسب. وتم إلقاء القبض عليه ونسب إلى ما وراء بايكال، حسب قوله، لكي يلتحق بالقوزاق.

وروى لي قائلاً: - آنذاك كنت أعتقد أن البشر في سيبيريا يعيشون تحت الأرض، فهربت عندما كنت في الطريق إلى تيومين. ووصلت إلى كاميشلوف وهناك ألقي القبض علي، وحكم علي، ياصاحب السعادة، بالأشغال الشاقة لمدة 20 عاماً و90 جلدة. جرى نقلي إلى كارا، وهناك عوقبت بالجلدات المذكورة، ومن هناك نقلت إلى ساخالين إلى بلدة كورساكوفسك. فهربت من كورساكوفسك مع رفيق لي وبلغنا سهل دويه فقط: هناك أصابني المرض ولم أستطع مواصلة السير. أما الرفيق فقد وصل إلى بلاغوفيشينسك. والآن أقضي فترة العقوبة الثانية هنا في ساخالين لمدة 22 عاماً. وكانت جريمتي كلها تكمن في أنني هربت من الخدمة العسكرية.

- لماذا تخفي الآن اسمك الحقيقي؟ ما الحاجة إلى ذلك؟

- إنني أبلغت موظفاً باسمي؟

- وماذا بعد؟

- لا شيء قال الموظف: «فيما نستفسر نحن عنك، ستنتقل أنت إلى جوار ربك. فعش هكذا. وما حاجتك إلى ذلك؟». هذا حق، بلا خطأ...

الأمر سواء حيث إنني لن أعيش طويلاً. مع ذلك، أيها السيد الطيب، إن الأهل كانوا سيعرفون أين أنا.

– ما هو اسمك؟

– اسمي هنا إيغناتييف فاسيلي، يا صاحب السعادة؟

– والاسم الحقيقي؟

فكر كراسيفي هنيهة ثم قال:

– نيكيتا ترافيموف. أنا من قضاء سكوبينسكي. محافظة ريازان.

بدأت عبور النهر بواسطة «الصندوق». وكان كراسيفي يرتكز بعصا طويلة على القاع بكل جسده الهزيل البارز العظام. وهذا عمل شاق.

– لابد أن عملك شاق؟

– لا بأس، ياصاحب السعادة، لا يدفعني أحد في رقبتي، وأنا أدفع العبارة بيسر.

روى لي أنه خلال 22 عاماً من وجوده في ساخالين لم يجلد ولم يحتجز في السجن الانفرادي قط ولو مرة واحدة.

– إنهم حين يرسلونني إلى الغابة لقطع الأشجار – أذهب، وحين يعطونني هذه العصا بيدي – آخذها، وحين يأمرونني بإيقاد النار في الموقد في مكتب الإدارة – أوقدها. يجب الطاعة. الحياة طيبة، ويجب عدم إغضاب الرب. الحمد لك يارب!

في الصيف يعيش كراسيفي في خيمة «يورتا» بالقرب من رصيف العبور. ولديه في الخيمة أسمال وقالب خبز وبندقية صيد، وتسود هناك رائحة كحولية وحمضية. وأجاب عن السؤال حول ما حاجته إلى البندقية فقال – بغية إخافة اللصوص وطيور الشناقب – وضحك. بندقية الصيد عاطلة وموجودة هناك فقط للهيبة. في الشتاء يتحول إلى حطاب ويسكن في غرفة الإدارة عند المرسى. في إحدى المرات رأيته وقد رفع أطراف سرواله عالياً وبانت ساقاه البارزتا العروق والنفسجيتان، وسحب مع رجل صيني شبكة فيها أسماك السلمون الأحدب، وكل واحدة منها بحجم أسماك الفرخ عندنا. هتفت له محيياً فأجابني بابتهاج.

تأسس مخفر ألكنسدروفسك في عام 1881. وحدثني موظف يعيش في ساخالين منذ 10 أعوام أنه حين جاء إلى مخفر ألكسندروفسك أول مرة كاد يغوص في المستنقعات. بينما روى القمص إيراكلي الذي يعيش في ألكسندروفسك منذ عام 1886 أنه لم يكن هناك في البداية سوى ثلاثة بيوت وثكنة صغيرة يعيش فيها الموسيقيون الآن، إنها كالسجن. والشوارع هناك مرصوفة بجذوع الأشجار. وكان يجري في عام 1882 اصطياد السمور في موضع معمل الطوب حالياً. وعرض على الأب إيراكلي أن يستخدم بدلاً من الكنيسة كشك الحارس. لكنه رفضه بذريعة ضيق المكان. وصار يقوم بالطقوس الدينية حين يكون الطقس جيداً في الهواء الطلق في الساحة، وحينما يكون الطقس رديئاً يقوم بها في الثكنة أو أي مكان، ويقام قداس واحد.

وروى قائلاً: - كنت أقوم بالصلاة وحولي صليل السلاسل - ضجيج وقيظ ناجم عن المرجل. وحينما أتلو «المجد للقدوس الأوحد»، يطلق أحدهم الشتائم إلى جانبي - «سأريك... يا إب..».

بدأ نمو ألكسندروفسك بصورة حقيقية بعد صدور المرسوم الجديد حول ساخالين. واستحدثت وظائف كثيرة جديدة، إحداها برتبة جنرال. ووجب أن يوفر للموظفين الجدد ومكاتبهم محل جديد، حيث وجدت قبل هذا في دويه بلدة باسم سلوبودكا، ولكن المكان هناك ضيق وقاتم. وكانت سلوبودكا تقع على مسافة ست فرستات من دويه، ووجد سجن على ضفاف دويكا، وبدأ شيئاً فشيئاً بناء مكاتب الإدارة إلى جوارها- المباني الخاصة بالموظفين والكنيسة والمستودعات والحوانيت وهلمجرا. وشيد ما لا يمكن الاستغناء عنه في ساخالين، وبالذات المدينة، «باريس» الساخالينية، حيث المجتمع والوضع المطلوب ورغيف الخبز من أجل أهل المدينة، الذين لا يستطيعون تنفس سوى هواء المدينة وممارسة شؤون المدينة فقط.

كان سجناء الأشغال الشاقة يتولون إنشاء مختلف المباني واقتلاع الجذامير وتجفيف التربة. وقبل عام 1888، أي قبل بناء السجن الحالي، كانوا يعيشون في الخيام - الملاجئ تحت الأرض. إنها عبارة عن جذوع أشجار مغروسة في الأرض بعمق 2-2½ أرشين، وبسقوف ترابية بطبقتين. وكانت النوافذ صغيرة وضيقة وبمستوى الأرض، والمكان مظلم ولا سيما

في الشتاء، حين تغطي الثلوج الخيمة – اليورطة. وكانت الرطوبة في هذه الأقبية فظيعة حين يرتفع منسوب المياه أحياناً حتى مستوى الأرضية، وبسبب الرطوبة الدائمة في السقوف الترابية وفي الجدران الرخوة والنتنة. وكان الأفراد ينامون بمعاطف الفرو القصيرة. وكانت التربة حول المكان، وكذلك البئر والماء، ملوثة دائما بالبراز البشري وبمختلف النفايات، حيث لم يكن هناك مرحاض ولا حفرة قمامة أصلاً. وكان السجناء يعيشون في هذه الأقبية مع زوجاتهم وأطفالهم.

في الوقت الحاضر تشغل ألكسندروفسك مساحة حوالي فرستين مربعين، ولكن بما أنها اندمجت مع سلوبودكا، ويؤدي أحد الشوارع فيها إلى بلدة كورساكوفسك، بغية أن تندمج معها في المستقبل القريب، فإن مساحتها أكبر بكثير. وفيها عدة شوارع مستقيمة لكن لا تطلق عليها تسمية شوارع، بل كالسابق تسمى سلوبودكات. ويسود في ساخالين أسلوب تسمية الشوارع على شرف الموظفين حتى وهم أحياء.. وتطلق التسمية ليس بالألقاب فقط بل حتى بالأسماء وأسماء الآباء[1]. ولحسن الحظ فإن ألكسندروفسك لم تكرم بعد باسم أي موظف، والشوارع فيها تحافظ حتى اليوم على أسماء الأحياء والشوارع (السلوبودكات) التي نشأت منها: كيبربيتشنايا، بيسيكوفسكايا، كاسيانوفسكايا، بيسارسكايا، سولداتسكايا. وليس من الصعب معرفة أصل هذه التسميات باستثناء بيسيكوفسكايا. ويقال إن السجناء أطلقوا هذه التسمية تكريماً لظفائر يهودي كان يتاجر هنا، حينما كانت غابات التايغا في مكان سلوبودكا، وتفيد رواية أخرى أن القروية بيسيكوفا كانت تبيع السلع هنا.

الأرصفة في الشوارع خشبية، وتسود في كل مكان النظافة والنظام، حتى في الشوارع البعيدة حيث تزدحم الأسر الفقيرة، لا توجد برك ماء وأكوام من النفايات. والجوهر الرئيسي للمخفر يتمثل في القسم الرسمي منه: الكنيسة، بيت حاكم الجزيرة، ومكتب إدارته، ومكتب البريد والتلغراف، ومديرية

1- لنفرض أن اسم الموظف هو إيفان بتروفيتش كوزنيتسوف، فتطلق على أحد الشوارع تسمية كوزنتسوفسكايا والآخر إيفانوفسكايا والثالث إيفانوفو- بتروفسكايا.

الشرطة مع المطبعة، وبيت رئيس الدائرة، ومتجر صندوق الاستيطان، والثكنات العسكرية، ومستشفى السجن، والمستشفى العسكري، والمسجد مع المنارة الجاري تشييده، والبيوت الحكومية التي يقطن فيها الموظفون وسجن المبعدين والمحكومين بالأشغال الشاقة بمستودعاته وورشه الكثيرة. علماً أن غالبية المباني جديدة، وتتميز بالطراز الأوروبي، وسقوفها حديدية وغالباً ما تطلى بالأصباغ من الخارج. إذا ما استثنينا شقق الموظفين والضباط وبلدة الجنود حيث يقطن الجنود أزواج الحرائر - وهن عنصر غير ثابت ويتغير هنا سنوياً - فإن مجموع الضياع في ألكسندروفسك يبلغ 298. وعدد السكان 1499: عدد الرجال بينهم 923 والنساء 576. وإذا أضفنا إلى ذلك السكان الأحرار والقيادة العسكرية والسجناء المحكومين بالأشغال الشاقة الذين يبيتون في السجون ولا يشاركون في الأشغال في المزارع والضياع، فإن الرقم يصل إلى 3000. وبالمقارنة مع سلوبودكا فإن عدد الفلاحين هنا قليل جداً، بينما يبلغ المحكومون بالأشغال الشاقة ثلث مجموع أصحاب الضياع. علماً أن القانون حول النفي يسمح للمنفيين بالعيش خارج السجون، لذا يسمح للسجناء ممن ثبت صلاحهم بامتلاك الضياع، لكن يجري باستمرار الالتفاف على هذا القانون

نظراً لكونه غير عملي. إذ يعيش في الضياع ليس من تم إصلاحهم فقط، بل وكذلك من هم موضع الاختبار والمحكومون بالسجن لفترات طويلة وحتى بالسجن المؤبد. علاوة على النساخين ورسامي الخرائط والحرفيين الجيدين الذين بحكم مهنهم لا يعيشون في السجون، وفي ساخالين أسر كثيرة من المحكومين بالأشغال الشاقة، من الأزواج والآباء، الذين لا يعتبر شيئاً عملياً فصلهم عن أسرهم وإبقاؤهم في السجن. فمن شأن ذلك أن يحدث فوضى كثيرة في حياة المستوطنات. ولوجب عندئذ احتجاز العوائل أيضاً في السجون أو توفير السكن والطعام لها على حساب خزانة الدولة، أو إبقاؤهم في موطنهم حيت ينهي رب الأسرة فترة محكوميته.

أما السجناء من فئة الجاري اختبارهم فيعيشون في البيوت الريفية ولهذا يعاقبون في غالب الأحيان بصورة أقل من الذين جرى إصلاحهم. وهنا تنتهك بحدة فكرة المساواة في العقاب، لكن انعدام النظام هذا يبرر

بالأحوال التي تسود في حياة المستوطنة، وفي الوقت نفسه يمكن تصحيحه بيسر: يكفي فقط نقل بقية المعتقلين من السجن إلى البيوت الريفية. ناهيك الحديث عن السجناء أرباب الأسر الذين لا تجوز معاملتهم بنظام آخر – وهو نظام عدم التبذير في إنفاق الأموال من قبل الإدارة، مما يجعل الإدارة تسمح لعشرات الأسر بالاستقرار حيث لا توجد فيها ضياع أو أراض زراعية أو حقول الأعشاب التي تستخدم كعلف، في الوقت نفسه يهيمن العزاب فقط في مستوطنات الدوائر الأخرى، التي فيها ظروف مناسبة أكثر، لكنها لا تعطي مردوداً البتة بسبب نقص النساء. وفي جنوب ساخالين، حيث يتم جني المحاصيل سنوياً، ضياع بلا أية امرأة، بينما تعيش في باريس الساخالينية 158 امرأة من الحرائر جئن طوعاً للالتحاق بأزواجهن.

ليس في ألكسندروفسك أرض لإقامة الضياع فيها. وفي الأيام الماضية حين كانت الأراضي فسيحة كان يخصص للضيعة الواحدة 100–200 وحتى 500 ساجن مربع (الساجن يعادل 6 أقدام – المترجم)، بينما يعطى الآن 12 ساجناً وحتى 9 و8 ساجنات. وقد أحصيت 161 ضيعة يقطن أهلها في البيوت والحدائق الملحقة بها وتبلغ مساحتها ما لا يربو على 20 ساجناً مربعاً. ويقع الذنب في ذلك بصورة أساسية على الظروف في وادي ألكسندروفسك: إذ لا يجوز الزحف إلى الوراء نحو البحر، فالتربة لا تصلح للزراعة، أما في الأطراف فتقف الجبال حاجزا أمام التوسع، ولا يتبقى عندئذ سوى التوسع في اتجاه واحد هو في أعلى مجرى نهر دويكا، في ما يسمى طريق كورساكوف: هنا تمتد الضياع في صف واحد ويزاحم بعضها بعضاً.

وطبقا للإحصائيات الرسمية للضياع فإن الأراضي الزراعية متوفرة لدى 36 ضيعة فقط، وحقول أعشاب الأعلاف لدى 9 فقط. وتتراوح مساحة الأراضي الزراعية لكل ضيعة ما بين 300 ساجن وهكتار واحد. والجميع تقريباً يزرعون البطاطس. وتوجد خيول فقط لدى 16 والأبقار لدى 38، علماً أن الماشية متوفرة لدى الفلاحين وكذلك لدى المستوطنين الذين لا يمارسون الزراعة بل التجارة. ويمكن أن نستخلص من هذه الأرقام القليلة أن المَزارع في ألكسندروفسك ليست من أجل جني محاصيل الحبوب. وتتبين قلة جاذبية الأرض هنا من أنه ليس فيها شيوخ تقريباً من أصحاب

الضياع الأوائل. فلم يبقَ أحد من بين الذين جاءوا إليها في عام 1881. وفيها 6 فقط ممن جاءوا في عام 1882، و4 ممن جاءوا في عام 1883، و13 من عام 1884، و68 من عام 1885. ويعني ذلك أن 207 مستوطنين من الباقين قد جاءوا إلى هنا بعد عام 1885. واعتماداً على العدد القليل جداً من الفلاحين – وعددهم 19 فقط – يمكن أن نستخلص أن كل صاحب ضيعة يستقر فيها الفترة الزمنية اللازمة له من أجل الحصول على حقوق الفلاح، أي الحق في ترك المزرعة والانتقال إلى القارة.

السؤال المطروح هو بأية موارد يعيش السكان في ألكسندروفسك. وهذا السؤال باق بلا جواب واف لدي حتى الآن. لنفرض أن أصحاب الضياع وزوجاتهم وأطفالهم يقتاتون، مثل الإيرلنديين، على البطاطس فقط، وأنها تكفيهم طوال العام. لكن ماذا يأكل الـ 241 مستوطناً و358 سجيناً من كلا الجنسين، الذين عاشوا في البيوت الريفية بصفة خليل وخليلة ومستأجرين وعمال؟ حقاً، فإن نصف السكان تقريباً يتلقون علاوات من خزانة الدولة أي العلاوات للسجناء وللأطفال. وهناك مكاسب من العمل. إذ يعمل أكثر من مائة شخص في الورشات والدوائر الحكومية. ويدون في البطاقات لدى العديد من الصناع والحرفيين الذين لا يستغنى عنهم في المدينة: النجارون والمنجدون والصاغة والساعاتية والخياطون وغيرهم. علماً أن أجور النجارين والحدادين عالية جداً في ألكسندروفسك، كما أن «البقشيش» لا يقل عادة عن الروبل. لكن هل تكفي علاوات السجناء والأجور الزهيدة جداً، لإدامة الحياة في المدينة؟ إن العرض يزيد عن الطلب لدى الحرفيين بشكل لا يقاس، بينما يعمل العمال غير الماهرين، النجارون مثلاً، مقابل 10 كوبيكات في اليوم. والسكان هنا يدبرون أمور معيشتهم بشكل من الأشكال، لكنهم مع ذلك يشربون الشاي ويدخنون التبغ التركي في كل يوم، كما يرتدون الملابس كالأحرار ويدفعون بدلات إيجار الشقق. إنهم يشترون البيوت من الفلاحين، ويسافرون إلى القارة ويبنون بيوتاً جديدة. وتعمل إلى جانبهم المتاجر والحوانيت ويعيش أيضاً هناك عشرات آلاف الفلاحين الأثرياء (الكولاك) من أوساط السجناء.

ثمة أمور غامضة كثيرة هنا، وتولدت لدي فرضية مفادها أن غالبية السكان

في ألكسندروفسك يأتون إلى هنا من روسيا ومعهم النقود، وأن النقود غير القانونية تشكل عوناً كبيراً لهم. إن شراء حاجيات السجناء ثم بيعها بكميات كبيرة في نيقولايفسك، واستغلال أبناء الشعوب الصغيرة الأخرى والسجناء - الحديثي العهد في الاعتقال وتجارة الكحول السرية، وإقراض النقود بفوائد عالية جداً وممارسة لعب القمار برهانات كبيرة، - هي من الأعمال التي يقوم بها الرجال. أما النساء، السجينات والحرائر، اللواتي يلتحقن طوعاً بالرجال، فهن يمارسن الدعارة. وعندما سئلت امرأة حرة أثناء الاستجواب من أين لديها النقود، أجابت: «كسبتها بجسدي».

يبلغ عدد جميع الأسر 332: منها 185 أسرة شرعية و147 أسرة غير شرعية. علماً أن عدداً كبيراً من الأسر نسبياً لا يمارس أية مهنة معينة، بينما يحيا حياة عائلية مستقرة، لكن بالصدفة: بسبب طيش الإدارة المحلية، التي تمنح قطع الأرض في ألكسندروفسك، وليس في مكان مناسب آخر، والسهولة التي يحصل بها المستوطن على امرأة بفضل تقربه من الرئاسة والسجن. وإذا ما سارت الحياة وتواصلت ليس في مجراها الطبيعي، بل بصورة مصطنعة، وإذا ما كان تطورها لا يتوقف على الظروف الطبيعية والاقتصادية، قدر ما يتوقف على النظريات وتعسف بعض الأفراد، فإن مثل هذه الصدف تجعل الفرد خاضعاً لها بقوة وبشكل لا مفر منه، وتصبح بمنزلة القوانين بالنسبة إلى هذه الحياة المصطنعة.

-5-

سجن المنفيين والسجناء في ألكسندروفسك. – الزنزانات العمومية. – زنزانات المقيدين بالسلاسل. – الذائع الهيبة. – المراحيض. – الميدان. – الأشغال الشاقة في ألكسندروفسك. – الخدم. – الورش.

زرت سجن المنفيين والسجناء في ألكسندروفسك فور وصولي إليها[1]. إنه عبارة عن فناء مربع كبير تحيط به ستة عنابر خشبية من طراز السجون وثمة سياج يفصل بينها. علماً أن البوابة مفتوحة دائماً ويرابط حارس عندها. والفناء نظيف، ولا ترى فيه أية حجارة أو قمامة أو نفايات، ولا برك ماء قذرة. إن هذه النظافة المثالية تترك انطباعاً جيداً.

إن أبواب جميع العنابر مفتوحة على مصاريعها. فدخلت عبر أحد الأبواب. هناك من اليمين واليسار أبواب تقود إلى الزنزانات العمومية. وعلى الأبواب ألواح سوداء كتب عليها بحروف بيضاء: «الثكنة رقم.... كمية الهواء المربعة.. يحتجز فيها عدد... من السجناء المحكومين بالأشغال الشاقة». وفي نهاية الممر باب آخر يؤدي إلى زنزانة صغيرة: يحتجز هناك اثنان من السجناء السياسيين، بقميصين مفتوحي الأزرار وبخفاف وبلا جوارب. إنهما يدعكان بعجلة حشيات من التبن، وعلى رف النافذة كتاب وقطعة خبز. وشرح لي رئيس الدائرة الذي رافقني أنه سمح لهذين السجينين

1- قدم ن. ف. مورافيوف خير وصف للسجون الروسية عموماً في مقالته: «سجوننا وقضية السجون» (المنشورة في «روسكي فيستنيك، 1878، المجلد الرابع).

بالإقامة خارج السجن، لكنهما لا يرغبان في التميز عن السجناء الآخرين، ولم يستغلا هذه الفرصة.

تردد صوت الحارس: - استعداد! قف!

دخلنا الزنزانة. يبدو المكان واسعاً، وتبلغ مساحته حوالي 200 ساجن مربع. ثمة كثير من النور، والنوافذ مفتوحة. الجدران غير مطلية، خشنة الملمس، ودست بين كتل الأخشاب نسالات القنب، والزنزانة معتمة، وتبدو بيضاء المدافئ الهولندية فقط. الأرضية خشبية وغير مطلية وجافة تماماً. وتمتد بمحاذاة الجدار في الزنزانة كلها وحتى وسطها تخوت للنوم طويلة، بانحدار من كلا الجانبين، وأقيمت بحيث إن السجناء ينامون في صفين، وتكون رؤوس البعض في كل صف مواجهة لرؤوس الآخرين. وأماكن نوم السجناء غير مرقمة، ولا يوجد في التخت حاجز بين كل سجين وآخر، ولهذا يمكن أن تستوعب التخوت 70 شخصاً و170 شخصاً. ولا يوجد هناك أي فراش. وينام السجناء على اللوح الخشن أو يفرشون تحتهم الأكياس العتيقة البالية، وملابسهم وكل شيء من سقط المتاع، القبيح المنظر جداً. وتتناثر على تخوت النوم القبعات والأحذية وفتات الخبز وقناني الحليب الفارغة وقد دُست فيها لفائف الورق أو القماش، وقوالب الأحذية. وتحت التخوت صناديق وأكياس قذرة وعقد وحزم ومختلف الحاجيات. وتجوب قطة سمينة بالقرب من تخوت النوم. بينما تعلق على الجدران الملابس والقدور والأدوات، وفوق الرفوف غلايات الشاي والخبز وصناديق فيها أشياء مختلفة.

وفي ساخالين لا يخلع الأحرار قبعاتهم لدى دخول الثكنات. وهذه اللباقة والكياسة تميز المنفيين فقط. تجولنا لابسين القبعات بالقرب من تخوت النوم، بينما اصطف السجناء أمامنا بحالة استعداد وهم يتطلعون إلينا صامتين. ولزمنا نحن الصمت أيضاً وتطلعنا إليهم كما لو أننا جئنا لشرائهم. واصلنا السير نحو الزنزانات الأخرى، فوجدنا هناك الفاقة الفظيعة ذاتها التي لا يمكن إخفاؤها تحت الأسمال، كما لا تخفى الذبابة تحت عدسة المجهر، إنها حياة العنابر ذاتها، الحياة النهيلستية بكل معنى الكلمة، التي ترفض الملكية والوحدة والراحة والنوم الهانئ.

يتمتع السجناء في سجن ألكسندروفسك بنوع من الحرية، إنهم بلا قيود وأغلال، ويمكنهم الخروج من السجن طوال النهار والذهاب إلى أي مكان بلا حراسة، ولا يلزمون بارتداء الزي الموحد، بل يرتدون أي شيء كيفما اُتفق حسب حالة الطقس ونوع العمل. بينما يرزح في السجن في زنزانة خاصة تقع في مبنى منفرد الأفراد الذين تجري محاكمتهم والعائدون إلى السجن بعد الهرب والمعتقلون مؤقتاً لسبب ما، وتسمى هذه الزنزانة بـ «ذات الأغلال». ولعل أكثر التهديدات شيوعاً في ساخالين هو: «سأحبسك بالقيود». ويقف عند مدخل هذا المكان الرهيب سجانون، وأبلغنا أحدهم بأن كل شيء على ما يرام في هذه الزنزانة ذات الأغلال.

صلصل قفل معلق ضخم أخرق، ويبدو كما لو تم شراؤه من مخزن التحف القديمة، ودخلنا زنزانة غير واسعة يحتجز فيها 20 شخصاً من الهاربين الذين أعيدوا إلى السجن. إنهم في أسمال وبلا اغتسال ومقيدون بالأغلال وفي أحذية بشعة المنظر، وتلف أجسادهم الخرق والحبال، ويبدو أحد جانبي الرأس أشعث أما الآخر فحليق وبدأ الشعر ينمو فيه من جديد. وقد أصابهم جميعاً الهزال كما لو انسلخ جلدهم، لكنهم يبدون نشيطين. لا توجد أفرشة وينامون على التخوت العارية. وفي الركن «وعاء» القاذورات، وبوسع كل واحد أن يقضي حاجته الطبيعية فيه تحت سمع وبصر 20 مشاهداً. وطلب أحدهم الإفراج عنه، وأقسم بأنه لن يهرب مرة أخرى. بينما طلب آخر أن ينزعوا منه السلاسل، ويشكو ثالث من قلة الخبز الذي يقدمونه له.

وهناك زنزانات يحتجز فيها اثنان أو ثلاثة أفراد، وزنزانات انفرادية. ويمكن أن يجد المرء هنا الكثير من الأشخاص الظرفاء.

تلفت الانتباه من بين نزلاء الزنزانات الانفرادية بصورة خاصة صوفيا بلوفشتين – «اليد الذهبية»، المدانة لهروبها من سيبيريا بالسجن والأشغال الشاقة لمدة ثلاثة أعوام. إنها امرأة صغيرة ونحيفة تميل إلى الشيب وبسحنة مغضنة تميز العجائز. القيود في يديها. إنها الوحيدة في السجن التي ترتدي معطفاً من فرو الضأن الرمادي وتستخدمه كملابس دافئة وللنوم. إنها تجوب الزنزانة باستمرار جيئة وذهاباً، مثل الفأر في المصيدة، وتعبير وجهها يشبه الفأر. ولا يصدق المرء حين ينظر إليها أنها كانت حتى وقت قريب حسناء

لدرجة أنها سحرت أحد السجانين مثلاً في سمولينسك حيث ساعدها السجان في الهرب وهرب هو معها. وفي الفترة الأولى من وجودها في ساخالين كانت مثل غيرها من السجينات القادمات إلى هنا تعيش خارج السجن، وفي شقة جديدة. وقد حاولت الهرب وتنكرت لهذا الغرض بزي جندي، لكن تم احتجازها. وحدثت خلال وجودها خارج السجن بحرية في مخفر ألكسندروفسك عدة جرائم: فقد قتل نيكيتين صاحب دكان، كما سرق من المستوطن اليهودي يوروفسكي مبلغ 56 ألف روبل. ووقعت الشبهة عن ارتكاب جميع هذه الجرائم على «اليد الذهبية» واتهمت بالمشاركة فيها بصورة مباشرة أو بدعم منفذي هذه الجرائم. لكن سلطة التحقيق المحلية طوقتها وكذلك السلطة نفسها بشبكة كثيفة من السخافات والأخطاء، مما يجعل من الصعب إدراك أي شيء في القضية. ومهما كان الحال فلم يتم العثور على مبلغ الـ56 ألف روبل الذي تحول إلى حين من الزمن مادة لمختلف الأحاديث الخرافية.

السجناء في ساخالين

سأتحدث في باب خاص عن المطبخ وكيفية طهي الطعام من أجل 900 شخص، وعن المؤونة، وكيف يأكل السجناء. وسأورد الآن بضع كلمات حول المراحيض. وكما هو معروف فإن مكان الراحة هذا يرتبط لدى القسم الأكبر من الروس بالنفور والاحتقار التام. ولا توجد مراحيض في القرى

البتة. أما في الأديرة والأسواق والخانات وشتى المؤسسات فلم تفرض بعد رقابة صحية، إنها فظيعة إلى أقصى درجة. ويجلب الإنسان الروسي معه إلى سيبيريا احتقار المراحيض. ويتبين من تاريخ الأشغال الشاقة أن المراحيض في السجون في كل مكان تعتبر مصدر الروائح النتنة والجراثيم وقد استسلمت الإدارة لهذا الأمر. في عام 1872، في كارا، وكما كتب السيد فلاسوف في دراسته، فإنه لم توجد أية مراحيض في إحدى الثكنات. وكان يتم اقتياد المجرمين من أجل قضاء الحاجة الطبيعية إلى الساحة، وكان هذا يتم ليس بطلب من أحدهم، بل عندما يجتمع لهذا الغرض عدة أفراد. ويمكنني إيراد المئات من هذه الأمثلة. والمراحيض في سجن ألكسندروفسك عبارة عن حفرة عادية في فناء السجن، في مبنى ملحق بين الثكنات. ويبدو أن المسؤولين سعوا لدى تشييده إلى أن تكون كلفة البناء بأقل قدر ممكن، لكن مع هذا يلاحظ حدوث تقدم كبير بالقياس إلى الماضي. فهي على الأقل لا تولد النفور. والمبنى بارد وتتم التهوية فيه بواسطة أنابيب خشبية. والمقاعد فيها موزعة على امتداد الجدار، ولا يمكن الوقوف عليها بل يمكن الجلوس فقط، وهذا يحول بصورة رئيسية دون انتشار القذارة والرطوبة في المراحيض هنا. لكن الرائحة النتنة منتشرة، ولو بقدر ضئيل وتسود هناك روائح العقاقير المألوفة في المراحيض مثل القطران وحامض الكاربوليك. وأبواب المراحيض مفتوحة نهاراً وليلاً. وتنتفي بهذا التدبير البسيط الحاجة إلى وضع أوعية القاذورات التي توجد فقط في زنزانة المقيدين بالسلاسل.

وبالقرب من السجن بئر ويمكن بواسطتها الحكم على ارتفاع المياه الجوفية. وبنتيجة التركيب الخاص للتربة هنا فإن مستوى المياه الجوفية حتى في المقبرة القريبة فوق الجبل عند البحر يكون عالياً جداً حتى يمكن في أيام الطقس الجاف مشاهدة القبور الممتلئة بالماء إلى النصف. والتربة بالقرب من السجن وفي المخفر كله يمكن بزلها بواسطة قنوات، غير عميقة جداً، ولذا لا يحمى السجن من الرطوبة البتة.

حينما يكون الطقس دافئاً وجيداً، وهو أمر نادر هنا، تجري تهوية السجن بصورة ممتازة: تفتح النوافذ والأبواب على مصاريعها، ويقضي السجناء الشطر الأكبر من اليوم في الفناء أو في أماكن بعيدة عن السجن. أما في

الشتاء وحين يكون الطقس سيئاً، أي بالمتوسط حوالي 10 أشهر من العام، يتم الاكتفاء فقط بفتح كوى النوافذ والمدافئ. إن جذوع أشجار اللارقس والشوح التي بني بها السجن وأساساته عبارة عن وسيلة تهوية طبيعية جيدة، لكنها غير مضمونة، فإن الرطوبة العالية للهواء في ساخالين وغزارة الأمطار، وكذلك الأبخرة المتصاعدة من الداخل، تؤدي أحياناً إلى تجمع الماء في الجذوع فهذا الماء يتجمد في الشتاء. وعندئذ تتم تهوية السجن بصورة رديئة وتغدو حصة كل سجين في الحصول على الهواء غير كبيرة. وقد سجلت في مفكرتي: «الثكنة رقم 9. مقدار كمية الهواء 187 ساجناً مكعباً. بينما يحتجز في السجن 65 فرداً». وهذا في فصل الصيف حين يبيت في السجن فقط نصف مجموع السجناء. وإليكم الأرقام الواردة في التقرير الطبي لعام 1888. «تبلغ كمية الهواء في داخل زنزانات المعتقلين في سجن ألكسندروفسك 970 ساجناً مكعباً. بينما يبلغ عدد السجناء كحد أقصى 1950 وكحد أدنى 1623، وعددهم المتوسط سنوياً يبلغ 1785. ويبيت هناك عادة 740 فرداً، أي تبلغ حصة كل فرد من الهواء 1,31 ساجن مكعب (الساجن = 6 أقدام – المترجم). ويحتشد أقل عدد من المعتقلين في السجن في فترة أشهر الصيف، حين ينتدبون للعمل في شق الطرق وممارسة الأعمال الحقلية. فيما يحتشد أكبر عدد منهم في الخريف حين يعودون من العمل بينما تجلب الباخرة «كوبروفولتس» مجموعة جديدة مؤلفة من 400–500 فرد ليعيشوا في سجن ألكسندروفسك لحين توزيعهم على السجون الأخرى. معنى ذلك تكون حصة كل سجين من الهواء بأقل قدر حينما تكون التهوية فاعلة بأقل قدر.

يعود السجين من العمل في ظروف الطقس السيئ من أجل المبيت في السجن وتكون ملابسه مبللة وجزمه قذرة، ولا مكان لتجفيفها. فيعلّق قسماً من الملابس عند تخوت النوم، بينما يفرش القسم الآخر للنوم فوقه بدلاً من الحشيات من دون تجفيفه. وتنبعث من معطفه الفرو رائحة جلد الضأن، ومن الجزم رائحة الجلود والقطران. علماً أن ملابسه الداخلية المشبعة بالإفرازات الجلدية، وغير المجففة وغير المغسولة منذ وقت بعيد، والمختلطة بالأكياس العتيقة والأسمال النتنة، وقماش الجوارب ذات رائحة

عفنة من العرق، وكذلك رائحته هو نفسه حيث إنه لم يغتسل في الحمام منذ وقت بعيد، وتجوب فيه أسراب القمل، ويدخن التبغ الرخيص، ويعاني باستمرار من انتفاخ البطن، وخبزه ولحمه والسمك المملح الذي غالباً ما يقوم بتجفيفه هنا في السجن، وفتات الطعام والنوى وبقايا حساء الكرنب في القدر، والبق الذي يسحقه بأصابعه هنا فوق التخت، - إن هذا كله يجعل الهواء في الثكنة مترعاً بالعفونة والرطوبة والحموضة. إنه يشبع بالأبخرة إلى أقصى درجة يجعل زجاج النوافذ في أثناء الزمهرير الشديد مغشاة بطبقة من الجليد من الداخل ويسود الظلام الداج في الثكنة. ويختلط كبريتيد الهدروجين والأمونيا ومختلف المركبات الأخرى في الهواء مع الأبخرة المائية مما يجعل «الروح في دوامة» حسب تعبير السجانين.

من المستحيل المحافظة على النظافة في منظومة الزنزانات العمومية في السجون، ولن تخرج المحافظة على الصحة الشخصية هناك من هذه الأطر الضيقة التي يفرضها المناخ في ساخالين ووضع الأعمال الشاقة، ومهما كانت نوايا الإدارة طيبة فإنها عاجزة ولن تتخلّص أبداً من الملامات بهذا الشأن. يجب إما اعتبار الزنزانات العمومية أمراً قد أكل الدهر عليه وشرب، واستبدالها بأماكن سكنى من طراز آخر، وهذا ما يجري عمله جزئياً، حيث إن الكثير من السجناء المحكومين بالأشغال الشاقة يعيشون ليس في السجن بل في بيوت ريفية، وإما قبول القذارات باعتبارها شراً لابد منه وضرورياً، وسيترك موضوع قياس الهواء الفاسد بالساجنات المكعبة إلى من يعتبر المحافظة على الصحة أمراً شكلياً فارغاً فقط.

أعتقد أنه من المستبعد قول شيء طيب لمصلحة نظام الزنزانات العمومية. إن الأفراد الذين يعيشون في زنزانة عمومية ليسوا جماعة ولا جمعية تفرض على أعضائها الواجبات، بل هم عصابة تعفيهم من أية التزامات حيال المكان والجار والموضوع. ويستحيل إصدار الأمر إلى السجين بأن يكف عن جلب الأوساخ والروث في قدميه، وعن البصق على الأرض، وعن تكاثر البق. وإذا ما سادت العفونة والرائحة النتنة في الزنزانة ولا معيشة هناك بلا سرقة، أو بلا ترداد الأغاني الخليعة القذرة، فيتحمل الذنب عن ذلك الجميع، أي لا أحد. سألت سجيناً، كان رجلاً محترماً

سابقاً: «لماذا أنت وسخ بهذا الشكل، أجابني قائلاً: «لأن نظافتي ستكون بلا فائدة هنا». وفعلاً ما هي قيمة طهارة بدن السجين بالنسبة إليه، إذا ما أتوا غداً بوجبة جديدة ويرقد جنباً إلى جنب مع جار تزحف منه الحشرات في كل مكان وتنبعث منه رائحة خانقة؟

إن الزنزانة العمومية لا تمنح السجين الوحدة التي يحتاجها ولو من أجل الصلاة، والتفكير والتأمل في أعماقه، وهو أمر يعتبره جميع أنصار الأهداف الإصلاحية حقّاً له. إن لعب القمار بشراسة بموافقة السجانين المرتشين وإطلاق الشتائم والضحك والثرثرة، واصطفاق الأبواب، ورنين الأغلال، المتواصل طوال الليل يعيق العامل المرهق من النوم، ويزعجه، مما يترك طبعاً آثاره السيئة في التغذية والحالة النفسية. ويعترف منذ وقت بعيد بأن حياة القطيع في العنابر، بلذائذها الفظة، وبما تتركه حتماً من تأثير يمارسه المنحرف على الطيب، تترك أثرها البالغ في إفساد أخلاق المجرم. إنها تجعله يبتعد شيئاً فشيئاً عن الحياة البيتية، أي تلك الصفة التي يجب الحفاظ عليها بأكبر قدر في السجون، لأنه بعد خروجه من السجن ينبغي عليه أن يصبح عضواً في المستوطنة التي تتطلب منه منذ اليوم الأول، وبموجب القانون وتحت التهديد بالعقاب، أن يكون رب بيت جيداً ورجلاً عائلياً طيباً.

يجب على الفرد في الزنزانات العمومية أن يتحمل ويبرر بعض الظواهر المعيبة مثل النميمة والتصنت والاقتصاص العرفي واستخدام القبضات. والأخير يتجسد هنا فيما يسمى بالميادين، وانتقل إلى هنا من سيبيريا. فالسجين الذي يمتلك ويحب النقود التي عوقب بسببها بالأشغال الشاقة، والفلاح الثري، والجشع الذي يدخر المال والمحتال، يشتري من رفاقه السجناء الحق في احتكار التجارة في الثكنة، وإذا كان المكان مزدحماً وتكثر فيه الحركة، فإن بدل الإيجار الذي يوجه لمصلحة السجناء، يمكن أن يصل حتى إلى عدة مئات من الروبلات سنوياً. ويسمى صاحب الميدان رسمياً بالمنظف حيث يأخذ على عاتقه واجب إخراج أوعية القاذورات من الزنزانات والاهتمام بالنظافة. وعادة يوجد في تخته صندوق يبلغ ارتفاعه بمقدار أرشين ونصف، أخضر أو بني، وتوضع بالقرب منه أو تحته قطع من

السكر، وخبز أبيض مجفف، بحجم قبضة اليد، وسجاير، وقناني الحليب وبعض السلع الأخرى الملفوفة بالورق والخرق القذرة[1].

ويكمن خلف قطع السكر والكعكات الوادعة والبريئة الشر، الذي ينشر تأثيره بعيداً خارج السجن. فالميدان هو بيت لعب القمار، ومونت كارلو مصغر، ويولد في روح السجين الولع المعدي بممارسة لعبة «الشتوس» وغيرها من ألعاب الميسر. وتكمن بالقرب من الميدان وورق اللعب حتماً ودوماً، في حالة استعداد لتقديم الخدمة، الصرافة القاسية التي لا تعرف الرحمة. والصرافون في السجون يأخذون فائدة بمقدار 10 بالمائة يومياً، وحتى في الساعة الواحدة، والرهينة التي لا يدفع ثمنها خلال اليوم تنتقل إلى ملكية الصراف. وينتقل أصحاب الميدان والصرافون بعد انتهاء محكوميتهم إلى إحدى المستوطنات حيث يواصلون ممارسة مهنتهم المربحة، ولهذا لا يبعث على العجب وجود مستوطنين يمكن أن يسرق منهم مبلغ 56 ألف روبل.

في صيف عام 1890 حينما كنت في ساخالين بلغ عدد السجناء في سجن ألكسندروفسك ما يربو على الألفين من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، لكن عاش في السجن حوالي 900 فرد فقط. وإليكم الأرقام المأخوذة كيفما أُتفق: في بداية الصيف، في 3 مايو 1890، كان يتناول الطعام والمبيت في السجن 1279، وفي أواخر الصيف، في 29 سبتمبر، بلغ عددهم 675 فرداً. أما بصدد الأشغال الشاقة الجارية في ألكسندروفسك نفسها، فيلاحظ هناك بصورة رئيسية القيام بالأعمال الإنشائية ومختلف أعمال المرافق العامة: تشييد المباني الجديدة وترميم القديمة، والعناية بالشوارع والميادين وغيرها لكي تكون على الطراز الشائع في المدن. وتعتبر أعمال النجارة من الأشغال الشاقة جداً. والسجين الذي كان في موطنه الأصلي يمارس مهنة النجارة يكابد هنا الأشغال الشاقة الحقيقية، ومن هذه الناحية يعتبر شقياً أكثر من الصباغ أو عامل التسقيف. إن مشقة العمل كلها تكمن ليس في البناء نفسه

1- يبلغ سعر العلبة ذات 9-10 سجاير كوبيكاً واحداً، وسعر الكعكة البيضاء 2 كوبيك وقنينة الحليب 8-10، وقطعة السكر 2 كوبيك. ويتم تسديد ثمن السلع نقداً أو بالدين أو بالمقايضة بأشياء أخرى. والميدان يبيع أيضاً الفودكا وأوراق اللعب بالميسر والشموع من أجل اللعب ليلاً - يتم ذلك سراً. كما تعطى أوراق اللعب بالأجرة.

بل يجب على السجين أن يسحب جذع الشجرة بنفسه من الغابة، علماً أن قطع الأشجار يتم في موضع يبعد 8 فرستات عن المخفر. وفي الصيف يترك انطباعاً مؤلماً مشهد العامل وهو يسحب جذع شجرة بعرض نصف أرشين

وبطول عدة ساجنات، وتعبير وجهه يفيض بالمعاناة، بالأخص إذا ما كان حسب ملاحظتي في غالب الأحيان من أبناء القوقاز. ويقال إنهم في الشتاء تتجمّد أيديهم وأقدامهم وغالباً ما يموتون بسبب البرد من دون أن يتمكنوا من سحب جذع الشجرة إلى المخفر. كما أن أشغال النجارة بالنسبة إلى المسؤولين في الإدارة ليست سهلة أيضاً، لأن عدد الأفراد القادرين على ممارسة العمل الشاق باستمرار قليل جداً عموماً في ساخالين ونقص العمال ظاهرة مألوفة هنا، على الرغم من أن عدد سجناء الأشغال الشاقة يقدر بالآلاف. وقال لي الجنرال كونونوفتش إنه من الصعب جداً القيام بأعمال البناء هنا بسبب عدم توفر العمالة. وإذا ما كان عدد النجارين كافياً فلا يوجد من يجلب جذوع الأشجار، وإذا أرسل الأفراد لجلب جذوع الأشجار فلا يوجد العدد الكافي من النجارين للعمل. وتنسب إلى الأشغال الشاقة هنا أيضاً واجبات من يسحب جذوع الأشجار الذين يعملون يومياً في قطع الأشجار، ويشذبونها وفي الفجر، حين يكون الجميع نياماً، يتولون مهمة إشعال النار في المواقد. وبغية الحكم على درجة صعوبة العمل الشاق ينبغي أن يؤخذ بنظر الاعتبار ليس الجهد العضلي المبذول فقط، بل ظروف المكان وخصوصية العمل المتعلقة بهذه الظروف أيضاً. إن الزمهرير الشديد في الشتاء والرطوبة خلال العام كله في ألكسندروفسك تجعل العامل البسيط أحياناً في وضع لا يطاق مما يعانيه لدى القيام بالعمل نفسه، ومثلاً لدى قطع الأشجار بصورة اعتيادية في روسيا. إن القانون يحدد عمل المحكوم بالأشغال الشاقة وفق «القانون العام» السائد بشأن عمل الفلاح أو العامل في المصنع[1]. كما يوفر بعض التسهيلات

1- «القانون العام للأعمال الإنشائية، الموافقة السامية في 17 ابريل 1869». بطرسبورغ، 1887. بموجب هذه القانون يؤخذ بنظر الاعتبار لدى تحديد مختلف أنواع الأعمال: الجهد الجسدي للعامل ودرجة مهارة العامل للعمل. ويحدد القانون أيضاً عدد ساعات العمل اليومي في وسط روسيا. والعدد الأقصى لساعات العمل 12 ساعة ونصف ساعة يومياً – في مايو ويونيو ويوليو، وكحد أدنى 7 ساعات في ديسمبر ويناير.

لسجناء الأشغال الشاقة من فئة الذين يتحسن سلوكهم. لكن التطبيق العملي لا يتفق دائماً مع أحكام القانون بحكم الظروف المحلية وخصوصية العمل. فلا يمكن أن يحدد عدد الساعات التي يجب على السجين أن يسحب خلالها جذع الشجرة في أثناء العاصفة الثلجية، ولا يجوز إعفاؤه من العمل ليلاً، حين تبرز الضرورة لذلك، ولا يجوز بموجب القانون إعفاء السجين الحسن السلوك من العمل في الأعياد، إذا ما كان يعمل، مثلاً، في منجم الفحم مع السجين قيد الاختبار، فعندئذ يجب إعفاء الاثنين من العمل وإيقاف العمل. وغالباً ما يبذل عمل شاق أكثر مما يجب بسبب عدم التأهيل وعدم توفر الخبرة لدى المشرفين على العمل. فمثلاً شحن وتفريغ الحمولات من السفن لا يتطلبان من العامل في روسيا جهداً كبيراً، بينما غالباً ما يكون في ألكسندروفسك عذاباً حقيقياً بالنسبة إلى الأفراد، بالأخص لأنه لا توجد فرق عمل معدة ومدربة خصيصاً للعمل في البحر. وفي كل مرة يتم تشغيل أفراد جدد، وغالباً ما يلاحظ حدوث اضطراب شديد في البحر في أثناء اشتداد الأمواج. وتطلق الشتائم ويحتدم الأفراد غيظاً في السفينة، بينما يقف ويرقد تحتها في العوامات، التي ترتطم بالسفينة، أفراد بوجوه شاحبة وعابسة، ويعانون من دوار البحر، ويطفو إلى جانب العبارة مجذاف سقط في الماء. ولهذا السبب تطول فترة العمل، ويضيع الوقت هدراً، ويكابد الأفراد عذاباً لا مبرر له.

سجناء في السفينة

مرّات عديدة سمعت أثناء تفريغ شحنات السفينة صوت السجان: «إن الأفراد لم يأكلوا شيئاً طوال اليوم».

يبذل جهد كبير في تلبية متطلبات السجن. ويعمل في السجن في كل يوم الطباخون والخبازون والخياطون والإسكافيون والسقاؤون وعمال التنظيف ورجال المناوبة اليومية وغيرهم. كما تستغل عمل السجناء الوحدة العسكرية وإدارة التلغراف ودائرة المساحة. وينسب حوالي 50 شخصاً للعمل في مستشفى السجن، ولا يعرف بأية صفة، ولأي غرض، ولا حصر لعدد الذين يعملون في خدمة السادة الموظفين. لقد اقتنعت بأن أي موظف، حتى لو كان بمرتبة كاتب صغير، يستطيع أن يأخذ لخدمته أي عدد من السجناء. والطبيب الذي كنت أسكن في شقته ويعيش مع ابنه يعمل لديه طباخ وكناس وطباخة وخادمة. وهذا ترف كبير بالنسبة إلى طبيب السجن من الدرجة الدنيا. ولدى أحد السجانين 8 أشخاص يتولون الخدمة لديه رسمياً هم: الخياطة، والإسكافي، وخادمة، وخادم يتولى تنفيذ مختلف المهام كساع، ومربية، وغسالة، وطباخ، وعاملة تنظيفات. إن قضية الخدمات في ساخالين مؤلمة وحزينة، كما هو الحال، في أغلب الظن، في كل مكان فيه سجناء الأشغال الشاقة، كما أنها ليست جديدة. وكتب فلاسوف في «دراسة موجزة حول ظروف المعيشة السيئة السائدة في أماكن الأشغال الشاقة» أنه في عام 1871 حينما وصل إلى الجزيرة ذهل عندما رأى أن السجناء يعملون بموافقة الحاكم العام السابق في خدمة الرئيس والضباط». وحسب قوله فقد جرى توزيع النساء لخدمة المسؤولين في الإدارة ومنهم السجانون العزاب. وفي عام 1872 حظر سينيلنيكوف حاكم سيبيريا الشرقية توجيه المجرمين للقيام بأعمال الخدمات. لكن يجري التغاضي بكل وقاحة عن هذا الحظر الذي له صفة القانون حتى الوقت الحاضر. وينسب الكاتب في الإدارة للخدمة له ستة أفراد، وحين يخرج للنزهة يرسل مقدماً عشرة سجناء حاملين الأطعمة والمشروبات والمتعلقات. علماً أن السيدين هينتسه وكونونوفتش حاكمي الجزيرة قد كافحا هذا الشر، ولكن ليس بنشاط كاف. وعلى أقل تقدير وجدت ثلاثة أوامر فقط تتعلق بمسألة الخدمات، يستطيع من يعنيه الأمر أن يفسرها

لمصلحته على نطاق واسع. وفي عام 1885 سمح الجنرال هينتسه (الأمر رقم 95)، وكما يبدو من أجل إلغاء أمر الحاكم العام، بأن تنسب السجينات والمنفيات للعمل بصفة خادمات مقابل مبلغ روبلين شهرياً يسدد لمصلحة خزانة الدولة. وألغى الجنرال كونونوفتش في عام 1888 أمر الحاكم السابق بما نصه: «لا يجوز تنسيب السجناء والسجينات للخدمة لدى الموظفين وعدم استيفاء أية أجور عن النساء. وبما أن المباني والخدمات الحكومية لا يمكن أن تبقى بلا عناية وتلبية احتياجاتها، فيسمح بأن ينسب إلى كل مبنى عدد من الرجال والنساء للعمل بصفة حراس وحطابين وعمال تنظيفات وغير ذلك، وفقا للحاجة» (الأمر رقم 276). ولكن بما أن غالبية المباني والخدمات الحكومية تستخدم كمساكن للموظفين، فإن هذا الأمر يفسر بأنه يسمح بأن تُستغل خدمات السجناء مجاناً. على أي حال ففي عام 1890 حينما كنت في ساخالين استخدم جميع الموظفين، حتى الذين لا علاقة لهم بدائرة السجون، جهد السجناء في تلبية حاجات المعيشة البيتية على أوسع نطاق، علماً أنهم لا يدفعون أية أجرة لقاء هذا العمل، وكانوا يتناولون الطعام على حساب خزانة الدولة.

إن تنسيب السجناء لخدمة الأفراد العاديين يتناقض كلياً مع القوانين المتعلقة بالسجناء: إذ لا يعتبر ذلك من الأشغال الشاقة بل قنانة، لأن السجين لا يخدم الدولة بل الأفراد العاديين الذين لا علاقة لهم بالأهداف الإصلاحية أو حتى بفكرة تعادل العقوبة. إن السجين عندئذ لا يكون منفياً ومحكوماً بالأشغال الشاقة بل عبداً تابعاً لإرادة السيد وأفراد أسرته، ويلبي رغباتهم ونزواتهم، ويشارك في المشاحنات في المطبخ. وعندما يصبح من المستوطنين يكرر في المستوطنة وضع خادمنا في الفناء، الذي يجيد تنظيف الأحذية وقلي الكستيلاتات، لكنه غير قادر على ممارسة الأعمال الزراعية، ولهذا يغدو جائعاً وتحت رحمة الأقدار. أما تنسيب النساء السجينات للخدمة فهو يتسم إلى جانب ذلك كله بمنغصاته الخصوصية. فعلاوة على أنه يجلب في أوساط المحظيات السجينات عاملاً دنيئاً ما، ومهيناً إلى أقصى درجة للكرامة الإنسانية، فإنه يعمل ضمناً على إفساد النظام. وروى لي أحد الكهنة أنه وجدت في ساخالين حالات ترغم فيها المرأة الحرة أو الجندي،

المنسبين للخدمة في الأسر في ظروف معينة، على القيام بأعمال التنظيف وحمل قاذورات امرأة محكومة بالأشغال الشاقة[1].

إن ما تطلق عليه في ألكسندروفسك باعتزاز تسمية «العمل في الصناعة»، يبدو من جانب أمراً جميلاً ومؤثراً، لكنه لا يتسم بأية أهمية جدية. وقد رأيت في ورشة السباكة التي يديرها ميكانيكي - غير محترف أجراساً وعجلات عربات القطار والعربات العادية، وطاحونة يدوية، وماكينة لأعمال التخريم وحنفيات ومعدات قياس للمواقد وهلمجرا، ولكن هذه كلها تبدو مثل لعب الأطفال. إن الأشياء ممتازة ولكن لا يتوفر أي مجال لتسويقها. وسيكون من الأنسب لتلبية الحاجات المحلية جلبها من القارة أو من أوديسا، بدلاً من مولدات الطاقة الميكانيكة الخاصة بالمدينة وتوظيف ملاك كامل من العمال المأجورين للعمل فيها. طبعاً لا يمكن التأسف على كل النفقات لو أن الورش هناك أصبحت بمنزلة مدرسة يتعلم فيها السجناء حرفة ما. وفعلاً، يعمل في ورش السباكة والحدادة ليس السجناء، بل الأسطوات الماهرون الذين يوظفون بصفة سجانين من الدرجة الثانية وبراتب قدره 18 روبلاً شهرياً. ويبدو جلياً للعيان جداً هنا الولع باقتناء الأشياء. فيتردد ضجيج العجلات والمطارق وصفير وسائل النقل الميكانيكية، فقط من أجل إظهار جودة الشيء وبيعه. أما الاعتبارات التجارية والفنية فلا علاقة لها البتة بالعقوبات، علماً بأنه في ساخالين وفي جميع أماكن الأشغال الشاقة يكون

1- كتب فلاسوف في تقريره: إن سلوك بعض الأفراد غريب: سلوك الضابط والسجينة بصفة خليلة له والجندي بدور الحوذي لهما: - «لا بد أن يبعث ذلك على الدهشة والأسف». يقال إن هذا الشر يسمح به فقط لأنه لا يمكن إيجاد خادم من الأفراد الأحرار. ولكن هذا غير صحيح. أولاً يمكن تقليص عدد الخدم. فمن الممكن أن يتولى خدمة الضابط جندي واحد. وثانياً، يتلقى الموظفون هنا في ساخالين رواتب جيدة، ويمكن أن يجدوا لأنفسهم الخدم من بين المستوطنين، والفلاحين من بين المنفيين والنساء الحرائر اللواتي يعانين من شظف العيش في غالب الأحيان، ولهذا لن يرفضن كسب مورد للرزق. ويبدو أن هذه الفكرة راودت المسؤولين حيث يوجد أمر رسمي يقضي بالسماح للأفراد في إحدى القرى، لعدم توفر القدرة على ممارسة العمل الزراعي، «بكسب مورد الرزق بالانتساب للعمل في خدمة السادة الموظفين» (الأمر رقم 44 لعام 1889).

الهدف القريب والبعيد واحداً وهو - إصلاح المجرم، كما أن من واجب الورش العاملة هنا أن ترسل إلى أراضي القارة قبل كل شيء ليس بوابات المواقد ولا الرافعات، بل الأفراد النافعين والأسطوات المؤهلين جيداً.

إن الطاحونة البخارية وآلة نشر الخشب وورشة الحدادة في وضع ممتاز. والناس يعملون بمرح، ربما، لأنهم يدركون ما هو مردود العمل.

ولكن يعمل هناك أيضاً بصورة رئيسية حرفيون كانوا في مواطنهم يعملون طحانين وحدادين وهلمجرا، وليس الذين كانوا في مواطنهم الأصلية لا يجيدون العمل، ولا يعرفون شيئاً ويحتاجون الآن أكثر من أي أحد آخر إلى الطواحين وورش الحدادة، التي يجري فيها تعليمهم ويصبحون مستقلين في حياتهم[1].

1- توجد الطاحونة وورشة الحدادة في مكان واحد وتحصل على الطاقة من مولدين. وتوجد في الطاحونة أربعة أحجار رحى تطحن 1500 بود (البود وحدة قياس روسية قديمة تعادل حوالي 16 كيلوغراماً - المترجم) في اليوم. ورشة نشر الأخشاب تعمل بمولد طاقة قديم جلبه الأمير شاخوفسكي، ويجري تشغيله بوقود من نشارة الخشب. ويجري العمل في ورشة الحدادة ليلاً ونهاراً، بوجبتين، وتعمل فيها ستة كور حدادة. ويعمل في الورشة إجمالا 105 أفراد. كما يعمل السجناء في ألكسندروفسك في مناجم استخراج الفحم، لكنه هيهات أن يوجد مستقبل ناجح لهذا العمل. فالفحم المستخرج من المناجم المحلية أسوأ بكثير من فحم دويكا. فهو مخلوط بالنفايات والطين بقدر أكبر. كما أن نفقات الاستخراج أكثر حيث يعمل هناك فريق دائم من العمال تحت رقابة مهندس مختص باستخراج المعادن.

-6-

حديث يجور

سافر الطبيب الذي أقيم في بيته إلى القارة بعد فترة قليلة من تسريحه من الخدمة، فانتقلت للإقامة في بيت موظف شاب، وهو رجل طيب جداً. وكانت لديه خادمة واحدة، هي امرأة أوكرانية عجوز، من السجناء المحكومين بالأشغال الشاقة، كما كان يأتي إليه بصورة نادرة، مرة في اليوم، السجين يجور، الحطاب، الذي لم يكن يعتبره من الخدم، لكنه كان «يجلب الحطب من باب الاحترام» ويحمل النفايات من المطبخ وعموماً ينفذ الواجبات التي لا تستطيع العجوز تنفيذها. وكان يحدث أحياناً أن أجلس أو أكتب شيئاً ما، وفجأة أسمع خشخشة ولهاثاً، وحركة ما تحت الطاولة بالقرب من قدميّ، فأتطلع وإذا بيجور، يزحف حافياً، ويجمع الورق ويمسح الغبار. علماً أنّ عمره نحو أربعين سنة، وتدل هيئته على أنه رجل أخرق، يتحرك ببطء، وكما يقال إنه رجل ريفي ساذج، وطيب القلب، وتنم سحنته للوهلة الأولى عن الغباوة، وفمه واسع مثل فم سمكة القد. كما أنه أصهب، ولحيته غير كثة، وعيناه صغيرتان. وكان لا يجيب عن السؤال فوراً، بل ينظر أولاً شزراً ثم يسأل: «شو؟» أو «من تريد؟». يخاطبني بصاحب السعادة، لكنه يتحدث إلي بصيغة المفرد. إنه لا يستطيع الجلوس دقيقة واحدة بلا عمل وتجده في كل مكان ترتاده. وبينما يتحدث إليك تتطلع عيناه بحثاً عن تنظيف وإصلاح شيء ما. إنه ينام فترة ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم، لأنه لا يجد متسعاً من الوقت للنوم. وفي أيام الأعياد يقف عادة في مكان ما عند المنعطف، ويرتدي جاكيت فوق القميص الأحمر، وبطنه يتدلى أمامه وساقاه منفرجتان. وهذا ما يسميه بـ «اللهو».

وقد شيد لنفسه هنا في مكان إقامة السجناء بيتاً ريفياً، ويمارس صناعة الدلاء والطاولات والدواليب الخرقاء. إنه يجيد صنع أي شيء من الأثاث لكن فقط «لنفسه» أي لتلبية حاجاته. كما أنه لم يدخل في شجار ولم يتعرض إلى الضرب، ولكن فقط عاقبه أبوه لأنه بينما كان يحرس البازلاء أحرق المحصول.

في إحدى المرات دار بيننا الحديث التالي:

سألته: - لماذا جلبوك إلى هنا؟

- ماذا تقول ياصاحب السعادة؟

- لماذا جاءوا بك إلى ساخالين؟

- لاتهامي بجريمة قتل.

حدثني منذ البداية كيف حدث ذاك.

وقف يجور عند عضادة الباب، وأرخى ذراعيه إلى الخلف وبدأ الحديث:

نحن ذهبنا إلى صاحب الضيعة فلاديمير ميخايلتش، واتفقنا بشأن الأخشاب والنشارة ونقلها إلى المحطة. حسناً. اتفقنا وقفلنا عائدين إلى أهلنا. ولدى ابتعادنا عن القرية قليلاً بعثني الجماعة إلى مكتب إدارة القرية من أجل المصادقة على الاتفاق. كنت ممتطياً الحصان. وفي الطريق إلى المكتب أعادني أندريوخا، وكان الفيضان شديداً، ولم نستطع مواصلة السير. فقال لي: «غداً سأذهب إلى مكتب الإدارة لغرض بحث موضوع الأرض التي استأجرها، وسأقوم بالمصادقة على الاتفاق». حسناً. من هناك توجهنا معاً: أنا على صهوة الحصان، والجماعة سيراً على الأقدام. فوصلنا إلى باراخينو. فذهب الرجال لشراء التبغ، بينما بقينا أنا وأندريوخا على الناصية بالقرب من الحانة. فقال: «هل لديك، يا أخ، خمسة كوبيكات؟ لدي رغبة شديدة في الشرب». فقلت: «أنت يا أخ ذلك الشخص الذي يشرب بخمسة كوبيكات، بينما يسكر فوراً». وقال لي: «كلا، سأشرب وأذهب إلى البيت». دنونا من جماعة الموجيك، واتفقنا على شراء ربع ليتر من الفودكا فجمعنا المبلغ المطلوب وتوجهنا إلى الحانة، واشترينا ربع الليتر. جلسنا وبدأنا الشرب.

وقلت له: - أوجز.

- مهلاً، لا تقاطعني يا صاحب السعادة. نحن شربنا تلك الفودكا، لكن أندريوخا طلب أيضاً فودكا «بيرتسوفكا سوروكوفكا». وصب لنفسه ولي كأسين. وعندئذ غادر الجماعة كلهم عائدين إلى بيوتهم، بينما سرنا نحن وراءهم أيضاً. علماً أنني تعبت من ركوب الحصان، فنزلت وجلست عند ضفة النهر. فغنيت ومزحت. ودارت الأحاديث بلا هاجر الكلام. ثم نهض الجميع وواصلوا السير.

فقاطعته: - أنت حدثني عن جريمة القتل.

- مهلاً. في البيت رقدت في الفراش ونمت حتى الصباح حين أيقظوني قائلين: «قم، من منكم طعن أندريه؟». وعندئذ حملوا أندريه من المكان، وجاء شرطي المحلة. بدأ الشرطي باستجوابنا جميعاً، ولكن لم يعترف أحد منا بارتكاب الجريمة. أما أندريه وكان مازال حياً فقال: «أنت، ياسيرجوخا، طعنتني بالراية، وأنا لا أذكر أي شيء آخر». لكن سيرجوخا لم يعترف، ونحن جميعاً اعتقدنا أن سيرجوخا مذنب، ورحنا نتطلع إليه، بغية إبعاد أية شبهة عنا. وبعد مضي يوم فاضت روح أندريه وانتقل إلى جوار ربه. وخاطبت سيرجي أخته وحموها بهدف إقناعه قائلين: «أنت، ياسيرجي لا تتهرب من التهمة، فالأمر سواء لديك، واعترف من هم شركاؤك الأقربون. وستكون في وضع أخف». إن أندريه توفي لتوه واجتمع الناس عند المختار وأبلغوا سيرجي. وجرى استجواب سيرجي لكنه لم يعترف. ثم سمح له بالمبيت في داره. وتولى بعض الأفراد حراسته خشية أن يطلق النار على نفسه. فقد كانت لديه بندقية صيد. وهذا خطر. وفي الصباح اكتشفوا أنه اختفى ولا وجود له هناك، وبدأ تفتيش الدار، والبحث عنه في القرية، وكذلك في الحقول. فيما بعد جاء أحدهم من النيابة وقال إن سيرجي في مكان ما هناك. عندئذ جرى إلقاء القبض علينا. بينما جثا سيرجي على ركبتيه أمام النائب العام والشرطي ووجه لنا الاتهام بقوله إن أبناء أسرة يفريموف قد دعوه منذ ثلاثة أعوام إلى المشاركة في قتل أندريه. وقال: «كنا نسير في الطريق - إيفان ويجور وأنا - واتفقنا معاً على قتله. وأنا ضربت أندريه بالمعول، بينما أجهز عليه إيفان ويجور، لكنني خفت وتراجعت إلى الخلف، وهربت والتحقت ببقية

الرجال (الموجيك)». بعد ذلك تم احتجازنا - إيفان وكيرشا وأنا وسيرجي - وزج بنا في سجن المدينة.

- ومن هما إيفان وكيرشا؟

- هما شقيقاي. وجاء إلى السجن التاجر بيوتر ميخايليتش. وأخرجنا بكفالة. وبقينا لديه حتى عيد شفاعة السيدة العذراء. وعشنا عيشة طيبة وتحت الحراسة. وفي اليوم التالي للعيد جرت محاكمتنا في المدينة. ووجد شهود لدى كيرشا - فقد شهد لمصلحته الرجال الموجيك الذين ساروا في المؤخرة، بينما أنا، يا أخ، وقعت في الفخ. وعبثاً رددت في المحكمة ما قلته لك الآن، لكنهم في المحكمة لم يصدقوني. «عندنا الجميع يقولون هذا، وتتألق عيونهم، لكن كل ما يقولونه يتجافى عن الحقيقة». وهكذا صدر الحكم علي وأدخلت السجن. وفي السجن عشنا في الزنزانات المغلقة، وأنا وحدي كنت بصفة منظف المراحيض، وكنت أنظف الزنزانات وأحمل الطعام. وكنت أتقاضى مقابل ذلك حصة من الخبز شهرياً من كل سجين. وهذا يعادل ثلاثة أرطال من الفرد الواحد. وحالما علمنا بنقلنا من السجن أرسلنا برقية إلى البيت. وكان ذلك قبيل عيد القديس نيقولاي. فجاءت لزيارتنا زوجتي وأخي كيرشا وجلبا بعض الملابس والحاجيات الأخرى.. أجهشت زوجتي بالبكاء، لكن ما العمل. وعندما انصرفت أعطيتها كهدايا جرايتين من الخبز. بكينا وأرسلنا أطيب التمنيات إلى الأبناء وجميع المعمدين. وفي الطريق كنا مكبلين كل اثنين بقيد واحد. وكنا نسير أزواجاً. أنا سرت مع إيفان. وفي نوفجورود التقطت صور فوتوغرافية لنا. وهناك تم تقييدنا بالسلاسل وحلقوا شعر رؤوسنا. ثم نقلونا إلى موسكو. وحينما احتجزنا في موسكو، أرسلنا طلب استرحام. أنا لا أذكر كيف سافرنا إلى أوديسا. كانت سفرتي طيبة. وفي أوديسا تم استجوابنا في العيادة الطبية، وطلبوا منا أن نخلع جميع ملابسنا، وفحصونا. ثم جرى حشدنا وإرسالنا إلى سفينة. وهناك اقتادنا القوزاق والجنود إلى عنبر السفينة. وجلسنا هناك على تخوت النوم فحسب. جلس كل واحد في مكانه. في التخت العلوي جلس خمسة أفراد. نحن في البداية لم نفهم، ومن ثم قالوا: «هيا، هيا بنا!». أبحرنا، وأبحرنا. ثم بدأت السفينة بالتأرجح، الحر شديد، ووقف الأفراد

عراة. أخذ البعض يتقيأ، بينما صمد آخرون - ولم يتقيأوا. طبعاً إن الأغلبية رقدوا. اشتدت العاصفة أكثر فأكثر. وأطاحت بنا في كل الاتجاهات. وأبحرنا ثم أبحرنا ثم اصطدمت السفينة بشيء ما. وهكذا ارتطمنا بالصخور. ساد الضباب في ذلك اليوم. وغمرت العتمة المكان. كانت السفينة ترتطم، ثم تتوقف وتتأرجح فوق الصخور. نحن اعتقدنا أن الأسماك تؤرجح السفينة من الأسفل[1]. اندفعنا إلى الأمام، واندفعنا إلى الوراء - لكن بلا فائدة.

وعندما اندفعنا إلى الوراء، حدث في وسط السفينة شرخ ما. وبدأوا بسد الثقب، بقماش الأشرعة، وواصلوا سدها وسدها، لكن بلا فائدة. وغمرت المياه السفينة حتى الأرضية التي وقف عليها الأفراد، وتجاوزتها. فصاح السجناء راجين بتوسل:

«لا تدعونا نهلك ياصاحب السعادة!». فقال الآمر في البداية: «لا حركة، ولا توسلات، ولن يهلك أحد». بعد ذلك غمرت المياه العنبر الأسفل. وصار المعمدون يتململون ويتوسلون. وقال الآمر: «حسناً، يا أولاد، سأفرج عنكم، لكن يجب عدم التمرد، وإلا سأطلق النار عليكم جميعاً». بعد ذلك سمح لنا بمغادرة السفينة. في البداية أقيمت الصلاة إلى الرب لكي يرحمنا ولا يدعنا نهلك. كنا نصلي جاثين على ركبنا. وبعد الصلاة وزع علينا البسكويت والسكر بينما هدأ البحر. في اليوم التالي بدأ نقل السجناء في الطوافات إلى البر. وأقيمت الصلاة على الساحل. ثم جرى نقلنا إلى سفينة أخرى، تركية[2]، جاءت بنا إلى هنا، إلى ألكسندروفسك. أنزلنا إلى رصيف الميناء عند حلول الفجر، واحتجزونا هناك فترة طويلة، ثم غادرنا الرصيف عندما حل الظلام. وسار المعمدون متلاصقين، زد على ذلك أنه قد أصابنا العمى. وكان أحدنا يمسك بالآخر، والبعض مبصر والبعض الآخر غير مبصر - وهكذا سرنا متعلقين بعضنا ببعض. وأنا اقتدت عشرة معمدين. اقتادونا إلى باحة السجن، وهنا بدأ توزيعنا على الثكنات. تناولنا طعام العشاء قبل النوم، وتناول كل واحد ما لديه من بقايا الطعام، وفي

1- المقصود غرق السفينة «كوستروما» عند الساحل الغربي لساخالين في عام 1887.
2- سفينة أسطول المتطوعين «فلاديفستوك».

الصباح قدم لنا الفطور كما ينبغي. بقينا هناك يومين للاستجمام وفي اليوم الثالث ذهبنا إلى الحمام، وفي اليوم الرابع اقتادونا إلى أماكن العمل. قمنا في البداية بحفر أساس للمبنى الذي فيه مستشفى السجن حالياً. عملنا في اقتلاع جذوع الأشجار وتشذيبها وفي الحفر وهلمجرا - واستمر الحال على هذا المنوال طوال أسبوع أو أسبوعين، وربما شهر. وبعد ذلك قمنا بجر جذوع الأشجار لمسافة ثلاث فرستات، وجمعها في أكوام عند الجسر. ثم أخذونا إلى الحقول لحفر خنادق لحفظ المياه. وعندما حان موعد الحصاد بدأ تحشيد المعمدين: وسألوا من يجيد الحصاد، - فأخذوا من أجاب بالإيجاب. وسلموا لمجموعتنا الخبز والحبوب واللحم، واقتادونا تحت حراسة السجان إلى مكان الحصاد في آرمودانا. كانت معيشتي لا بأس بها، وقد منحني الرب الصحة، وكنت أحصد جيداً. كان الحراس يضربون الآخرين، بينما أنا لم أسمع شتيمة واحدة منهم. تطلق الشتائم الدهماء فقط، لماذا تمشي بهذه السرعة، - هيا، لا بأس. في وقت الفراغ أو حين يهطل المطر كنت أحوك لنفسي الخفاف. الآخرون نيام بعد العمل وأنا منهمك في الحياكة.

كنت أبيع الخفاف، وأحصل على وجبتين من لحم البقر لقاء الخفين، وثمن اللحم أربعة كوبيكات. بعد انتهاء موسم الحصاد نعود إلى محل إقامتنا. وعندما جئنا إلى هناك أخذونا إلى السجن. وبعد ذلك نسبوني للعمل في خدمة المستوطن ساشكا في ضيعة ميخايلوفكا. وقمت لدى ساشكا بأداء كل الأعمال الفلاحية: عصر الزيت، أعمال التنظيف، الدراسة، الحفر لاستخراج البطاطس، بينما نقل ساشكا بدلاً عني جذوع الأشجار إلى الخزانة. ولما كان كل شيء قد نفذ من قبلنا، حصلنا على مقابل من الخزانة. عملت لديه شهرين وأربعة أيام ووعدني ساشكا بدفع نقود، لكنني لم أستلم شيئاً. وأعطاني فقط رطلاً من البطاطس. جاء ساشكا بي إلى السجن وسلمني هناك. فأعطوني بلطة وحبلاً وأمروني بجلب الحطب. عملت في إيقاد النار فهناك سبعة مواقد للتدفئة. بينما عشت في خيمة (يورتا) وكنت أجلب الماء بدلاً من التتاري، وأقوم بأعمال التنظيف هنا. كما قمت بحراسة الميدان لدى

التتاري – مانزا[1]. وكنت عندما أعود من العمل يأتمنني على ميدانه، وكان يدفع لي مقابل ذلك 15 كوبيكاً في اليوم. في الربيع حينما أصبح النهار أطول كنت أعمل في حياكة الخفاف. وأستلم 10 كوبيكات. وفي الصيف كنت أنقل الأخشاب بتعويمها في النهر. وجمعت كمية كبيرة منها وبعتها فيما بعد إلى يهودي – صاحب حمام. كما جمعت 60 جذع شجرة وبعتها مقابل 15 كوبيكاً للجذع الواحد. وهكذا أعيش بالقليل مما أكسبه، وبما يمنحني الرب. لكن لا وقت لدي للتحدث معك ياصاحب السعادة، ويجب علي الذهاب لجلب الماء.

- هل ستصبح قريباً في عداد المستوطنين.
- بعد خمسة أعوام.
- هل تشتاق إلى البيت والأهل.
- كلا. لكنني أشعر فقط بالشفقة على الأطفال. البلهاء.
- قل، يايجور، بم كنت تفكر حين نقلوك في السفينة في أوديسا؟
- كنت أصلي إلى الرب.
- عم تصلي؟
- لكي يمنحهم العقل.
- لماذا لم تأخذ زوجتك والأطفال إلى ساخالين؟
- لأن معيشتهم هناك طيبة.

1- الصيني – مانزا.

-7-

الفنار– كورساكوفسكويه – مجموعة الدكتور ب. إي. سوبرونينكو – محطة الأرصاد الجوية – الطقس في دائرة ألكسندروفسك – نوفو– ميخايلوفكا – بوتيومكين – الجلاد السابق تيرسكي– كراسني يار – بوتاكوفو.

لقد تركت لدي ذكريات طيبة النزهات في ألكسندروفسك وضواحيها مع موظف البريد مؤلف كتاب «ساخالينو». وكنا غالباً ما نذهب إلى الفنار المنتصب عالياً فوق الوادي، على رأس جونكيير. وفي النهار يبدو الفنار لدى النظر إليه من تحت مجرد مبنى أبيض متواضع مع صارية ومصباح. أما في الليل فهو يتألق في العتمة بشكل ساطع، ويبدو عندئذ أن المنافي تتطلع إلى العالم بعينها الحمراء. والطريق إلى المبنى شديد الانحدار، ويدور بصورة ملتوية حول الجبل، بمحاذاة أشجار اللارقس والشوح العتيقة. وكلما صعدنا أعلى يصبح التنفس أكثر طلاقة، وينداح البحر أمام البصر، وتطرأ شيئاً فشيئاً أفكار لا علاقة لها بالسجن، ولا بالأشغال الشاقة، ولا بمعتقلات النفي، وهناك فقط يدرك المرء مدى تعاسة ومشقة الحياة في الأسفل. ويعاقب سجناء الأشغال الشاقة والمنفيون يوماً بعد يوم، بينما يتحدث الأحرار منذ الصباح وحتى المساء فقط عمّن انهالوا عليه بالضرب ومن هرب ومن جرى الإمساك به وسوف يعاقب بالجلد. ولغرابة الأمر فإن المرء يعتاد بنفسه على هذه الأحاديث والاهتمامات خلال أسبوع، وعندما يستيقظ في الصباح يتناول قبل كل شيء أوامر الجنرال المطبوعة – في الجريدة الأسبوعية المحلية، ثم يسمع ويتحدث طوال اليوم عمن هرب وعن مصرع من أطلقوا

عليه النار وهلمجرا. ويبدو هذا كله فوق الجبل، لدى رؤية البحر والوهاد الجميلة، أمراً مبتذلاً وجلفاً، كما هو عليه في الواقع.

يقال إنه كانت في الطريق إلى الفنار مصطبات، وقد أزيلت لأن السجناء والمستوطنين كانوا في أثناء نزهاتهم ينقشون عليها بالسكين عبارات نابية وشتى أنواع الفاحش من القول. علماً أن عدد هواة ما يسمى «أدب السياج»- من هاجر الكلام وغليظ القول، كبير في أوساط غير السجناء أيضاً، لكن الوقاحة في أوساط السجناء تتجاوز كل الحدود ولا يمكن مقارنتها بأي شيء. وهناك تبدو قبيحة وشنيعة ليست العبارات المكتوبة على المصاطب وجدران الفناء الخلفي فقط، بل ورسائل العشاق أيضاً. وشيء طريف أن يكتب المرء أو ينقش على المصطبة شتى العبارات الشائنة، وفي الوقت نفسه يشعر بالضياع والعزلة، وبالتعاسة البالغة. وقد يقول عجوز ما هنا إنه يبغض الحياة، وحان موعد موته، وهو يعاني من الروماتيزم الفظيع، ومن ضعف البصر، لكن يطلق بكل شهية وبلا توقف شتائم الحوذيين، في سلسلة طويلة من مختلف أصناف الشتائم الأصيلة التي يتفنن في صياغتها، مثل تعويذات صادرة عن الحمى. إذا كان متعلماً فيصعب عليه حين يكون في مكان منعزل إبداء الحماسة ومقاومة الإغراء في التخديش على الجدار ولو بأظافره بكلمة فاحشة ما.

يندفع نحوي كلب مغتاظ مقيد بسلسلة عند البيت. وثمة مدفع وجرس: يقال إنه سيجلب إلى هنا قريباً أيضاً قرد صياح يبدأ بالصراخ لدى انتشار الضباب ويولد مشاعر الكآبة لدى أهالي ألكسندروفسك. وإذا وقف المرء فوق الفنار وتطلع إلى الأسفل نحو البحر ونحو صخور «الأشقاء الثلاثة»، التي ترتطم بها الأمواج مولدة الزبد، فإنه يشعر بدوار في الرأس وبالرعب. ويرى ساحل تاتارسكي (التتاري) بشكل غامض وحتى مدخل خليج دي – كاستري. يقول حارس الفنار إنه يرى أحياناً كيف تدخل السفن وتخرج من دي – كاستري. ويصطخب البحر الواسع والمتألق في الأسفل بصوت أصم، ويدعوك الساحل البعيد بإغراء إليه، ويغمرك الحزن والكآبة، كما لو أنك تريد التفكير بأنك لن تغادر أبداً ساخالين هذه. إنك تتطلع إلى ذلك الساحل ويبدو كما لو أنك سجين محكوم بالأشغال الشاقة، ويجب أن تهرب من هنا حتماً وعلى الرغم من كل شيء.

تقوم دسكرة كورساكوفسكويه وراء بلدة ألكسندروفسك في أعلى مجرى دويكا. إنها تأسست في عام 1881 وأطلقت عليها هذه التسمية تكريماً للحاكم العام السابق لسيبيريا الشرقية م. س. كورساكوف. ويجدر بالذكر أن التسميات في ساخالين تطلق على المدن والبلدات تكريماً لحكام سيبيريا ومديري السجون وحتى مساعدي الأطباء، لكنهم ينسون كلياً الباحثين مثل نيفيلسكوي والبحار كورساكوف وبوشنياك وبولياكوف وكثيرين غيرهم، أعتقد أن ذكراهم جديرة بالاحترام الكبير والرعاية أكثر من السجان دبربين الذي اغتيل بسبب قسوته[1].

يبلغ عدد السكان في كورساكوفكا 272 فرداً: 153 من الذكور و119 من الإناث. ومجموع الضياع الزراعية 58. ويحمل 26 منهم صفة الفلاحين و9 فقط لهم صفة السجناء، وذلك حسب عدد النساء وكمية الحصاد والماشية وغير ذلك، ولا تتميز كورساكوفكا كثيراً عن ألكسندروفسك الغنية، فلدى كل واحد من أصحاب الضياع الثمانية بيتان، ولكل تسعة بيوت حمام واحد. ويمتلك الخيول 45 من أصحاب الضياع، والأبقار 49. ويمتلك كثيرون منهم بمعدل حصانين و3–4 أبقار. وتكاد كورساكوفكا تشغل المرتبة الأولى في ساخالين الشمالية من حيث عدد المعمرين – فهناك 43 من أصحاب الضياع يعيشون في ضياعهم منذ لحظة تأسيس الدسكرة. وعندما أحصيت الأهالي وجدت 8 أشخاص جاءوا إلى ساخالين قبل عام 1870، وجاء أحدهم حتى في عام 1866. إن النسبة العالية للمعمرين في المستوطنة علامة طيبة.

تشبه كورساكوفكا من حيث المظهر حتى درجة الخداع قرية روسية جيدة، علماً أنها تقع في الأصقاع البعيدة، ولم تمسها الحضارة بعد. وأنا جئت إليها

1- لقد عمل الكثير حتى الوقت من أجل مستوطنة المنفيين في مجال البناء وتحمل المسؤولية فيها، اثنان هما: م. س. ميتسول وم. ن. جالكين – فراسكوي وتم تكريم الأول بإطلاق اسمه على قرية صغيرة مؤلفة من 10 بيوت، وهي صغيرة ولن تبقى طويلاً، وتم تكريم الثاني على بلدة لها تسمية قديمة وثابتة هي سيانتسي، وكانت تسمى على الورق فقط، وتسمى من قبل الجميع بجالكينو– فراكسويه. بينما أطلق اسم م. س. كورساكوف في ساخالين على بلدة ومخفر كبير ليس تكريماً لخدماته وتضحياته المتميزة، بل لأنه كان حاكماً عاماً يمكن أن يبث الرعب في قلوب الناس.

أول مرة في يوم الأحد بعد الغداء. كان الرجال (الموجيك) نائمين في الظل أو يشربون الشاي. بينما كانت النساء عند البوابة أو تحت النوافذ يبحثن عن القمل بعضهن في رؤوس بعض. وفي الحدائق البيتية وحول البيوت تنمو الأزهار، وفي النوافذ تزهر إبرة الراعي. الأطفال كثيرون، وجميعهم يلعبون في الشارع لعبة الجنود أو لعبة الخيل، ويلاعبون الكلاب الشبعانة التي تريد النوم. وعندما اقتاد الراعي، المتشرد العجوز، القطيع الذي تجاوز المائة والخمسين رأساً وغمرت الجو الأصوات الصيفية - ثغاء الغنم وخضعة السياط وصراخ النساء والأطفال، الذين يطاردون العجول، والطبطة الصماء للأقدام الحافية والحوافر فوق الطريق المتربة والملوثة بالروث - عندما سادت في الجو رائحة الحليب، تشكّل وهمٌ كامل. وبدا جذاباً هنا حتى نهر دويكا. إنه يجري في بعض الأماكن عبر الأفنية الخلفية، وبمحاذاة الحدائق البيتية. والضفاف هناك خضراء تنمو فيها أشجار الصفصاف الأرجواني وأعشاب السعادي. عندما رأيته كانت الظلال المسائية تغطي سطحه الأملس، وكان هادئاً وبدا كأنه استسلم للكرى.

ونجد هنا، كما في دسكرة إلكسندروفسك الغنية، نسبة عالية من المعمرين والنساء والمتعلمين، وعدداً كبيراً من النساء الحرائر ويعيد «تاريخ الماضي» نفسه تقريباً، حيث يباع الكحول سراً، ويسيطر الكولاك وهلمجرا. ويقال إنه في الأزمان الماضية مارست دورها الملموس المحسوبية في إدارة شؤون البيع والشراء، حين كانت إدارة المنطقة تقدم للسكان بيسر القروض والماشية والبذور، وحتى الكحول، ومما يزيد من حالة اليسر هذه، أن أهل كورساكوفكا أصبحوا من أهل السياسة ويخاطب حتى أصغر الموظفين بـ «ياصاحب السعادة». ولكن بخلاف دسكرة ألكسندروفسك فإن السبب الرئيسي للثراء هنا يتمثل مع هذا ليس ببيع الكحول وليس بالمحسوبية أو بالقرب من باريس ساخالين، بل بالنجاحات التي لا ريب فيها في زراعة الحبوب. وفيما يستغني ربع أصحاب الضياع في الدسكرة عن استثمار الأراضي الزراعية، بينما يستثمر الربع الآخر الأراضي بقدر قليل جداً هناك، نجد جميع أصحاب الأراضي في كورساكوفكا يحرثون الأراضي ويبذرون الحبوب. وهناك يستغني نصف أصحاب الضياع عن الماشية، وهم مع ذلك

شبعانون، أما هنا فيرى جميع أصحاب الضياع تقريباً أن من الواجب تربية الماشية. ولا يمكن النظر إلى الزراعة في ساخالين إلا بشيء من الشك بحكم أسباب كثيرة، بينما يجب الاعتراف بأن الزراعة في كورساكوفكا تؤخذ بجد وتعطي نتائج طيبة نسبياً. ولا يجوز السماح بالقول إن أهل كورساكوفكا كانوا يبذرون في الأرض ألفي بود من الحبوب سنوياً فقط بسبب العناد أو بالرغبة في إرضاء الرؤساء. ولا تتوفر لدي أرقام دقيقة حول المحاصيل، ولا يجوز الثقة بمعطيات أهل كورساكوفكا أنفسهم. لكن حسب بعض الدلائل، وعلى سبيل المثال وجود عدد كبير من الماشية، والوضع الخارجي للمعيشة، ولأن الفلاحين هنا لا يعجلون في السفر إلى القارة، على الرغم من أنهم يمتلكون الحق في ذلك منذ وقت بعيد، ينبغي الاستنتاج بأن المحصول هنا لا يوفر الطعام فقط، بل يجلب أيضاً بعض الأرباح، مما يدفع المستوطن إلى الاستقرار في المعيشة هنا.

وضع القيود والسلاسل في أيدي وسيقان السجناء

ليس من الصعب تفسير سبب نجاح أهالي كورساكوفكا في زراعة الحبوب بينما يعاني أهالي القرى المجاورة من الفاقة الشديدة بسبب الإخفاق في أعمال عديدة، وأصابهم اليأس في إطعام أنفسهم مما ينتجوه

من حبوب. فهناك حيث تقع كورساكوفكا، يكون وادي نهر دويكا أوسع نطاقاً، وحصل أهل البلدة منذ البداية، حين استقروا في الضياع، على مساحة واسعة من الأرض. وكان بوسعهم ليس الاستحواذ على الأرض فقط، بل واختيارها أيضاً. وفي الوقت الحاضر يمتلك 20 من أصحاب الضياع مساحة من الأرض تتراوح من 3 إلى 6 ديسياتينات ونادراً ما تكون أقل من ديسياتينين. وإذا أراد القارئ إجراء المقارنة بين قطع الأراضي المزروعة هنا وقطع أراضي الفلاحين عندنا، فيجب عليه أن يأخذ بنظر الاعتبار أن الأرض هنا لا تزرع بالتناوب بين موسم وآخر، بل تبذر الحبوب فيها كلها سنوياً حتى آخر فيرشوك (الفيرشوك يعادل 4. 4 سنتيمترات - المترجم)، ولهذا تعادل مساحة ديساتينين اثنتين هنا مساحة ثلاث عندنا من حيث كمية المحصول. إن السر في نجاح أهل كورساكوفكا يكمن في استثمارمساحات أكبر من الأرض. وفي محاصيل ساخالين يمكن أن تعطي الأرض كمية كافية من الحبوب بشرط واحد فقط: أن تكون مساحة الأرض واسعة... أي الأراضي الكثيرة، والبذور الكثيرة، والعمل غير الشاق. وفي الأعوام التي لم تكن محاصيل الحبوب جيدة كلياً، يزرع أهل كورساكوفكا الخضروات والبطاطس، التي تشغل هنا مساحة واسعة أيضاً وتبلغ 33 ديسياتيناً.

إن مستوطنة السجناء التي تشكلت منذ فترة قريبة بعدد سكانها القليل لم تنضج بعد للإحصاء. وسواء أردنا أم أبينا فلدى وجود معطيات رقمية قليلة، والتي أفلحت في الحصول عليها حتى الوقت الحاضر، لا نستطيع بناء استنتاجاتنا فقط على التلميحات والفرضيات، في كل حالة مناسبة. وإذا خشينا أن يوجه اللوم لنا لكوننا أبدينا العجلة في طرح استنتاجات ومعطيات، حول كورساكوفكا، وفيما يخص كل المستوطنة، يمكن القول إنه من واجب صاحب كل ضيعة، ولأن محاصيل ساخالين رديئة، وبغية العمل بلا خسائر، وإشباع البطون، أن يمتلك ما لا يقل عن ديسياتينين من الأراضي الزراعية، ناهيك عن حساب الأراضي التي تخصص لزراعة الأعلاف والمخصصة لزراعة الخضروات والبطاطس. ولا يمكن في الوقت الحاضر تحديد معدل أكثر دقة، ولكنه يبلغ في جميع الاحتمالات أربع ديسياتينات. علماً أنه بموجب «تقرير حول وضع الزراعة في عام 1889» في ساخالين يحصل

كل فلاح بالمتوسط على مساحة نصف ديسياتين (1555 ساجيناً مربعاً) من الأراضي الصالحة للزراعة.

وفي كورساكوفكا بيت يشبه من حيث الحجم والسقف الجميل والحديقة الأنيقة بيت صاحب أطيان متوسط الثروة. وصاحب هذا البيت هو الدكتور ب. إي. سوبرونينكو مدير الوحدة الطبية الذي سافر في الربيع لكي يعرض مقتنياته في معرض السجون، ومن ثم البقاء في روسيا إلى الأبد، ووجدت في الحجرات الفارغة فقط بقايا مجموعة النماذج الحيوانية الفاخرة التي جمعها الدكتور. أنا لا أعلم أين توجد هذه المجموعة الآن، ومن يدرس بموجبها الحيوانات في ساخالين لكنني أستطيع الحكم اعتماداً على النماذج القليلة المتبقية، الفاخرة إلى أقصى حد، واعتماداً على الأحاديث، على غنى المجموعة، وكذلك عن مقدار المعرفة والجهد والمحبة التي بذلها الدكتور سوبرينينكو في سبيل إنجاز هذا العمل النافع. وقد بدأ باقتناء المجموعة في عام 1881 ونجح خلال عشر سنوات في جمع نماذج من جميع الفقريات تقريباً الموجودة في ساخالين، وكذلك مواد كثيرة في مجال الأنثروبولوجيا والإثنوجرافيا. وكان يمكن أن تصبح هذه المجموعة لو بقيت في الجزيرة أساساً لمتحف ممتاز.

وفي البيت محطة للأرصاد الجوية. وكانت حتى الفترة الأخيرة تعمل تحت إشراف الدكتور سوبرينينكو، أما الآن فيشرف عليها المفتش الزراعي. وقام بتسجيل المعطيات في حضور الكاتب، السجين والمنفي جولوفاتسكي، وهو رجل أريب وملتزم، زودني بجداول الأرصاد الجوية. ويمكن إعطاء الاستنتاج اعتماداً على نتائج الرصد خلال تسعة أعوام، وسأحاول إيراد بعض الفهم حول الطقس في دائرة ألكسندروفسكي. قال لي رئيس بلدية فلاديفستوك في إحدى المرات إنه ليس في فلاديفستوك، وعموماً في جميع الساحل الشرقي «أي طقس»، بينما يقال عن ساخالين، إنه ليس فيها طقس بل جو سيئ، وإن الطقس في هذه الجزيرة هو الأسوأ في روسيا. أنا لا أعلم مدى صحة القول الأخير، فقد كان الصيف جيداً جداً في أثناء وجودي هناك، لكن جداول الأرصاد الجوية والتقارير الموجزة للمؤلفين الآخرين تعطي عموماً صورة عامة عن رداءة الجو. إن المناخ في

دائرة ألكسندروفسك بحري ويتميز بكونه متقلباً، أي بالترددات الكبيرة في متوسط درجة الحرارة خلال العام[1]، وعدد الأيام التي يتساقط فيها المطر وهلمجرا. وتتشكل الخصائص الرئيسية فيه بكون درجة الحرارة المتوسطة متدنية، وبتساقط كمية هائلة من الأمطار وبالأيام الغائمة. ولغرض المقارنة سآخذ درجة الحرارة المتوسطة خلال شهر في دائرة ألكسندروفسك وقضاء تشيريبوفتس، ومحافظة نوفجورود حيث يسود «المناخ الشديد الرطوبة وغير الثابت وغير المناسب للصحة»[2]:

	دائرة ألكسندروفسك	قضاء تشيريبوف
يناير	18,9-	11,0-
فبراير	15,1-	8,2-
مارس	10,1-	1,8-
أبريل	0,1+	2,8+
مايو	5,9+	12,7+
يونيو	11,0+	13,5+
يوليو	16,3+	18,5+
أغسطس	17,0+	13,5+
سبتمبر	11,4+	6,8+
أكتوبر	3,7+	1,8+
نوفمبر	5,5-	5,7-
ديسمبر	13,8-	12,8-

1- يتراوح متوسط درجة الحرارة ما بين +12 و-12، وعدد الأيام الممطرة 102 و209، والأيام الهادئة بلا رياح بلغت في عام 1881 فقط 35، وفي عام 1884 كانت أكثر بثلاث مرات - 112 يوماً.

2- ب. كريازنوف. خبرة الدراسة المقارنة للظروف الصحية لحياة الفلاحين والطوبوغرافية - الطبية لقضاء تشيريبوف في عام 1881. أورد مقاييس درجات الحرارة وفقاً لما ذكره ريوميور وجريازنوف بالدرجات المئوية.

تعادل درجة الحرارة المتوسطة في دائرة ألكسندروفسك +0,1، أي حوالي الصفر، بينما تبلغ في قضاء تشيريبوفتس +2,7. والشتاء قاس في ألكسندروفسك أكثر مما في أرخانجلسك، بينما الربيع والصيف كما في فنلندا، والخريف كما في بطرسبورج، ومتوسط درجة الحرارة كما في جزر سولوفكي حيث تعادل الصفر أيضاً. ويلاحظ في وادي دويكا التجمد الدائم. وقد اكتشفه بولياكوف في 20 يونيو على عمق ثلاثة أرباع الأرشين. كما عثر على الثلج أيضاً في 14 يوليو تحت كومة من النفايات، وفي الوهاد بالقرب من الجبال، ولم يذب الثلج هناك إلا في نهاية يوليو. وفي 24 يوليو عام 1889 تساقط الثلج في الجبال غير العالية هنا، ولبس الجميع المعاطف وفرو الضأن. علماً أن ذوبان الجليد في نهر دويكا خلال 9 أعوام كان كما يلي: الذوبان المبكر بأكبر قدر في 23 أبريل، والذوبان المتأخر بأكبر قدر في 6 مايو. ولم يحدث الدفء خلال جميع مواسم الشتاء التسعة. ويسود البرد خلال 181 يوماً في السنة، بينما تهب الرياح الباردة خلال 151 يوماً. وهذا كله يتسم بأهمية تطبيقية. وفي قضاء تشيريبوف حيث الصيف أكثر دفئاً وأطول فترة، لا يمكن أن تنضج جيداً محاصيل الحنطة السوداء والخيار والحنطة. أما في دائرة ألكسندروفسك وحسب معطيات المفتش الزراعي هنا فإنه لم يحدث في أية سنة الدفء الكافي من أجل نضوج الشوفان والحنطة.

تحظى الرطوبة الشديدة هنا بأكبر اهتمام لدى المهندس الزراعي والخبير الصحي. وقد يتساقط المطر مع الثلج في بعض أيام السنة بمعدل متوسط قدره 189:107 يوماً، ويتساقط المطر فقط خلال 82 يوماً (في قضاء تشيريبوف يتساقط المطر خلال 81 يوماً والثلج خلال 82 يوماً). ويحدث أن تغطي السحب الرصاصية الكثيفة السماء خلال عدة أسابيع. ويبدو للأهالي أن رداءة الطقس التي تتواصل يوماً بعد يوم لا نهاية لها. ومثل هذا الطقس يولد الأفكار الكئيبة واللجوء إلى السكر وانقباض النفس. ربما أن الكثير من الناس الباردين يصبحون بتأثير ذلك قساة القلوب والكثيرين من الطيبين يصبحون ضعفاء الروح، حينما لا يرون الشمس خلال أسابيع عديدة وحتى الأشهر، ويفقدون الأمل نهائياً في حياة أفضل. كتب بولياكوف حول يونيو عام 1881 أنه لم يكن هناك يوم صحو واحد خلال شهر كامل، ويرى من تقرير

المفتش الزراعي أنه خلال أربعة أعوام كان عدد الأيام الصاحية في الفترة من 18 مايو إلى 1 سبتمبر لا يتجاوز في المتوسط ثمانية أيام. إن الضباب ظاهرة سائدة جداً هنا، بالأخص في البحر، حيث يشكل فاجعة حقيقية بالنسبة إلى البحارة. وحسب قولهم فإن الضباب البحري الملحي يؤثر تأثيراً هداماً في النباتات الساحلية والأشجار وفي المروج. وسأتحدث لاحقاً عن البلدات والقرى التي توقف أهاليها بسبب هذا الضباب، بصورة أساسية، عن زراعة الحبوب، إنهم يزرعون البطاطس في حقولهم كلها. وحدث مرة أن رأيت في يوم مشمس جداراً من الضباب يزحف من البحر بلون أبيض تماماً، بلون الحليب. كما لو أن ستاراً أبيض قد غطى الأرض.

إن محطة الأرصاد الجوية مزودة بأجهزة مختبرات حصل عليها من المرصد الفيزيائي العام في بطرسبورج. لكن ليس فيها مكتبة. وسجلت في المحطة بالإضافة إلى الكاتب جولوفاتسكي المذكور وزوجته ستة من العاملين وعاملة واحدة. أنا لا أعرف ماذا يفعلون هناك.

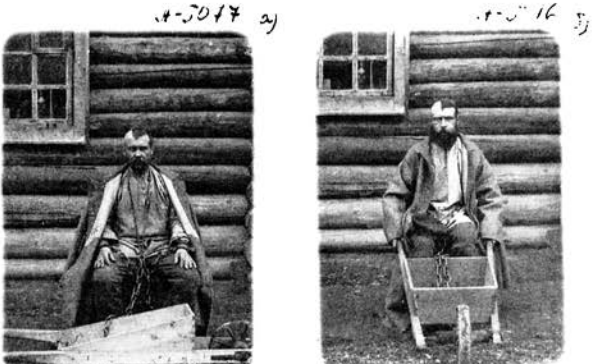

ربط السجناء إلى العربات وحلق جزء من الشعر

وفي كورساكوفكا مدرسة ومصلى. كما وجدت عيادة يرقد فيها 14 شخصاً من المصابين بالسفلس و3 مجانين، وقد أصيب أحدهم بالسفلس. وقيل أيضاً إن المرضى المصابين بالسفلس كانوا يصنعون من أجل قسم

الجراحة حبلاً بحرياً ونسالة كتان. لكنني لم أفلح في زيارة هذه المؤسسة التي تعود إلى أيام القرون الوسطى، حيث أغلقها في سبتمبر الطبيب العسكري الشاب الذي تولى مؤقتاً منصب طبيب السجن. إنني ما كنت سأعجب لو جرى إحراق المجانين بأمر من أطباء السجن، لأن أنظمة العيادات الطبية المحلية متخلفة عن الحضارة بما لا يقل عن مائتي عام. التقيت في أحد البيوت في العتمة رجلاً في نحو الأربعين من العمر، يرتدي جاكيتّ وسروالاً طليقاً، حليق الذقن، بقميص قذر، غير منشى، وبما يشبه ربطة العنق - تشير هيئته كلها إلى أنه يتمتع بامتيازات. كان جالساً فوق مقعد صغير ويأكل اللحم المملح والبطاطس. ذكر لقبه المنتهي بـ «كي». وبدا لي أنه يقف أمامي ضابط سابق، ينتهي لقبه بـ «كي» أيضاً، عوقب بالأشغال الشاقة لارتكابه جريمة انضباطية ما.

سألته: - هل أنت ضابط سابق؟

- كلا، ياصاحب السعادة، أنا قسيس.

أنا لا أعلم سبب نفيه إلى ساخالين، وأنا لم أسأله عن ذلك، حيث لا يمكن أن تفكر في الجريمة، حين يقف أمامك الآن رجل مفتوح أزرار القميص، وبجاكيت مهلهلة، رجل كان منذ فترة قريبة يخاطبه الناس بـ «أبونا»، ويقبلون يده. وفي بيت آخر رأيت المشهد نفسه. يجلس شاب وراء الطاولة معتمداً برأسه على كلتا يديه، وهو من المحكومين بالأشغال الشاقة، إنه أسود الشعر، وذو مسحة حزينة غير عادية، ويرتدي بلوزة أنيقة. بينما تقوم ربة البيت السجينة برفع السماور والأقداح من المائدة. أجاب الشاب عن سؤالي فيما إذا كان متزوجاً بقوله إن زوجته تبعته إلى ساخالين طوعاً برفقة ابنته، لكنها غادرت الجزيرة منذ شهرين مع الطفلة إلى نيقولايفسك، لكنها لم تعد على الرغم من أنه أرسل إليها عدة برقيات. وقالت ربة البيت بتشفٍ «ولن ترجع. فماذا ستفعل هنا؟ هل إنها لم تر ساخالينك هذه؟ ليست القضية بهذا اليسر!». لزم الشاب الصمت بينما واصلت هي القول: «إنها لن تعود. إنها امرأة شابة، وحرة، - فما حاجتها إلى العودة؟ إنها حلّقت كالطائر، ثم اختفى أثرها. بينما الأمر مختلف بالنسبة إلي وإليك. لو لم أقتل زوجي، بينما أنت لو لم تضرم النار، لكنا الآن من الأحرار، والآن اجلس وانتظر الريح

في البرية، مجيء زوجتك، ودع قلبك يفور بالدم...». إنه يعاني، ويبدو أن هناك رصاصاً في روحه، بينما هي تواصل مناكدته باستمرار. أنا خرجت من البيت، بينما كنت أسمع صوتها بلا توقف.

رافقني في جولتي في البيوت في كورساكوفكا السجين المحكوم بالأشغال الشاقة كيسلياكوف، وهو رجل غريب الأطوار حقاً. وأعتقد أن مندوبي الصحف في المحاكم لم ينسوا قضيته. إنه كيسلياكوف ذاك، مسؤول المراسلات في الجيش، الذي قتل زوجته بالمطرقة في شارع نيقولايفسكايا في بطرسبورج، وجاء إلى عمدة المدينة لإبلاغه بجريمته. وحسب روايته فإن زوجته كانت حسناء وأحبها جداً، وحدث مرة أن تخاصم معها، وأقسم أمام الأيقونة على أن يقتلها، ومنذ ذلك الوقت وحتى لحظة القتل كانت قوة ما مجهولة تهمس له بلا توقف: «اقتل، اقتل!». واحتجز حتى موعد المحاكمة في مستشفى القديس نيقولاي: في أغلب الظن أنه يعتقد بنفسه أنه معتل نفسياً، حيث رجاني عدة مرات أن يعتبروه مجنوناً، وأن يزجوا به في الدير. علماً أن أشغاله الشاقة كلها تتألف من تكليفه في السجن بصنع أطواق لتثبيت قوالب الخبز، وهو عمل غير شاق، كما أعتقد، لكنه يستأجر شخصاً آخر للعمل بدلاً منه، أما هو نفسه «فيعطي الدروس»، أي لا يعمل شيئاً. إنه يرتدي جاكيتّ من قماش الأشرعة، وتدل هيئته على الأناقة وحسن المظهر. والشاب ضيق الأفق، ولكنه ثرثار وفيلسوف. وحينما يرى الأطفال يقول في كل مرة بصوته الباريتوني المخملي الحلو: «حيثما يكُن القمل، يكُن الأطفال». وعندما سألوني بحضوره عن سبب قيامي بتسجيل الإحصاءات، كان يقول: «هذا من أجل أن يرسلونا جميعاً إلى القمر. هل تعرف أين القمر؟». وعندما رجعنا إلى ألكسندروفسك في وقت متأخر من المساء مشياً على الأقدام، ردد عدة مرات، بلا أية مناسبة، قائلاً: «إن الانتقام هو من أكثر المشاعر نبلاً». تقوم في المجرى الأعلى لنهر دويكا قرية نوفو-ميخايلوفسكويه التي تأسست في عام 1872 وسميت بهذا الاسم لأن اسم ميتسول الأصلي كان ميخائيل. وتطلق عليها لدى بعض المؤلفين تسمية أوروتشيش العليا، بينما يطلق عليها المستوطنون المحليون تسمية – باشنيا. ويبلغ عدد أهالي البلدة 520 نسمة: 287 من الذكور و233 من الإناث. وعدد

أصحاب الضياع 133، بينهم اثنان يشاركان في الملكية. والأراضي الزراعية مدونة في سجل الملكية لدى جميع أصحابها، يملك 84 منهم أبقاراً، ومع ذلك فإن البيوت الريفية، باستثناء القليل منها، تثير الدهشة بفقرها، ويعلن الأهالي بصوت واحد أنه لن «تحيا أية أسرة» بصورة دائمة في ساخالين. ويقال إنه في الأعوام الماضية حين بلغ الفقر في نوفو- ميخايلوفسكويه أقصى درجة، كان يوجد ممر مطروق من البلدة إلى دويه، تسير فيه النساء السجينات والحرائر إلى سجني دويسكايا وفويفودسكايا من أجل ممارسة الدعارة مع السجناء لقاء قروش معدودات. وأستطيع التأكيد على أن الأعشاب لم تنمُ في هذا الممر حتى الآن. إن الأفراد مثل أهالي كورساكوفكا الذين يمتلكون مزارع كبيرة، بمساحة من 3 إلى 6 وحتى 8 ديسياتينا لا يعانون من شظف العيش، لكن هذه المزارع قليلة، وتغدو أقل فأقل عاماً بعد عام، وفي الوقت الحاضر يمتلك أكثر من نصف المزارعين قطع أراض بمساحة ⅛ وحتى 1½ ديسياتين. وهذا يعني أن زراعة الحبوب تجلب لهم الخسائر فقط. علماً أن المزارعين القدامى ذوي الخبرة يبذرون في الحقول الشعير فقط، ويزرعون في أراضيهم البطاطس فقط.

إن الأرض هنا لا تغري بالاستيطان وحياة الاستقرار. ولم يتبقّ أحد من المزارعين الذين استقروا في قطع الأراضي في الأعوام الأربعة الأولى بعد تأسيس البلدة، ومنذ عام 1876 استقرت هناك 9 أُسر، ومنذ عام 1877-7 أسر، ومنذ عام 1878 - أسرتان، ومنذ عام 1879-7 أسر، أما الباقون جميعاً فهم من المستوطنين الجدد.

في نوفو- ميخايلوفسكايا محطة تلغراف ومدرسة ومأوى للمقعدين وهيكل كنيسة خشبية لم ينجز بناؤها. كما فيها مخبز لصنع الخبز من أجل السجناء العاملين في شق الطرق في منطقة نوفو - ميخايلوفسكايا، ويبدو أنهم يخبزون بلا أية رقابة من جانب الرؤساء، لأن الخبز هنا رديء للغاية بصورة مقرفة.

لابد أن يتعرف كل من يمر عبر نوفو- ميخايلوفسكايا على الفلاح المنفي بوتيومكين القاطن هنا. وعندما تزور ساخالين شخصية هامة يقدم بوتيومكين له الخبز والملح، وعندما يراد إثبات نجاح المستوطنة الزراعية

يشار عادة إلى مزرعة بوتيومكين. وورد في سجل الموجودات لديه 20 حصاناً و9 أبقار، لكنه يقول إن عدد الأحصنة لديه أكبر بمقدار الضعفين. ولديه حانوت، كما لديه حانوت آخر في دويه، يعمل فيه ابنه. ويتولد انطباع بأنه من المنشقين (على الكنيسة الأرثوذكسية الروسية - المترجم) النشيطين والأذكياء والموسرين. والحجرات في بيته نظيفة والجدران مغطاة بالورق الملون وهناك لوحة فنية: «مارينباد: الاستحمام في البحر بالقرب من ليبافا». علماً أنه هو وزوجته العجوز يتسمان بالوقار والحصافة، ويدرجان السياسة في الأحاديث. وعندما شربت الشاي عندهما قال لي مع زوجته إن العيش في ساخالين ممكن والأرض ذات مردود طيب، لكن المصيبة كلها تكمن في أن الناس أصبحوا الآن كسالى ومدللين، ولا يصبون إلى العمل. فسألته: هل صحيح ما يقال إنه قدم البطيخ والشمام إلى شخصية هامة من منتجات مزرعته؟ فأجاب من دون أن يرف له جفن: «هذا صحيح تماماً، والشمام ينضج هنا أحياناً»[1].

تقطن في نوفو- ميخايلوفسكايا شخصية معروفة أخرى في ساخالين هي المستوطن تيرسكي، الجلاد السابق. إنه يسعل، ويمسك صدره بيدين هزيلتين شاحبتين، ويشكو من أن بطنه يتمزق. وبدأ السقم في جسده منذ اليوم الذي عاقبه فيه بأمر من الرئاسة كوميليف جلاد ألكسندروفسك الحالي لارتكابه جريرة ما. وقد بالغ كوميليف في تنفيذ العقوبة حتى «كاد يطلع روحه». ولكن سرعان ما ارتكب كوميليف نفسه جريرة ما - وحل يوم عيد لدى تيرسكي. فأطلق الحرية لنفسه في الانتقام من زميله بقسوة شديدة جعلت جسد الأخير حسب الروايات يتعفن حتى الوقت الحاضر. ويقال إنه حين يوضع عنكبوتان في علبة واحدة فإنهما يفترسان أحدهما الآخر حتى الموت.

1- وصل بوتيومكين إلى ساخالين ميسور الحال. وكتب الدكتور أفجوستينوفتش الذي رآه بعد ثلاثة أعوام من وصوله إلى ساخالين، «كان بيت المنفي بوتيومكين من أفضل البيوت». ولئن استطاع بوتيومكين السجين المحكوم بالأشغال الشاقة خلال ثلاثة أعوام تشييد بيت جيد لنفسه، وامتلاك الخيل وتزويج ابنته من أحد الموظفين في ساخالين، فأعتقد أن المسألة لا تتعلق بالزراعة.

كانت في نوفو- ميخايلوفسكايا حتى عام 1888 آخر قرية على ضفاف دويكا، وهناك الآن أيضاً كراسني يار وبوتاكوفو. ويمتد الطريق من نوفو- مايخايلوفسكايا إلى هاتين القريتين. وقد توجهت في النصف الأول من الطريق إلى كراسني يار، لمسافة حوالي ثلاث فرستات، في الطريق الجديد، الأملس والمستقيم مثل المسطرة، بينما سرت في القسم الثاني في الطريق الساحر عبر التايغا، حيث تم اجتثاث جذوع الأشجار الساقطة، وأصبح المرور أكثر سهولة وراحة، كما في الدرب المطروق في الغابة. علماً أن النماذج الباسقة من الأشجار الضخمة قد أزيلت في كل مكان تقريباً، لكن غابة التايغا ما زالت واسعة وجميلة. فهناك أشجار البتولا والحور الرجراج والصفصاف والمران والخمان وبطمة الشمال والفيليبندولا والزعرور، وتنمو بينها أعشاب بطول قامة الإنسان وأعلى منه، وشجيرات السرخس وراعي الحمام العملاقة التي يتجاوز قطر أوراقها الأرشين (الأرشين = 71 سنتيمتراً-المترجم)، وتندمج مع الأدغال والأشجار مولدة غابة كثيفة منيعة، تشكل ملاذاً للدببة والسمورات والأيائل. وينتصب على الجانبين حيث ينتهي الوادي الضيق وتبدأ الجبال، حاجز أخضر من الغابات الصنوبرية من أشجار التنوب والشوح واللارقس، وتعلوها مجدداً غابات اللارقس، أما ذرى الجبال فهي عارية أو مغطات بالأحراش. أنا لم أر في روسيا قط أوراق سرخس بهذا الحجم، علماً أنها تكسب الغابات الكثيفة وفسحات الغابة والمروج هنا منظراً متميزاً. وقد كتبت سابقاً أنها تبدو لا سيما في ضوء القمر ذات مظهر ساحر خيالي. وفي هذا السياق تكمل الديكور شجرة رائعة من أسرة المظليات التي لا وجود اسم لها باللغة الروسية، كما أعتقد: الجذع مستقيم يصل طوله إلى عشرة أقدام وسمكه في القاعدة ثلاثة بوصات، ولونه قان - أرجواني في القسم الأعلى، ويحمل فوقه مظلة يبلغ قطرها حوالي القدم. بينما تنتشر حول هذه المظلة الرئيسية 4-6 مظلات أصغر في الحجم تكسب النبات هيئة الثريا. وتطلق على هذا النبات باللاتينية تسمية angelophyllum ursinum[1].

1- جذر الدب.

استمرت بلدة كراسني يار قائمة للعام الثاني فقط. وفيها شارع رئيسي عريض، لكن لا طرق أخرى بعد، ويتم المرور من بيت إلى بيت فوق ممرات ناتئة من الطين والأغصان اليابسة، وبالقفز فوق جذوع الأشجار المقطوعة والقرمات أو الحفر والأخاديد التي ركدت فيها المياه البنية. علماً أن البيوت ليست جاهزة بعد. فأحد أصحاب البيوت يعد الطوب، بينما يبني الآخر الموقد ويسحب الثالث جذوع الأشجار عبر الشارع. ويبلغ عدد أصحاب البيوت 51 شخصاً. وقد ترك ثلاثة منهم - وبينهم الصيني بين-أوجي-تسوي - بيوتهم التي بدأوا بتشييدها، ولا يعرف أحد أين هم الآن. أما أبناء القوقاز، وعددهم سبعة، فقد توقفوا عن العمل، ولاذوا ببيت واحد وهم يرتجفون من البرد، على الرغم من أننا لا نزال في الثاني من أغسطس. كما يتبين من الأرقام أيضاً أن البلدة ما زالت فتية ولم تبدأ الحياة فيها بعد. فيبلغ عدد سكانها 90 فرداً، علماً أن عدد الرجال يبلغ ضعفي عدد النساء. والأسر الشرعية - 3، والأحرار غير المرتبطين بعقد زواج - 20، والأطفال دون سن 5 أعوام 9 فقط. ويمتلك الأحصنة 3 من أصحاب البيوت، والأبقار - 9.

وفي الوقت الحاضر يحصل جميع أصحاب البيوت على حصص السجناء من الطعام، ولكن لا يعرف ماذا سيأكلون لاحقاً. علماً أن الآمال ضعيفة في الاعتماد على محاصيل الحبوب. وإلى الآن تم تحديد وتطهير الأرض لغرض زراعة الحبوب والبطاطس فيها فقط بمساحة ¼ 24 ديسياتيناً، أي أقل من ½ ديسياتين لكل مزرعة. علماً أنه لا يجري حصاد العشب أصلاً هنا. وبما أن الوادي هنا ضيق وتحده من الجانبين الجبال التي لا ينمو فيها شيء، وبما أن الإدارة لا تتوانى عن أي اعتبار، حينما تحتاج إلى التخلص من مهام رعاية الناس، فإنها تقدم سنوياً قطع الأراضي هنا إلى العشرات من المستوطنين الجدد. بينما تبقى مساحة الأراضي الزراعية على حالها الآن أي بمقدار ⅛ و¼ و½ ديسياتين، وربما أقل، تخصص لكل مزرعة. أنا لا أعلم من اختار المكان لبناء كراسني يار، لكن كل الدلائل تشير إلى أنه كلف بذلك أشخاص غير مؤهلين، ولم يزوروا الريف قط، والشيء الرئيسي أنهم يفكرون بأقل قدر بالمستوطنة الزراعية. فهنا لا يتوفر حتى المياه الصالحة للشرب. وعندما سألت من أين يأخذون المياه للشرب أشاروا إلى الخندق بجوار الطريق.

إن تصاميم البيوت الريفية هنا متباينة، ويؤخذ بالحسبان قبل كل شيء – قضاء فترة النفي والسجن بشكل ما والعودة إلى القارة. ولا تفرض الإدارة رقابتها على أعمال البناء، وهذا كما يبدو لعدم وجود أي شخص بين الموظفين يعرف كيفية بناء البيت والموقد. إن ملاك الموظفين في ساخالين يضم مهندس بناء، لكنه لم يظهر أثناء حضوري، وأعتقد أنه يشرف فقط على المباني الحكومية. ويبدو بأبهى منظر من بين جميع المباني البيت الحكومي الذي يقطن فيه السجان أوبيينخ (معنى اللقب ابن الضحية – المترجم)، وهو جندي صغير الحجم وهزيل الجسد، وعلى وجهه سمات تناسب تماماً لقبه، حيث ترتسم فيه حقاً أمارات الضحية المرتبك والحائر بمرارة. ربما لأن خليلته الطويلة القامة والبدينة تعيش معه في غرفة واحدة، وهي التي ولدت له سرباً من الأطفال. علماً أنه الآن بلغ مرتبة السجان الأقدم، وكل وظيفته تقتصر على تقديم التقارير إلى الرؤساء الزائرين بأن كل شيء على ما يرام في هذه الدنيا. لكن كراسني يار لا تعجبه ويريد مغادرة ساخالين. وسألني هل سيسمح لخليلته بمرافقته إلى القارة لدى انتهاء فترة خد .ته؟ إن هذه القضية تشغل باله جداً.

أنا لم أزر بوتاكوفا[1]. وحسب معطيات سجل النفوس الذي استطعت التحقق منه وأضفته اعتماداً على سجل الاعتراف لدى القسيس، فإن عدد القاطنين هناك يبلغ 39. وعدد النساء البالغات 4 فقط. وعدد أصحاب البيوت 22. وهناك 4 بيوت فقط جاهزة تماماً، أما البقية فهي ما زالت بهيئة جدران عارية من جذوع الأشجار المصفوفة. ولا تتجاوز مساحة مزارع الحبوب والبطاطس الـ ½4 ديسياتينات.

بعد الانتهاء من زيارة وادي دويكا انتقلت إلى النهر الصغير أركاي الذي تقوم على ضفافه ثلاث قرى. وقد وقع الاختيار على وادي أركاي من أجل الاستيطان فيه ليس لكونه أفضل من المناطق الأخرى قيد البحث أو منطقة تتفق مع متطلبات المستوطنات، بل لمجرد الصدفة، وفقط لكونها أقرب إلى ألكسندروفسك من غيرها.

1- أطلقت هذه التسمية على المستوطنة على شرف أ. م. بوتاكوف رئيس دائرة تيموفسكي.

-8-

نهر أركاي – مخفر أركاي الحدودي – أركوفو الأولى والثانية والثالثة – وادي أركاي – المستوطنات على الساحل الغربي –: مغاتشي، تانجي، هويه، ترامباوس، فياختي، فانجي. النفق – بيت القابلو – دويه – ثكنات العوائل – سجن دويه – مقالع الحجر – سجن فويفودوا – مقيدون بالسلاسل إلى عربات الشحن.

يصب نهر أركاي في خليج تتارسكي في موضع يبعد 8–10 إلى الشمال من دويكا. علماً أنه كان حتى وقت قريب نهراً حقيقياً يجري فيه صيد أسماك السلمون الأحدب. أما الآن وبسبب حرائق الغابات وقطع الأشجار فيها أصبح النهر ضحلاً وأخذ يجف تماماً في الصيف. وبالمناسبة فإنه يفيض في أثناء الأمطار الغزيرة، ويسيل بشكل عاصف وبصخب، وعندئذ يثبت وجوده. وحدث مرات عديدة أن جرف الحقول وحمل إلى البحر العلف وجميع محاصيل المستوطنات. ومن المستحيل تفادي مثل هذه المصيبة، لأن الوادي ضيق ولا يمكن إيجاد الملاذ من غضب النهر سوى في الجبال.

تقوم قرية أركاي – فو التي يقطن فيها أبناء الشعب الجيلياتي الصغير عند مصب نهر أركاي وفي المنعطف نحو الوادي ومنحت التسمية للمخفر أركوفو الحدودي وثلاث بلدات: أركوفو الأولى والثانية والثالثة. ويمتد من ألكسندروفسك إلى وادي أركوفو طريقان أحدهما الجبلي، الذي لم يكن يستخدم في أثناء وجودي هناك، لأن حرائق الغابات التهمت الجسور فيها، والطريق الآخر يمتد بمحاذاة ساحل البحر. ويمكن السير فيه فقط في أثناء الجزر. وفي المرة الأولى توجهت إلى أركاي في 31 يوليو في

الساعة الثامنة صباحاً. وبدأ الجزر. وفاحت رائحة المطر. السماء ملبدة بالغيوم، وبدا موحشاً وقاسياً البحر الذي لم ير فيه أي شراع، والساحل الطيني الشديد الانحدار، وضجت الأمواج بصوت خامد وحزين. وبدت من الساحل المرتفع الأشجار الهزيلة والعليلة، وهنا تكافح كل واحدة منها بعنف الزمهرير والرياح الباردة، في الخريف والشتاء، أما في الليالي الطويلة الرهيبة فتتأرجح من جانب إلى آخر باضطراب، وتنحني حتى تبلغ الأرض، وتطلق شاكية صريراً حاداً، – لكن لا يسمع أحد هذه الشكوى.

يقع مخفر أركاي الحدودي بالقرب من قرية جيلياتية. وكانت سابقاً ذات أهمية لكونها نقطة حراسة، وعاش فيها الجنود الذين كانوا يتعقبون الهاربين، والآن يعيش هناك مراقب يؤدي وظائف ناظر المستوطنات كما أعتقد. وتقع أركوفو الأولى على بعد فرستين من المخفر. وفيها شارع واحد وبحكم ظروف المكان لا يمكن أن تنمو إلا في الطول وليس في العرض. وعندما ستندمج قرى أركوفو في بلدة واحدة فستكون في ساخالين بلدة كبيرة تتألف من شارع واحد فقط. لقد تأسست أركوفو الأولى في عام 1883. وبلغ عدد سكانها 136:83 من الذكور و53 من الإناث. والجميع يعيشون في أسر باستثناء السجينة بافلوفسكايا، الكاثوليكية، التي توفي خليلها منذ فترة قريبة، وهو المالك الحقيقي للبيت. وقد رجتني بإلحاح قائلة: «اجعلني سيدة البيت!». وهناك ثلاثة أشخاص يمتلك كل واحد منهم بيتين. أما أركوفو الثانية فقد تأسست في عام 1884. ويقطن فيها 92 فرداً: 46 من الذكور و46 من الإناث. وأصحاب البيوت 24، وجميعهم يعيشون في علاقات أسرية. ويمتلك اثنان بيتين. أما أركوفو الثالثة فقد تأسست في آن واحد مع الثانية، وترى من ذلك العجلة في استيطان وادي أركاي. وعدد السكان 19:41 من الرجال و22 من النساء. وأصحاب البيوت 10 أحدهم يمتلك بيتاً مناصفة. ويعيش في علاقات أسرية 9.

وفي قرى أركوفو الثلاث حددت الأراضي الزراعية لجميع مالكيها، وتتراوح مساحة قطع الأراضي بين ½ و2 ديسياتين. لكن أحدهم يمتلك 3 ديسياتينات. إنهم يزرعون بكميات غير قليلة الحنطة والشعير والجوادار، وكذلك البطاطس. ولدى الأغلبية أبقار وطيور داجنة. وإذا حكمنا بموجب

معطيات الإحصائيات التي سجلها ناظر البلدات فيمكن استخلاص استنتاج مفاده أن القرى الثلاث جميعها قد حققت نجاحات ملموسة في الزراعة خلال فترة قصيرة من وجودها، وليس عبثاً أن كتب مؤلف مجهول حول الزراعة هناك: «إن العمل هنا يعطي مردوده الملموس وبزيادة بفضل ظروف التربة في المنطقة، التي تناسب الزراعة جداً، مما يترك تأثيره في النباتات في الغابات والمروج». ولكن الأمر ليس كذلك في واقع الحال. فإن جميع القرى باسم أركوفو تعتبر من أفقر القرى في شمال ساخالين. وهناك الأرض الصالحة للزراعة والماشية لكن لم يتم ولا مرة واحدة جني محصول جيد. وإلى جانب الظروف غير المناسبة، السائدة في ساخالين بأجمعها، يواجه أصحاب المزراع هنا عدواً خطيراً يتمثل في خصوصية وادي أركاي وفي مقدمتها التربة التي لا يكيل لها المديح سوى المؤلف الآنف الذكر. فالتربة هنا – طبقة من الذبال (العفونة)، عمقها حوالي أربعة سنتيمترات ونصف، وتحت هذه الطبقة الحصى الذي يسخن في الأيام الحارة بشدة مما يجفف جذور النباتات، أما في موسم الأمطار فإنه لا يسمح بتسرب الرطوبة، لأنه يفترش فوق الطين، ولهذا تتعفن جذور النباتات. وباعتقادي يمكن أن تنمو في مثل هذه التربة بلا أذى فقط النباتات ذات الجذور القوية، التي تتوغل في الأرض عميقاً مثل نبات راعي الحمام، بينما يمكن أن تنمو من الخضروات فقط الدرنيات واللفت والبطاطس التي تحرث الأرض لها بشكل أفضل وأعمق. وقد أشرت إلى المصائب التي يجلبها النهر. ولا يحصد العشب البتة، ويجري حصده في بعض المناطق في غابات التايغا أو يحصد بالمنجل أينما ينمو، أما أصحاب الثراء فإنهم يشترونه في دائرة تيموفو. وتدور الأحاديث حول عوائل بأكملها تفتقر خلال الشتاء إلى قطعة خبز وتتناول اللفت السويدي وحده. وقبل فترة قصيرة من وصولي إلى أركوفو الثانية توفي بسبب الجوع المستوطن سكورين. وروى جيرانه أنه تناول خلال ثلاثة أيام رطلاً واحداً من الخبز فقط. وقال لي الجيران الذين أفزعهم موته: «ينتظرنا جميعاً المصير نفسه». وأجهشت ثلاث نساء في البكاء لدى الحديث عن أوضاعهن المعيشية. وبكى حول المرأة الأطفال وصأصأت الفراخ في أحد البيوت حيث لا يتوفر الأثاث، ويوجد فيه موقد

كئيب ومعتم يشغل نصف الحجرة، وعندما خرجت المرأة إلى الشارع تبعها الأطفال والفراخ. إنها تنظر إليهم وتضحك ثم تبكي، وتعتذر مني بسبب البكاء والصأصأة، وتقول إن هذا بسبب الجوع، وإنها تنتظر بفارغ الصبر عودة زوجها الذي ذهب إلى المدينة لبيع ثمار العنبية، من أجل شراء الخبز. إنها تقطع أوراق الملفوف وتقدمها إلى الفراخ، التي تتدافع حولها بنهم، وعندما تشعر بالخداع تصأصئ بقدر أكبر. ويعيش في أحد البيوت الريفية موجيك منفوش الشعر كالعنكبوت، وبحاجبين منتصبين، وهو سجين قذر، ومعه سجين آخر منفوش الشعر وقذر أيضاً. ولديهما أسرتان كبيرتان، بينما يسود في البيت، كما يقال، الخزي والعار والتعاسة - ولا يوجد حتى مسمار. وعلاوة على البكاء والصأصأة، وبعض الأحداث مثل وفاة سكورين، هناك الكثير من علائم الفاقة والجوع! وفي أركوفو الثالثة بيت مغلق يعود إلى المستوطن بتروف «الذي أرسل إلى سجن الوالي بسبب عدم اهتمامه بإدارة شؤون الضيعة وإقدامه على ذبح العجل بلا رخصة من أجل أكل لحمه، وهو قابع هناك الآن». ويبدو أن العجل ذبح بسبب الحاجة وبيع لحمه في ألكسندروفسك. أما الحبوب التي أخذت بمنزلة قرض من أجل البذار، وتم تسجيلها بكونها بذرت، إنما في الواقع قد أكل نصفها، ولا يخفي المستوطنون ذلك في أحاديثهم. علماً أن الماشية أخذت بقرض من الخزانة ويجري إطعامها على حساب الخزانة. وكلما توغلت في الغابة أكثر وجدت المزيد من الحطب، وجميع أبناء أركوفو مدينون، وتزداد ديونهم مع كل موسم حصاد جديد، عن كل رأس ماشية نافل، ويصل بعضها إلى حد العجز عن تسديدها - بمعدل مائتين وحتى ثلاثمائة روبل عن كل فرد.

وبين أركوفو الثانية والثالثة محطة أركوفسكي ستانوك حيث يجري تغيير الخيل لدى السفر إلى دائرة تيموفو. إنها محطة بريد أو نزل صغير. وإذا قسنا بمعايير الأرشين الروسي فإنه يكفي للعمل في هذا النزل المتواضع شخصان أو ثلاثة مع ناظر واحد. أما في ساخالين فيحبون أن يكون كل شيء على نطاق كبير. فيعيش إلى جانب الناظر كاتب أيضاً، وساع وسائس وخبازان وثلاثة حطابين بالإضافة إلى أربعة من العمال الذين يجيبون لدى سؤالهم عن عملهم: «إنني أجلب العلف».

إذا ما صادف أن زار رسام مناظر طبيعية ساخالين فإنني أوصيه بزيارة وادي أركوفا. فهذا المكان بالإضافة إلى موقعه الجميل غني جداً بالألوان، لذا من العسير الاستغناء عن المقارنة القديمة مع السجاد الزاهي الألوان أو صندوق الدنيا. ثمة خضرة كثيفة نضرة مع أوراق راعي الحمام العملاقة، المتألقة بسبب المطر الذي هطل لتوه، وإلى جانبها في فسحة لا تزيد على ثلاثة ساجينات ينمو الجوادار، وتليها فسحة من الأرض ينمو فيها الشوفان ثم صف من مغرس البطاطس، وغصنان من نبات عباد الشمس لم ينضجا بعد وقد تدلت أقراصه، وبعد ذلك يمتد كالإسفين نبات القنب الأخضر الغامق، بينما تنتشر هنا وهناك نباتات من فصيلة المظليات منتصبة باعتزاز، والشبيهة بالثريات، وجميع هذه التلاوين مرصعة ببقع من زهور الخشخاش الوردية والحمراء - القانية والقرمزية. لقيت في الطريق نساء تلفعن بورق راعي الحمام الكبيرة لاتقاء المطر، إنها تبدو مثل مناديل الرأس، ولهذا فهن يشبهن الخنافس الخضراء. وتنتصب على الجانبين الجبال، ولو أنها ليست قوقازية، لكنها جبال بأي حال من الأحوال.

تقوم على الساحل الغربي، أعلى من مصب أركاي ست قرى صغيرة. أنا لم أزر أية واحدة منها والأرقام المتعلقة بها مأخوذة من سجل الإحصاء المحلي وكتاب الاعترافات الكنسي. إنها أقيمت على الرؤوس الممتدة في البحر أو عند مصبات الأنهر الصغيرة، وأطلقت تسمياتها وفقاً لها. وقد بدأت من نقاط حراسة صغيرة، كانت تضم 4-5 أفراد، وبمرور الزمن، حينما أصبحت دوريات الحراسة هذه غير كافية وحدها، تقرر (في عام 1882) إقامة مستوطنات أكثرها من العوائل في أكبر الرؤوس الواقعة بين دويه وبوغوبي، وتوطين العوائل المضمونة وغالبيتها من أفراد المستوطنين. كانت الغاية من تأسيس هذه القرى ومخافر الحراسة: «توفير الفرصة للبريد وللمسافرين القادمين من نيقولايفسك وأبناء شعب الكايور المحليين، للحصول على الملاذ والحماية في الطريق وفرض رقابة بوليسية عامة على الخط الساحلي الذي يعتبر الطريق الممكن الوحيد (؟) للمعتقلين الهاربين، وكذلك لنقل الكحول المحظور بيعه بلا رقابة». علماً أنه لا يوجد بعد طريق يؤدي إلى القرى الساحلية، ويمكن الوصول إليها

مشياً على الأقدام فقط في أثناء الجزر، وفي الشتاء بالزحافات التي تجرها الكلاب. ويمكن أيضاً التنقل بواسطة القوارب والزوارق البخارية، لكن فقط حينما يكون الطقس جيداً. وتقع هذه القرى في الاتجاه من الجنوب إلى الشمال بالتسلسل التالي:

مجاتشي. عدد السكان 20:38 من الذكور و18 من الإناث. أصحاب البيوت 14. عدد العوائل الشرعية 113، وغير الشرعية 2. يمتلك الجميع الأراضي الزراعية بمساحة 12 ديسياتيناً، لكنهم توقفوا منذ ثلاثة أعوام عن زراعة الحبوب، وصاروا يزرعون البطاطس في الأراضي كلها. علماً أن 11 فرداً من أصحاب الأراضي يعيشون في ضياعهم منذ تأسيس القرية، بينما يحمل 5 أفراد صفة فلاحين. والمكاسب هناك طيبة، وهذا يفسر عدم رغبة الفلاحين في الانتقال بسرعة إلى القارة. ويعمل سبعة أشخاص في المهنة «الكايورية»، أي لديهم كلاب وينقلون البريد والمسافرين في فترة الشتاء. وهناك فرد واحد يمارس حرفة الصيد. أما فيما يخص صيادي الأسماك الذين يرد ذكرهم في تقرير مديرية السجون العامة لعام 1890، فلا وجود لهم هناك.

تانجي. عدد السكان 11:19 من الذكور و8 من الإناث. وأصحاب الأراضي 8. علماً أن مساحة الأراضي المزروعة تبلغ حوالي 3 ديسياتينات، لكن كما هو الحال في مجاتشي تزرع هناك البطاطس فقط، بسبب الضباب البحري الدائم الذي يحول دون نمو محاصيل الحبوب. ويمتلك فردان قوارب ويمارسان صيد الأسماك.

هويه. تقع على رأس بهذا الاسم، يمتد في البحر ويرى من ألكسندروفسك. عدد السكان 19:34 من الذكور و15 من الإناث. وعدد أصحاب المزارع 13. إن الأهالي هناك لم يفقدوا الأمل بعد، ويواصلون زراعة الحنطة والشعير. ويمارس 3 أفراد الصيد.

تراماوس. عدد السكان 3:8 ذكور و5 إناث. قرية سعيدة حيث إن عدد النساء أكبر من عدد الرجال. 3 مزارع.

فياختي. تقع على نهر فياختو الذي يربط البحيرة بالبحر ويشبه من هذه الناحية نهر نيفا (في بطرسبورج – المترجم). يقال إنه يتم هناك صيد أسماك

السلمون الأبيض والزجر. عدد السكان 9:13 ذكور و4 إناث. وأصحاب المزارع 8.

فانجي. تقع هذه القرية في أقصى الشمال. عدد السكان 9:13 ذكور و4 إناث. أصحاب المزارع – 8.

يذكر العلماء والرحالة أن الطبيعة تغدو أكثر فقراً وبؤساً لدى التوغل نحو الشمال. وبدءاً بترامباوس يتألف ثلث الجزيرة الشمالي كله من السهوب، وبراري التوندرا الكاملة، وتنداح سلسلة الجبال الفاصلة الرئيسية فيها على امتداد ساخالين بأسرها، بشكل مرتفعات متموجة غير عالية، يعتبرها بعض المؤلفين رواسب من جهة نهر آمور. وتمتد هنا وهناك في السهب الأحمر– البني حيث المستنقعات مناطق من غابات الصنوبر والشوح. ولا يتجاوز ارتفاع شجرة اللارقس القدم، بينما ترقد ذروتها على الأرض بهيئة مخدة خضراء، كما ينبطح جذع شجيرة الأرز على الأرض، وتنمو بين مناطق الغابات العجفاء الأشنات والطحالب، وهناك أيضاً كما في براري التوندرات الروسية شتى أصناف الثمار الحامضة بغلظة أو ذات الطعم القابض المميز للعفص – مثل الثمار الطحلبية والعنب الأزرق وكوستيانيكا وعنب الدب. وفي أقصى الشمال فقط في نهاية السهل، حيث تتحول التضاريس الأرضية إلى تلال مجدداً، تبدو الطبيعة في منطقة صغيرة عند البحر البارد إلى الأبد وكأنها تبتسم للناظر مودعة. وتوجد على خارطة كروزنشترن لهذه المنطقة صورة غابة من أشجار اللارقس السامقة.

ولكن مهما كانت الطبيعة قاسية وفقيرة فإن أهالي القرى الساحلية يعيشون مع هذا، وبشهادة العارفين، أفضل كثيراً من أبناء آركوفو أو ألكسندروفسك.

ويفسر ذلك في أن عددهم قليل، ويتم تقاسم الخيرات المتوفرة هناك بين الأهالي القلائل. ولا يعتبر ضرورياً بالنسبة إليهم بذر الحبوب وحصد المحاصيل، وهم أحرار في اختيار المهنة التي يمارسونها. ويمر عبر القرى الطريق الشتوي من ألكسندروفسك إلى نيقولايفسك، ويأتي إلى هناك في الشتاء أبناء شعب الجيلياك والصيادون الياقوتيون من أجل ممارسة العمليات التجارية، ويبيع الأهالي لهم السلع ويبادلونها بالمقايضة بلا

وسطاء. ليس هناك أصحاب دكاكين، والبائعون في الميدان واليهود من تجار العقارات، والموظفون في المكاتب يقايضون الكحول بفرو الثعالب الفاخر ثم يتفاخرون بعرضها على ضيوفهم بابتسامة تنم عن الغبطة والسعادة.

لا تقام قرى جديدة في الاتجاه الجنوبي. وهناك جنوب ألكسندروفسك على الساحل الغربي مستوطنة واحدة فقط هي دويه، إنها مكان بشع وكريه من جميع النواحي، ولا يمكن أن يعيش فيه بإرادته سوى القديسين أو البشر الفاسدين كلياً. إنها مخفر، ويطلق عليه الأهالي تسمية الميناء. وقد تأسس في عام 1857، والتسمية دويه أو دويي وجدت سابقاً، وتنسب إلى ذلك الجزء من الساحل الذي فيه مناجم دويه حالياً. ويجري في الوادي الضيق نهير خوينجي الضحل. ويمتد من ألكسندروفسك إلى دويه طريقان، أحدهما – الجبلي، والآخر – على ساحل البحر. وينتصب رأس دونكيير بكل جسامته على الساحل الضحل، والمرور فيه كان مستحيلاً لو لم يحفر النفق. وقد جرى حفره من دون أخذ نصيحة مهندس، وبلا خبرة، وفي النتيجة تم الحصول على نفق مظلم وأعوج ووسخ. علماً أن كلفة البناء هذه كانت عالية جداً، لكن تبين أنه لا حاجة إليه، فلدى وجود الطريق الجبلي الجيد لا حاجة للسير في الطريق الساحلي، الذي يرتبط المرور فيه بظروف المد والجزر. وقد أثر في هذا النفق بصورة رائعة ميل الإنسان الروسي إلى إنفاق آخر موارده على شتى أصناف البدع، في الوقت الذي لا تلبى فيه الحاجات الملحة جداً. لقد جرى حفر النفق، بينما تنقل الرؤساء في عربات سكك حديدية كتب عليها «ألكسندروفسك – رصيف الميناء»، بينما كان السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يعيشون عند ذاك في خيام قذرة ورطبة، لأن أعمال البناء كانت تفتقر إلى العاملين.

يوجد حال الخروج من النفق مصنع الملح ومبنى القابلو الذي يهبط منه القابلو التلغرافي إلى البحر فوق الرمال. ويعيش في المبنى نجار من السجناء، بولندي، مع خليلته، التي ولدت، حسب الروايات، طفلاً حينما كانت في سن 12 عاماً، بعد أن اغتصبها أحد السجناء في أثناء المسيرة إلى المنفى. تبدو الضفة المعلقة الشديدة الانحدار طوال الطريق إلى دويه بهيئة تلال تظهر فيها هنا وهناك بقع أو طبقات سوداء بعرض يتراوح ما بين

الأرشين والساجين. إنه الفحم. وحسب وصف الخبراء فإن طبقات الفحم هنا مضغوطة بطبقات من الرمل والطين الصفحي والرمل الطيني وطبقات البازلت والديوريت والبورفير البارزة والملتوية والمحدبة أو المقعرة التي ترى في أماكن كثيرة بكميات كبيرة. لهذا ميزة جمالية، لكن الحكم المتحيز ضد هذا المكان قد توغل بصورة عميقة تجعل المرء ينظر بإشفاق ليس إلى الناس فقط، بل إلى النباتات أيضاً، لكونها تنمو هنا بالذات وليس في مكان آخر. ويبدو الساحل متصدعاً بصورة متقطعة في موضع يبعد حوالي سبع فرستات. هناك منخفض فيوفودا حيث ينتصب منعزلاً سجن فيوفودا الرهيب، ويحتجز فيه عتاة المجرمين وبينهم أفراد قيدوا بالسلاسل إلى العربات. ويجوب الحراس بالقرب من السجن، ولا يرى غيرهم أي أحد في المكان، ويبدو كما لو أنهم يحرسون في البرية كنزاً فذاً ما غير اعتيادي.

وفيما بعد، وعلى مسافة فرستا، تبدأ مقالع الحجارة، وتعقب ذلك في مسيرة مسافة فرستا على الساحل العاري الخالي من البشر منطقة منخفضة أخرى، فيها بلدة دويه، العاصمة السابقة لسجناء ساخالين. وفي اللحظات الأولى لدى دخول الشارع يتولد انطباع بأن دويه حصن صغير قديم: الشارع مستو وأملس، كما لو أنه ميدان لإقامة المسيرات العسكرية، البيوت بيضاء نظيفة، وكشك الحارس مخطط، والأعمدة مخططة. ولا يعوز هذا الانطباع سوى سماع قرع الطبول. ويقطن في البيوت آمر الوحدة العسكرية، وكبير السجانين في سجن دويه، والكاهن والضباط وغيرهم. وفي نهاية الشارع القصير تقوم كنيسة خشبية صغيرة رمادية، تخفي عن الناظر القسم غير الرسمي من الميناء، وهناك تنقسم الوهدة إلى قسمين بهيئة حرف «y» يمتد منها خندقان إلى اليمين واليسار. وفي القسم الأيسر بلدة كانت تسمى سابقاً باليهودية، وفي القسم الأيمن شتى المباني التابعة للسجن وبلدة بلا اسم. ويسود في كلا القسمين، ولا سيما في القسم الأيسر، الازدحام والقذارة وعدم توفر وسائل الراحة. ولا توجد هناك البيوت البيضاء الصغيرة والنظيفة، والأكواخ متداعية وبلا أفنية وخضرة، وبلا شرفات، وتتلاصق بلا انتظام في الاتجاه الأسفل عند الطريق، وعلى منحدر الجبل وعلى الجبل نفسه. وقطع أرض المزارع إن جازت تسميتها في دويه فقط بالمزارع، صغيرة جداً:

يدون في سجل العقارات أنه توجد لدى أربعة ملاكين قطع أرض بمساحة 4 ساجينات مربعة. الازدحام شديد حيث لا يوجد موضع لقدم، ولكن وسط هذا الازدحام والعفونة، وجد تولستيخ جلاد دويه مكاناً لبناء بيت لنفسه. وبلغ عدد سكان دويه، باستثناء القيادة والأهالي الأحرار والسجن، 291 فرداً: 167 من الذكور و124 من الإناث. وعدد أصحاب المزارع 46 بينهم شركاء يبلغ عددهم 6. وغالبية أصحاب المزارع من السجناء المحكومين بالأشغال الشاقة. ولا يفهم ما الذي يدفع الإدارة إلى إسكانهم مع عوائلهم في الأراضي الزراعية، الواقعة في فج ضيق، وليس في مكان آخر. إن الأراضي الزراعية المسجلة رسمياً في دويه كلها تبلغ 8/ 1 ديسياتين فقط، بينما لا توجد مراعي العشب كلياً. لنفرض أن الرجال مشغولون بالأعمال الشاقة، لكن ماذا تفعل 80 امرأة بالغة؟ كيف يقضين أوقاتهن، التي تبدو أطول بكثير مما في روسيا بسبب الفقر ورداءة الطقس، وصليل السلاسل المتواصل، والمشهد الدائم للجبال العارية وصخب البحر، وبسبب الأنين والنحيب، الصادرين في أحيان كثيرة عن مبنى السجانين حيث تنفذ عقوبات الجلد بالسياط والعصي؟ إن النساء يقضين هذا الوقت بلا أي عمل تماماً. ويمكن أن تجد في أحد الأكواخ المؤلف في غالب الأحيان من حجرة واحدة تضم أسرة السجين المحكوم بالأشغال الشاقة، ومعها أسرة جندي، وتجد اثنين أو ثلاثة من السجناء أو الضيوف. وهناك يافعون ومهدان أو ثلاثة في ركن الحجرة، وهناك الدجاج والكلب، وفي الشارع بالقرب من الكوخ نفايات وبرك الماء الآسن، ولا مجال لممارسة أي عمل، ولا يتوفر الطعام بينما أصابهن السأم من الأحاديث وتبادل الشتائم، والخروج إلى الشارع ممل - كم هذا كله كئيب ورتيب، وقذر، ويفيض بالسأم! وفي المساء يعود الزوج - السجين من العمل، إنه يريد أن يأكل، بينما تأخذ الزوجة في البكاء والنواح: «لقد أهلكتنا يا لعين! لقد ضاع رأسي وأطفالي». بينما يدمدم الجندي من فوق الموقد قائلاً: «ها قد بدأت بالولولة!». كان جميع الأطفال قد استسلموا للكرى، وتوقفوا عن البكاء وهدأوا، أما المرأة فلا تنام، إنها تستغرق في التأمل وتصغي إلى زئير البحر. إنها تكابد الحزن: تشفق على زوجها، وتأسف على نفسها لكونها لم تستطع ضبط نفسها ووجهت إليه اللوم. وفي اليوم التالي تتكرر القصة نفسها.

إذا ما حكمنا على دويه فقط فإن المستوطنة الزراعية في ساخالين حبلى بالفائض من النساء والسجناء ذوي الأسر. ونظراً لنقص البيوت تعيش 27 أسرة في بيوت قديمة، حان الوقت منذ وقت بعيد لتهديمها، علماً أنها قذرة وبشعة للغاية، وتطلق عليها تسمية «ثكنات الأسر». ولا توجد هناك حجرات، بل زنزانات ذات تخوت وأوعية البول والغائط كما في السجون. ويختلف نزلاء هذه الحجرات للغاية. ويعيش في إحدى هذه الحجرات التي تحطم زجاج نوافذها وتسود فيها رائحة نتنة: سجين وزوجته الحرة، وسجين آخر وزوجته الحرة وابنته، وسجين آخر وزوجته وابنته، وسجين مع زوجته الحرة، ومستوطن - بولندي وخليلته - السجينة، وجميعهم يسكنون مع حاجياتهم في حجرة واحدة وينامون على تخت واحد طويل. ويقطن في حجرة أخرى: سجين وزوجته الحرة وابنه، ومستوطن أمضى محكوميته خلال 35 عاماً، لكنه ما زال محتفظاً بسمات الشباب وبشاربين أسودين، ويمشي حافياً لعدم وجود جزمة لديه، ويعشق لعب القمار[1]، وترقد إلى جانبه فوق التخت خليلته السجينة - إنها امرأة خاملة وناعسة وذات مظهر بائس. ويليه سجين وزوجته الحرة وأطفاله الثلاثة، وسجين بلا أسرة، وسجين وزوجته الحرة وطفلان، ومستوطن، وسجين، وهو عجوز نظيف المظهر وحليق الذقن. ويجوب الحجرة نفسها خنزير يقبع، والأرض لزجة وتنبعث في المكان رائحة البق ورائحة حامضة ما، ويقولون إن الحياة لا تطاق بسبب البق. وفي الحجرة الثالثة: سجين وزوجته الحرة وطفلان، وسجين وزوجته الحرة وابنته، وسجين وزوجته الحرة وأطفاله السبعة: صبية ذات 16 عاماً وأخرى ذات 15 عاماً. وسجين وزوجته الحرة وابنه وسجين وزوجته الحرة وأربعة أطفال. وفي الحجرة الرابعة: السجان ضابط - الصف، وزوجته

1- قال لي إنه أثناء لعبة «شتوس» تسري في عروقه موجات كهربائية: «تتشنج يداه بسبب الاضطراب. ومن أعز الذكريات لديه حين فاز في أيام شبابه بساعة مدير الشرطة. إنه تحدث بحماس عن ممارسة لعبة «شتوس». وأذكر عبارة - «تضع الورقة، فتقع ليس في المكان المطلوب!»، وقال ذلك مثل الصياد اليائس الذي أخطأ الهدف. وقد دونت من أجل الهواة بعض عباراته: النقل هضم! بابيه! نابيريه! الزاوية! مرر نقطة واحدة بروبل! في النخبة وفي القامة، يامدفعية!

ذات 18 عاماً وابنته، وسجين وزوجته الحرة، ومستوطن وسجين وهلمجرا. ويستطيع القارئ الحكم من وصف هذه الحجرات الوحشية والوضع فيها، حيث تضطر البنات في سن 15 و16 عاماً إلى النوم إلى جانب السجناء، مدى ما يكابد النساء والأطفال هناك من عدم الاحترام والاحتقار بعد أن التحقت النساء بأزواجهن والأبناء بآبائهم طوعاً إلى الأشغال الشاقة، ومدى عدم الاهتمام بهم ومدى عدم العناية بالمستوطنة الزراعية.

إن السجن في دويه أصغر وأقدم وأكثر قذارة للغاية من السجن في ألكسندروفسك. هنا الحجرات عمومية أيضاً والتخوت متراصة، وقد استحال لونها كثيراً بسبب مرور الزمن والرطوبة، حتى إنها لن تغدو نظيفة أكثر لدى غسلها. وطبقاً لمعطيات التقرير الطبي لعام 1889، فقد كان نصيب السجين الواحد 1,12 من الساجين المكعب من الهواء. ولئن كانت تنبعث في الصيف حين تكون النوافذ والأبواب مفتوحة رائحة المياه النتنة والمراحيض، فإنني أتصور أي جهنم تسود هنا في الشتاء حين تكون في داخل السجن قطرات الطل وقضبان الجليد المتدلية من السقف. ومأمور السجن هنا بولندي كان سابقاً مساعداً لطبيب عسكري، وهو برتبة موظف إداري. ويتولى بالإضافة إلى إدارة سجن دويه إدارة سجن فويفودا، والمناجم ومخفر دويه. وهذا لا يناسب مكانته الوظيفية البتة.

يحتجز في زنزانات سجن دويه عتاة المجرمين، وأغلبهم من أصحاب السوابق والخاضعين للتحقيق. علماً أن مظهرهم يشير إلى أنهم من الناس العاديين وبسحنات تنم عن الطيبة والبلاهة، وتعبر فقط عن الفضول والرغبة في الإجابة عن أسئلتي بمزيد من الاحترام. علماً أن جرائم أكثرهم ليست أكثر فطنة ومكراً من وجوههم. وعادة يرسلون إلى السجن لمدة 5–19 عاماً بسبب جرائم القتل في أثناء العراك، وبعد ذلك يهربون، ويتم القبض عليهم، حتى يكون مصيرهم السجن المؤبد ولا جدوى من إصلاحهم. وجرائم الجميع تقريباً لا تبعث على الاهتمام للغاية، فهي عادية، على أقل تقدير ترتكب من أجل التسلية ظاهرياً، وليس عبثاً أن أوردت سابقاً حديث يجور من أجل أن يستطيع القارئ الحكم على سماجة وفقر محتوى مئات القصص وتراجم الحياة والنوادر التي

تسنى لي سماعها من المعتقلين والأشخاص القريبين من حياة السجناء. وبالمناسبة فإنني التقيت شيخاً أشيب في سن 60-65 عاماً، ولقبه تيريخوف، احتجز في الزنزانة الانفرادية، وهو مجرم شرير حقيقي. وقد نفذت فيه عشية قدومي عقوبة الجلد بالسياط، وعندما تطرق الحديث إلى ذلك، أبرز لي ردفيه والآثار الزرق - القانية بسبب نزيف الدم. وروى السجناء أن هذا الشيخ قتل في حياته 60 شخصاً، وكان أسلوبه في ذلك كالآتي: كان يغري السجناء - الجدد، ممن يمتلكون ثروة أكثر من غيرهم، بالهرب معه ثم يقتلهم في غابة التايغا، ويسرق ما لديهم من نقود، وبغية إخفاء آثار الجريمة كان يقطع الجثث إلى أجزاء ويرميها في النهر. وفي آخر مرة حين جرى إلقاء القبض عليه لوح بهراوة للتهرب من السجانين. وكنت مستعداً لتصديق جميع هذه القصص لدى النظر إلى عينيه الرصاصيتين الزائغتين، وجمجمته الكبيرة الحليقة حتى النصف، بشكل زاوية مثل حجر الرصيف. وقد أثار شفقتي أوكراني، يحتجز في الزنزانة نفسها، بسبب صراحته. فقد طلب من السجان أن يعاد إليه مبلغ 195 روبلاً تمت مصادرته منه لدى إلقاء القبض عليه وتفتيشه. فسأل السجان: «من أين أخذت هذه النقود؟». فأجاب: «كسبتها في لعب الورق». وأقسم بحق الرب، وخاطبني مؤكداً أنه لا عجب في ذلك، لأن نزلاء السجن كلهم تقريباً يلعبون الورق، وغالباً ما يكسب السجناء من لاعبي الورق مبالغ تعادل ألفين وثلاثة آلاف روبل. ورأيت في زنزانات العقوبة متشرداً قُطعت اثنتان من أصابعه. الجرح ملفوف بخرقة قذرة. بينما أصيب متشرد آخر بجرح ناجم عن طلقة نافذة، ولحسن الحظ مرت الرصاصة بمحاذاة الضلع السابع. وجرحه ملفوف أيضاً بخرقة قذرة[1].

الوضع هادئ في دويه دائماً. وعما قريب ستعتاد الأذن على سماع صليل السلاسل، وهدير أمواج البحر، وصريف أسلاك التلغراف، وسيكون السكون المطبق للانطباع الناشئ عن هذه الأصوات أكثر شدة. إن سمة الصرامة ترتسم ليس في الأعمدة المخططة فقط. وإذا ما ضحك أحد ما في

1- أنا التقيت العديد من الجرحى والمصابين بقروح، لكنني لم أحس قط برائحة اليود لديهم، على الرغم من أنه يستهلك في ساخالين حوالي نصف بود منه سنوياً.

الشارع من دون قصد بصوت عال لبدا ذلك حاداً وغير طبيعي. ومنذ تأسيس دويه سارت الحياة هنا بشكل لا يمكن تصويره إلا بالأصوات البالغة الحدة واليائسة، والرياح الباردة الشديدة، التي تهب من البحر إلى الفج الضيق في الليالي الشتوية، فإنها وحدها تردد ما يجب.

لهذا يبدو غريباً أحياناً عندما يسمع فجأة وسط السكون غناء شكانديبا الغريب الأطوار في دويه. فهذا الشيخ السجين الذي رفض العمل منذ اليوم الأول لجلبه إلى ساخالين، واتخذت حيال عناده الذي لا يقهر، والوحشي الخالص، شتى التدابير. فقد زج به في زنزانة مظلمة، وعوقب بالجلد عدة مرات، لكنه صمد أمام العقوبات بصلابة، وبعد تنفيذ كل عقوبة كان يهتف: «مع هذا لن أعمل!». وانشغلوا به طويلاً وفي نهاية المطاف تركوه وشأنه. والآن أخذ يجوب شوارع دويه ويغني[1].

كان يجري استخراج الفحم الحجري، كما أشرت آنفاً، في مكان يبعد فرستا واحدة عن المخفر. وقد زرت المنجم، واقتادوني في الممرات المعتمة والرطبة وأطلعوني بحذر على الأوضاع هناك، لكن من الصعب جداً وصف ذلك كله، حينما لا يكون المرء خبيراً. وسأعتذر عن إيراد التفاصيل الفنية، ودع من يرغب في ذلك أن يطالع الكتاب الخاص ومؤلفه المهندس السيد كيبين الذي تولى في وقت ما منصب مدير إدارة هذه المناجم.

في الوقت الحاضر تمتلك هذه المناجم حصراً الشركة الأهلية «ساخالين» التي يقيم أصحابها في بطرسبورج. وبموجب العقد الموقع في عام 1875

1- تحظى دويه بلا مبالغة بسمعة سيئة لدى الجمهور. وروى لي ركاب السفينة «إيكال» أن أحد الركاب، وهو كهل رفيع المنصب، تفحص المكان فترة طويلة حين رست السفينة هناك وفي نهاية المطاف سأل:

- قولوا لي رجاء أين العمود على الساحل الذي يشنق فيه السجناء ثم تلقى جثثهم في البحر؟

إن دويه هي مهد السجون في ساخالين. وثمة رأي مفاده أن أحد السجناء الذين جاءوا إلى هنا أول مرة واسمه إيفان لابشين اختار هذا المكان للنفي والسجن. وقد أدين بتهمة قتل أبيه وزج به في السجن في مدينة نيقولايفسك. وقد رجا السلطات المحلية أن تسمح له بالانتقال إلى ساخالين. وفي سبتمبر عام 1858 نقل إلى هنا. واستقر به المقام بالقرب من مخفر دويه وبدأ بممارسة زراعة الخضروات والحبوب.

لمدة 24 عاماً، تتمتع الشركة بالحق في استغلال منطقة على الساحل الغربي لساخالين بطول فرستين على امتداد الساحل وعرضها فرستا واحدة في عمق الجزيرة. وتمنح إلى الشركة أماكن مناسبة من أجل خزن الفحم في مقاطعة بريموريه والجزر المتاخمة لها. كما تحصل الشركة مجاناً على المواد الإنشائية من أجل تشييد المباني والأعمال الأخرى. كما لا تفرض الرسوم على جميع المواد اللازمة من أجل الأعمال الفنية والتجهيزات الضرورية من أجل القيام بالأعمال في المناجم وإدارتها. وتحصل الشركة مقابل كل بود (البود = 16,38 كيلوغراماً – المترجم) من الفحم تشتريه مديرية البحرية من 15 إلى 30 كوبيكاً. ويوجه إلى الشركة سنوياً للعمل في المناجم ما لا يقل عن 400 سجين، وإذا أرسل عدد أقل منهم فتحصل الشركة مقابل كل سجين ناقص على روبل واحد في اليوم بصفة غرامة. ويمكن أن يوجه العدد اللازم من الأفراد إلى الشركة للعمل ليلاً أيضاً.

تخصص الدولة نزلاء سجنين من أجل تنفيذ التزاماتها حيال الشركة وحماية مصالحها بالقرب من المناجم وهما سجن دويه وسجن فويفودا، بالإضافة إلى وحدة عسكرية مؤلفة من 340 فرداً، مما يكلف خزانة الدولة 150 ألف روبل سنوياً. وبهذا يمكن القول إذا ما كان عدد أصحاب الشركة القاطنين في بطرسبورج خمسة أفراد فقط فتتحمل الدولة من أجل حماية مصالح كل واحد منهم مبلغ 30 ألف روبل، بالإضافة إلى أنه يجري لهذا الغرض احتجاز أكثر من 700 سجين وأفراد أسرهم والجنود والموظفين في جحور فظيعة كالتي في فجي فيوفودا ودويه، وذلك خلافاً لمهام الزراعة، والاستهزاء بوضعهم الصحي. علاوة على كون الإدارة التي تضع السجناء في خدمة الشركة الخاصة مقابل النقود، تضحي بالأهداف الإصلاحية للعقوبات من أجل تلبية المصالح الصناعية أي تكرر الخطأ القديم الذي أدانته هي نفسها.

من جانبه، يجيب المجتمع على ذلك بثلاثة التزامات جدية: يجب أن تُجرى دراسة لمناجم دويه بشكل صحيح، وأن يعين مهندس في دويه يتولى مراقبة أعمال استخراج الفحم بشكل صحيح، وترفع بدل الإيجار السنوي للفحم وأجور عمل السجناء مرتين في السنة، ويجب أن يستخدم

في المناجم حصراً عمل السجناء في كل الأشغال المتعلقة بهذه الشركة. إن هذه الالتزامات الثلاثة ملحوظة على الورق فقط، ويبدو أنها نسيت منذ وقت بعيد. ويجري استغلال المناجم بلا وازع من ضمير، ووفق مبادئ الكولاك (الكولاك هم أصحاب المزارع الأثرياء في روسيا قديماً – المترجم). ونقرأ في تقرير أحد المسؤولين: «لم يطرأ أي تحسن في تقنية الإنتاج أو دراسة بشأن مستقبله المضمون، واتسمت الأعمال في مجال المعالجة الاقتصادية بكل سمات النهب، ويدل على ذلك آخر تقرير لمهندس الناحية». فلا يوجد مهندس مناجم نص المجتمع على وجوده حسب العقد، ويتولى إدارة المناجم رئيس عمال بسيط. أما بصدد المدفوعات فيتعين هنا الحديث فقط عما أشار إليه المسؤول الرسمي آنفاً ووصفه لها بأنها من «دلائل النهب». ويجري استغلال المناجم والعمل من قبل الشركة مجاناً. علماً بأنها ملزمة بأن تدفع، لكنها لسبب ما لا تدفع: لقد وجب على ممثلي الجانب الآخر، نظراً لحدوث هذا الخرق الجلي للعيان للقانون، أن يمارس سلطته منذ وقت بعيد، لكنه يتباطأ لسبب ما، زد على ذلك أنه يواصل إنفاق 150 ألف روبل سنوياً لصيانة موارد الشركة، وكلا الجانبين يتصرفان بشكل يجعل من الصعب القول متى سيوضع حد لهذه العلاقات غير الطبيعية. إن الشركة قد رسّخت أقدامها في ساخالين بشكل وطيد، مثل فوما في قرية ستيبانتشيكوفو، ومواقعها راسخة مثل فوما (فوما أحد أبطال رواية دوستويفسكي بهذا الاسم – المترجم). وفي أول يناير 1890 بلغت ديونها إلى خزانة الدولة 149337 روبلاً و15 كوبيكاً. علماً أن عشر هذا المبلغ يجب حسب القانون أن يدفع إلى السجناء، وأنا لا أعرف من سيدفع لهم، وفيما إذا كانوا سيحصلون على أي شيء أصلاً.

يوجه للعمل يومياً 350–400 سجين، أما الـ 350–400 شخص الباقون الذين يحتجزون في سجني دويه وفويفودا فهم بمنزلة احتياط. ولا يمكن الاستغناء عن الاحتياط، لأنه يرد في العقد بند حول ضمان وجود السجناء «القادرين على العمل» في كل يوم. ويوضع السجناء المكلفون بالعمل في المنجم في الساعة الخامسة صباحاً تحت تصرف إدارة المناجم، أي فئة صغيرة من الأفراد الذين يشكلون «مكتب الإدارة». ويتوقف على إرادة

هذه الفئة من سيوجه للعمل، وعدد ودرجة الجهد المبذول في كل يوم ومن قبل كل سجين على انفراد، ويتوقف على هذه الفئة، حسب النظام المتبع في العمل، كيفية إنزال العقوبات بالسجناء بصورة منتظمة. أما إدارة السجن فتتولى فقط مهمة الرقابة على سلوك السجناء ومنع هروبهم، أما في الأمور الباقية، ولدى الضرورة، فهي تتنصل من المسؤولية.

يوجد منجمان: قديم وجديد. ويعمل السجناء في المنجم الجديد. وعلو طبقة الفحم فيه تبلغ 2 أرشين (الأرشين يعادل 71 سنتيمتراً - المترجم)، وعرض الممرات نفسه، والمسافة من المخرج إلى الموضع الذي تتم فيه معالجة الفحم الآن تبلغ 150 ساجيناً. ويزحف العامل مع الزلاقة الصغيرة إلى الأعلى في النفق المعتم والرطب: ويُعتبر هذا الجزء الأصعب من العمل. وعند المخرج يجري تحميل العربات بالفحم ثم ينقل بواسطة السكك إلى المستودع. ويجب على كل سجين أن ينقل إلى الأعلى بواسطة الزلاقة ما لا يقل عن 13 مرة في اليوم - وهنا يكمن الدرس. في عامي 1889 و1890 كان كل سجين يستخرج بالمتوسط 10,8 بودات يومياً، أي أقل بمقدار 4,2 بودات من المعدل الذي تحدده إدارة المنجم. علماً أن الإنتاجية الإجمالية للمنجم وعمل السجناء غير كبير حيث يتراوح ما بين 1½ و3 آلاف بود في اليوم.

كما يعمل في مناجم دويه المستوطنون العاملون بالأجرة. علماً أن ظروف عملهم أكثر مشقة وجهداً من السجناء. ففي المنجم القديم الذي يعملون فيه لا يتجاوز ارتفاع طبقة الفحم الأرشين الواحد، ويقع مكان استخراج الفحم في موضع يبعد 230 ساجيناً عن المخرج. وجدير بالذكر أن الماء يتسلل من الطبقة العليا له، ولهذا يجب العمل في ظروف الرطوبة الدائمة. إنهم يوفرون الطعام لأنفسهم بأنفسهم، ويقطنون في مبنى أسوأ من السجن بكثير. لكن مع ذلك فإن مردود عملهم أكبر بكثير من مردود عمل السجناء - بنسبة 70 وحتى 100 بالمائة. هذه أفضليات عمل الأحرار قياساً إلى العمل بالسخرة. والعمال الأجراء أكثر منفعة بالنسبة إلى الشركة من الذين يحصل عليهم بموجب العقد، لهذا، وكما هو سائد هنا، إذا ما رغب السجين في أن يحل محل العامل الأجير توافق إدارة المنجم على ذلك بكل ارتياح. وبهذا فإن

الشرط الثالث قد انهار كلياً منذ وقت بعيد. لقد جرت العادة منذ تأسيس دويه أن يعمل الفقراء والبسطاء من أجل أنفسهم والآخرين، بينما نجد المحتالين والصرافين في هذا الوقت يشربون الشاي ويلعبون القمار أو يتنزهون بلا عمل على رصيف الميناء، وتسمع صلصلة سلاسلهم، ويتبادلون الأحاديث مع السجان المأجور غير النزيه. وتقع في هذا السياق أحداث فظيعة هنا باستمرار. فقبل أسبوع من وصولي جرت معاقبة سجين ثري بالجلد، وهو تاجر سابق من بطرسبورج، بسبب عدم رغبته في العمل. لكن هذا الرجل البليد الذي لا يجيد إخفاء النقود، ولا يقدم الرشوة المطلوبة، قد سئم في نهاية المطاف من دفع 5 روبلات إلى السجان، و3 روبلات إلى الجلاد، فرفض في إحدى اللحظات رفضاً باتاً دفع أي مبلغ. وشكا السجان إلى مدير السجن، بحجة أنه يرفض العمل، فأمر بمعاقبته بـ 30 جلدة، وقد بذل الجلاد طبعاً جهده أكثر من المعتاد في الجلد. وعندما تم جلده صاح التاجر: «لم يحدث أن جرى جلدي هكذا قط!». وبعد العقوبة استسلم التاجر وصار يدفع إلى السجان والجلاد ويستأجر أحد المستوطنين للعمل بدلاً منه.

تكمن المشقة البالغة للعمل في المناجم في أنه يجب العمل تحت الأرض في الأنفاق المعتمة والرطبة، وتارة يجب الزحف وتارة يجب الانحناء. بينما يتطلب العمل في البناء وشق الطرق أن يبذل العامل جهداً جسدياً شديداً. إن من يعرف ظروف العمل في مناجم دونيتسك عندنا لا يبدو له العمل في المنجم في دويه رهيباً. إن جميع الجهد البالغ لا يكمن في العمل نفسه، بل في الوضع وفي غباء وانعدام الضمير لدى صغار الموظفين، حين يتوجب في كل خطوة الصبر على الوقاحة والظلم والتعسف. الأغنياء يشربون الشاي والفقراء يعملون، بينما يخدع السجانون الرؤساء في كل خطوة، وتجلب المشاحنات الحتمية بين إدارتي المنجم والسجن الكثير من المشاجرات والنمائم وشتى أصناف الاضطرابات الصغيرة، التي تترك بصماتها الثقيلة على الأفراد غير الأحرار بصورة رئيسية، وكما جاء في القول المأثور: السادة يتشاحنون بينما يعاني الناس البسطاء من وجع الرأس. علماً أن السجين، مهما كان فاسداً للغاية وغير عادل يحب العدالة قبل كل شيء، وإذا لم يجدها لدى الناس، الذين يتولون مركزاً أعلى منه، فإنه بمرور الأعوام يزداد حقداً وتنعدم الثقة

لديه كلياً. وبحكم ذلك ما أكثر عدد الأفراد المتشائمين والشيوخ العابسين في السجون، ذوي الوجوه الكالحة والطبع الشرس، الذين يتحدثون بلا توقف عن الناس، وعن الرؤساء، وعن الحياة الأفضل، بينما يستمع نزلاء السجن إليهم فيقهقهون، لأن هذا يبدو مضحكاً فعلاً. كما أن العمل في منجمي دويه شاق لأن السجناء يرون خلال أعوام طويلة وبلا توقف فقط المنجم والطريق إلى السجن والبحر. ويبدو كما لو أن حياة السجين كلها قد غاصت في المنطقة الساحلية الضيقة بين الساحل الطيني والبحر.

ويقع بالقرب من مقر إدارة المنجم عنبر للمستوطنين العاملين في المناجم، وهو عنبر صغير قديم، جرى إعداده بشكل ما للسكن ليلاً. وقد جئت إلى هناك في الساعة الخامسة صباحاً حين نهض المستوطنون لتوهم من فراشهم. الرؤوس منفوشة، كما لو أنه جرت خلال الليل كله معركة بين هؤلاء الأفراد، والوجوه شاحبة يشوبها لون الرماد، وينطقون بين النوم واليقظة بكلمات وبتعابير يرددها المرضى أو المجانين. يبدو أنهم رقدوا بملابسهم وجزمهم، متزاحمين أحدهم لصق الآخر، فأحدهم نام على التخت – والآخر تحت التخت، فوق الأرض الترابية القذرة. وحسب أقوال الطبيب الذي رافقني في ذلك الصباح فإن حصة 3–4 أفراد من الهواء هناك تعادل الساجين المكعب الواحد. علماً أن هذا كان بالذات في الوقت الذي توقع الناس في ساخالين انتشار الكوليرا، وأعلن الحجر الصحي في السفن.

في ذلك الصباح زرت سجن *فيوفودا*. وقد شيّد في السبعينيات، ووجب من أجل وضع الأساس للمبنى الذي يوجد فيه الآن تسوية الساحل الصخري في مسافة 480 ساجيناً مربعاً. وفي الوقت الحاضر يعتبر من بين جميع السجون في ساخالين من أكثرها بشاعة، ولم تشمله الإصلاحات بتاتاً، ولهذا يمكن اعتباره نموذجاً دقيقاً يصور الأنظمة القديمة والسجون القديمة التي أثارت في بعض الأوقات التقزز والرهبة لدى من يراها. ويتألف سجن فويفودا من ثلاثة مبان رئيسية ومبنى صغير وجدت فيه الزنزانات الانفرادية. طبعاً لا مجال هنا للحديث عن كمية الهواء المكعبة أو التهوية. عندما دخلت السجن كانت قد اختتمت أعمال غسل الأرض ولم يلحق بالتخلخل الهواء الشديد الرطوبة بعد الليل وكان ثقيلاً. كانت الأرض رطبة ومنظرها يبعث

على النفور. وكان أول شيء سمعته هناك هو الشكوى من البق. ولا يمكن العيش بسبب البق. وكان يتم القضاء عليه سابقاً بواسطة كلوريد الكالسيوم، الذي كان يقتل البق في فترة الزمهرير الشديد، أما الآن فلا ينفع ذلك. وفي الحجرات التي يسكن فيها السجانون كانت تسود أيضاً الرائحة النتنة للمراحيض والحموضة، وترددت الشكوى أيضاً من البق.

يقبع في سجن فويفودا سجناء مقيدون بالسلاسل إلى عربات نقل الفحم. وعددهم هناك ثمانية أفراد. ويعيشون هناك في زنزانات عمومية مع السجناء الآخرين ويقضون أوقاتهم بلا أي عمل. على أقل تقدير يشار في «سجل توزيع السجناء على أصناف العمل» إلى السجناء المقيدين إلى العربات باعتبارهم من غير العاملين. وكل واحد مقيد بسلاسل في اليدين والقدمين. وتمتد من وسط قيود اليدين سلسلة طويلة يبلغ طولها 3–4 أرشينات وتربط إلى أسفل عربة صغيرة. علماً أن القيود والعربة تعيق حركة السجين، لذا فهو يسعى إلى بذل أقل جهد في الحركة، وهذا يؤثر، بلا ريب، في وضع عضلاته. فاليدان تعتادان على أن تقترن أية حركة حتى أقلها بشيء من الجهد، مما يجعل السجين بعد أن يتحرر في نهاية المطاف من العربة ومن قيود اليدين، يبقى خلال فترة طويلة يشعر بعدم الارتياح حينما يقوم بحركات عنيفة وحادة، وعندما يمسك مثلاً بقدح في يده، يبدأ الشاي يطرطش فيه، كحال المصاب بداء chorea minor[1].

إن جميع الأفراد الثمانية من أصحاب السوابق الذين جرت محاكمتهم مرات عديدة. وأحدهم شيخ في الستين من العمر تم تقييده بالسلاسل بسبب هروبه أو كما قال هو نفسه بسبب «الغباء». إنه مصاب كما يبدو بالالتهاب الرئوي، وأمر مدير السجن السابق، بدافع الشفقة، بوضعه بالقرب من الموقد. أما الآخر الذي عمل سابقاً في وظيفة قاطع تذاكر في السكك الحديدية، فقد نفي بتهمة تدنيس المقدسات وأرسل إلى ساخالين لتزويره أوراق البنكنوت من فئة 25 روبلاً. وعندما لامه أحد الذين رافقوني لدى التجول في الزنزانات لكونه نهب الكنيسة قال: «ولم لا؟ فالرب لا يحتاج إلى النقود». وعندما

1- خوريا الصغرى (باللاتينية).

لاحظ عدم استغراق السجناء في الضحك، وأن هذه العبارة تركت انطباعاً سيئاً لديهم، أضاف قائلاً: «بينما أنا لم أقتل أحداً من البشر». وأرسل الثالث، وهو بحار حربي سابق، إلى ساخالين لارتكابه جريمة انضباطية: فقد هجم على ضابط بقبضتيه. علماً أنه في السجن يهجم على أي أحد بالصورة ذاتها. وفي آخر مرة هجم على مدير السجن حينما أمر بمعاقبته بالجلد بالعصا. وقد فسر محاميه في المحكمة العسكرية الميدانية سلوكه هذا في مهاجمة الآخرين بكونه مريضاً بداء عصبي. وكانت المحكمة قد أصدرت حكمها بإعدامه لكن البارون كورف استبدل هذه العقوبة بالسجن مدى الحياة في الأشغال الشاقة، وبجلده وربطه بالسلاسل إلى العربة. أما بقية المربوطين إلى العربات فهم من المدانين في جرائم القتل.

كان الصباح رطباً وغائماً وبارداً. ويتردد صخب البحر المضطرب. وأذكر أننا في الطريق من المنجم القديم إلى الجديد توقفنا للحظة عند عجوز قوقازي كان راقداً فوق الرمال في حالة غيبوبة شديدة. وكان اثنان من أبناء جلدته يمسكانه من ذراعيه، ويتطلعان بعجز وحيرة حواليهما. كان الشيخ شاحباً ويداه باردتين ونبضه ضعيفاً. تبادلنا معهما الحديث ثم واصلنا المسيرة ولم نقدم له المساعدة الطبية.

وعندما قلت للطبيب المرافق لي إنه كان من الواجب إعطاء الشيخ قطرات الناردين قال إنه لا توجد أية أدوية لدى مساعد الطبيب في سجن فويفودا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-9-

تيم أو تيمي. - ليبت. بوشنياك. - بولياكوف. - آرمودان العليا. - آرمودان السفلى. - دربينسكويه. - نزهة في تيمي. - أوسكوفو. - الغجر. - جولة في التايغا. - فوسكريسينسكويه.

تقوم الدائرة الثانية لساخالين الشمالية في الجانب الآخر من سلسلة الجبال الفاصلة، وتسمى تيموفسكويه، لأن غالبية القرى هناك تقع على ضفاف نهر تيمي، الذي يصب في بحر أخوتسكويه. عندما يسافر المرء من ألكسندروفسك إلى نوفو -ميخايلوفكا، تنبجس أمامه في المقدمة سلسلة جبال، تحجب الأفق، وذلك الجزء الذي يرى من هنا يسمى بيلينجا. وتتكشف من هذه البيلينجا بانوراما رائعة، وهي تطل من جهة على وادي دويه والبحر، ومن الجهة الأخرى على السهول الواسعة التي تمتد إلى مسافة تربو على 200 فرستا نحو شمال الشرق، وترويها مياه نهر تيم وروافده. ومنطقة هذه السهول أكبر وأكثر أهمية من سهل ألكسندروفسك. إن غزارة المياه، وتنوع أصناف الأشجار الباسقة، والأعشاب التي تعلو قامة الإنسان، ووفرة الأسماك الغزيرة ومناجم الفحم، يمكن أن توفر الطعام والمعيشة الهانئة لمليون إنسان. كان هذا الأمر ممكناً، لكن التيارات الباردة لبحر أخوتسكويه والكتل الجليدية التي تعوم في الساحل الشرقي حتى في شهر يونيو تدل بكل جلاء على أن الطبيعة حين خلقت ساخالين لم تأخذ بنظر الاعتبار منفعته البتة. ولولا الجبال لأصبحت السهول مجرد سهوب توندرا، أكثر برودة وأقل ضمانة مما هو الحال عند فياختو.

كان الملازم بوشنياك أول من زار منطقة نهر تيم ووصفها. ففي عام 1852 أرسله إلى هناك نيفيلسكي من أجل التحقق من المعلومات حول طبقات الفحم الحجري، والمستحصلة من أبناء شعب الجيلياك، ثم عبر الجزيرة وبلغ ساحل بحر أخوتسكويه حيث، كما قيل، خليج رائع. لقد زود بزلاجة تجرها الكلاب، وكمية من الكعك تكفي لمدة 35 يوماً، والشاي والسكر، وبوصلة يدوية صغيرة مع صليب نيفيلسكي لرفع المعنويات، بمعنى «إذا أكلت الكعك من أجل سد الجوع، وشربت قدحاً من الماء من أجل إطفاء العطش، فما زال من الممكن أيضاً العمل بمعونة الرب». وعندما سار في مجرى تيم حتى بلغ الساحل الشرقي ذهاباً وإياباً، وصل بشكل من الأشكال إلى الساحل الغربي، وقد أضناه الجهد والجوع، وبقروح في ساقيه. كما أن الكلاب رفضت مواصلة السير بسبب الجوع. وفي عيد الفصح وجد الملاذ في زاوية خيمة (جيلياتية) وقد غلبه الوهن الشديد. لم يبق لديه شيء من الكعك، ولم يجد ما يسد به الرمق، وكانت الآلام فظيعة في ساقيه. لعل أن أكثر الأمور طرافة في دراسات بوشناك، طبعاً، هي شخصية الباحث نفسه، وشبابه – كان قد أتم 21 عاماً – وإخلاصه الوفي والبطولي لعمله. كانت الثلوج العميقة تغطي نهر تيم آنذاك، وكان شهر مارس على الأبواب، ومع ذلك زودته هذه الرحلة بأكبر قدر من المواد المهمة من أجل تدوين يومياته[1].

أجرى بولياكوف العالم الخبير بالحيوانات دراسة جدية ووافية لنهر تيم، بهدف علمي وتطبيقي، في عام 1881[2]. وقد توجه بالبغال في 24 يوليو من ألكسندروفسك، وواجهته صعوبات بالغة، لدى عبور بيلينجا. فلم تكن هناك ممرات سوى للمشاة، كان السجناء يصعدون ويهبطون فيها، حاملين المؤونة على أكتافهم من دائرة ألكسندروف إلى دائرة تيم. ويبلغ ارتفاع سلسلة الجبال هناك ألفي قدم. يقع مخفر فيديرنيكوفسكي على رافد أدمفو أحد روافد تيم، بالقرب من بيلينجا. ولم يبق منه الآن سوى منصب

1- بعد مضي أربعة أعوام جاب ضفاف تيم نحو الساحل الشرقي ل. إي. شرينك ورجع في الطريق ذاته. لكن حدث ذلك في الشتاء حين كانت الثلوج تغطي مجرى تيم.

2- لم يعد حياً يرزق. فقد توفي بعد فترة قصيرة من قيامه برحلته إلى ساخالين. وإذا حكمنا على ملاحظاته المدونة بعجلة فإنه رجل موهوب وواسع الاطلاع.

رئيس مخفر فيديرنيكوفسكي فقط[1]. علماً أن روافد تيم سريعة الجريان وضحلة ومتعرجة والتنقل فيها بالقوارب مستحيل. ولهذا اضطر بولياكوف إلى ركوب العجول المخصية حتى بلغ تيم. وهناك ارتقى مع مرافقه في دربينسكويه قارباً وانحدر هابطاً مع التيار.

ويجد القارئ مشقة في مطالعة ما كتبه حول هذه الرحلة بسبب نزاهته، حيث يعطي وصفاً دقيقاً لجميع الحواجز والتعرجات التي صادفته في طريقه. فقد وجب عليه اجتياز 110 حواجز على امتداد 272 فرستا من دربينسكويه: 11 حاجزاً و89 جندلاً و10 أماكن أغلق فيها المجرى بواسطة الأشجار والجذوع المطمورة بالطين.

ومعنى ذلك أن النهر مغلق كمعدل وسط في مسافة كل فرستين بسبب المياه الضحلة أو الملوثة. ويبلغ عرض النهر بالقرب من دربينسكويه 20-25 ساجيناً، وكلما اتسع مجرى النهر غدا ضحلاً أكثر. علماً أن كثرة التعرجات والالتواءات، وسرعة التيار والضحالة لا تسمح للمسافر بأن يأمل في أن يصبح النهر في وقت ما صالحاً للملاحة، بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من أهمية جدية. ويعتقد بولياكوف أن النهر يصلح فقط لتعويم جذوع الأشجار. ففي الفرستات 70-100 الأخيرة حتى المصب، أي حيث لا أمل كبيراً في التعويل على الاستيطان هناك، يغدو النهر أعمق وأكثر استقامة، والتيار أهدأ، ولا حواجز وتعرجات البتة. ويمكن أن يسير فيه قارب بخاري وحتى سفينة غير عميقة الغوص.

عندما تصبح أماكن صيد الأسماك الغنية بأيدي الرأسماليين، ففي أغلب الظن ستجري محاولات جادة لتطهير مجرى النهر وتعميقه. وربما حتى سيمد طريق سكك حديد على الضفة حتى المصب، ولا ريب في أن النهر سيعوض عن جميع النفقات وبزيادة. لكن هذا سيتم في المستقبل البعيد. أما في الوقت الحاضر، ولدى توفر الوسائل، وحين يكون المقصود تحقيق الأهداف القريبة المنال، فإن ثروات تيم شفافة تقريباً. إنها تعطي السجناء المحليين أقل من القليل. وعلى أقل تقدير فإن الساكن في تيم يتضور جوعاً مثل ساكن ألكسندروفسك.

1- يبدو هذا الرئيس في المخفر ما يشبه الملك السابق، وواجباته لا علاقة لها بشؤون المخفر البتة.

طبقاً لوصف بولياكوف فإن وادي نهر تيم مملوء بالبحيرات والمجاري القديمة والسيول والحفر، وليس فيه سهول منبسطة، ولا تنمو فيه أعشاب العلف المغذية، ولا المروج اليانعة التي تغمرها مياه الفيضان، وهناك أحياناً مروج صغيرة فقط تنمو فيها أعشاب السعادي: هي في الواقع بحيرات تنمو فيها الأعشاب. وتنمو على سفوح الضفة الصخرية غابة كثيفة من أشجار الشوح، بينما تنمو على الضفة القليلة الانحدار أشجار البتولا والصفصاف والدردار والحور الرجراج وأحراج كبيرة من الحور. وشجرة الحور باسقة، وتنمو على الضفة وتتساقط في الماء مكونة الحواجز والسدود. وتنمو من أصناف الشجيرات هناك بطمة الشمال والصفصاف والعليق والزعرور.. والبعوض كثير جداً. في صباح 1 أغسطس وجدت قطرات الطل.

تقل مناطق الخضرة كلما اقتربنا من البحر. وتختفي شيئاً فشيئاً أشجار الحور، وتتحول أشجار الصفصاف إلى أدغال وأحراش - ويغلب على الصورة العامة مشهد الساحل الرملي أو الساحل الذي يكسوه الخث مع العنبية والموروشكا والطحالب. ويتسع النهر تدريجياً إلى 75-100، وتنداح حواليه التوندرا، وتغدو الضفاف منخفضة وتسودها المستنقعات.. وتهب الرياح الباردة من البحر.

يصب نهر تيم في خليج نييسكي، أو ترو - وهو صحراء مائية صغيرة، تؤدي إلى بحر أوخوتسكويه أو على حد سواء إلى المحيط الهادئ. كانت أول ليلة أمضاها بولياكوف على ساحل هذا الخليج صافية، وباردة، وتألق في السماء مذنب مزدوج الذؤابة. لم يكتب بولياكوف ما هي الأفكار التي راودته عندئذ، بينما كان يمتع النظر في المذنب، ويصغي إلى الأصوات في الليل. فقد «غلبه» السبات. وفي صباح اليوم التالي أنعم عليه القدر برؤية مشهد غير متوقع: ففي مدخل الخليج رابطت سفينة بسطح أبيض ومجهزة أفضل تجهيز، وبحجرة الربان، ويربض هناك نسر حي مقيد إليها[1].

1- لم تمس العصا البالغ طولها اا ساجيناً قاع النهر. وتستطيع السفينة الكبيرة الرسو في الخليج. لو كانت الملاحة متطورة في بحر أخوتسكويه بالقرب من ساخالين، لوجدت السفينة لها هناك ملاذاً هادئاً وآمناً تماماً.

ترك ساحل الخليج انطباعاً كئيباً في بولياكوف، ووصفه بأنه مشهد نموذجي للطبيعة في البلدان القطبية. النباتات هناك قليلة، ومعوجة. ويفصل الخليج عن البحر لسان رملي طويل يتألف من كثبان. ويمتد وراء هذا اللسان إلى ما لانهاية البحر الهائج العبوس لمسافة آلاف الفرستات. ويرى الصبي الذي طالع الكثير من أعمال ماين ريد في الحلم مثل هذا البحر بالذات، حين ينكشف عنه ليلاً اللحاف الذي يغطيه، ويشعر بالبرد. هذا كابوس. سطح البحر بلون رصاصي، «وينوء تحت ثقل السماء الرمادية الرتيبة». وترتطم الأمواج العنيفة بالساحل الخاوي، الذي ليس فيه أشجار، إنها تهدر وتبرز فيها بين الفينة والفينة بقع سوداء هي حوت أو فقمة.

في الوقت الحاضر لا يحتاج المرء من أجل الوصول إلى دائرة تيم للسير فوق المنحدرات والأخاديد عبر بيلينجا. أنا ذكرت سابقاً أن الوصول إلى دائرة تيم من ألكسندروفسك يتم عبر وادي أركوفسكايا، ويتم تغيير الخيول في أركوفسكي. والطرق هنا ممتازة والخيول تمضي بسرعة. وعلى مسافة 16 فرستا من مخفر أركوفسكي تقع أول قرية في الطريق بمسار دائرة تيم، واسمها كما في الحكاية الشرقية - *آرمودان العليا*. وقد تأسست في عام 1884 وتتألف من قسمين يقعان على منحدر الجبل بالقرب من نهر آرمودان أحد روافد تيم. وبلغ عدد السكان هناك 187 فرداً: 123 من الذكور و55 من الإناث. وأصحاب الضياع 75 بينهم 28 من المشاركين في الملكية. ولدى المستوطن فاسيلييف اثنان من الشركاء أيضاً.

وبالمقارنة مع دائرة ألكسندروفسك فإنّ في غالبية القرى في دائرة تيم، كما سيرى القارئ، عدداً كبيراً من الشركاء أو من يمتلكون الضياع مناصفة، كما أن عدد النساء قليل وعدد الأسر الشرعية قليل جداً. وفي آرمودان العليا 9 أسر شرعية فقط من مجموع 42 أسرة. أما الزوجات الحرائر اللواتي التحقن بأزواجهن فعددهن 3 فقط، أي بقدر عددهن في كراسني يار أو بوتاكوفو، اللتين تأسستا في فترة تقل عن العام. إن هذا النقص في عدد النساء والأسر في قرى دائرة تيم لا يعزى إلى ظروف محلية أو اقتصادية ما، بل إلى أن الموظفين المحليين يوزعون الوجبات القادمة إلى ألكسندروفسك حسب القول المأثور «كل واحد يجر النار إلى قرصه»، ويبقون غالبية النساء في

دائرتهم – علماً أنهم «يبقون أفضل النساء لأنفسهم بينما ترسل إلينا من هن أسوأ» كما يقول الموظفون في دائرة تيم.

إن سقوف الأكواخ في آرمودان العليا تصنع من القش أو لحاء الشجر، وبعضها ليس فيه نوافذ أو أنها مصمتة كلياً. والفقر مدقع حقاً. ولا يعيش فيها 20 شخصاً، حيث خرجوا بحثاً عن الرزق. وتبلغ مساحة الأراضي المستثمرة في الزراعة في الـ 75 مزرعة كلها والـ 28 ضيعة مشتركة 60 ديسياتيناً فقط. ويبذر 183 بوداً من الحبوب أي أقل من بودين في المزرعة الواحدة. ولا يمكن التعويل هناك على زراعة الحبوب مهما بلغت كمية ما يبذر منها. فالقرية واقعة عالياً فوق مستوى البحر وغير محمية من الرياح الشمالية. ويذوب الثلج هنا في فترة تقل إسبوعين مثلاً عما في قرية مالو– تيموفو المجاورة. ويجب الذهاب في الصيف إلى مسافة 20–25 فرستا إلى نهر تيم، أما صيد الحيوانات للحصول على الفراء فيتسم بطابع ظريف حيث لا يجلب منفعة كبيرة إلى اقتصاد القرية، لذا لا يستحق الأمر حتى التحدث عنه.

لقد وجدت أصحاب الأكواخ وساكنيها بلا أي عمل، على الرغم من أن اليوم لا يصادف أي عيد، واعتقدت أنه كان يجب على جميع الناس كبارهم وصغارهم، في فترة أغسطس الساخنة إيجاد عمل ما لهم في الحقل أو في نهر تيم حيث فترة تكاثر السمك. وبدا لي أن أصحاب البيوت وخليلاتهم كانوا يشعرون بالسأم، كما يبدو، وعلى استعداد لتبادل الأحاديث حول هذه الأمور أو تلك. لقد كانوا يضحكون من السأم، بينما يبكون من أجل تنويع المشاعر. إنهم أناس خائبون، وأغلبهم من المصابين بعلل عصبية، وممن يجأرون بالشكوى باستمرار، إنهم «قوم زائدون عن الحاجة»، لكنهم جربوا مع ذلك كسب لقمة الخبز، واستنفدوا جهدهم الضئيل أصلاً، وفي نهاية المطاف لوحوا بأيديهم يأساً، لأنه لا تتوفر «أية وسيلة» ولن «تتوفّر بأي حال من الأحوال». وتحول الخمول الاضطراري شيئاً فشيئاً إلى عادة، وأصبحوا الآن في وضع من ينتظر الطقس عند البحر، ويعانون، وينامون بلا رغبة، ولا يعملون شيئاً، وفي أغلب الظن أنهم لا يستطيعون ممارسة أي عمل. ربما فقط لعب الورق. والغريب في الأمر أن لعب القمار يزدهر في آرمودان العليا، وذاع صيت اللاعبين هنا في كل أرجاء ساخالين. إن أهالي آرمودان

يمارسون اللعب برهان قليل جداً، بسبب نقص الموارد، كما في مسرحية: «30 عاماً، أو حياة اللاعب». وجرى لي الحديث التالي مع المستوطن سيزوف أحد لاعبي القمار المولعين باللعب الذي لا يشق له غبار:

سألني: – لماذا، ياصاحب السعادة، لا يسمحون لنا بالانتقال إلى القارة؟

فقلت هازئاً: – وما حاجتك إلى ذلك؟ فهناك ربما لن تجد من تلعب الورق معه.

– لا، إن اللعب هناك حقيقي.

سألت بعد هنيهة قصيرة: – هل تلعب الـ «شتوس»؟

– بالضبط، ياصاحب السعادة، ألعب الـ «شتوس».

فيما بعد، وعندما كنت أغادر آرمودان العليا سألت الحوذي – السجين:

– هل يمارسون لعب الورق من أجل التسلية؟

– طبعاً، من أجل التسلية.

– وماذا يخسرون في اللعب؟

– كيف ماذا؟ إنهم يخسرون حصة المؤونة من الطعام، وفيها الخبز أو السمك المقدد. يخسرون الطعام والملابس، ويجلس أحدهم جائعاً ويعاني من البرد.

– وماذا يأكلون؟

– ماذا. إذا كسب اللاعب يأكل، وإذا خسر – ينام من دون أن يأكل.

في الأسفل، في المجرى نفسه، قرية أخرى أصغر هي *آرمودان السفلى*. وصلت إليها في وقت متأخر من المساء وقضيت الليلة للمبيت في علية مبنى إدارة السجن، بالقرب من مدخنة المدفأة، حيث لم يسمح لي مدير السجن بالمبيت في الغرفة. فقال «لا يجوز المبيت هنا، ياصاحب السعادة، فالبق والصراصير لا تعد ولا تحصى – إنها قوة! – ولوح بيديه علامة العجز – فأرجو الذهاب إلى العلية». وجب علي الصعود إلى العلية في الظلام بواسطة السلالم الخارجية المبللة والزلقة بعد المطر. وعندما هبطت إلى الأسفل لأخذ التبغ رأيت فعلاً «القوة» العجيبة، وربما أنها الوحيدة في ساخالين. إذ يغطي الجدران والسقف غطاء أسود جنائزي، يتحرك كما لو كان ذلك بتأثير

الريح، وكان بالمستطاع الحدس من بعض النقاط المتحركة على الغطاء بسرعة وباضطراب، مم تتألف هذه الكتلة الفائرة والمنصبة. وتردد حسيس مع خشخة وبصوت عال، كما لو أن الصراصير والبق تسرع بعجلة إلى مكان ما وتتشاور فيما بينها[1].

يبلغ عدد السكان في آرمودان السفلى 101 فرد: 76 من الذكور و25 من الإناث. وأصحاب المزارع 47 والشركاء 23. وعدد الأسر الشرعية 4 وغير الشرعية 15.

وعدد النساء الحرائر 2 فقط. ولا يوجد أي ساكن في عمر 15–20 عاماً. الأهالي يعانون من شظف العيش. السقوف صنعت من الألواح الخشبية في 6 بيوت فقط، أما البقية فصنعت من لحاء الشجر، وكما هو الحال في آرمودان العليا ليس فيها نوافذ أصلاً أو فيها نوافذ مصمتة كلياً. أنا لم أسجل أي عامل، ويبدو أن أصحاب العمل أنفسهم بلا شغل. وقد ذهب لكسب الرزق 21 شخصاً. وبدأ استثمار الأراضي للأغراض الزراعية منذ عام 1884، حينما تأسست القرية، وبمساحة قدرها 37 ديسياتين، أي بمعدل نصف ديسياتين للفرد الواحد من أصحاب الضياع. وبذر من المحاصيل الشتوية والربيعية ما مقداره 183 بوداً. ولا تشبه القرية البتة قرية زارعي الحبوب. والأهالي هنا هم خليط من الروس والبولنديين والفنلنديين أما القرية التالية في هذا المسار فتقع على ضفاف نهر تيم نفسه. وقد تأسست في عام 1880 وسميت بديربينسكويه على شرف مدير السجن ديربين الذي اغتاله أحد السجناء بسبب قسوته في معاملة السجناء. وكان ما يزال في عز الشباب، لكنه بدا قوي البنية وصارماً وعديم الشفقة. ويذكر الأشخاص الذين عرفوه أنه كان يتجول دوماً في السجن وفي الشارع حاملاً عصا معه من أجل ضرب الناس

1- بالمناسبة يسود لدى أهالي ساخالين رأي مفاده أن الصراصير والبق تجلب من الغابة مع الطحالب التي تسد بها الشقوق في المباني الخشبية هناك. وينبع هذا الرأي من أنه حالما تشيد الجدران تظهر الصراصير والبق في الشقوق. طبعاً أن الطحالب لا علاقة لها بالأمر، ويأتي بها النجارون الذين يبيتون في السجون أو في أكواخ المستوطنين والعالقة الحشرات بأجسادهم. والجورجيّون، الجياع الذين يرتدون الأسمال، وجمعتهم الأقدار معاً رغم إرادتهم وبالصدفة، كما لو حدث ذلك بعد تحطم سفينة.

فقط. وجرى اغتياله في المخبز، وأبدى المقاومة وسقط في وعاء العجين الذي اصطبغ بدمائه. وأثار قتله موجة ابتهاج في صفوف السجناء، وجمعوا مبلغ 60 روبلاً من أجل دعم القاتل.

وعموماً فإن ماضي ديربينسكويه لا يبعث على السرور. وكان جانب السهل الضيق، الذي تقع فيه القرية الآن، مغطى بغابة كثيفة من أشجار البتولا والحور الرجراج، أما الجانب الآخر الأكثر اتساعاً، فهو منخفض وتكثر فيه المستنقعات، ولم يكن، كما يبدو، صالحاً للسكن، فقد نمت فيه غابة كثيفة من أشجار الشوح والحور. وحالما انتهى العمل في قطع أشجار الغابة واستئصال الجذوع من أجل بناء البيوت والسجن والمستودعات الحكومية، ومن ثم تجفيف المنطقة، وجب التعاطي مع المصيبة التي لم يأخذها المستوطنون بنظر الاعتبار: فإن مياه النهير أمجا فاضت وغمرت القرية كلها. ووجب أن يحفر له مسار آخر وإكسابه اتجاهاً جديداً. والآن تشغل ديربينسكويه مساحة تربو على الفرستا المربعة واكتسبت شكل قرية روسية حقيقية. ويتم الوصول إليها عبر جسر خشبي رائع، والنهر بهيج، وضفافه خضراء، ينمو فيها الصفصاف، والشوارع عريضة، والبيوت ذات سقوف من ألواح الخشب وذات أفنية. كما أن مباني السجن جديدة، وهناك مختلف المستودعات والمخازن وبيت مدير السجن الكائن في وسط القرية، وجميع المباني لا تشبه السجن بل ضيعة السادة. ويتنقل مدير السجن من مخزن إلى آخر ويصلصل بالمفاتيح - إنه يشبه بالضبط تماماً الإقطاعي في الأزمان الخوالي الطيبة، في حرصه ليلاً ونهاراً على المخزن هناك. أما قرينته فتجلس في الحديقة الصغيرة بالقرب من البيت، بمهابة وجلال، مثل ماركيزة، وتتابع الالتزام بالنظام. إنها ترى أمام البيت مباشرة من الدفيئة المفتوحة ثمار البطيخ الناضجة. وبالقرب منها يسير باحترام، وبتعبير ينم عن اجتهاد العبد السجين البستاني كاراتايف. إنها ترى كيف يحمل السجناء الأحمال من النهر، حيث يمارسون صيد الأسماك، مثل سمكة السلمون السيبيرية الكبيرة، والمسماة بـ «الفضية»، ولكن ليس إلى السجن بل إلى بيت الرئيس من أجل صنع «الباليك» (شرائح السمك المقدد - المترجم)، وتتنزه بالقرب من الحديقة الآنسات بملابس أنيقة وكأنهن الملائكة الصغار، وتقوم بخياطة الملابس

لهن سجينة خبيرة في شؤون الموضة، جرى نفيها لارتكابها جريمة إضرام النيران. ويسود في كل مكان هناك الهدوء، والشبع المترع باللذة وبالرغد، ويمشي أهل البيت على أطراف أصابعهم بخفة، مثل القطط، كما يتحدثون برقة: سمكة، شريحة سمك مقددة، مؤونة حكومية...

يبلغ عدد السكان في ديربينسكويه 442:739 من الذكور و297 من الإناث، ومع نزلاء السجن يصبح العدد حوالي الألف. وأصحاب المزارع 250 والشركاء معهم 58. ويدل المظهر الخارجي، وعدد الأسر والنساء، وأعمار الأفراد، وعموماً جميع الأرقام المتعلقة بهم، على أن هذه القرية واحدة من القرى القليلة في ساخالين التي يمكن وصفها بجد بأنها قرية، وليس حثالة من البشر اجتمعت بالصدفة. إن عدد الأسر الشرعية فيها 121، وعدد الأحرار 14، ويغلب بين الزوجات الشرعيات كثيراً النساء الحرائر البالغ عددهن هنا 103. ويشكل الأطفال ثلث مجموع سكان القرية. لكن لدى محاولة إدراك الوضع الاقتصادي لأهالي ديربينسكويه يصطدم المرء قبل كل شيء بمختلف الظروف الطارئة التي تمارس هنا دوراً رئيسياً وسائداً، كما هو الحال في قرى ساخالين الأخرى. فهنا توضع في المرتبة الثانية القوانين الطبيعية والاقتصادية، وتحل محلها في المرتبة الأولى الظروف الطارئة مثل وجود عدد أكبر أو أقل من الأفراد القادرين على العمل، والمرضى، واللصوص، أو أبناء المدن سابقاً، الذين يمارسون الزراعة هنا بإرادتهم فحسب. أما عدد السكان القدامى، والقرب من السجن، وشخصية رئيس الإدارة المحلي وهلمجرا، أمور يمكن أن تتغير خلال كل فترة خمس سنوات وحتى أكثر. إن أهالي القرية الذين كانوا أول من استقر في ديربينسكويه في عام 1880 بعد انتهاء فترة محكوميتهم بالسجن، قد حملوا على عاتقهم الأعباء الثقيلة لماضي القرية، وصبروا، واستحوذوا شيئاً فشيئاً على أفضل الأماكن والامتيازات، وكذلك الأفراد الذين جاءوا من روسيا مع أموالهم وأسرهم، فهم يعيشون برفاهية. ويتحدد في التقرير الرسمي الوضع الاقتصادي لهؤلاء فقط في امتلاك 220 ديسياتيناً من الأراضي وصيد 3 آلاف بود من السمك سنوياً، أما بقية الأهالي، أي أكثر من نصف سكان ديربينسكويه الذين يتضورون جوعاً ويلبسون الأطمار، ويولدون الانطباع

بأنهم أناس لا حاجة لأحد بهم، فهم لا يعيشون ويعيقون الآخرين من العيش. ولا يلاحظ مثل هذا الفرق الشاسع بين السكان في قرانا الروسية حتى بعد حدوث الحرائق.

عندما وصلت إلى ديربينسكويه ثم تجولت في الأكواخ، هطل المطر، وساد البرد والأوحال. وأسكنني مدير السجن، بسبب ضيق المكان في شقته، في عنبر جديد شيد مؤخراً، ووضع فيه أثاث من طراز فيينا. ووضع من أجلي سرير وطاولة، كما وضع في الباب قفل لكي أستطيع إغلاقه من الداخل. وواصلت منذ المساء وحتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل المطالعة أو تدوين ملاحظات أو مقاطع من سجلات البيوت أو الأبجدية. لم يتوقف المطر حيث واصل الطرق على السقف، بينما كان يحدث في لحظات نادرة أن يطرطش أحد السجناء أو الجنود بجزمته لدى مروره في الأوحال. ساد الهدوء في العنبر، وفي دخائل نفسي، ولكنني حالما أطفأت الشمعة واستلقيت في الفراش سمعت جمجمة وهمساً وطقطقة وطرطشة وتأوهات عميقة. كانت قطرات المطر المتساقطة من السقف فوق شبكات المقاعد من طراز فيينا تولد صوتاً داوياً مصحوباً برنين، وبعد كل صوت يهمس أحدهم يائساً: «أه، يا إلهي، يا إلهي!». لقد كان السجن قريباً من العنبر. فهل تسلل السجناء إلي عبر نفق تحت الأرض؟ ثم عصفت الرياح، وهطل المطر بصورة أشد، وصخبت الأشجار في مكان ما، ومرة أخرى ترددت التأوهات العميقة بيأس: «آه، يا إلهي، يا إلهي!».

في الصباح خرجت إلى الشرفة. السماء رمادية، كئيبة، المطر يتساقط، أوحال. وكان مدير السجن ينتقل من باب إلى آخر حاملاً المفاتيح.

وصرخ: - سأحرر لك مذكرة تجعلك تحك جلدك طوال أسبوع كامل! سأريك ما هي المذكرة!

كانت هذه الكلمات موجهة إلى حشد يتألف من حوالي عشرين سجيناً يرجون كما فهمت من العبارات التي سمعتها إرسالهم إلى المستشفى. إنهم في أطمار، وأصابهم البلل تحت المطر، وتلوثوا بالأوحال، ويرتجفون بسبب البرد. إنهم يريدون أن يظهروا بالإيماءات كونهم مرضى فعلاً، لكن

يبدو على الوجوه المتجمدة والجامدة بسبب البرد تعبير ما ملتو وزائف، ولو أنهم لا يكذبون البتة: «آه، ياربي، ياربي!» – تنهد أحدهم، وتراءى لي أن كابوس ليلتي الماضية يستمر. وحضرتني في الذاكرة كلمة «المنبوذ» التي تعني في اللهجة الدارجة وضع الإنسان الذي ينحدر إلى أدنى درك ممكن. كانت طوال الفترة التي قضيتها في ساخالين تتراءى لي خلال لحظات، فقط في العنبر الكائن في القرية القريبة من منجم الفحم، وكذلك هنا في ديربينسويه، في الصباح الممطر والموحل، أقصى درجات إذلال الإنسان، التي لا مجال للمضي أدنى منها.

تعيش في ديربينسكويه سجينة، بارونة سابقة، تطلق عليها النساء هنا تسمية «السيدة العاملة». إنها تحيا حسب أقوالهن حياة عاملة بسيطة متواضعة، وراضية بوضعها. وقال لي تاجر موسكوفي سابق، كان يمارس التجارة في وقت ما في تفيرسكايا– يامسكايا (أحد شوارع موسكو – المترجم)، متنهداً: «الآن يجري في موسكو سباق الخيل»، وراح يحدث أهل القرية عما هو السباق وكيف تتوجه حشود الناس في أيام الآحاد إلى بوابة تفيرسكايا – يامسكايا. وقال لي متأثراً هو نفسه بحديثه: «صدقني، ياصاحب السعادة، إني مستعد للتضحية بحياتي كلها، فقط من أجل أن ألقي نظرة ليس على روسيا وليس على موسكو بل على تفيرسكايا فقط». علماً بأنه يعيش في ديربينسكويه اثنان باسم يميليان ساموخفالوف، ولهما ابن واحد، وشاهدت في فناء بيت أحدهما ديكاً ربط من ساقه. ويبعث على طرافة جميع أهالي ديربينسكويه، ومنهم الاثنان باسم يميليان ساموخفالوف، كيف جعلت الظروف المعقدة والغريبة، شخصين يعيشان في طرفين مختلفين من روسيا، ولهما نفس الاسم واللقب، وفي نهاية المطاف حملتهما الأقدار إلى ديربينسكويه.

في 27 أغسطس وصل إلى ديربينسكويه الجنرال كونونوفتش و أ. م. بوتاكوف مدير دائرة تيم وموظف آخر، شاب، والثلاثة من الإنتلجنسيا والأناس الظرفاء. وقاموا وأنا رابعهم بجولة قصيرة، لكن رافقتها حتى النهاية بعض المنغصات، مما جعل منها أشبه ما تكون بالبعثة الاستكشافية. وأبدأ من الإشارة إلى هطول مطر شديد. وحل وزلق، وكل شيء تمسكه باليد مبلل. ويتسلل الماء من القذال المبلل إلى ما وراء الياقة، وفي الجزمتين

كنت أشعر بالبرد وبالرطوبة. وكان لف السيجارة مهمة صعبة ومعقدة تنفذ بصورة جماعية. وركبنا من ديربينسكويه قارباً وانحدرنا إلى الأسفل في مجرى نهر تيم. وفي الطريق توقفنا لمشاهدة صيد السمك، وطاحونة مائية والمزارع التابعة لإدارة السجن. سأتحدث عن صيد السمك في حينه، بينما قررنا بالإجماع أن الطاحونة ممتازة، لكن المزارع لا تتميز بأي شيء وربما تجذب الانتباه كونها صغيرة المساحة. وربما يعتبرها المزارع المحترم نوعاً من الدلع والتسلية. إن التيار في النهر سريع وكان الجذافون الأربعة وسائق الدفة يعملون بانسجام. إن المشهد يتغير أمامنا في كل لحظة بفضل السرعة والالتواءات الكثيرة لمجرى النهر. كنا نمضي مع التيار في النهر الجبلي وسط غابات التايغا، لكنني كنت مستعداً لكي أستبدل كل روعة الطبيعة العذراء، والضفاف الخضراء، والمنحدرات والهامات الساكنة المنفردة لصيادي الأسماك، بالحجرة الدافئة والجزم الجافة، بالأخص لأن المشاهد كانت واحدة، وليس فيها شيء جديد بالنسبة إلي، والشيء الرئيسي أنها مغطاة بالعتمة المطرية الرمادية. جلس في مقدمة القارب أ. م. بوتاكوف وبيده بندقية صيد كان يطلق منها النار على البط البري الذي أفزعه ظهورنا المفاجئ.

تم حتى الآن تأسيس قريتين فقط في مجرى تيم في شمال وشرق ديربينسكويه وهما *فوسكريسينكويه وأوسكوفو*. وثمة حاجة إلى تأسيس ما لا يقل عن 30 قرية أخرى من أجل استيطان كل منطقة النهر حتى المصب، وتبعد الواحدة عن الأخرى مسافة عشر فرستات. وتعتزم الإدارة بناء قرية واحدة أو قريتين في العام وربطها بطريق وذلك باستحداث مسار مأهول وخاضع للحماية بمرور الزمن يربط ديربينسكويه وخليج نينسكي. وعندما مررنا في قاربنا بمحاذاة قرية فوسكريسينسكسويه كان يقف على الضفة مدير السجن في وضع الاستعداد، ويبدو أنه كان ينتظرنا. وخاطبه أ. م. بوتكوف قائلاً إننا سنبيت عنده في طريق العودة من أوسكوفو ويجب أن يحضر المزيد من التبن.

بعد ذلك سادت رائحة سمك نتنة شديدة. واقتربنا من قرية أوسك – فو الجيلياتيكية الصغيرة التي أطلق اسمها على أوسكوفو الحالية. وكان في استقبالنا على الضفة الأهالي من شعب الجيليات وزوجاتهم وأطفالهم

وحشد كبير من الكلاب. لكننا لم نلاحظ الدهشة التي أثارها في حينه مجيء المرحوم بولياكوف. فقد تطلع الناس إلينا بلا مبالاة، حتى الأطفال والكلاب. وتقع القرية الروسية على مسافة فرستين من الضفة. ووجدنا هناك في أوسكوفو المشهد ذاته الذي رأيناه في كراسني يار. ثمة شارع واسع، لم يتم اقتلاع الجذامير منه وردمه بعد كما يجب، وتغطيه أعشاب الغابة، وتنتصب على جانبيه الأكواخ غير المكتملة البناء، وأكوام من جذوع الأشجار والقمامة. إن جميع القرى الجاري بناؤها في ساخالين تترك انطباعاً واحداً وكأنها تعرضت إلى الخراب على يد العدو أو أنها قرى مهملة منذ وقت بعيد، ويرى فقط من جذوع الأشجار المقطوعة ذات اللون الفاتح أنه تجري هناك عملية مناقضة للدمار. يعيش في أوسكوفو 77 فرداً: 59 من الذكور و18 من الإناث، وأصحاب الضياع 33 ومعهم الأفراد الزائدون أو بعبارة أخرى الشركاء، 20. وفيها 9 أسر فقط. وعندما اجتمع أهل أوسكوفو بالقرب من بيت مدير السجن حيث شربنا الشاي، وحين تقدم الأطفال والنساء وهم الأكثر فضولاً إلى الأمام، بدا الحشد شبيهاً بطابور الغجر. وكان بين النساء فعلاً عدة غجريات سمراوات بوجوه تنم عن المكر والحزن المصطنع. وكان جميع الأطفال تقريباً من الغجر. فقد نفي إلى أوسكوفو عدة سجناء غجر، ويقاسمهم مصيرهم البائس أفراد أسرهم، الذين رافقوهم طوعاً. علماً أنني عرفت سابقاً اثنتين أو ثلاث غجريات، وقد رأيتهن قبل أسبوع في ريكوفسكويه قبل المجيء إلى أوسكوفو، وسرن حاملات الأكياس على أكتافهن بمحاذاة النوافذ وعرضن على الناس قراءة البخت[1].

يعاني أهالي أوسكوفو من الفقر وشظف العيش. إذ تبلغ مساحة الأراضي الزراعية والبساتين 11 ديسياتيناً فقط، أي حوالي نصف ديسياتين للمزرعة الواحدة تقريباً. ويعيش الجميع على حساب خزانة الدولة، حيث يحصل السجناء منها على حصص الطعام المخصصة لهم، علماً أنها ليست رخيصة، حيث يتم نقلها على الأكتاف في الطرق الوعرة من ديربينسكويه عبر غابات التايغا.

1- رأى أحد المؤلفين، وقد زار ساخالين بعد عامين من وجودي هناك، قطيعاً كاملاً من الخيل بالقرب من أوسكوفو.

بعد نيل قسط من الراحة توجهنا في الساعة الخامسة مشياً على الأقدام إلى فوسكريسينسكويه. والمسافة ليست قليلة، وتعادل ست فرستات، لكنني نظراً لعدم اعتيادي مثل هذه الجولات في التايغا شعرت بالتعب بعد السير مسافة فرستا واحدة.

واستمر هطول المطر الشديد كالسابق. وحالما غادرنا أوسكوفو وجب علينا أن نعبر جدولاً يبلغ عرضه ساجيناً واحداً، وقد مدت فوقه ثلاثة جذوع أشجار رفيعة. وقد عبر الجميع بسلام بينما أنا تعثرت وامتلأت جزمتي بالماء. وامتد أمامنا درب مطروق طويل ومستقيم في الغابة قطعت الأشجار فيه من أجل تعبيده كطريق، ولم يكن فيه ساجين واحد يمكن السير فيه من دون فقدان التوازن والتعثر. فهناك الجذامير، والحفر المملوءة بالماء، وأكوام الأغصان أو الجذور الصلدة مثل الأسلاك، ويتعثر المرء بها كما في العتبة، والمخفية بصورة غادرة تحت الماء، والشيء الرئيسي، والأكثر إزعاجاً يتمثل في – الأغصان وأكوام الأشجار المقطوعة هناك لدى إزالة الأشجار من الدرب. وعندما يجتاز المرء إحدى الأكوام، ويتصبب عرقاً ويواصل السير في المستنقع، يلاقي كومة أخرى جديدة، لابد من اجتيازها، وعبرتُها، وإذا بالمرافقين يصرخون قائلين إنني لا أسير في الاتجاه الصحيح، ويجب المشي نحو يسار كومة الأغصان أو نحو اليمين وهلمجرا. في البداية كنت أسعى قدر جهدي إلى عدم ملء الجزمة الأخرى بالماء، لكنني سرعان ما لوحت بيدي يائساً، وتركت الأمر لحكم الظروف. وتناهت إلى سمعي الأنفاس الثقيلة لثلاثة مستوطنين كانوا يحملون حاجياتنا... لقد أجهدنا الجو الخانق، وضيق النفس، وشعرنا بالعطش الشديد.. كنا نسير بلا قبعات – فهذا أيسر وأخف.

جلس الجنرال، وهو يطلق الأنفاس الثقيلة، فوق جذع شجر ثخينة. فجلسنا نحن أيضاً. وأعطينا سيجارة لكل واحد من المستوطنين الذين لم يتجاسروا على الجلوس.

– أوف! تعبنا!

– كم المسافة الباقية حتى بلوغ فوسكريسينسكويه؟

- بقيت حوالي ثلاث فرستات.

كان أ. م. بوتاكوف أكثر الجميع نشاطاً في الحركة. فقد اعتاد سابقاً على المشي مسافات طويلة في التايغا والتوندرا، ولهذا فإن مسيرة ست فرستات الآن هي بالنسبة إليه أمر بسيط للغاية ومن الترهات. وروى لي قصة رحلته على امتداد نهر بورونايا وحتى خليج تيربينيا ذهاباً وإياباً وقال: في اليوم الأول عذاب في المسيرة، وقد بلغ بي الإعياء أقصاه، وفي اليوم التالي شعرت بآلام في جسدي كله، لكن المشي كان أيسر، وفي اليوم الثالث والأيام التالية شعرت بأنني أطير بأجنحة، ولم أكن ماشياً بل كانت قوة ما خفية تحملني، ولو أن القدمين كانتا تتعثران كالسابق بشجيرة باغولنيك وتغوصان في الأوحال.

بدأ الظلام يخيم على المكان حين بلغنا منتصف الطريق، وسرعان ما احلولكت السماء في عتمة حقيقية. علماً أنني فقدت الأمل في بلوغ ختام هذه الجولة، وصرت أمشي متلمساً طريقي كالأعمى، وأغوص في الماء حتى الركبتين وأتعثر بجذع شجرة مقطوعة ما. وومضت حولي وحول رفاقي أو تلألأت أنوار ضائعة وثابتة هنا وهناك، وتألقت كالفوسفور برك كبيرة وجذوع أشجار متعفنة، وامتلأت جزمتي بنقاط متحركة مثل يراعات إيفانوفية.

وأخيراً لاحت، والحمد لله، ومضات نور بعيد، لم يكن فوسفورياً، بل كان نوراً حقيقياً. وهتف أحد ما داعياً إيانا للتوجه إليه فأجبناه. وظهر مدير السجن حاملاً مصباحاً وقادنا إلى مقره في مبنى إدارة السجن[1] بخطوات واسعة عبر برك الماء، التي انعكس فيها نور مصباحه، وسرنا عبر فوسكريسينسكويه كلها، التي ما كانت لترى في العتمة. كان لدى رفاقي

1- احتجنا إلى ثلاث ساعات من أجل قطع مسافة ست فرستات من أوسكوف إلى فوسكريسينسكويه. إذا ما تصور القارئ رجلاً يحمل الدقيق واللحم المقدد أو الحاجيات الرسمية، أو مريضاً يمضي من أوسكوفو إلى مستشفى ريكوفسكايا، فيبدو مفهوماً تماماً لديه ما قيمة العبارة التالية في ساخالين: «لا طريق». فلا يمكن السفر إلى هناك في عربة أو على صهوة جواد. وكان يحدث أحياناً أن يتعثر الجواد وتكسر ساقه لدى محاولة العبور.

ملابس جافة لكي يستبدلوا بها الملابس المبللة، بينما لم يكن لدي أية ملابس بديلة، على الرغم من أنني كنت مبتلاً تماماً. شربنا الشاي وتبادلنا الأحاديث ثم رقدنا للنوم. كان في مبنى إدارة السجن سرير واحد، رقد فيه الجنرال. أما نحن بسطاء الناس فقد رقدنا فوق أكوام التبن على الأرض.

إن فوسكريسينسكويه أكبر من أوسكوفو بحوالي المرتين. وعدد أفراد سكانها 183:175 من الذكور، و8 نساء. والأسر 7 وليس بينها أسرة شرعية واحدة. وعدد الأطفال في القرية قليل: صبية واحدة. وعدد المزارع 97 منها 77 مزرعة مشتركة.

-10-

ريكوفسكويه. – السجن المحلي. – محطة م. ن. جالكين – فراسكي للأرصاد الجوية. – باليفو. – ميكريوكوف. – فالزي ولونجاري. – مالو – تيموفو. – أندريه – إيفانوفكسويه.

نحن نستقبل طراز حياة أكثر تطوراً عند منابع نهر تيم في أقصى الجزء الجنوبي من حوضه. فالطقس هناك في كل الأحوال أكثر دفئاً، وتلاوين الطبيعة أكثر نعومة، ويجد الإنسان الجائع الذي يعاني من البرد ظروفاً طبيعية هناك مناسبة أكثر مما في المجرى الأوسط أو الأسفل لنهر تيم. وحتى الطبيعة هناك مشابهة للطبيعة في روسيا. وهذا الشبه الساحر والمؤثر في المنفى، يلاحظ على الأخص في ذلك الجزء من السهل حيث بلدة ريكوفسكويه المركز الإداري لدائرة تيم. ويبلغ عرض السهل هناك ست فرستات. وتحميه من الشرق سلسلة جبال واطئة، تمتد طوال مسار مجرى تيم، بينما تبدو من جهة الغرب زرقة ذرى سلسلة الجبال الفاصلة الكبيرة. ولا توجد هناك تلال ومرتفعات، فهو سهل مستو تماماً، ويشبه في المنظر الحقل الروسي الاعتيادي حيث الأراضي المحروثة والمروج والمراعي والأحراج الخضراء. وفي أيام بولياكوف كان سطح السهل كله مملوءاً بالنتوءات والحفر والبرك والبحيرات والجداول الصغيرة التي تصب في تيم. ويغوص حصان الركوب هناك حتى الركبة تارة وحتى البطن تارة أخرى. أما الآن فقد اقتلعت جميع الأشجار، وتم تجفيف المنطقة، ويمتد من ديربينسكي إلى ريكوفسكي طريق أنيق، يثير العجب لاستوائه ولاستقامته

التامة لمسافة 14 فرستا. تأسست ريكوفسكويه أو ريكوفو في عام 1878. واختار المكان المناسب لها بصورة موفقة كلياً ضابط الصف ريكوف مدير السجن المحلي. إنها تتميز بسرعة تطورها بصورة غير عادية حتى بالنسبة إلى قرية ساخالينية: فخلال خمسة أعوام ازدادت مساحتها وعدد سكانها بأربعة أمثال. وفي الوقت الحاضر تشغل مساحة تعادل ثلاث فرستات مربعة ويبلغ عدد سكانها 1368: 831 من الذكور، و537 من الإناث. ويصل العدد مع نزلاء السجن والإدارة إلى ألفي نسمة. علماً أنها لا تشبه مخفر ألكسندروفسك. إنها مدينة، «بابل» صغيرة، فيها كازينوهات القمار، وحتى الحمامات العائلية، التي يديرها يهودي، إنها قرية عذراء روسية حقيقية بلا أي تصنع يفرضه التمدن. وعندما تمشي أو تتنقل في الشارع البالغ طوله حوالي ثلاث فرستات فسرعان ما تشعر بالسأم من طوله ورتابته. ولا تسمى الشوارع هنا بالطريقة السيبيرية، أي سلوبودات، كما في ألكسندروفسك، بل تسمى بالشوارع، ويحتفظ أغلبها بالتسميات التي أطلقها المستوطنون أنفسهم عليها. فهناك شارع سيزوفسكايا، وأطلقت عليه هذه التسمية لأنه يقع في أطراف الشارع بيت سيزوف، وهناك شارع خريبتوفايا وشارع مالوروسكايا. وفي ريكوفسكويه عدد كبير من الأوكرانيين، وربما لن تجد في أية قرية أخرى مثل الأسماء الفخمة: جيلتونوج وجيلوديغ، وتسعة أشخاص بلقب بيزبوجنيخ، وزاريفاي، وريكا، وبوبليك، وسيفوكوبيلكا، وكولودا، وزاموزريا، وهلمجرا. وفي وسط القرية ميدان كبير فيه كنيسة خشبية وحولها الدكاكين، كما في القرى عندنا، ومباني السجن والمراحيض وشقق الموظفين. وعندما تتجول في الساحة تتصور في مخيلتك كيف تصخب السوق الربيعية، وتتعالى أصوات الغجر من أوسكوفو الذين يبيعون الجياد، وكيف تنبعث رائحة القطران والروث والسمك المقدد، وكيف يخور البقر وتسمع أصوات الأرمونيكا الصداحة المختلطة بأغاني السكارى. لكن الصورة المسالمة تتبدد مع الدخان حين تسمع بغتة صلصلة السلاسل المرهقة وخطوات المعتقلين والسجانين الصماء الذين يسيرون عبر الساحة إلى السجن.

يبلغ عدد الضياع في ريكوفسكيه 335، ومن بينها ضياع مملوكة

بالمناصفة، ويعتبر أصحابها أنفسهم من الملاكين وعددهم 189. وعدد الأسر الشرعية 195 والحرة 91. وغالبية الزوجات الشرعيات من الحرائر اللواتي التحقن بأزواجهن. وعددهن هنا 155 زوجة. إن هذه الأرقام عالية، ولكن ينبغي ألا تراود أحد السلوى والاهتمام بالموضوع، لأن هذا الأمر لا يبشر بآمال طيبة كثيرة. فيرى من عدد مالكي نصف الضياع، ومن هؤلاء المالكين الزائدين عن الحصص المقررة، مدى كثرة العناصر النافلة التي لا تمتلك الموارد والإمكانيات لإدارة الضياع بصورة مستقلة، فالمجال ضيق والجوع يتفشى هنا. إن الإدارة في ساخالين تقرر إسكان البشر في مكان ما كيفما اتفق، ومن دون أن تراعي الظروف، ولا تتطلع إلى المستقبل. إن هذا الأسلوب البدائي في إقامة مراكز سكنية ومزارع وقرى جديدة، حتى لو كان ذلك في ظروف ملائمة نسبياً، مثل ريكوفسكويه، سيولد في نهاية المطاف صورة الإدقاع الشامل، ويصل إلى وضع آرمودان العليا. وبالنسبة إلى ريكوفسكويه، أخذاً بنظر الاعتبار مساحة الأراضي فيها، والصالحة من أجل زراعة الحبوب، وفي ظروف المحاصيل هنا، وأخذاً بنظر الاعتبار حتى إمكانيات كسب الرزق، فإنه يكفي تماماً وجود مائتي مزارع، بينما يبلغ عددهم هنا كلهم مع الإضافيين ما يربو على الخمسمائة. وفي كل عام تضيف الرئاسة المزيد والمزيد منهم.

السجن في ريكوفسكويه جديد. وقد شيد بموجب التصميم المشترك لجميع السجون في ساخالين: ثكنات خشبية، وزنزانات تفتقر إلى النظافة، ويسود فيها الفقر وعدم توفر وسائل الراحة، وهو ما يميز المباني المخصصة للحياة الوضيعة التي تناسب قطيع الماشية. بالمناسبة كان سجن ريكوفسكويه يعتبر حتى فترة قريبة، بفضل بعض خصائصه، التي يمكن إغفالها، أفضل سجن في شمال ساخالين بأسره. وبدا لي أيضاً أنه من أفضل السجون. لأنني كنت أستفيد في كل منطقة فيها سجن قبل كل شيء من الوثائق الرسمية لدى الإدارة وخدمات الأفراد المتعلمين. إنني ألاحظ قبل كل شيء في دائرة تيم كلها، وبالأخص في ريكوفسكيه، أن الكتاب الإداريين المحليين، تلقوا تدريباً جيداً، وهم منضبطون، كما لو أنهم تخرجوا في مدرسة خاصة. إنهم يدونون سجلات الأفنية والبيوت والأبجديات بصورة نموذجية. ومن ثم،

عندما زرت السجن، تولد لدي الانطباع ذاته حول النظام والانضباط من قبل الطباخين والخبازين وغيرهم، وحتى السجانون الأقدم في المرتبة لم تبدُ عليهم علائم الشبع والغباء والغلاظة كما في ألكسندروفسك أو دويه.

وتراءى لي أن النظافة في بعض أقسام السجن، التي يجب المحافظة عليها، وكذلك التجهيزات والنظام، قد تم الالتزام بها إلى حد الغلو. فمثلاً في الكوخ، وفي المخبز - في المكان نفسه والأثاث والأوعية والهواء وملابس العاملين - سادت النظافة لدرجة ترضي حتى أكثر المراقبين الصحيين صرامة. ويبدو أن هذا النظام والنظافة يخضعان للرقابة المستمرة، بغض النظر عن وجود الزائرين. عندما جئت إلى المطبخ وجدت العاملين يطبخون في القدور حساء السمك الطازج، - وهذا الطعام غير صحي لأن السجناء الذين غالباً ما يتناولون السمك الذي يتم اصطياده في أعالي النهر يعانون من التهاب الأمعاء الحاد. لكن حتى على الرغم من ذلك، فإن الوضع كله هنا يشير إلى أن السجين يحصل على الكمية اللازمة من الطعام المقررة له بموجب القانون. ونظراً إلى أنه دعي للعمل في داخل السجن، بصفة مسؤولين وإداريين، المنفيون المتنورون الذين يتولون المسؤولية عن مراقبة نوعية وكمية طعام السجناء، فقد أصبح شيئاً غير ممكن وجود ظواهر شنيعة مثل حساء الكرنب النتن أو الخبز الممزوج بالطين. وقد أخذت كيفما اتفق من وجبات الخبز الكثيرة المعدة لتقديمها إلى السجناء يومياً عدة أرغفة ووزنتها، فوجدت أن وزن كل واحد منها يبلغ ثلاثة أرطال ونيفاً بالضبط.

إن المراحيض هنا أقيمت بموجب نظام الحفر، لكنها تختلف عما هي في السجون الأخرى. فقد بلغت متطلبات النظافة هنا درجة ربما تكون حتى غير مريحة بالنسبة إلى السجناء. والمراحيض دافئة ولا تنبعث منها روائح كريهة كلياً. ويتم تحقيق ذلك بتأمين نوع خاص من التهوية، يرد ذكره في المرشد الخاص للبروفيسور أريسمان تحت اسم السحب المعاكس[1] كما أعتقد.

1- تتم هذه التهوية في سجن ريكوفسكويه بالشكل التالي: تجري تدفئة الموقد فوق الحفرة في حجرة المرحاض، وعندئذ يغلق بابه تماماً وبإحكام، فيتدفق التيار الهوائي اللازم من أجل الاحتراق في الموقد من الحفرة، لأنه يتصل بها بواسطة أنبوب. ولهذا فإن جميع الروائح الكريهة تنتقل من الحفرة إلى الموقد، وتخرج منه إلى الخارج

إن مدير سجن ريكوفسكويه السيد ليفين رجل ذو موهبة ويتمتع بخبرة جدية وبروح مبادرة، والسجن وكل ما فيه مدين له بصورة رئيسية. ولكن المؤسف أن لديه ولعاً شديداً بإنزال العقوبة بالجلد بالعصا، مما أدى في نهاية الأمر إلى محاولة اغتيال وضعت حداً لحياته. فقد هجم عليه كالوحش أحد السجناء بسكين، وهذا الهجوم ترك عواقب وخيمة بالنسبة إلى المهاجم. إن عناية السيد ليفين الدائمة بالبشر، وفي الوقت نفسه بالجلد بالعصا، والولع بالعقوبات الجسدية، والقسوة، هما أمران مجافيان للإدراك والتفسير. وأظن أن شخصية الكابتن فينتسيل في رواية جارشين «يوميات الجندي إيفانوف» ليست مفتعلة.

وفي ريكوفسكويه مدرسة، ومكتب تلغراف، ومستشفى ومحطة للأرصاد الجوية تحمل اسم م. ن. جالكين - فراسكي يديرها بصورة غير رسمية أحد المنفيين ذوي الحظوة، وهو ميتشمان سابق، ورجل محب للعمل جداً وطيب القلب. كما يتولى أيضاً مهام راعي الكنيسة. وخلال أربعة أعوام من وجود المحطة جمع مالكين معطيات غير كثيرة، لكنها تكفي مع ذلك لتحديد الفرق بين كلتا الدائرتين الشماليتين. فإذا ما كان الطقس في ألكسندروفسك بحرياً، فإنه في تيموفسكويه قاري، ولو أن المسافة بين الدائرتين لا تزيد على 70 فرستا. إن تقلبات درجة الحرارة وعدد الأيام التي يسقط فيها المطر غير كبيرة جداً. والصيف هنا أكثر دفئاً، بينما الشتاء أكثر ضراوة وقسوة. ودرجة الحرارة المتوسطة في العام أدنى من الصفر. أي حتى أدنى مما في جزيرة سولوفكي. وتقع دائرة تيموفكي أعلى من مستوى البحر، وأعلى مما في ألكسندروفسك، لكن نظراً لكونها محاطة بالجبال وتبدو كأنها تقع في وهدة، فإن متوسط عدد الأيام بلا رياح هناك في العام أكثر بحوالي 60، وبصورة خاصة يكون عدد الأيام التي تهب فيها رياح باردة أقل بـ 20. كما يلاحظ فرق قليل في عدد الأيام التي يسقط فيها المطر: فهي في دائرة

بواسطة الأنبوب. علماً أن الحجرة الكائنة فوق المرحاض تتم تهويتها بواسطة الموقد أيضاً، ويتسرب الهواء من هناك إلى الحفرة عبر فتحات ومن ثم عبر المدخنة. وقد أظهر لهب عود الثقاب ذلك بشكل واضح لدى تقريبه من الفتحة حيث توجهت نحو الأسفل.

تيموفسكويه أكثر – 116 يوماً يسقط فيه الثلج و76 يوماً مع المطر. أما مقدار الفرق في سقوط الثلوج والأمطار في كلتا الدائرتين فهو أكبر بكثير، ويعادل حوالي 300 مليمتر، وأكبر كمية من الرطوبة تلاحظ في ألكسندروفسك.

في صباح 24 يوليو عام 1889 أتلف الزمهرير زهور البطاطس في ديربينسكويه، وفي 18 أغسطس حدث برد مماثل في المنطقة كلها فذبلت أوراق البطاطس.

تقع جنوبي ريكوفسكويه قرية *باليفو* التي بنيت في عام 1886 في مكان قرية باليفو الطينية السابقة الواقعة على رافد لنهر تيم يحمل هذا الاسم. ويمتد إلى هناك من ريكوفسكويه درب مطروق جيداً في السهل المنبسط، عبر الأحراش والحقول، وذكرني إلى أقصى حد بروسيا، ربما لأنني جئت إلى هناك في طقس جيد جداً. وتبلغ المسافة 14 فرستا. وسيشق قريباً من ريكوفسكويه إلى باليفو طريق التلغراف – البريد، الذي جرى تصميمه منذ وقت بعيد ويربط شمال ساخالين بجنوبه. علماً أنه يجري شق الطريق الآن.

عدد سكان باليفو 396 فرداً: 345 من الذكور، و51 من الإناث. أصحاب الضياع 183 بينهم 137 من أنصاف المالكين للضياع، ولو أنه طبقاً للظروف المحلية كان يكفي وجود 50 مالكاً. ومن الصعب أن تجد في ساخالين بلدة أو قرية أخرى يجتمع فيها مثل هذا العدد من الظروف المختلفة غير المناسبة لمستوطنة زراعية كما هو الحال هنا. فالتربة – من الحصى، وحسب أقوال الأهالي القدامى فإن التونغوسيين كانوا يرعون الأيائل في باليفو في زمان ما. ويروي حتى المستوطنون أن هذه المنطقة كانت في الأزمان الغابرة قاع بحر وأن الجيلياكيين يعثرون حسب الزعم على بقايا حطام السفن هناك. واستثمرت من الأرض مساحة 108 ديسياتينات فقط، ويشمل ذلك الحقول والبساتين والمروج، بينما يتجاوز عدد المالكين الثلاثمائة. وعدد النساء البالغات 30 فقط، أي بمعدل امرأة مقابل كل 10 رجال، ومن السخرية أن يتحسس المرء بقوة أشد، المغزى المحزن لهذا التناسب، فقد زار الموت باليفو منذ فترة قريبة واختطف خلال فترة قصيرة أرواح ثلاث نساء. علماً أن حوالي ثلث المالكين تقريباً لم يمارسوا الزراعة قبل جلبهم إلى المنفى، لأنهم كانوا من أبناء المدن. ومما يؤسف له أن قائمة الظروف غير المناسبة لا

تنتهي عند هذا الحد. إذ يضاف إلى ذلك، أنه، حسب القول المأثور «جميع المصائب تنهال على مكار المسكين»، لا يوجد في أية بلدة في ساخالين مثل هذا العدد الكبير من اللصوص، هنا في باليفو المعذبة التي حكمت عليها الأقدار بالمعاناة. فهنا يسرق اللصوص في كل ليلة، وعشية وصولي اقتيد ثلاثة منهم مقيدين بالسلاسل لسرقتهم الجوادار. وبالإضافة إلى الذين يسرقون بسبب الحاجة والفاقة في باليفو كثيرون ممن تطلق عليهم تسمية «الخبثاء» الذين يسيئون إلى أبناء قريتهم بلا سبب وفقط من «أجل الولع بالفن». فهم يقتلون الماشية ليلاً بلا سبب، كما ينتشلون من الأرض البطاطس قبل نضوجها، وينتزعون أطر النوافذ من البيوت وهلمجرا. وهذا كله يجلب الخسائر والفقر إلى المزارع البائسة أصلاً، كما يجعل السكان في حالة ذعر مستمر، وهو أمر ذو أهمية.

إن وضع المعيشة يدل على الفقر فقط لا على أي شيء آخر. فالسقوف في الأكواخ مغطاة بلحاء الشجر والتبن، بينما لا توجد باحات وأبنية ملحقة بها البتة. علماً أن 49 بيتاً لم يكتمل بناؤها، ويبدو أن أصحابها أهملوها. وغادر 17 شخصاً القرية طلباً للرزق.

عندما تجولت في الأكواخ في باليفو تبعني من دون أن يتخلي عني سجان من المستوطنين، وأصله من بسكوف. وأذكر أنني سألته عن اليوم، هل اليوم الأربعاء أم الخميس؟ أجابني:

- لا أستطيع أن أتذكر ياصاحب السعادة؟

يعيش في المبنى الحكومي كارب يروفييتش ميكريوكوف، أحد أقدم السجانين في ساخالين. وقد جاء إلى ساخالين في عام 1860 حينما بدأ لتوه إرسال المنفيين إلى ساخالين، وبوسعه وحده فقط كتابة كل تاريخ ساخالين من جميع أبناء ساخالين الباقين على قيد الحياة الآن. علماً أنه ثرثار يطيب له الكلام، ويجيب عن الأسئلة بكل طيب خاطر، ويطيل الحديث على عادة الشيوخ. لكن ذاكرته بدأت تخونه، ولهذا فإنه يتذكر الأحداث البعيدة الماضية فقط. الوضع في بيته لائق المظهر، ويدل على حسن التدبير تماماً، وحتى فيه لوحتا بورتريه بالأصباغ الزيتية: يبدو في إحداهما هو نفسه، وفي

الأخرى تبدو زوجته المرحومة مع زهرة على صدرها. إنه في الأصل من أبناء محافظة فياتسكايا، ويشبه في ملامح وجهه الكاتب المرحوم فيت. كما أنه يخفي عمره الحقيقي، ويقول إن عمره 61 عاماً، أما في الواقع فقد تجاوز السبعين من العمر. وزوجته الثانية هي ابنة أحد المستوطنين، وهي امرأة شابة ولدت له ستة أطفال في عمر يتراوح ما بين العام و9 أعوام. وأصغرهم ما زال رضيعاً.

تبادلت أطراف الحديث مع كارب يروفييتش حتى ما بعد منتصف الليل، ومست جميع أحاديثه أحوال السجون فقط، وأبطالها مثل مدير السجن سيليفانوف الذي كان يحطم أقفال الأبواب بقبضته، وفي نهاية المطاف قتله السجناء لمعاملته القاسية لهم.

عندما انصرف ميكريوكوف إلى القسم الخاص به من البيت حيث رقدت زوجته وأطفاله، خرجت إلى الشارع. كان الليل هادئاً وتتألق فيه النجوم. بينما واصل الحارس الطرق بالمطرقة، وسمع في مكان قريب خرير جدول. وقفت فترة طويلة وكنت أتطلع إلى السماء تارة وإلى الأكواخ تارة أخرى، وبدا لي كالمعجزة وجودي على بعد عشرة الآف فرستا من بيتي، وفي باليفو، في نهاية الدنيا هذه، حيث لا يتذكر الناس أيام الأسبوع، وهيهات أن توجد ضرورة لتذكرها، فالأمر سواء هنا كلياً - فيما إذا كان اليوم الأربعاء أو الخميس...

في الاتجاه الجنوبي، في مسار طريق البريد المقرر شقه، تقع قرية *فالزي* التي بنيت في عام 1889. ويعيش هناك 40 رجلاً ولا توجد فيها امرأة واحدة. وقبل وصولي إليها بأسبوع، نقلت من ريكوفسكويه ثلاث عوائل من أجل تأسيس قرية *لونجاري* على ضفة أحد فروع نهر بوروندايا. وسأترك هاتين القريتين، اللتين تبدأ الحياة فيهما لتوه، ليكتب عنهما كاتب آخر ستتاح له الفرصة للمجيء إليهما في طريق جيد ويمكن رؤيتهما عن قرب.

بغية اختتام الاستعراض حول قرى دائرة تيموفسكويا بودي الحديث عن قريتين فقط هما: *مالو- تيموفيه وأندريه-إيفانوفسكويه*. إنهما تقعان على ضفاف نهر مالو تيم الذي ينبع من قرب بيلينجا ويصب في نهر تيم

بالقرب من دي بينسكويه. والقرية الأولى، أقدم القرى زمنياً، في دائرة تيموفسكي، تأسست في عام 1877. وفي قديم الزمان حينما كان يراد العبور إلى بيلينجا، كان الطريق إلى تيم يمر عبر هذه القرية. ويقطن فيها الآن 190 شخصاً: 111 من الذكور و79 من الإناث. وأصحاب الضياع 67. وكانت مالو- تيموفو في وقت ما القرية الرئيسية ومركز المنطقة التي تتألف منها دائرة تيموفسكي الحالية. أما الآن فهي تقع جانباً في الأطراف، وتشبه مدينة حماية صغيرة، جمد فيها كل ما هو حي. ولا يدل على عظمتها السابقة سوى السجن الصغير والبيت الذي يعيش فيه آمر السجن السيد «ك»، وهو شاب مثقف وطيب للغاية، من أبناء بطرسبورج، ويبدو أنه يحن كثيراً إلى روسيا. إن الشقة الحكومية الكبيرة بحجراتها العالية السقف والواسعة، التي يتردد فيها وقع صدى الأقدام المنفردة، والوقت الطويل والباعث للضجر الشديد، الذي لا يجد ما يملأه به، يضيق عليه الخناق لدرجة تجعله يشعر كما لو أنه في الأسر. وكما لو كان الأمر عن قصد فإن الشاب كان يستيقظ مبكراً، في الساعة الرابعة أو الخامسة صباحاً. فينهض، ويحتسي الشاي، ثم يذهب إلى السجن... وبعد ذلك ما العمل؟ بعد ذلك يتجول في «قصر التيه» - اللابرنت التابع له، ويتطلع إلى الجدران الخشبية، ونسالة القنب في الشقوق بين الألواح، ويتجول ثم يتجول، ومن ثم يحتسي الشاي مجدداً. وبعد ذلك يقوم بالبحوث النباتية، ثم يتجول مرة أخرى، ولا يتناهى إلى سمعه شيء باستثناء خطواته هو وعويل الرياح. يعيش في مالو- تيموفو عدد كبير من الطاعنين في السن. وقد التقيت من بينهم التتاري فرجييف الذي رافق بولياكوف في زمن ما إلى خليج نييسكي. واستعاد بكل طيب خاطر الذكريات الآن عن البعثة وعن بولياكوف. كما أن بين الشيوخ رجلاً ظريفاً من الناحية المعيشية اليومية هو المستوطن بوجدانوف، من أتباع الكنيسة السلفية، الذي يمارس الصيرفة. ولم يسمح لي بلقائه فترة طويلة، وفي نهاية المطاف سمح لي بذلك، وأسهب في الحديث عن وجود الكثيرين من الناس الذين يأتون الآن إليه، فإذا سمح لهم بدخول بيته فقد يحدث أن يسرقوه وهلمجرا.

أطلقت تسمية أندريه - إيفانوفسكويه على القرية تكريماً لشخص اسمه أندريه إيفانوفتش. تأسست القرية في عام 1885 فوق مستنقع. وعدد السكان

277:382 من الذكور، و105 من الإناث. وعدد أصحاب الضياع مع الشركاء 231، مع أنه كان يكفي هنا، كما في باليفو، وجود 50 فقط. ويمكن القول إن التركيبة السكانية فيها موفقة. ويلاحظ كما في باليفو وجود وفرة من البرجوازيين الصغار، وأصحاب مختلف الحرف الذين لم يمارسوا الزراعة سابقاً قط. كما يلاحظ في أندريه - إيفانوفسكويه وجود عدد كبير من غير الأرثوذكس الذين يشكلون ربع عدد السكان: فيوجد 47 كاثوليكياً ونفس العدد من المحمديين (المسلمين) و12 لوثرياً. بينما يوجد بين الأرثوذكس أبناء قوميات أخرى مثل الجورجيين[1]. إن هذا التنوع السكاني يسبغ على الأهالي طابع حثالة من الناس جمعوا بالصدفة مما يعيق تشكيلهم في مجموعة ريفية.

1- بالمناسبة يعيش هنا اثنان من النبلاء السابقين من كوتاييسي وهما الأخوان ألكسي وتيموراس تشيكوفاني. وكان هناك الأخ الثالث، لكنه توفي بمرض السل. وليس في بيتهم أي أثاث، وفرشت فقط حشية من الريش على الأرض. وأحدهما مريض.

-11-

دائرة التصميم. – العصر الحجري. – هل جرى الاستيطان بحرية؟ . – الجيلياكيون. – عددهم. مظهرهم الخارجي. القوام. الطعام. الملبس. المساكن. الوضع الصحي. – طبعهم. محاولات روسنتهم. الأوروتشيون.

يمكن أن يرى القارئ من الاستعراض النهائي الذي قدمناه آنفاً أن كلتا الدائرتين الشماليتين تشغلان مساحة تعادل مساحة قضاء صغير في روسيا. وهيهات أن يكون ممكناً حساب المساحة التي تشغلانها بالفرستات المربعة في الوقت الحاضر، لأن امتداد الدائرتين نحو الجنوب والشمال لا تحده أية حدود. وتبلغ المسافة بين المركزين الإداريين لكلتا الدائرتين، مخفر ألكسندروفسك وريكوفسكويه، في أقصر طريق يمر عبر يلينجا، حوالي 60 فرستا، وعبر وادي أركوفسكايا حوالي 74 فرستا. ولا تعتبر هذه المسافة قريبة طبقاً للحسابات المحلية. ناهيك عن الحديث عن تانجي وفانجي، وحتى بوليفو تعتبر قرية بعيدة، وطرحت للبحث حتى مسألة استحداث دائرة جديدة ببناء قرى جديدة على ضفاف روافد بوروناپا إلى الجنوب من بوليفو. علماً أن الدائرة كوحدة إدارية تعادل القضاء. ووفقا للمفاهيم السيبيرية، يمكن أن تطلق هذه التسمية فقط على المسافات الكبيرة التي لا يمكن قطعها خلال شهر، ومنها دائرة أنادير، ويمكن أن يبدو نوعاً من الترف تقسيم ساخالين إلى دوائر صغيرة، بالنسبة إلى الموظف السيبيري، العامل وحده في منطقة تبلغ مساحتها مائتين أو ثلاثمائة فرستا. لكن سكان ساخالين يعيشون في ظروف استثنائية، وآلية الإدارة هنا معقدة جداً أكثر مما في دائرة أنادير. ويملي تقسيم

مستوطنة المنفيين إلى وحدات إدارية صغيرة التطبيق العملي نفسه، علاوة على أمور أخرى كثيرة، وهذا ما سنتحدث عنه لاحقاً، وهو يشير أولاً إلى أنه كلما كانت المسافة أقصر في مستوطنة السجناء تغدو إدارتها سهلة ومريحة أكثر، وثانياً أن تقسيم الدائرة إلى وحدات أدى إلى تقوية الملاك الوظيفي وتدفق أناس جدد، وهذا يترك بلا ريب تأثيراً طيباً في المستوطنة. إن دعم ملاكات الموظفين بالكوادر المثقفة (الإنتلجنسيا) من الناحية الكمية يشكل إضافة كبيرة من الناحية النوعية أيضاً.

سمعت في ساخالين الأحاديث عن استحداث دائرة جديدة يجري تصميمها. ودار الحديث عنها كما لو أنها أرض كنعان، لأنه حسب الخطة يمر الطريق نحو الجنوب إلى هذه الدائرة على امتداد مجرى نهر بورونايا. ومن المقرر أن ينقل إلى الدائرة الجديدة السجناء الذين يحتجزون الآن في دويه وسجن فويفودا، وبعد نقلهم تبقى فقط الذكريات عن هذه الأماكن الفظيعة، وستحال مناجم الفحم إلى شركة «ساخالين» التي انتهكت منذ وقت بعيد العقد المبرم، وسيتولى استخراج الفحم ليس السجناء، بل المستوطنون على أساس تشكيل التعاونيات[1].

1- من بين الأوامر التي أصدرها الجنرال كونونوفتش أمر عن رغبة للإدارة منذ وقت بعيد بإغلاق سجني دويه وفويوفودا جاء فيه: «بعد تفقد سجن فويوفودا اقتنعت شخصياً بأن ظروف المكان الذي يقع فيه السجن وكذلك أهمية المجرمين المحتجزين هناك، وأغلبهم من المحكومين لفترة طويلة أو لاحتجازهم لارتكابهم جرائم جديدة، لا يمكن أن تبرر نظام الرقابة السائد هناك، أو الأفضل القول، غياب أية رقابة فعلية تمارس في هذا السجن منذ تأسيسه. ووضع الأمور في الوقت الحاضر هو كما يلي: بني السجن في واد ضيق شمال مخفر دويه على مسافة فرستا ونصف ويتم الوصول إلى المخفر فقط عبر طريق ساحل البحر الذي يسد مرتين في اليوم بسبب المد، أما السير عبر الجبال فهو صعب في الصيف وغير ممكن في الشتاء. ويرابط مدير السجن في دويه، أما مساعده فيقطن هناك أيضاً. وحسب الاتفاق مع شركة «ساخالين» فإن الفريق المحلي الذي يتولى أعمال الحراسة وعدد الحراس المطلوب الذين يوجهون من أجل الرقابة على مختلف الأعمال، وفق الشرط المتفق عليه مع شركة «ساخالين» يوجدون في المخفر المذكور أيضاً، بينما لا يوجد أحد في السجن نفسه باستثناء عدة سجانين وينبغي تبديل الحرس يومياً الأمر الذي يبقى أيضاً من دون رقابة دائمة من جانب القيادة العسكرية القريبة. أنا لا أريد الدخول في تفاصيل الظروف التي جعلت

قبل أن اختتم الحديث عن شمال ساخالين لا أرى نافلاً التحدث بإيجاز عن الأفراد الذين عاشوا هنا في مختلف الأوقات، ويعيشون الآن بمعزل عن بقية مستوطنة المنفيين. لقد وجد بولياكوف في وادي دويكا شظية من الحجر بشكل سكين، ورؤوس سهام من الحجر وحجارة الشحذ وفؤوساً حجرية وغيرها. وأعطته هذه اللقيات الحق في الحكم بأنه كان يعيش في وادي دويكا منذ زمن بعيد بشر لم يعرفوا المعادن إنهم بشر من العصر الحجري.

إن قطع الفخار وعظام الدببة والكلاب ورصاصات الأثقال في شباك صيد السمك التي وجدت في أماكن معيشتهم سابقاً، تدل على أنهم كانوا يتقنون صنع الفخار، ويمارسون صيد الدببة والأسماك وكانت الكلاب تساعدهم في الصيد. أما المصنوعات اليدوية من حجر الصوان، الذي لا وجود له في ساخالين، فيبدو أنهم حصلوا عليها من الجيران، من القارة (البر الروسي) والجزر القريبة المجاورة. وفي أغلب الظن أن الكلاب كانت تقوم في أثناء تنقلاتهم بالدور الذي تقوم به الآن أي في التنقل. كما عثر بولياكوف في وادي تيم على آثار مبان قديمة وأدوات بدائية. وقد خلص إلى استنتاج مفاده أنه ربما وجدت في شمال ساخالين «قبائل ذات مستوى تطور ذهني واطئ نسبياً. ويبدو أنه عاش هناك بشر وابتكروا خلال قرون وسائل الوقاية من البرد والعطش والجوع. وفي أغلب الظن أن البشر القدماء عاشوا هنا بمجموعات صغيرة نسبياً، ولم يكونوا شعوباً بكل معنى الكلمة».

بالمناسبة فإن نيفيلسكوي حين أرسل بوشنياك إلى ساخالين كلفه أيضاً بالتحقق من الإشاعات بصدد البشر الذين خلفهم الملازم خفوستوف في ساخالين، وعاشوا كما يؤكد الجيلياكيون على ضفاف نهر تيم. وأفلح بوشنياك في العثور على آثار هؤلاء البشر. ففي إحدى القرى الكائنة على ضفاف تيم تبادل مع الجيلياكين المحليين مقابل 3 قطع نقدية صينية 4 صفحات انتزعت من كتاب الصلوات، وأبلغ بأن هذا الكتاب كان يعود إلى

إدارة السجن بمثل هذا الوضع الاستثنائي وبقائها خارج أية إمكانية لفرض الرقابة المباشرة، فإنني قررت حتى إلغاء إدارة سجن دويه وكذلك سجن فويوفودا ونقلهما إلى أماكن أخرى يجب على الأقل إزالة النواقص الموجودة وهلمجرا (الأمر رقم 348، 1888).

الروس الساكنين هنا. وكتب على إحدى الصفحات الرئيسية في الكتاب بخط تصعب قراءته ما يلي: نحن إيفان ودانيلا وبيوتر وسيرجي وفاسيلي قد أنزلنا خفوستوف في قرية توماري – آنيفا في 17 أغسطس 1805، وانتقلنا إلى نهر تيم في عام 1810 في العام الذي جاء فيه اليابانيون إلى توماري». وبعد فحص المكان الذي عاش فيه الروس فيما بعد خلص بوشنياك إلى استنتاج بأنهم عاشوا في ثلاثة أكواخ وكانت لديهم حقول. وقال الأهالي المحليون له إن فاسيلي آخر روسي توفي منذ فترة قريبة، وإن الروس كانوا طيبين، وخرجوا معهم لصيد الأسماك والوحوش، وكانوا يرتدون مثل ملابسهم، لكنهم كانوا يقصون شعر رؤوسهم. وفي مكان آخر أورد الأهالي المحليون تفاصيل أخرى: كان لدى اثنين من الروس أطفال من نساء من الأهالي المحليين. وفي الوقت الحاضر نسي الروس الذين خلفهم خفوستوف في شمال ساخالين، ولا يُعرف شيء عن أبنائهم.

بالمناسبة كان بوشنياك يدون في يومياته كل ما يطلع عليه باستمرار، وفيما إذا وُجد روس استوطنوا الجزيرة في وقت ما، وعرف في مستوطنة تانجي ما يلي: قبل 35 أو 40 عاماً مضى تحطمت سفينة على الساحل الشرقي، ونجا ركابها، وشيدوا لأنفسهم بيتاً وبعد فترة من الزمن صنعوا سفينة، وعبر المجهولون في هذه السفينة مضيق لابيروزوف إلى مضيق تتارسكي، وهناك تحطمت سفينتهم مرة أخرى بالقرب من قرية ماجاشي، وفي هذه المرة لم ينج سوى فرد واحد قال إن اسمه كيمتس. وبعد فترة قصيرة جاء إلى هناك من آمور الروسيان فاسيلي ونيكيتا. فانضما إلى كيمتس وشيدوا بيتاً لهم في ماجاشي، وصاروا يمارسون صيد الحيوانات للحصول على فرائها وأخذوا يسافرون إلى المنشوريين واليابانيين من أجل التجارة. وعرض أحد الجيلياكيين على بوشنياك مرآة زعم أن كيمتس أهداها لأبيه. ولم يرغب الجيلياكي في بيع هذه المرآة مهما كان الثمن، وقال إنه يحتفظ بها كذكرى ثمينة لصديق أبيه. وكان فاسيلي ونيكيتا يخافان القيصر الروسي كل الخوف، وتبين من ذلك أنهما من الأثرياء. وتوفي الثلاثة في ساخالين.

سمع الياباني ماميا – رينزو في عام 1808 في ساخالين أنه غالباً ما تأتي إلى الجانب الغربي للجزيرة سفن روسية وأن الروس استطاعو في نهاية

المطاف، بممارسة أفعال قطاع الطرق، أن يرغموا الأهالي المحليين على التخلي عن جزء منه، ومن ثم الاستيلاء على الجانب الآخر. وذكر ماميا – رينزو أسماء هؤلاء الروس: كاموتسي وسيميونا وومومو وفاسيريه. قال شرينك «ليس من الصعب التعرف في الأسماء الثلاثة الأخيرة على الأسماء الروسية: سيميون وفوما وفاسيلي. وبرأيه إن كاموتسي يشبه جداً كيمتس».

هذا موجز قصير جداً لتاريخ الروبنزونات الثمانية في ساخالين، وتختتم بها جميع المعطيات حول الاستيطان الحر في شمال ساخالين. وإذا ما كان المصير غير الاعتيادي للبحارة الخمسة أتباع خفوستوف وكيمتس مع الاثنين الهاربين يشبه محاولة الاستيطان الحر، فيجب اعتبار هذه المحاولة ضئيلة الشأن، وعلى أي حال إنها محاولة فاشلة. والعبرة التي نستخلصها من ذلك أن جميع الأشخاص الثمانية الذين عاشوا في ساخالين فترة طويلة لم يمارسوا الزراعة بل صيد الأسماك والحيوانات.

والآن دعنا بغية استكمال المعلومات نشير إلى الأهالي المحليين الأصليين – الجيلياكيين. إنهم يقطنون في شمال ساخالين، على الساحل الشرقي والغربي وعلى ضفاف الأنهار، وبصورة أساسية على ضفاف نهر تيم[1]. والقرى هناك قديمة، والتسميات التي ذكرها الباحثون القدماء باقية حتى في زماننا، ولكن لا يمكن وصف طراز حياتهم بأنه مستقر، لأن الجيلياكيين لا يشعرون بالارتباط بمكان ولادتهم ولا بأي مكان على العموم، وغالباً ما يتركون مساكنهم ويذهبون لممارسة الصيد متنقلين مع عوائلهم وكلابهم من مكان إلى آخر في شمال ساخالين. لكنهم يبقون مخلصين للجزيرة في تجوالهم حتى لدى القيام برحلات بعيدة إلى القارة.

1- يعيش الجيلياكيون بصفة قبيلة قليلة العدد على كلتا ضفتي آمور، وفي مجراه السفلي، بدءاً بسوفييسك ومن ثم في ليمان وساحل بحر أخوتسكويه والجزء الشمالي من ساخالين. وعلى مدى الفترة الزمنية التي تتوفر فها المعلومات حول هذا الشعب، أي خلال 200 عام تقريباً، لم تحدث أية تغييرات في وضع حدودهم. ويعتقد أن ساخالين وحدها كانت موطن الجيلياكيين في الأزمان القديمة وفيما بعد فقط انتقلوا إلى الجزء القريب من البر في القارة، بعد أن أبعدهم من الجنوب أبناء شعب أينام النازحين من اليابان، والذين أبعدوا بدورهم من قبل اليابانيين.

ويتميز الجيلياك - الساخاليني من حيث اللغة والعادات عن الجيلياك القاطن في القارة مثل تميز المالوروسي عن الموسكوفي (أي الأوكراني عن الروسي). ولهذا أعتقد أنه لن يكون صعباً جداً حساب الجيلياكيين – الساخالينيين وعدم خلطهم بالقادمين إلى الساحل التتاري لغرض الصيد. علماً أنه لابد من حسابهم ولو مرة في كل 5–10 أعوام، وإلا يبقى مطروحاً لفترة طويلة موضوع تأثير مستوطنة المنفيين في عددهم وسيتحدد بصورة عشوائية. وحسب المعطيات التي جمعها بوشنياك فقد كان العدد الإجمالي للجيلياكيين في ساخالين في عام 1858 يبلغ 3270 نسمة. بينما كتب ميتسول بعد 15 عاماً تقريباً أن العدد الإجمالي للجيلياكيين في ساخالين يصل تقريباً إلى 1500، ولكن حسب المعطيات الجديدة لعام 1889 التي استقيتها من صحيفة «الأنباء حول عدد أبناء الأقليات القومية» الحكومية فقد وجد في كلتا الدائرتين 320 فرداً فقط. ومعنى ذلك إذا صدقنا الأرقام أنه بعد مرور 5–10 أعوام لن يبقى أي جيلياكي في ساخالين. أنا لا أستطيع الحكم على مدى صحة معطيات بوشنياك وميتسول، لكن الرقم الرسمي - 320، لا يمكن أن يتسم، لحسن الحظ، بأية أهمية. ويُعدّ المعطيات حول عدد أبناء الأقليات القومية الكتاب الإداريون الذين لا يتمتعون بأي تأهيل علمي أو تطبيقي، وحتى الذين لا يحصلون على أية تعليمات. وإذا ما كانوا يجمعون المعلومات ميدانياً، في القرى الجيلياكية، فإن هذا يتم، طبعاً، بأسلوب الرؤساء، وبفظاظة، وبشكل مؤسف، لكن دماثة خلق الجيلياكيين وآداب السلوك لديهم لم تكن تسمح لهم بإبداء التسلط والعجرفة حيال الآخرين، وكان نفورهم من شتى أنواع الإحصاء والتسجيلات تتطلب توفر فن خاص في التعامل معهم. علاوة على ذلك فإن الإدارة تجمع المعلومات من دون أي هدف محدد، وبصورة عابرة فقط، علماً أن الباحث لا يراعي البتة اعتبارات الخريطة الإثنوجرافية، بل يعمل بصورة عفوية. وتضمنت أخبار دائرة ألكسندروفسك فقط الجيلياكيين الذين يعيشون جنوب قرية فانجي، بينما جرى تعدادهم في دائرة تيم فقط بالقرب من قرية ريكوفسكويه، لكنهم لا يعيشون هناك، بل يتواجدون بصورة عابرة.

لاريب في أن عدد الجيلياكين في ساخالين يتناقص باستمرار، لكن

يحكم على ذلك بالنظر فقط. وما هي نسبة هذا النقصان؟ ولماذا يحدث؟ هل لأن الجيلياكيين ينقرضون أو لأنهم ينتقلون للإقامة في القارة أو في الجزء الشمالي؟ ونظراً لعدم توفر أرقام مضمونة وكون تفسيراتنا حول التأثير المهلك للغزو الروسي للمنطقة تعتمد على الافتراض فقط، ومن المحتمل جداً أن هذا التأثير كان تافهاً جداً ويعادل الصفر تقريباً، لأن غالبية الجيلياكيين في ساخالين يعيشون على ضفاف تيم والساحل الشرقي حيث لا وجود للروس[1].

إن الجيلياكيين لا ينتمون إلى العنصر المنغولي أو التونغوسي، بل إلى قبيلة ربما كانت في زمن ما جبارة وتسيطر على آسيا كلها، بينما تحيا الآن قرونها الأخيرة في بقعة صغيرة من الأرض بصورة شعب قليل العدد لكنه شعب رائع ونشيط. وبفضل ألفة الجيلياكيين غير العادية وخفتهم في الحركة نجحوا في إقامة وشائج قرابة مع جميع الشعوب المجاورة، ولهذا فإنه من المستحيل تقريباً العثور على جيلياكي أصيل نقي الدم pur sang، يخلو من شوائب العناصر المنغولية والتونغوسية أو الآينية. إن صفحة وجه الجيلياكي مدورة ومسطحة بشكل القمر، وتشوبها الصفرة، وعريضة، وغير مغسولة، وفتحة العين مائلة قليلاً، واللحية قصيرة لا تكاد ترى أحياناً. أما الشعر فأملس وأسود وغليظ، ويجمع وراء القذال بشكل ضفيرة. إن قسمات الوجه لا تنم عن كونه من المتوحشين، فهي دوماً تنم عن التأمل والوداعة والسذاجة مع الاهتمام بأمر ما. إنها إما عريضة، تطفح بابتسامة عذبة، وإما تفيض بالتأمل والحزن، كما لدى الأرملة. وعندما يقف جانباً بلحيته الضامرة والضفيرة وبتعبير وجهه الناعم والنسائي، يمكن أن ترسم منه صورة كوتيكين، وأحياناً يغدو مفهوماً السبب الذي يجعل بعض الرحالة ينسبون الجيلياكيين إلى قبيلة قوقازية.

يمكنني أن أوصي القارئ من أجل التعرف بالتفصيل على الجيلياكيين

1- توجد في ساخالين وظيفة مترجم من اللغتين الجيلياكية والآينية. وبما أن هذا المترجم لا يفقه كلمة واحدة من اللغتين المذكورتين، بينما يفهم غالبية الجيلياكيين والآينيين اللغة الروسية فإن هذه الوظيفة لا حاجة إليها. وإذا ما عين بدلاً من المترجم موظف ذو تحصيل علمي في مجال الإثنوغرافيا والإحصاء لكان هذا أفضل بقدر كبير.

بالاطلاع على مؤلفات العلماء الإثنوجرافيين الاختصاصيين مثل ل. إي. شرينك. وسأكتفي فقط بذكر الجوانب المميزة لظروف الطبيعة المحلية التي يمكن أن تصلح بصورة مباشرة أو غير مباشرة كعلامات نافعة عملياً من أجل المستوطنين الجدد.

يتميز الجيلياكي بكونه قوي البنية وخشم الأنف، ومتوسط أو حتى قصير القامة. إن من شأن القامة الطويلة أن تعيقه عن الحركة في التايغا. وعظامه سميكة وتتميز بنمو جميع الأضلاع والأمشاط والدرنات التي تربط بها العضلات، وهذا يجعلنا نعتقد أن عضلاته قوية ومتينة، وأنه في صراع شديد دائم مع الطبيعة. كما أن جسده نحيف ولدن وبلا طبقات من الشحم، ولن تجد جيلياكياً بديناً ومترهلاً. ويبدو أن الشحم كله يتحول إلى حرارة ينبغي على ساكن ساخالين أن يولدها في جسمه بغية التعويض عن الفاقد الناجم عن انخفاض درجة الحرارة وشدة رطوبة الجو. ومفهوم سبب تناول الجيلياكي في طعامه الكثير من الشحوم. فهو يأكل لحوم الفقمة وسمك السلمون وسمك الزجر والحيتان الغنية بالشحوم. كما يأكل اللحم مع الدم. ويتناول هذا كله بكميات كبيرة، وبشكل نيء وجاف ومتجمد في غالب الأحيان، ونظراً إلى كونه يأكل اللحوم الغليظة فإن مواضع ربط عضلات المضغ لديه متطورة للغاية بصورة غيرعادية وجميع أسنانه مشحوذة بشدة. وطعامه حيواني حصراً، وفي أحوال نادرة فقط يضاف إلى اللحم والسمك الثوم أو العنب البري لدى تناول الطعام في البيت أو في مأدبة. وبشهادة نيفيلسكي فإن الجيلياكيين يعتبرون أنه من الخطايا الأثيمة ممارسة الزراعة: إن من يبدأ بحرث الأرض أو غرس نبات ما فإنه سيلقى حتفه حتماً. لكنهم يتناولون عن طيب خاطر الخبز الذي يقدمه لهم الروس باعتباره من الأكلات اللذيذة، والآن غالباً ما تجد في ألكسندروفسك أو ريكوفسكويه جيلياكياً يحمل تحت إبطه رغيفاً من الخبز.

إن ملابس الجيلياكي مكيفة للمناخ البارد والرطب والمتقلب في غالب الأحيان. فهو يرتدي في الصيف قميصاً أزرق اللون من القماش الصيني السميك أو شملة عريضة وسراويل مماثلة، بينما يضع على كتفيه من باب الاحتياط، وعلى أي حال، معطفاً قصيراً أو جاكيتّ من فرو الفقمة أو

الكلاب. علماً أنه حتى أكثر الملابس دفئاً يتم تصميمها وخياطتها بشكل لا يعيق حركته البارعة والسريعة في أثناء الصيد أو التنقل على الزلاجات التي تجرها الكلاب. وأحياناً يرتدي جلباب السجناء بهدف الغندرة والأناقة. وقبل 85 عاماً شاهد (الرحالة) كروزنشترن جيلياكياً في لباس فخم من الحرير «مزين بالزهور الكثيرة»، لكن اليوم لن تجد في ساخالين مثل هذا الغندور، ولو بحثت عنه بالسراج والفتيلة.

أسرة من الجيلياكيين

أما فيما يخص مساكن أو خيام (يورتا أو أورطة - كلمة تركية الأصل -المترجم) الجيلياكيين فيراعى فيها ما يتطلبه بالدرجة الأولى الطقس الرطب والبارد. وتوجد خيام صيفية وخيام شتوية. وتنصب الأولى على أعمدة، بينما تقام الأخرى في الحفر تحت الأرض وجدرانها مبطنة بألواح الخشب وتبدو بشكل أهرامات ذوات أربع زوايا حادة، بينما تغطى الألواح من الخارج بالتراب. وقد أمضى بوشنياك ليلته في مسكن مؤلف من حفرة في الأرض بعمق 1½ أرشين (ذراع) وغطيت بجذوع أشجار غير سميكة بمنزلة سقف، ووريت كلها بالتراب. إن هذه المساكن تشيد من مادة رخيصة، متوفرة دوماً في كل مكان، ولدى الحاجة يمكن تركها. لكن العيش

فيها يفيض بالدفء والجفاف. وفي جميع الأحوال فإنها تتفوق كثيراً على الأكواخ الرطبة والباردة المصنوعة من لحاء الشجر التي يعيش فيها سجناؤنا حينما يعملون في شق الطرق أو في الحقول. ويوصي المزارعون وعمال المناجم والصيادون وعموماً جميع السجناء والمستوطنين الذين يعملون خارج السجن أو البيت ببناء هذا الطراز من المساكن الصيفية.

إن الجيلياكيين لا يغتسلون أبداً حتى إن علماء الإثنوجرافيا يجدون صعوبة في وصف لون بشرتهم، كما أنهم لا يغسلون ملابسهم الداخلية، أما ملابسهم من الفراء وأحذيتهم فيبدو كأنها سلخت لتوها من كلب ما. وتنبعث من الجيلياكيين أنفسهم رائحة ثقيلة ونفاذة، ويتم التعرف على وجود مساكنهم من رائحة السمك المقدد أو نفايات السمك المتعفنة. وعادة يكون إلى جانب كل مسكن وعاء للتجفيف ممتلئ إلى الحافة بالسمك المشطر، ويبدو من بعيد وبالأخص في أشعة الشمس مثل خيوط المرجان. وقد رأى كروزنشترن إلى جانب هذه المجففات ديداناً صغيرة كثيرة تغطي الأرض بسمك أنش. ويمتلئ المسكن في الشتاء بالدخان ذي الرائحة النفاذة المنطلق من الوجاغ، كما أن الجيلياكيين وزوجاتهم وحتى أطفالهم يدخنون التبغ. ولا يعرف شيء عن أمراض ووفيات الجيلياكيين، لكن لا بد من الاعتقاد بأن هذا الوضع غير الصحي سيترك تأثيراً سيئاً في صحتهم. ربما يفسر هذا سبب قصر قامتهم ووجوههم المفلطحة وبعض الخمول والكسل في حركتهم. وربما يعزى إلى ذلك جزئياً أن الجيلياكيين ما كانوا يصمدون كثيراً حيال الأوبئة. وعلى سبيل المثال يعرف ما أحدثه وباء الجدري في ساخالين. ولقي كروزنشترن في الطرف الشمالي لساخالين بين رأسي يليزافيتا وماريا قرية مؤلفة من 27 مسكناً. أما ب. ب. جلين، أحد المشاركين في بعثة سيبيريا الشهيرة، الذي زار هذه المنطقة في عام 1860 فقد وجد آثار قرية. وحسب قوله فإنه وجدت في أماكن أخرى من الجزيرة فقط آثار قرى كانت مزدحمة بالسكان سابقاً. وحدثه الجيلياكيون عن أنه خلال الأعوام العشرة الأخيرة، أي بعد عام 1850، تقلص عدد سكان ساخالين كثيراً بسبب الجدري. وكادت أوبئة الجدري الرهيبة التي اجتاحت الجزيرة في الأعوام الخوالي أن تقضي على جميع سكان كامتشاتكا وجزر الكوريل، وهيهات

أن تنجو ساخالين منها. طبعاً أن الشيء الفظيع ليس الجدري بحد ذاته، بل ضعف قدرة المقاومة لدى البشر، ولو جلب إلى المستوطنة داء التيفوئيد الطفحي أو الدفتيريا وانتشر في مساكن الجيلياكيين، لحدث التأثير ذاته الناجم عن الجدري. أنا لم أسمع في ساخالين بوجود أوبئة ما فيها، ويمكن القول إنه خلال الـ 20 عاماً الأخيرة لم تنتشر أية أوبئة فيها البتة، باستثناء داء التهاب الملتحمة الفطري الذي يلاحظ في الوقت الحاضر.

لقد سمح الجنرال كونونوفتش بأن يقبل المرضى من أبناء الأقليات القومية في المستشفى المحلي ويتم علاجهم على حساب خزانة الدولة (الأمر رقم 335 لعام 1890). لكن لا توجد لدينا رقابة على الرعاية الصحية للجيلياكيين، ولو أنه يمكن تكوين مفهوم ما حول وجود أسباب للمرض مثل عدم توفر النظافة والإسراف في شرب الكحول، والتعامل منذ وقت بعيد مع الصينيين واليابانيين[1]، والصلة المستمرة مع الكلاب والجروح والرضوض وهلمجرا.. ولا يماري أحد في أنهم غالباً ما يعانون من المرض ويحتاجون إلى العلاج الطبي، وإذا ما سمحت الظروف لهم بالحصول على رخصة العلاج، فإن الأطباء المحليين سيحصلون على الفرصة لمراقبتهم عن قرب. إن الطب عاجز عن إيقاف انقراض البشر، لكن ربما سيتمكن الأطباء من دراسة الظروف التي من شأن تدخلنا في حياة هذا الشعب أن تقلل من الأخطار التي تهدده.

إن الباحثين يعطون تفسيرات متباينة لشخصية الجيلياكيين، لكنهم جميعاً يتفقون في شيء واحد هو أن هذا الشعب غير محارب، ولا يحب الخصام والعراك ويعيش بسلام مع جيرانه. إنهم ينظرون بريبة دائماً إلى مجيء أناس جدد، ويراودهم الخوف على مستقبلهم، لكنهم يستقبلونهم دائماً بطيبة ومن دون أي احتجاج، ولعل أكثر ما يفعلونه هو أنهم يكذبون لدى وصف

1- انتقلت عدوى السفلس إلى أبناء الأقليات القومية عندنا في حوض آمور وكامتشاتكا من الصينيين واليابانيين. ولا علاقة للروس بالأمر. وحدثني أحد الصينيين وهو تاجر من هواة الأفيون أن امرأته أي زوجته تعيش في بيته في تشيفو، أما المرأة الأخرى، وهي من أصل جيلياكي فتعيش بالقرب من نيقولايفسك. إن مثل هذه الصلات تجعل من السهل انتقال الأمراض إلى جميع سكان حوض آمور وساخالين.

ساخالين بصورة قاتمة، وبهذا يبعدون الأجانب عن الجزيرة. إنهم تبادلوا الأحضان مع مرافقي كرونشترن، وعندما أصيب ل. ي. شرينك بالمرض انتشر خبر ذلك في كل مكان بسرعة في أوساط الجيلياكيين وأثار ذلك حزنهم بإخلاص. إنهم يكذبون فقط حين يمارسون التجارة أو يتحدثون بشبهة مع الشخص الخطر، حسب رأيهم، لكنهم قبل الكذب تجدهم في حيص بيص بعضهم مع بعض، مثل لعبة الأطفال. إنهم ينفرون من أي كذب وتفاخر بالذات في المجال الاعتيادي وغير العملي. وأذكر أن اثنين من الجيلياكيين في ريكوفسكويه تراءى لهما أنني أكذب، وسعيا إلى إقناعي بذلك. وحدث ذلك في أمسية من الأمسيات. كان اثنان من الجيلياكيين أحدهما بلحية والآخر بسحنة نسائية يستلقيان على العشب أمام بيت أحد المستوطنين. وحدث أن مررت بهما. واستدعياني للمجيء إليهما وطلبا مني أن أدخل البيت وأجلب من هناك الزبون الذي تركاه لدى المستوطن في الصباح. وكانا يخشيان القيام بذلك. فقلت إنني أيضاً لا أمتلك الحق في دخول بيت غريب في غياب صاحبه. ولزما الصمت.

وسألني الجيلياكي ذو السحنة النسائية: – هل أنتِ سياسية (أي من السجناء السياسيين)؟

– لا

ثم سألني حين رأى أوراقاً بيدي: – إذن أنتِ تكتبي – تكتبي (أي كاتب).

– نعم، أنا أكتب.

– كم تحصل على راتب؟

كنت أكسب حوالي ثلاثمائة روبل في الشهر. فذكرت هذا الرقم. كان يجدر بالمرء أن يرى الانطباع السيئ، وحتى المؤلم، الذي ولده جوابي. وأمسك الجيليكيان ببطنيهما، وانحنيا نحو الأرض، وراحا يتمايلان، كما لو كان ذلك بسبب الألم الشديد في البطن. وظهرت على سحنتيهما علائم اليأس والقنوط.

وسمعت القول: – لماذا تستطيع قول مثل هذا الكلام؟ لماذا تقول قولاً غير طيب؟ آخ، هذا غير طيب! لا يجوز ذلك!

فسألت: أي كلام سيئ قلت؟

– بوتاكوف، رئيس الدائرة، رجل كبير، يستلم مائتي روبل، بينما أنت لست رئيساً، وتكتب قليلاً – قليلاً وراتبك ثلاثمائة! هذا كلام غير طيب! لا يجوز ذلك!

بدأت أشرح لهم أن رئيس الدائرة، رغم كونه رجلاً رفيع المقام، لكنه يجلس في مكان واحد، ولهذا يتلقى مائتي روبل فقط، أما أنا فرغم كوني اكتبي–اكتبي، قد جئت من مكان بعيد، وقطعت عشرات آلاف الفرستات، ونفقاتي أكثر بكثير من نفقات بوتاكوف. وهذا جلب الهدوء إلى الجيلياكيين. وصارا ينظران أحدهما إلى الآخر، وتحدثا باللغة الجيلياكية، وتوقفا عن التعذب بسبب هذه القضية. وبان على وجهيهما أنهما صدقاني.

قال الجولياكي الملتحي: – حقاً، حقاً... حسناً، اذهب.

وأحنى الآخر رأسه وقال: – حقاً. اذهب.

ينفذ الجيلياكيون تكليفاتي بدقة، ولم يحدث قط أن رمى الجيلياكي البريد في منتصف الطريق أو استحوذ على شيء يخص الآخرين. وكتب بولياكوف الذي تعامل مع الجيلياكيين أصحاب القوارب أنهم ينفذون بدقة المهام التي يكلفون بها، ويتميزون بهذا لدى إيصال الحمولات الحكومية. إنهم يتميزون بالفطنة والنشاط والذكاء ومرحون ومنفتحون ولا يشعرون بأي ضيق في عشرة من هو أقوى وأكثر غنى منهم. إنهم لا يعترفون بأية سلطة مفروضة عليهم، وأظن أنه لا يوجد لديهم مفهوم «الأكبر» و«الأصغر». يرد في كتاب «تاريخ سيبيريا» لمؤلفه إي. فيشر أن بوراكوف تعامل مع الجيلياكيين الذين «لم يخضعوا إلى أية سلطة خارجية». ولديهم كلمة «جانتشين» التي تعني الرفيع المقام، لكنهم يطلقون هذه التسمية على الجنرالات والتجار الأثرياء الذين لديهم الكثير من النسيج الصيني والتبغ. وعندما كانوا يتطلعون إلى صورة القيصر الموجودة لدى نيفيلسكي يقولون إن هذا الرجل لا بد أن يكون قوي البنية ويعطي الكثير من التبغ وسلع النسيج الصينية. ويتمتع حاكم الجزيرة في ساخالين أيضاً بسلطة كبيرة وحتى رهيبة، لكن حدث مرة حين سافرت معه من آرمودان العليا إلى أركوفو أن صاح جيلياكي التقانا في الطريق بلهجة آمرة وبلا حياء: «قفوا!» – ثم سألنا فيما

إذا شاهدنا في الطريق كلبه الأبيض. كما لا يوجد لدى الجيلياكيين أيضاً، كما يقال، مبدأ احترام الأكبر سناً في العائلة. فالأب لا يعتقد أنه الأكبر منزلة من ابنه، أما الابن فلا يحترم أباه ويعيش وفق رغبته، كما أن الأم العجوز في الخيمة (اليورتا) لا تتمتع بسلطة أكبر من الصبية - المراهقة. كتب بوشنياك أنه شاهد أكثر من مرة كيف يضرب الابن ويطرد أمه بينما لم يتجرأ أحد على قول كلمة واحدة. والذكور في الأسرة لهم حقوق واحدة، وإذا قدمت الفودكا إلى أحد الجيلياكيين فيجب أن تقدمها إلى الأصغر سناً أيضاً. كما أن الإناث في الأسرة غير متساويات في الحقوق مع الذكور بالقدر نفسه سواء الجدة أو الأم أو الرضيعة. وتجري معاملتهن كحيوانات بيتية أليفة وكشيء يمكن إلقاؤه بعيداً وبيعه وركله بالقدم مثل الكلب. علماً أن الجيلياكيين يدللون الكلاب، بينما لا يدللون النساء إلا قليلاً. ويعتبر الزواج من التفاهات، وأقل أهمية من الشرب مثلاً، ولا يقترن بأية طقوس دينية أو خرافات. ويبادل الجيلياكي الفتاة بحربة وزورق أو كلب، ويأخذها إلى بيته وينام معها فوق فروة دب - وهذا كل ما في الأمر. ويسمح بتعدد الزوجات، لكن هذه الظاهرة غير منتشرة، ولو أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال. ويبلغ احتقار المرأة لدى الجيلياكي بصفتها من الكائنات الدنيا إلى حد أنه لا تعتبر حتى العبودية، بكل معنى الكلمة وبالمغزى الغليظ لهذه الكلمة، أمراً شائناً. وبشهادة شرينك فإن الجيلياكيين غالباً ما يجلبون النساء الآينيات بصفة عبيد لهم، ويبدو أنهم يعتبرون المرأة سلعة مثل التبغ أو القماش الصيني «دابا». لو حدث أن جاء إلى شمال ساخالين الكاتب السويدي سترندبرج، المعروف بكرهه للنساء، ورغبته في أن تكون المرأة عبدة فقط وترضي نزوات الرجل، لاستقبلوه بالأحضان خلال فترة طويلة.

قال لي الجنرال كونونوفتش إنه يريد روسنة الجيلياكيين. أنا لا أعرف ما هي ضرورة ذلك. بالمناسبة فالروسنة بدأت قبل وقت طويل من مجيء الجنرال. إنها بدأت تظهر لدى الموظفين، حتى من ذوي الرواتب القليلة، معاطف فرو الثعالب والسمور الغالية الثمن، بينما ظهرت في بيوت

الجيلياكيين أقداح الفودكا الروسية[1]. فيما بعد استدعي الجيلياكيون للمشاركة في مطاردة السجناء الهاربين ومنحت لهم مكافأة نقدية مقابل قتل أو إلقاء القبض على كل هارب. كما أمر الجنرال كونونوفتش بتوظيف الجيلياكيين كسجانين وحراس: وجاء في أحد الأوامر أن هذا ضروري للغاية لوجود الحاجة إلى أفراد يعرفون المنطقة جيداً، وبغية تيسير تعامل الرؤساء المحليين مع أبناء الأقليات. كما أبلغني أثناء الحديث معه أن الغاية من هذا الإجراء الجديد هي الروسنة. في البداية ألحق بالعمل كسجانين كل من فاسكا وإيبالكا وأركون وبافلينكا (الأمر رقم 308 لعام 1889). وبعد ذلك سمح بتسريح إيبالكا وأركون «بسبب عدم الحضور باستمرار لتلقي الأوامر» وتم توظيف سوفرونكا (الأمر رقم 426 لعام 1889). أنا رأيت هؤلاء السجانين وكانوا مزودين بالإشارات المعدنية للسجانين وبالمسدسات. وأشهرهم على الأخص الذي غالباً ما تراه الأعين هو فاسكا الرجل الشاطر والماكر والسكير. وحدث مرة أن جئت إلى حانوت تابع لصندوق الاستيطان، ولقيت هناك حشداً من الإنتلجنسيا، بينما وقف فاسكا عند الباب. قال أحدهم وهو يشير إلى الرفوف التي رصفت فوقها القناني إنه إذا شربها فاسكا كلها فيمكن أن يسكر، واعتبر ذلك فاسكا إطراء له فابتسم وابتهج بكامل كيانه لهذا الإطراء. وقبل وصولي بفترة قليلة قتل سجان جيلياكي أحد السجناء بحكم وظيفته، وصار الحكماء المحليون يتدارسون الأمر هل أطلق عليه النار من الأمام أم من الخلف، لكي يقرروا هل يقدم الجيلياكي إلى المحكمة أم لا.

لا حاجة لإثبات أن وجود الجيلياكي قريباً من السجن لن يروسنه، بل يفسده فقط في نهاية المطاف. إنهم بعيدون عن إدراك متطلباتنا، وهيهات أن تتوفر أية إمكانية لكي نفسر لهم أن إلقاء القبض على السجناء، وسلبهم حريتهم، وجرحهم وأحياناً قتلهم، ليست نزوة من النزوات، بل لمصلحة القضاء، لكنهم يرون في ذلك فقط العنف، وممارسة الأفعال الوحشية،

1- قال الميجور نيقولايف آمر مخفر دويه لأحد المراسلين في عام 1866: - في الصيف لا أتعامل معهم، لكنني في الشتاء غالباً ما أشتري منهم الفرو. وغالباً ما يمكن الحصول منهم على قطعتي فرو سمور ممتازتين مقابل قنينة فودكا.

ويعتبرون أنفسهم، في أغلب الظن، قتلة مأجورين[1]. إذا ما وجدت ضرورة لروسنتهم ولا يمكن الاستغناء عن ذلك فيجب انتقاء الوسائل لذلك، ومراعاة ليس متطلباتنا بل متطلباتهم. إن الأمر الآنف الذكر بشأن السماح بقبول أبناء الأقليات في المستشفى المحلي وتقديم المؤونة لهم من دقيق وحبوب، كما جرى في عام 1886، حينما عانى الجيلياكيون من الجوع لسبب ما، والأمر القاضي بعدم مصادرة ممتلكاتهم بسبب عدم تسديد الديون، وكذلك العفو عن الدين نفسه (الأمر رقم 204 لعام 1890) – إن مثل هذه التدابير ربما ستقود إلى الهدف بصورة أسرع، أكثر من الشارات المعدنية والمسدسات.

يعيش في شمال ساخالين إلى جانب الجيلياكيين أبناء شعب صغير من *الأوروكيين أو الأوروتشيين*، وهم شعب تونغوسي. لهذا سأكتفي بالإشارة إليهم فقط نظراً لعدم وجود ذكر لهم في المنطقة، ولا توجد مستوطنات روسية بعد في أماكن سكناهم.

1- لا توجد لديهم محاكم وهم لا يعرفون معنى القضاء. ويصعب عليهم فهمنا، ويتبين ذلك حتى من أنهم لا يفهمون كلياً حتى الآن أغراض شق الطرق. إنهم ما زالوا يتجولون في غابات التايغا حتى بعد شق الطرق هناك. وغالباً ما يرون مع أسرهم وكلابهم يسيرون عبر المستنقعات إلى جانب الطريق المعبد.

-12-

رحلتي إلى الجنوب. – السيدة المرحة. – الساحل الغربي. – التيارات. – ماوكا. – كريليون. – آنيفا. – مخفر كورساكوفسك. – المعارف الجدد. – نورد–أوست. – الطقس في جنوب ساخالين. – سجن كورساكوفسكايا. – عربة إطفاء الحرائق.

في 10 سبتمبر أبحرت مجدداً في السفينة «بايكال» المعروفة لدى القارئ إلى جنوب ساخالين هذه المرة. وقد سافرت ببالغ السرور لأنني سئمت من الشمال وأردت الحصول على انطباعات جديدة... رفعت «بايكال» مرساتها في الساعة العاشرة مساء. وكان الجو معتماً كلياً. وقفت وحيداً عند مؤخرة السفينة، ورحت أتطلع إلى الخلف، مودعاً هذا العالم المظلم الذي تحميه ذرى «الأخوة الثلاثة» من جهة البحر، التي بالكاد ترى الآن في الجو، وبدت في الظلام شبيهة بثلاثة رهبان سود. وعلى الرغم من ضجيج السفينة فقد تناهى إلى سمعي ارتطام الأمواج بهذه الشعب المرجانية. ولاح خليج جونكيير، وأصبحت ذرى «الأخوة» بعيدة واختفت بعيداً عن بصري في الظلام وتلاشت إلى الأبد. كما هدأ شيئاً فشيئاً ضجيج الأمواج المتلاطمة، التي تفيض بالعجز والكآبة الحانقة... سرنا مسافة ثماني فرستات – وومضت أنوار على الساحل: إنه سجن فويفودا الرهيب، ثم لاحت بعد قليل أنوار دويه. لكنها سرعان ما اختفت، وبقيت فقط العتمة والإحساس الكئيب كما يشعر المرء بعد رؤية كابوس سيئ وفظيع.

عندما نزلت فيما بعد إلى الأسفل وجدت جماعة مرحة. وكان هناك

بالإضافة إلى القبطان ومساعديه عدة مسافرين: شاب ياباني وسيدة وموظف في دائرة التموين وراهب كاهن، مبشر ساخاليني، يتوجه في أعقابي إلى الجنوب، بغية السفر من هناك إلى روسيا. أما رفيقتنا، زوجة ضابط بحري، فكانت هاربة من فلاديفستوك، أرعبتها الكوليرا، والآن هدأت قليلاً، وقفلت راجعة إلى هناك. وقد اتسمت بطبع تحسد عليه. ويكفي وجود أية ذريعة تافهة لكي تنطلق في الضحك الخالص المفعم بالبهجة حتى تطق من الضحك، وتستلقي على قفاها، وحتى تذرف الدموع. وفجأة تبدأ القهقهة، وتتدفق نافورة من الفرح. بينما أنا أبدأ بالضحك لدى التطلع إلى السيدة، ويعقبني في ذلك أيراكلي ثم الياباني. وفي نهاية المطاف قال القبطان، وهو يلوح بذراعه، «هيا!»، وانطلق في الضحك أيضاً. ويبدو أنه لم يحدث قط في المضيق التتاري، العبوس والغاضب عادة، وفي أي وقت أن ترددت مثل هذه القهقهة الكثيرة. وفي صباح اليوم التالي وقف على سطح السفينة لتبادل الأحاديث الكاهن والسيدة وأنا. ومجدداً تردد الضحك، ولم يكفِنا سوى أن تطل الحيتان علينا بخطومها، وتبدأ بالقهقهة علينا.

كان الجو دافئاً وهادئاً ومرحاً، كما لو كان ذلك عن قصد. وتراءت عن قرب من جهة اليسار خضرة ساخالين، ذلك الجزء الخالي والعذري منها، الذي لم تمسه بعد موجة توطين سجناء الأشغال الشاقة. وكاد يتراءى الساحل التتاري قليلاً من الجهة اليمنى في الجو الشفاف كلياً. ويبدو المضيق هنا شبيهاً أكثر بالبحر والمياه ليست عكرة جداً كما بالقرب من دويه. ويشعر المرء بانشراح في الصدر أكثر. إن الجزء الأسفل من ساخالين يقع جغرافياً في خطوط العرض بمستوى فرنسا، ولولا التيارات الباردة لكان لدينا إقليم رائع، ويقطن فيه ليس أمثال شكابيندا والبيزبوجنيه (الكفار) فقط. إن التيارات الباردة القادمة من الجزر الشمالية حيث يوجد تيار تعوم فيه كتل الجليد حتى في أواخر الصيف، تمر على سواحل ساخالين من الجهتين. علماً أن الساحل الشرقي يكابد أشد النائبات، بسبب انكشافه أكثر أمام التيارات والرياح الباردة، والطبيعة هناك قاسية بلا ريب، والنباتات فيها ذات طابع قطبي حقيقي. أما الساحل الغربي فهو أسعد حظاً بكثير. فهناك يخف تأثير التيار البارد ويحل محله التيار الياباني الدافئ المعروف باسم

كورو- سيفو. ولا يماري أحد في أنه كلما مضى المرء نحو الجنوب أكثر يكون الدفء أكثر. ويلاحظ في القسم الجنوبي من الساحل الغربي وجود نباتات أكثر غنى نسبياً، لكنها وياللأسف بعيدة عن نوعية النباتات في فرنسا أو اليابان[1].

وجدير بالذكر أنه بينما يقوم المستوطنون في ساخالين على مدى 35 عاماً بزراعة الحنطة في براري التوندرا، ويشقون الطرق الجيدة إلى الأماكن التي تقشعر فيها من البرد الرخويات الدنيا فقط، يبقى الجزء الجنوبي من الساحل الغربي منها بالذات بعيداً كلياً عن الاهتمام. وترى من السفينة بواسطة المنظار وبالعين المجردة غابة جيدة يمكن الحصول على الأخشاب منها، والمنحدرات على الساحل المغطاة بالخضرة الساطعة، لابد أنها أعشاب نضرة، لكن لا توجد لا مساكن ولا بشر. بالمناسبة، لقد حدث في اليوم التالي لإبحارنا أن أشار القبطان إلى مجموعة صغيرة من الأكواخ والمستودعات وقال: «هذه ماوكا». يجري في ماوكا، منذ وقت بعيد، استخراج الكرنب البحري الذي يقبل الصينيون على شرائه، والتجارة به طيبة وتجلب مكاسب جيدة للروس والأجانب، ولهذا فإن هذا المكان يتمتع بشهرة كبيرة في ساخالين. إنه يقع على بعد 400 فرستا جنوبي دويه، على خط العرض 47، ويتميز بمناخ طيب نسبياً. وكانت هذه التجارة سابقاً بأيدي اليابانيين. وفي عهد الحاكم ميتسول كان في ماوكا ما يربو على 30 بيتاً يابانياً، يعيش فيها بصورة دائمة 40 فرداً من كلا الجنسين، وفي الربيع يأتي إلى هناك من اليابان

1- طرح البعض مشروعاً بأن يُبنى في أضيق مكان سد من شأنه أن يوقف التيار البارد. علماً أن هذا المشروع له مبرراته الطبيعية-التاريخية: فمن المعروف أنه وجد في زمان ما برزخ، وكان المناخ في ساخالين يتسم بالاعتدال. لكن إقامة السد الآن هيهات أن تجلب أية منفعة. إن النباتات في القسم الجنوبي من الساحل الغربي ربما كانت ستغتني بعشرات من الأصناف الجديدة، لكن مع ذلك لن يتغير المناخ في القسم الجنوبي من الجزيرة نحو الأفضل. لأن جميع القسم الجنوبي يقع بالقرب من بحر أخوتسكويه حيث تطفو الكتل الجليدية وتنداح حتى البراري الجليدية في عز الصيف. كما أن القسم الأكبر من دائرة كورساكوفسكايا الحالية لا تفصله عن البحر سوى سلسلة جبلية غير مرتفعة، يمتد وراءها حتى البحر منخفض تنتشر فيه البحيرات وتهب فيه الرياح الباردة.

حوالي 300 فرد، يعملون معاً مع الأينوسيين الذين كانوا سابقاً يشكلون القوة العاملة الرئيسية هناك. أما الآن فيسيطر على تجارة الكرنب البحري التاجر الروسي سيميونوف الذي يقطن ابنه بصورة دائمة في ماوكا، ويتولى إدارة الأعمال الإسكتلندي ديمبي، وهو رجل كهل وليس شاباً، ويبدو أنه رجل يتمتع بالمعارف اللازمة. ولديه بيت في ناغازاكي في اليابان، وعندما تعرفت إليه وأبلغته بأنني أعتزم السفر، في أغلب، الظن إلى اليابان في الخريف، عرض عليّ بلطف أن أسكن في بيته. ويعمل عند سيميونوف مانزيون وكوريون وروس. وبدأ مستوطنونا بالمجيء لكسب الرزق في هذه المنطقة فقط في عام 1886، وفي أغلب الظن بمبادرة منهم، حيث إن السجانين في السجون كانوا دوماً يقبلون على تناول الكرنب الحامض أكثر من الكرنب البحري. ولم تكن المحاولات الأولى موفقة تماماً: فقد كانت معارف الروس التقنية ضعيفة، لكنهم اعتادوا على العمل الآن، وعلى الرغم من أن ديمبي غير راض عن عملهم كلياً مثل الصينيين، فيمكن مع هذا الاعتماد بجد على أن المئات من الروس سيجدون بمرور الزمن الفرصة لكسب لقمة العيش هناك. لقد ألحقت ماوكا بدائرة كورساكوفسكايا. ويقطن في المستوطنة الآن 38 نسمة: 33 من الذكور، و5 من الإناث. ويمارس الـ 33 فرداً جميعهم العمل. وحصل ثلاثة منهم على صفة فلاحين. والنساء سجينات أيضاً ويعشن هناك بصفة خليلات. لا يوجد هناك أطفال، ولا كنيسة، ولابد أن السأم فظيع بالأخص في الشتاء، حين يغادر العمال أماكن عملهم. وتتألف الإدارة المدنية هنا من آمر سجن واحد، أما العسكريون - فهم عريف وثلاثة جنود[1].

1- يمتلك سيميونوف في ماوكا حانوتاً يمارس التجارة الناجحة جداً في الصيف. فأسعار المواد الغذائية عالية جداً، ولهذا فإن المستوطنين يبقون نصف ما يكسبونه من مال هناك. ويرد في تقرير قبطان السفينة الشراعية «فسادنيك» في عام 1870 أن السفينة حين تقترب من ماوكا ينزل منها 10 جنود من أجل تهيئة المكان للزراعة حيث من المقرر أن يقام هناك في الصيف مخفر جديد. وأشير بهذه المناسبة إلى حدوث مماحكات صغيرة أيامذاك بين الروس واليابانيين على الساحل الغربي. وقد وجدت في صحيفة «كرونشتادتسكي فيتسنيك» العدد 112 عام 1880 النبأ التالي: «جزيرة ساخالين. بعض المعلومات الظريفة حول ماوكا- كوف. المقصود بالأمر أن ماوكا هي المكان الرئيسي لمرابطة الشركة التي حصلت من الحكومة الروسية على حق

إن مقارنة ساخالين بسمكة الحفش واردة على الأخص بالنسبة إلى قسمها الجنوبي الذي يشبه فعلاً ذيل سمكة. وتسمى الزعنفة اليسرى من الذيل برأس كريليون، واليمنى برأس آنيفا. أما الخليج نصف الدائري فتطلق عليه تسمية الخليج الآنيفي. ويبدو كريليون الذي تقوم السفينة باستدارة حادة منه نحو شمال الشرق، حينما تتوفر أشعة الشمس، مكاناً جذاباً جداً، ويشبه الفنار الأحمر الوحيد المنتصب فوقه بيت ريفي لأحد الأسياد. إنه رأس كبير، يمتد في عرض البحر، أخضر وأملس، مثل مرج تغمره المياه. أما الحقل الممتد بعيداً حوله فتغطيه الأعشاب المخملية، ولا ينقص المشهد الشاعري سوى قطيع من الأبقار التي ترعى عند طرف الغابة البارد. لكن يقال إن الأعشاب هناك رديئة وهيهات أن تكون ممارسة زراعة الحبوب وغيرها ممكنة هناك، لأن كريليون يلفه في الشطر الأكبر من الصيف الضباب البحري المالح الذي يهلك النباتات[1].

استخراج الكرنب البحري طوال 10 أعوام، وأن سكانها يتألفون من 3 أوروبيين و7 جنود روس و700 عامل من كوريين وإينيين وصينيين.

إن تجارة الكرنب البحري مربحة وتتسع، ويتبين ذلك من كون السيدين سيميونوف وديمبي وجدا من يحذو حذوهما. فأخذ المدعو بيريتش، المستوطن، المعلم السابق والعامل السابق لدى سيميونوف، قرضاً وشيد كل المباني الضرورية من أجل العمل بالقرب من كوسونايا، وصار يدعو المستوطنين للقدوم إلى هناك. ويعمل لديه حوالي 30 شخصاً. ويجري العمل بصورة غير رسمية، فلا يوجد هناك حتى حارس.

1- رأيت إلى الشمال من كريليون بمسافة قليلة الصخور التي ارتطمت بها وجنحت قبل عدة أعوام السفينة «كوستروما» التي خدعها هذا الضباب. وأطلق صواريخ الإشارة منها الطبيب أ. ف. شيرباك الذي كان يرافق السجناء في «كوستروما». وفيما بعد قال لي إنه كابد في تلك اللحظات ثلاثة أطوار طويلة: أولها أطولها وأكثرها إيلاماً، – الثقة بالهلاك المحتوم، وساد الرعب بين السجناء، وتعالى صراخهم. ووجب إرسال الأطفال والنساء إلى البر في قارب بقيادة ضابط في الاتجاه الذي ساد الاعتقاد بوجود البر فيه، وسرعان ما اختفى القارب وسط الضباب. والطور الثاني – شيء من الأمل في الخلاص: فقد صدر عن فنار كريليون صوت إطلاق مدفع وهو إشارة إلى أن الأطفال والنساء بلغوا البر بسلام، والطور الثالث توفر الثقة التامة في الخلاص، حينما تردد في الجو الضبابي بغتة صوت الصفارة التي نفخ فيها الضابط العائد.

في أكتوبر عام 1885 هاجم السجناء الهاربون فنار كريليون وحطموا كل ما فيه وقتلوا البحار، بإلقائه من الصخرة إلى الهاوية.

عبرنا أجمة كريليون وولجنا خليج آنيفا عند منتصف النهار في يوم 12 سبتمبر. وشاهدت هناك الساحل كله من رأس إلى آخر، على الرغم من أن طول ساحل الخليج يبلغ 80–90 فرستا[1]. وفي وسط الساحل نصف الدائري تقريباً يتشكل جرف تطلق عليه تسمية شرم السلمون، ويوجد في هذا الشرم *مخفر*، المركز *كورساكوفسكي* الإداري للدائرة الجنوبية. وانتظرت رفيقة السفر، السيدة المرحة، مصادفة سعيدة. فقد كانت ترابط في الخليج السفينة «فلاديفستوك» التابعة لأسطول المتطوعين، التي وصلت للتو من كامتشاتكا، وكان فيها زوجها، الضابط. وما أكثر ما حدث بهذه المناسبة من بهجة وصراخ، وضحك غامر وهرج ومرج!

يبدو المخفر من البحر كمدينة محترمة، ليست سيبيرية، وبمظهر متميز خصوصي ما ليس بوسعي وصفه، وقد تأسس قبل 40 عاماً مضت، حينما كانت البيوت والعنابر اليابانية منتشرة هنا وهناك على الساحل الجنوبي، ومن المحتمل جداً أن هذا الجوار القريب للمباني اليابانية قد ترك تأثيره على المظهر الخارجي له، ولابد أن يكسبه سمات خاصة. يعتبر عام 1869 عام تأسيس كورساكوفسك، لكن يصح هذا فقط لدى اعتبارها مستوطنة للمنفيين. أما في الواقع فإن أول مخفر روسي على ساحل شرم السلمون قد تأسس في 1853–1854. وأقيم في منخفض يحمل حتى الآن الاسم الياباني هاهكا – توماري، ولا يرى من البحر سوى شارعه الرئيسي، ويتراءى من بعيد أن الجزء المطروق من الشارع مع الصفين من البيوت ينحدر بشدة إلى الأسفل نحو الساحل، لكن هذا ما يبدو للناظر فحسب، أما في الواقع فإن الانحدار ليس شديداً جداً. تتألق المباني الخشبية الجديدة وتلمع ببريقها في نور الشمس، كما يسطع بياض الكنيسة، القديمة والبسيطة، وذات طراز معماري جميل. وفي جميع البيوت أعمدة عالية، ربما تستخدم لرفع الأعلام. وهذا يكسب المدينة منظراً منفراً وكريهاً، كما لو أنها شعثاء. وتلقي السفن مراسيها هنا، كما في الخلجان الشمالية، على مسافة فرستا واحدة وحتى فرستين من

1- قام الضابط الروسي ن. ف. رودانوفسكي أحد مرافقي ج. أي. نيفيلسكي في أول مرة بإجراء دراسة وتوصيف لساحل آنيفا. وترد أيضاً تفاصيل في يوميات ن. ف. بوسيه الذي شارك في بعثة آمور وعنوانها: «جزيرة ساخالين وبعثة عامي 1853–1854».

الساحل. وهناك رصيف للرسو من أجل القوارب البخارية والصنادل فقط. وقد اقترب من سفينتنا في البداية قارب يقل الموظفين، وتعالت على الفور أصوات فرحة: «بوي الجعة! بوي، هات كأس الكونياك!». وبعد ذلك اقترب مركب تجذيف طويل، والجذافون من السجناء بملابس البحارة، وجلس عند المقود رئيس الدائرة أي. أي. بيلي، الذي أمر لدى بلوغ السلم الأمر التالي بلهجة عسكرية: «جفف المجاذيف!». - (أي ارفع المجاذيف - المترجم).

بعد عدة دقائق نزلت مع السيد «ب»، الذي ربطتني به وشائج معرفة سابقة، إلى البر، وتناولت الغداء معه. وبالمناسبة، عرفت من خلال الحديث معه أنه عاد لتوه في السفينة «فلاديفستوك» من سواحل بحر أخوتسكويه، مما يسمى تارايكا، حيث يعمل السجناء هناك في شق الطرق.

إن شقته صغيرة، لكنها جيدة، جديرة بالسادة. فهو يحب أسباب الراحة والطعام الجيد، وينعكس ذلك في دائرته كلها، وفيما بعد وحين تجولت في أنحاء الدائرة وجدت في دوائر السجن أو المخافر ليس السكاكين والأشواك والأقداح فقط، بل حتى المناديل النظيفة والحراس الذين يجيدون طبخ الحساء اللذيذ، والشيء الرئيسي أنه لا يوجد هناك بق وصراصير بالكثرة ذاتها، كما في الشمال. وحسب أقوال السيد «ب» فقد عاش في تارايكا إبان شق الطرق في خيمة كبيرة تتوفر فيها وسائل الراحة، وكان لديه طباخون، كما كان يطالع الروايات الفرنسية في أثناء فترة الاستجمام. علماً أنه في الأصل مالوروسي (أوكراني - المترجم) - طالب حقوق سابق. إنه شاب، ولم يبلغ الأربعين من العمر بعد، وتعتبر هذه السن متوسطة بالنسبة إلى موظف ساخاليني. لقد تغيرت الأزمان، والآن صار الموظف الشاب بالنسبة إلى دوائر الأشغال الشاقة الروسية شخصية نموذجية أكثر من العجوز، وإذا ما صور الرسام لوحة لكيفية معاقبة متشرد بالجلد على الفلقة، لظهر في اللوحة بدلاً من النقيب - السكير، العجوز ذو الأنف القرمزي المائل للزرقة، شاب من الإنتلجنسيا يرتدي بزة جديدة.

تبادلنا أطراف الحديث، وحل المساء وأضيئت الأنوار. ودّعت السيد «ب» الذي يكرم الضيف، وتوجهت إلى سكرتير دائرة الشرطة حيث أعد

لي المكان للإقامة عنده. خيم الظلام والهدوء، وتردد ضجيج البحر الأصم، وعبست السماء المرصعة بالنجوم، كما لو أنها رأت كيف يجري الاستعداد في الطبيعة لأمر غير طيب. وعندما قطعت الشارع الرئيسي كله حتى البحر تقريباً، كانت السفن ما زالت راسية في المكلا، عندئذ استدرت نحو اليمين، فسمعت أصواتاً وضحكاً عالياً، وظهرت في العتمة نوافذ مضاءة بنور ساطع، وتراءى لي أنني في بلدة نائية في ليلة خريفية، وتوجهت في الظلام نحو النادي. كانت هذه شقة السكرتير. وصعدت السلالم المتداعية ذات الصرير إلى الشرفة الأمامية ودخلت المبنى. كان أفراد عسكريون ومدنيون يتحركون، كالآلهة وسط السحائب، ودخان التبغ والضباب، كما هو الحال في الحانات والأقبية والحجرات الرطبة. كنت قد تعرفت إلى أحدهم السيد فون (ف) المفتش الزراعي، فقد التقيته سابقاً في ألكسندروفسك - أما الباقون فإنني أراهم أول مرة، ولو أنهم أبدوا لدى ظهوري لطفاً، كما لو أنهم يعرفونني منذ وقت بعيد. اقتادوني إلى المائدة، ووجب علي أن أحتسي أيضاً الفودكا، أي الكحول المخلوط بالماء إلى النصف، والكونياك الرديء جداً، وأتناول اللحم الغليظ الذي تولى قليه وتقديمه السجين المنفي خومينكو، وهو «خوخول» - أي أوكراني ذو شارب أسود. كان بين الغرباء أيضاً في هذه الأمسية، ما عداي، ي. ف. شتيللينج مدير مرصد إركوتسك المغناطيسي للأرصاد الجوية الذي وصل على متن الباخرة «فلاديفستوك» قادماً من كامتشاتكا وأوخوتسك حيث سعى إلى إقامة محطات للأرصاد الجوية هناك. وفور ذلك تعرفت على الرائد «ش» مدير سجن كورساكوفسك، الذي عمل سابقاً تحت رئاسة الجنرال جريسيريه في شرطة بطرسبورج - وهو رجل طويل القامة وبدين، ذو قيافة رصينة تبعث على الاحترام، لم يسبق لي أن رأيت مثلها إلا لدى رؤساء الشرطة ورجال الشرطة المحلية. وعندما تحدث الرائد عن تعارفه القصير مع كثير من الكتاب المعروفين في بطرسبورج وأسماهم باختصار ميشا وفانيا، ودعاني إلى تناول الفطور والغداء معه غداً، وخاطبني بصورة عفوية مرتين بصيغة المفرد[1].

1- لابد من إعطاء الحق إلى الرائد (ش)، فقد أبدى بالغ الاحترام لمهنتي الأدبية وكان طوال الوقت الذي عشت فيه في كورساكوفسك يسعى بكل السبل إلى تسليتي وإبعاد

عندما انصرف الضيوف في الساعة الثانية وأويت أنا إلى الفراش سمعت هديراً وصفيراً. لقد هبت رياح نورد – أوست. ومعنى ذلك أنه لم يكن عبثاً أن أصبحت السماء عابسة، وذات سحائب ثقال في المساء. قال خومينكو لدى عودته من الفناء إن البواخر أبحرت، بينما هبّت عاصفة شديدة في البحر. قال ذلك وضحك: «لابد أنهم سيعودون. فلن يصمدوا لها». سادت الرطوبة والبرودة في الغرفة. وفي أغلب الظن أن درجة الحرارة لم تتجاوز ست أو سبع درجات. بينما لم يستطع النوم البتة بسبب الزكام والسعال الشاب المسكين «ف» سكرتير مديرية الشرطة. كما لم يستطع النوم القبطان «ك» الذي يعيش معه في شقة واحدة. ودق على الجدار من غرفته وقال لي:

– أنا أستلم صحيفة «الأسبوع»، فهل ترغب في مطالعتها؟

في الصباح شعرت بالبرد في الفراش وفي الغرفة وفي الفناء. وعندما خرجت من المبنى هطل مطر شديد وهبت رياح عاصفة جعلت الأشجار تتمايل، بينما كانت قطرات المطر لدى العصف الشديد للرياح على الأخص تصفع الوجه وتطرق على السقف مثل حباتِ الخردق الصغيرة. عادت «فلاديفستوك» و«بايكال» إلى الخليج إذ لم تقدرا على الصمود أمام العاصفة، وألقتا مراسيهما في الخليج، وتدثرتا بالظلام. بينما تجولت أنا في الشوارع وعند رصيف الميناء، وكانت الأعشاب مبللة، وقطرات الطل تتساقط من الأشجار.

وجدت على الرصيف بالقرب من كشك الحراسة بقايا ما كان حوتاً فتياً في وقت ما، سعيداً ونشيطاً يجوب رحاب البحار الشمالية، بينما غاصت عظام العملاق السابق البيض الآن في الأوحال ويشحذها المطر... الشارع الرئيسي معبد ويحظى بالعناية، وفيه أرصفة ومصابيح وأشجار، ويقوم كناس عجوز موسوم بتنظيفه يومياً. وهناك المؤسسات وبيوت الموظفين فقط، ولا يوجد مبنى واحد لسكن المنفيين. علماً أن غالبية البيوت جديدة وذات مظهر

السأم عني. وسابقاً قبل أسابيع من وصولي انشغل مع المغامر الإنجليزي هوارد، وهو كاتب أيضاً، غرق قاربه الياباني في آنيفا، وبعد ذلك كتب سخافات عن عشيرة الآنيين في كتابه: .The life with Trans–Siberian savages

أنيق بعكس الحال في بيوت دويه، مثلاً، ذات الطابع البيروقراطي الحكومي. وعموماً ففي مخفر كورساكوفسك، إذا ما أخذنا جميع شوارعه الأربعة بنظر الاعتبار، نجد أن المباني القديمة أكثر من الجديدة، ولا يندر وجود بيوت شيّدت قبل 20–30 عاماً. وعدد المباني القديمة والساكنين القدامى في كورساكوفسك أكثر نسبياً مما في الشمال، وهذا يعني أن الجنوب هنا مناسب للاستيطان والحياة الهادئة أكثر من الدائرة الشمالية. فهنا، كما أشرت آنفاً، النزعة الأبوية أكثر، والناس محافظون أكثر، والعادات، حتى السيئة، صامدة بقوة أكبر. وهكذا فبالمقارنة مع الشمال، غالباً ما يلجأون هنا إلى عقوبة الجلد، ويحدث أحياناً أن يجلد دفعة واحدة 50 شخصاً، وبقيت في الجنوب فقط العادة السيئة التي فرضها في زمن ما عقيد منسي، حينما يمشي الإنسان الحر، في الشارع أو على الساحل، ويصادف مجموعة من السجناء، فإنه يسمع من مسافة 50 خطوة، هتافاً: «استعداد! ارفعوا القبعات!». ويمر بمحاذاتك رجال بوجوه عابسة وحاسرة الرؤوس وتتطلع إليك بعداوة، كما لو أنك، إذا لم يرفعوا القبعات ليس من مسافة 50 بل 20–30 خطوة، كنت ستضربهم بالعصا مثل السيد «ز» أو السيد «ن».

إنني أشعر بالأسف لأنني لم أجد على قيد الحياة ضابطاً عجوزاً من ساخالين، هو النقيب شيشماريف الذي ينافس في طول العمر حتى ميكروكوف من باليفو. وقد توفي قبل عدة أشهر من وصولي إلى الجزيرة، ورأيت فقط الدار العامرة التي عاش فيها. وقد عاش في ساخالين منذ أقدم الأزمنة كما يقال، قبل بدء نفي السجناء إلى هناك، وبدا ذلك زمناً بعيداً جداً، حتى ابتدعت أسطورة حول «منشأ ساخالين» ارتبط فيها اسم هذا الضابط بالتحولات الجيولوجية: في الأزمنة القديمة لم تكن ساخالين موجودة، وفجأة، ولدى حدوث الانفجارات البركانية، برزت صخرة فوق مستوى البحر، وجلس فوقها كائنان هما – أسد البحر والنقيب شيشماريف. ويقال إنه كان يرتدي سترة رسمية بكتافيات، وكان يرد ذكر الأهالي الأصليين في الأوراق الرسمية بأنهم: «المتوحشون ساكنو الغابات». وقد شارك شيشماريف في عدة بعثات، وبالمناسبة، ركب مع بولياكوف الزوارق في نهر تيم، ويتبين من وصف البعثة أنهما تشاجرا.

يبلغ عدد السكان في كورساكوفسك 163:93 من الذكور و70 من الإناث. ويضاف إليهم الأحرار والجنود مع زوجاتهم وأطفالهم، والسجناء الذين يسكنون في السجن، ويبلغ العدد إجمالاً ما يربو على الألف.

كما أن عدد الضياع 56، لكنها ليست ريفية، بل مدنية على الأغلب وتنتمي إلى البرجوازيين الصغار، ويعتبر هذا العدد ضئيلاً من وجهة النظر الزراعية. ومساحة الأراضي الزراعية 3 ديسياتينا فقط، والمروج التي يستغلها السجناء أيضاً – 18 ديسياتينا. لا بد من رؤية كيف تتلاصق البيوت بعضها ببعض، وكيف تنتشر بصورة جميلة فوق المرتفعات وقاع الوهاد، حيث تشكل وادياً ضيقاً، لكي نفهم ماذا كان قصد من اختار هذا المكان لإقامة المخفر، فهو ليس من أجل أن يقيم الفلاحون إلى جانب الجنود هناك. كان الأهالي يجيبون عن السؤال حول ماذا يعملون وكيف يعيشون بالقول: ثمة عمل وتجارة... وبصدد مجالات الكسب الإضافية فإن وضع أبناء جنوب ساخالين ليس يائساً بهذا القدر مثل أبناء الشمال، كما سنرى لاحقاً، فهم يجدون مصدراً للكسب لدى توفر الرغبة، على أقل تقدير في أشهر الربيع والصيف، لكن هذا لا يمس أهالي كورساكوفسك كثيراً، فهم نادراً ما يغادرون بلدتهم إلى أماكن أخرى من أجل لقمة الخبز، وبصفتهم من أبناء المدن الحقيقيين فهم يعيشون بموارد غير محددة، – غير محددة من ناحية كونها تتوفر بالصدفة وليس بصورة دائمة. فبعضهم يعيشون بالنقود التي جلبوها معهم من روسيا، وهم الأكثرية، والبعض الآخر يعيشون بالعمل بصفة كتبة، والفئة الثالثة – العمل بصفة قندلفت في الكنيسة، والفئة الرابعة – لديها حانوت ولو بصفة غير قانونية، والفئة الخامسة تستبدل سقط المتاع لدى السجناء بالفودكا اليابانية التي تبيعها، وهكذا دواليك. أما النساء فحتى الحرائر يمارسن الدعارة، ولا تستثنى من ذلك حتى واحدة من ذوات الامتيازات التي يقال إنها تخرجت من معهد. علماً أن الجوع والبرد هنا أقل مما في الشمال. ويدخن السجناء الذين تبيع زوجاتهم أجسادهن التبغ التركي بقيمة 50 كوبيكاً لربع كيلو، ولهذا فإن الدعارة هنا تبدو خبيثة بقدر أكبر مما في الشمال، ولو – أليس الأمر سواء؟

توجد 41 أسرة، منها 21 زوجاً بعلاقة غير شرعية. وعدد النساء الحرائر

10 فقط، أي أن عددهن أقل بمقدار 16 مرة مما في ريكوفسكويه، وحتى بمقدار 4 أمثال عددهن في فج ضيق مثل دويه.

ثمة شخصيات ظريفة بين المنفيين في كورساكوفسك. سأشير إلى بيشيكوف المحكوم عليه بالسجن مدى الحياة الذي استوحيت جريمته من قبل ج. إي. أوسبينسكي لدى تأليف صورته القلمية «وجهاً لوجه على انفراد». فقد جلد بيشيكوف هذا زوجته، المرأة المثقفة والحامل في الشهر التاسع، بالكرباج طوال ست ساعات. وقد أقدم على فعلته هذه بسبب الغيرة من حياة زوجته قبل الزواج: ففي أثناء الحرب الأخيرة وقعت في غرام أسير تركي. وكان بيشيكوف نفسه يحمل رسائلها إلى التركي، ويحثه على اللقاء معها، وعموماً ساعد الطرفين. لكن عندما سافر التركي، وقعت الفتاة في غرام بيشيكوف ورزقت بأربعة أطفال منه، لكن بغتة تأجج في قلبه شعور شديد بالغيرة...

إنه رجل طويل القامة، نحيف، وسيم ذو لحية كبيرة. كان يعمل في وظيفة كاتب في مديرية الشرطة، ولهذا لا يرتدي زي السجناء. كان مجتهداً في العمل ودمث الخلق جداً، واعتماداً على تعابير وجهه فإنه كان منطوياً ومنغلقاً على نفسه. أنا زرت شقته، لكنني لم أجده في البيت. علماً بأنه يشغل في أحد البيوت حجرة صغيرة، وفراشه مرتب ونظيف، ومغطى بلحاف أحمر من الصوف، ويعلق على الجدار بورتريه سيدة، ربما هي زوجته.

وتبدو ظريفة أيضاً أسرة جاكوميني وتتألف من: الأب ربان السفينة السابق في البحر الأسود، وزوجته وابنه. وقد أدين الثلاثة في عام 1878 من قبل المحكمة العسكرية الميدانية في مدينة نيقولايف بتهم القتل، وأرسلوا إلى المنفى، وكما قالوا هم أنفسهم فإنهم أبرياء. إن العجوز وابنها قد أنهيا فترة المحكومية بالأشغال الشاقة، أما الشيخ كارل نيقولايفتش البالغ من العمر 66 عاماً فما زال يقضي فترة العقوبة. وقد افتتح حانوتاً، غرفهم مؤثثة بشكل محترم، وحتى أفضل مما في بيت التاجر الثري بوجيمكين من نوفو-ميخايلوفسكيه. وقد جاء العجوزان جاكوميني إلى ساخالين عن طريق البر، عبر سيبيريا، بينما وصل ابنهما إلى المكان بحراً قبلهما بثلاثة أعوام. الفرق كبير، إذا ما أصغينا إلى حديث العجوز فستتملكنا الرهبة. فما أكثر ما لقي

من نوائب وما أكثر ما كابد من آلام خلال ثلاثة أعوام، لحين تقديمه إلى المحاكمة، ومن ثم اقتادوه عبر سيبيريا، وأذاقوه العذاب في السجون، وفي الطريق توفيت ابنته التي رافقت أباها وأمها طوعاً بسبب الإنهاك والسقم، بينما وقع حادث للسفينة التي نقلته مع العجوز إلى كورساكوفسك بالقرب من ماوكا. وروى الشيخ هذا كله بينما كانت العجوز تنتحب. قال الشيخ وهو يلوح بيده: «ولماذا! معنى ذلك أنها إرادة الرب».

يتخلف مخفر كورسك من الناحية الحضارية بشكل ملحوظ عن المخافر الشمالية. فلا يوجد فيه حتى الآن تلغراف ولا محطة للأرصاد الجوية. وبوسعنا الحكم على الطقس في جنوب ساخالين حتى الآن فقط من الملاحظات العابرة لبعض المؤلفين الذين عملوا هنا أو جاءوا مثلي في زيارة قصيرة. وطبقاً لهذه المعطيات ففي مخفر كورساكوفسك يكون معدل درجة الحرارة في الصيف أقل مما في دويه بحوالي درجتين. أما الشتاء فهو ألطف بحوالي 5 درجات. علماً أن درجة الحرارة في آنيفا المذكورة، الواقعة إلى الشرق من مخفر كورساكوفسك، في دائرة مورافييسكي، فإنها أقل بكثير وتقارب مستواها من دويه أكثر مما في كورساكوفسك. أما عند مسافة 88 فرستا إلى الشمال من مخفر كورساكوفسك، في نايبوتشي، فقد سجل ربان «فسادنيك» في صباح 11 مايو 1870 أن درجة الحرارة تبلغ درجتين تحت الصفر. وكان الثلج يتساقط. وكما يرى القارئ فإن الجنوب هناك لا يشبه الجنوب كثيراً. كما أن الشتاء هنا قاس كما في محافظ أولونيتسكايا، والصيف - كما في أرخانجلسك. لقد رأى كروزنشتيرن الثلج في أواسط مايو على ضفاف آنيفا. علماً أنه لوحظ في شمال دائرة كورساكوفسك، وبالذات في كوسوناي، حيث يستخرج الكرنب البحري وجود 149 يوماً غائماً في السنة، أما في الجنوب حيث مخفر مورافيفسكي فقد سجل 130 يوماً. ومع ذلك فإن الطقس في الدائرة الجنوبية لطيف أكثر مما في الدائرتين الشماليتين كلتيهما. ولهذا فإن المعيشة هناك أكثر يسراً. ويحدث الدفء أحياناً في الجنوب في عز الشتاء، لكنه لم يلاحظ قط بالقرب من دويه وريكوفسكي. والمياه المتجمدة في الأنهر تذوب في وقت مبكر، وغالباً ما تشرق الشمس من وراء الغيوم.

إن السجن في كورساكوفسك يشغل أعلى مكان في المخفر، ولهذا يعتبر من الأماكن الصحية بأكبر قدر. ويختتم الشارع الرئيس بجدار السجن، حيث توجد بوابة، ذات مظهر بسيط جداً، وهي ليست بوابة عادية بالمعنى المألوف، بل هي مدخل السجن، وترى كتابات فقط، وفي كل مساء يحتشد السجناء هناك، ويدخلون عبرها فرداً فرداً بعد تفتيشهم. وتقع باحة السجن على سطح مائل، ويرى من وسطها، على الرغم من الجدار والمباني المحيطة، البحر الأزرق والأفق البعيد. ولهذا يتولد الاعتقاد بأن الهواء كثير جداً هناك. ولدى تفقد السجن يلاحظ قبل كل شيء سعي الإدارة المحلية إلى عزل السجناء بشدة عن الأهالي المحليين. وفي ألكسندروفسك تتوزع ورش السجن ومساكن السجناء حيث يقطن المئات من السجناء في أماكن متفرقة في جميع أنحاء المخفر، بينما توجد هنا في الباحة جميع الورش وحتى عنبر فريق المطافئ، ولا يسمح بالإقامة خارج السجن إلا في حالات استثنائية جداً حتى لفئة السجناء التي تعتبر أنها قد أصلحت سلوكها. إن المخفر منعزل هنا بحاله، والسجن بحاله، ويمكن أن يعيش المرء فترة طويلة في المخفر ولا يلاحظ وجود السجن في نهاية الشارع.

إن الثكنات هنا قديمة، ويسود جو خانق في الزنزانات، والمراحيض أسوأ بكثير مما في السجون الشمالية، كما أن الزنزانات الانفرادية معتمة، بلا تهوية، وباردة. وقد رأيت بنفسي عدة مرات كيف كان السجناء يرتعدون من البرد والرطوبة فيها. وثمة شيء واحد أفضل مما في الشمال: أن عدد المقيدين بالسلاسل أقل وزنزاتهم فسيحة أكثر. ويعيش في الثكنات في جو من النظافة البحارة السابقون، كما أن ملابسهم نظيفة أكثر[1]. وفي حضوري

1- لقد أفلح أي. أي. بيلي في تشكيل فريق محترف منهم من أجل العمل في البحر. وتولى رئاستهم السجين جوليتسين، وهو رجل قصير القامة بفودين. وكان يحب التفلسف. وعندما يجلس عند المقود ويعطي الأمر: «اقطع الرانج أوت!» أو «أنزل المجاذيف في الماء!» - فإنه يفعل ذلك بلهجة الرئيس. وعلى الرغم من مظهره الوقور ومكانته كرئيس فقد عوقب بالجلد مرتين بسبب إدمانه السكر، وأظن بسبب الفظاظة. ويعتبر من البحارة المحنكين بعده السجين ميدفيديف، وهو رجل ذكي وشجاع. وحدث مرة أن جلس ميدفيديف عند مقود القيادة حينما عاد السيد كوزيه القنصل الياباني من تارايكا، وكان في القارب حارس أيضاً. وبحلول المساء، صار

كان يبيت في السجن 450 فرداً فقط، أما الباقون فقد انتدبوا للعمل في أماكن أخرى، وبصورة أساسية في شق الطرق. وعموماً فإن عدد السجناء في الدائرة يبلغ 1205.

يحب مدير السجن هنا بأكبر قدر إظهار فريق إطفاء الحرائق. والعربة رائعة حقاً، ومن هذه الناحية قد تفوقت كورساكوفسك على كثير من المدن الكبيرة. إن صهاريج الماء ومضخات إطفاء الحرائق والفؤوس المحفوظة في أكياس - تبدو جميعاً كلعب الأطفال وتلمع، كما لو أنها أعدت من أجل المعرض. وعندما يدق جرس الإنذار يهرع السجناء من كل الورش فوراً بلا قبعات وبلا معاطف - صفوة القول - أنهم يحتشدون في لحظة واحدة ويتوجهون في الشارع الرئيسي إلى البحر. والمشهد مؤثر والرائد «ش»، مؤسس هذا الفريق النموذجي، كان راضياً جداً وراح يسأل طوال الوقت إن كان يعجبني ذلك. ولكن المؤسف أن الشيوخ كانوا يتدافعون ويهرولون أيضاً مع الشباب، وكان الواجب الإشفاق عليهم ولو بسبب ضعف صحتهم.

الجو رطباً واحلولكت العتمة. وعندما وصلوا إلى نايبوتشي لم يعد يرى مصب نهر نايبو، كان الرسو على الضفة مباشرة أمراً يتسم بالخطورة، عندئذ قرر ميدفيديف المبيت في البحر، على الرغم من العاصفة الشديدة. فسحبه الحارس من أذنه، بينما أمره السيد كوزه بالتوجه نحو الضفة، لكن ميدفيديف لم يلق بالاً لهما، واستمر بالتوغل في البحر أكثر فأكثر. استمرت العاصفة طوال الليل، وكانت العاصفة تهز القارب، وتراءى لهم في كل لحظة أن المياه ستغمر القارب أو أنهم سيسقطون منه في البحر. وفيما بعد روى القنصل أن تلك الليلة كانت من أكثر الليالي رعباً في حياته. وعندما بزغ الفجر توجه ميدفيديف بالقارب نحو مصب النهر، على الرغم من أن الزورق قد تشبع بالماء. ومنذ ذلك الحين كان السيد بيلي يقول في كل مرة لدى توديع أحد ما في البحر مع ميدفيديف: - رجاء التزموا الصمت ولا تحتجوا مهما فعل.

-13-

بورو–آن – توماري. – مخفر مورافيوفسكي. – باد الأولى والثانية والثالثة. – سولوفيوفكا. – ليوتوجا. – الرأس العاري. – ميتسولكا. – ليستفينيتشوية. – خوموتوفكا. – يلان الكبرى. – فلاديميروفكا. – المزرعة أم الشركة. – لوجوفويه. – بوبوفسكويه يورتي. – بيريزنيكي. – كريستي. –. – تاكويه الكبرى والصغرى. – جالكينو فراسكويه. – دوبكي. – نايبوتشي. – البحر.

سأبدأ باستعراض الأماكن السكنية في دائرة كورساكوفسك من القرى الواقعة على ضفاف نهر آنيفا. والأولى الواقعة على بعد أربع فرستات شرقي وجنوبي المخفر أطلقت عليها تسمية يابانية هي بورو–آن– توماري. وقد تأسست في عام 1882 في موقع قرية آينية سابقاً. عدد سكانها 72:53 من الذكور و19 من الإناث. وعدد أصحاب المؤسسات 47 ويعيش 38 منهم حياة العزوبة. ومهما بدت الأراضي واسعة حول القرية فإن حصة كل شخص من المالكين تبلغ ربع ديسياتينا فقط من الأراضي الزراعية ونصف ديسياتينا من المروج. ومعنى ذلك أنه لا مجال للكسب أكثر أو من الصعب جداً كسب المزيد. ومع ذلك فلو كانت بورو– آن – توماري واقعة إلى الشمال لأصبح فيها منذ وقت بعيد 200 من المالكين مع 150 مشاركاً في الملكية. إن الإدارة الجنوبية تعتبر من هذه الناحية أكثر اعتدالاً وتفضل تأسيس مراكز سكنية جديدة بدلاً من توسيع القديمة.

سجلتُ هناك تسعة شيوخ في سن من 65 إلى 85 عاماً. وأحدهم، يان

ريتسيبورسكي، له سحنات جندي من أيام أوتشاكوف، وهو عجوز لدرجة أنه لم يعد يتذكر هل هو مذنب أم لا في ارتكاب أي شيء، وبدا غريباً أنني سمعت أنهم جميعاً من المحكوم عليهم بالسجن المؤبد، ومن الأشرار، ونظراً لكبر سنهم أمر البارون أ. ن. كورف بنقلهم إلى المراكز السكنية.

يعيش كوستين في قبو تحت الأرض كملاذ له، وكان لا يغادره ولا يسمح لأحد بدخوله، وينهمك في الصلاة باستمرار. أما المستوطن جوربونوف فيدعوه الجميع بـ «عبد الرب» لأنه كان قبل الحكم عليه بالسجن عابر سبيل جوالاً، ومهنته نجار، لكنه يعمل راعياً في مستوطنة باد الثالثة، ربما لميله إلى العزلة والتأمل.

وعلى مسافة 40 فرستا إلى الشرق من كورساكوفسك يقع مخفر *مورافييسكي*، لكنه موجود على الخارطة فقط. وقد تأسس منذ فترة وجيزة نسبياً في عام 1853 على ساحل خليج لوسوسيا وفي عام 1854 ترددت الإشاعات حول نشوب الحرب، فأزيل المخفر ولم يجرِ بناؤه من جديد إلا بعد 12 عاماً على ساحل خليج بوسيه أو المرفأ الثاني عشر، – وهو عبارة عن بحيرة غير عميقة ترتبط مع البحر بخور يمكن أن تدخله القوارب الصغيرة فقط. وفي عهد ماتسوله كان يرابط هناك حوالي 300 جندي، كانوا يعانون من الإسقربوط بشدة. وكان الهدف من بناء المخفر تعزيز الحضور الروسي في جنوب ساخالين، وبعد توقيع ميثاق عام 1875، ألغي لعدم وجود حاجة إليه، وأضرم السجناء الهاربون النار في المساكن الخالية[1].

يؤدي إلى القرى الواقعة شرقي مخفر كورساكوفسك طريق فسيح يمتد حتى البحر، وتوجد من جهة اليمين منحدرات وتراكمات طينية تنمو فيها أشجار كثيفة الأوراق، أما من جهة اليمين فيمتد البحر الصاخب. ويكسو

1- كانت هناك في زمن ما مناجم يعمل الجنود من المخفر في استخراج الفحم منها بمنزلة عقوبة لارتكابهم جرائم خفيفة ما، أي وجد هناك ما يشبه الأشغال الشاقة. لكن لا يعرف من كان يستحوذ على ثمن الفحم الذي يستخرجه الجنود، لأنه احترق كله مع المنشآت التابعة للمنجم. وحتى عام 1870 أسست السلطات العسكرية مخافر أخرى هي تشبيسانسكي وأوتشيخبوكسكي ومانويسكي ومالكوفسكي، وكثيراً من المخافر الأخرى. لكنها أهملت ونسيت.

الكرنب البحري الذي يلقيه البحر الساحل الرملي كله، الذي ترتطم به الأمواج مولدة الزبد، وترتد كأنها تعبت. وتنبعث منه رائحة نفاذة حلوة، ولكنها ليست الرائحة الكريهة للأعشاب المتعفنة، وهذه الرائحة يتميز بها الساحل في البحر الجنوبي، مثل طيران البط البحري البري في كل لحظة، الذي يسليك طوال الوقت حينما تتنقل على الساحل. ونادراً ما تمر هناك البواخر والسفن الشراعية، ولا يرى أي شيء عن قرب أو في الأفق، ولهذا يبدو البحر خالياً. وقد يمر هناك في أحوال نادرة صندل لنقل التبن، وهو يمضي ببطء شديد، وأحياناً ينتصب فوقه شراع معتم اللون وقبيح المنظر، أو يمر سجين على الساحل ويغوص في الماء حتى الركبتين ويسحب خلفه جذع شجرة ربط بحبل، – هذا المشهد كله هناك.

يقطع الساحلَ الشديد الانحدار وادٍ طويلٌ وعميق. هنا يجري نهر أونتناي، أو أونتا، وكانت هناك في زمن ما مؤسسة أونتوفسكا الحكومية أو كما يسميها السجناء درانكا – ومفهوم سبب هذه التسمية. وفي الوقت الحاضر توجد هنا مزارع تابعة للسجن وفيها ثلاثة بيوت ريفية فقط. هذه تدعى – باد الأولى.

تليها باد الثانية حيث توجد ستة مساكن. ويعيش هناك فلاح عجوز ثري من المنفيين مع خليلته العجوز والفتاة أوليانا. وكانت منذ وقت بعيد قد قتلت طفلها ودفنته في الأرض وقالت في المحكمة إنها لم تقتل الطفل بل دفنته حياً – وكانت تعتقد أنه سيتم لهذا السبب تبرئتها، لكن المحكمة حكمت عليها بالسجن لفترة 20 عاماً. عندما روت أوليانا قصتها لي بكت فقط، ثم مسحت دموعها وسألت: «هل تشتري مني الكرنب المملح؟».

يوجد في باد الثالثة 17 بيتاً.

يقطن في جميع هذه القرى الثلاث 46 فرداً، بينهم 17 امرأة. وعدد أصحاب المزارع 26. وجميع الناس هناك أغنياء ويعيشون برفاهية ولديهم الكثير من الماشية وبعضهم حتى يتاجر بها. والسبب الرئيسي لهذا الرفاه يكمن في أغلب الظن في حالة الطقس وظروف التربة، وأعتقد أيضاً أنه لو دعي إلى هنا الموظفون من ألكسندروفسك أو دويه من أجل إدارتها فبعد مرور سنة سيكون هنا في جميع الباديات الثلاث ليس 26 بل 300 صاحب مزرعة، بالإضافة إلى المالكين المشاركين، وسيتبين أنهم جميعاً قد أصبحوا «لا يجيدون تدبير

الأمور ويقفون بلا مبالاة من العمل» وسيجلسون بلا لقمة خبز. وأعتقد أن مثال هذه القرى الثلاث يكفي لكي تعتمد في نهاية المطاف القاعدة القائلة التالية: يجب في الوقت الحاضر، مادامت المستوطنة لا تزال فتية ولم يشتد عودها، الالتزام بمبدأ أنه كلما كانت المستوطنة أصغر كان ذلك أفضل، وكلما كان الشارع أطول تصبح المستوطنة أكثر فقراً.

توجد في مكان يبعد أربع فرستات من المخفر قرية سولوفيوفكا التي تأسست في عام 1882. علماً أنها تتميز من بين جميع القرى في ساخالين بكونها في موضع جغرافي مناسب جداً: فهي تقع على البحر، كما يوجد بالقرب منها مصب نهر أوسوي حيث تتوفر الأسماك بكثرة. ويمتلك الأهالي الأبقار ويبيعون الحليب. كما يزرعون الحبوب. عدد الأهالي 37:74 من الذكور و37 من الأناث. وعدد المزارع 26. علماً أن الأراضي فيها كلها صالحة للزراعة ولحصاد الأعشاب. والأرض جيدة فقط بالقرب من البحر، أما فيما عدا ذلك فالتربة سيئة وتنمو فيها أشجار الشوح والتنوب.

وهناك قرية أخرى على ضفاف آنيفا، وتقع بعيداً بمسافة 25 فرستا، إذا ما أبحرت إليها في سفينة، وتبعد مسافة 14 ميلاً عن المخفر. إنها تدعى *بليوتوجا*، وتقع على بعد 5 فرستات من مصب النهر بهذا الاسم وتأسست في عام 1886. والوصول إليها من المخفر صعب جداً: إمّا مشياً على الأقدام على الساحل أو بواسطة القارب البخاري، ويصل المستوطنون إليها في صندل نقل التبن. عدد السكان 37:53 من الذكور و16 من الإناث.

أما فيما يتعلق بالطريق الساحلي فإنه يلتف حول سولوفيوفكا، ويستدير بالقرب من مصب نهر سوسوي بحدة نحو اليمين، ثم يمتد في الاتجاه الشمالي. ويبدو نهر سوسوي على الخارطة في منطقة ينابيعه قريباً من نهر نايبه الذي يصب في بحر أخوتسكويه، ويمتد على ضفاف هذين النهرين في خط مستقيم من آنيفا إلى الساحل الشرقي صف طويل من القرى المتصلة بعضها ببعض بواسطة طريق يبلغ طوله 88 فرستا. ويشكل هذا الصف من القرى المحتوى الرئيسي للدائرة الجنوبية، والمظهر العام لها، أما الطريق فيشكل بداية مسار البريد العمومي الذي يربط شمال ساخالين بجنوبه.

لقد أصابني الإجهاد أو الكسل ولم أعمل بهمة في الجنوب كما عملت في

الشمال. وغالباً ما كنت أقضي أياماً كاملة في النزهات أو رحلات البيكنيك، ولم أرغب بزيارة المساكن، وعندما يعرضون عليّ المساعدة بلطف لم أرفضها. في المرة الأولى ذهبت إلى بحر أخوتسكويه وفي طريق العودة رافقني السيد بيلي الذي رغب في أن يطلعني على دائرته، ومن ثم حين أجريت الإحصاءات رافقني مدير السجن ن. ن. يارتسيف[1].

تتميز قرى الدائرة الجنوبية بخصائصها التي لابد أن يلاحظها الإنسان الذي وصل لتوه من الشمال. وقبل كل شيء أن الفقر هنا أقل بكثير. ولم أر بيوتاً لم يكتمل بناؤها أو أهملت أو أغلقت نوافذها بإحكام، كما أن السقوف مصنوعة من ألواح الخشب، بينما التبن ولحاء الشجر يعتبران ظاهرة عادية ومألوفة بالنسبة للبصر في الشمال. والطرق والجسور أسوأ مما في الشمال، بالأخص بين تاكويه الصغرى وسفينتسي، حيث تسود الوحول التي يصعب المرور فيها بعد الفيضانات والأمطار الغزيرة. ويبدو الأهالي أنفسهم أكثر شباباً وعافية ونشاطاً من رفاقهم في الشمال. ويعزى ذلك مثل الرفاهية النسبية للدائرة، ربما إلى المجموعة الرئيسية من المنفيين القاطنين في الجنوب وهم من المحكوم عليهم بفترات قصيرة، وأغلبيتهم من الشباب ولم تضعفهم وتوهن قواهم حياة السجن بقدر كبير. ويوجد بينهم من بلغ سن 20–25 عاماً، وقد أنهوا محكومياتهم ويجلسون في المزارع، وهناك بين الفلاحين سجناء في سن تتراوح ما بين 30 و40 عاماً. كما يؤكد أفضلية القرى الجنوبية أن الفلاحين هناك لا يعجلون في الانتقال إلى القارة: فمن بين 26 مزارعاً في قرية سولوفيوفكا المذكورة يحمل 16 فقط صفة فلاح. وعدد النساء قليل جداً، وثمة قرى تخلو من النساء كلياً. علماً أن أغلبية النساء يتسمن بالمقارنة مع الرجال بمظهر سقيم وكالعجائز. ولابد من تصديق أقوال الموظفين والمستوطنين الذين يشكون

1- في سبتمبر وفي مطلع اكتوبر، وباستثناء الأيام التي اشتدت فيها الرياح كان الطقس رائعاً، صيفاً. واشتكي السيد «ب» الذي رافقني في رحلتي من أنه يحن بشدة إلى مالوروسيا (أوكرانيا – المترجم) وأنه لا يرغب في شيء الآن كرغبته في رؤية ثمار الكرز حين تتدلى هناك في هذا الوقت من أغصان الأشجار. وكان يستيقظ مبكراً جداً حين يبيت في مكتب إدارته في السجن، ويقف عند النافذة ويتلو هامساً: «نور أبيض غمر العاصمة، والزوجة الفتية غارقة في النوم..»

من أن السلطات ترسل من الشمال في كل مرة فقط «الكاسدين»، بينما تحتفظ لنفسها بالشباب والأصحاء. قال لي الدكتور «ز» إنه قام في أثناء أداء عمله كطبيب في السجن بفحص مجموعة من السجينات القادمات حديثاً، وتبين أنهن جميعاً مصابات بأمراض نسائية.

في الجنوب لا تشيع البتة عبارتا «مالك مشارك» و«مالك نصفي» حيث هناك لكل مزرعة مالك واحد فقط، ولكن كما في الشمال يوجد أصحاب مزارع ينسبون إلى القرية فقط من دون أن يكون لهم بيت فيها. ولا يوجد في المخفر والقرى يهود كلياً. وتلاحظ على الجدران في البيوت أحياناً صور يابانية، كما توجد قيد التداول قطع نقود فضية يابانية.

كانت أول قرية زرتها على ضفاف سوسوي هي – الرأس العاري. وقد تأسست في العام الماضي فقط، ولم تشيد فيها بيوت بعد. يقطن هناك 24 رجلاً ولا امرأة واحدة. تقوم القرية في مكان كان يستخدمه صيادو الأسماك للإقامة المؤقتة وكان يطلق عليه سابقاً أيضاً الرأس العاري. والنهر هناك ليس قريباً من أماكن السكن. ويجب النزول إليه. لا توجد بئر.

أما القرية الثانية – ميتسولكا فقد أطلق عليها هذا الاسم تكريماً للرحالة م. س. ميتسول[1]. وعندما لم يكن هناك طريق كانت توجد في مكان ميتسولكا الحالية محطة لاستبدال الخيل من أجل الموظفين الذين يسافرون لأداء مهام رسمية. وقد سمح للسائسين والعاملين بالإقامة هناك مؤقتاً، واستقروا بالقرب من المحطة وأصبحت لهم مزارعهم الخاصة بهم. وعدد البيوت هناك 10 فقط، وعدد السكان 16:25 من الذكور و9 من الإناث. وبعد عام 1886 لم

1- شارك الخبير الزراعي ميخائيل ماتسول في بعثة عام 1870 توجهت من بطرسبورج برئاسة فلاسوف. وماتسول شخصية نادرة أخلاقياً، ودؤوب في العمل، ومتفائل ومثالي ومتحمس سريع الولع بعمله وتمتع بالقدرة على جذب الآخرين أيضاً إلى ولعه. كان آنذاك في الـ 35 من العمر. وتعامل بنزاهة بالغة مع المهمة التي أنيطت به. فقام بدراسة التربة والنباتات والحيوانات في ساخالين، وكان ينطلق مشياً على الأقدام من دائرة ألكسندروفسك الحالية إلى دائرة تيموفسكي، على الساحل الغربي، والقسم الجنوبي من الجزيرة كله. وآنذاك لم يكن في الجزيرة طرق. وسيطرت على ميتسول فكرة إنشاء المستوطنة الزراعية في ساخالين وسلبت لبه وأحب ساخالين في حياته كلها.

يسمح حاكم الدائرة لأي أحد بالاستيطان في ميتسول، وحسناً فعل لأن التربة رديئة والمروج تكفي فقط لإعالة عشر أسر. وتوجد في القرية الآن 17 بقرة و13 حصاناً، بالإضافة إلى الماشية الصغيرة، ولدى المؤسسة الحكومية 64 دجاجة، وسيتضاعف هذا العدد إذا تضاعف عدد البيوت.

إنني لدى الحديث عن خصائص قرى الدائرة الجنوبية نسيت التطرق أيضاً إلى شيء آخر: إن الكائنات الحية هنا غالباً ما تصاب بالتسمم بواسطة نبات بوريتس (Aconitom Napellus). فقد تسمم بالبوريتس خنزير لدى الفلاح تاكوف أحد ساكني ميتسول. ودفعه الجشع إلى أكل كبد الخنزير، وكاد ينصرم أجله. وعندما زرته في بيته كان يجد صعوبة في الوقوف ويتحدث بصوت واهن. لكنه تحدث عن الكبد ضاحكاً، وكان يمكن الحكم من رؤية وجهه الذي مازال منتفخاً وأحمر تشوبه الزرقة، أن هذا الكبد كلفه غالياً. وقبله بفترة قصيرة تسمم بالبوريتس العجوز كونكوف ومات، وأصبح بيته الآن فارغاً من ساكنيه. علماً أن هذا البيت يعتبر أحد المعالم البارزة في ميتسولكا. وقبل عدة سنوات أبلغ «ل» المدير السابق للسجن، الذي تصور أن نباتاً ملتوياً ينمو هناك هو عنب، أبلغ الجنرال جينتسه بأنه يمكن زراعة هذا النبات بنجاح. فأمر الجنرال جينتسه فوراً بمعرفة هل يوجد بين السجناء شخص عمل سابقاً في مزارع الكروم. وسرعان ما تم العثور على هذا الشخص. وهو المستوطن رايفسكي الذي يقال إنه كان طويل القامة جداً. واعتبر نفسه خبيراً في هذا المجال، وصدقوه، وتم إرساله في أول باخرة من مخفر ألكسندروفسكي إلى مخفر كورساكوفسكي مرفقاً بورقة رسمية. وعندما سألوه: «لماذا جئت؟». أجاب: «من أجل زراعة الكروم». فتطلعوا إليه وقرأوا الورقة الرسمية، وهزوا أكتافهم فحسب. وراح زارع الكروم يجوب أنحاء الدائرة منكساً قبعته. وبما أنه أرسل من قبل حاكم الجزيرة لم يجد ضرورة لمراجعة مدير سجن المنطقة. وحدث سوء فهم. ففي ميتسول أثار الرجل الشبهة بسبب قيافته العالية وما أبداه من عزة نفس، واعتبروه متشرداً، فوضع في القيود وأرسل إلى المخفر. وبقي هناك في السجن فترة طويلة وتم الاستفسار عنه ومن ثم أطلق سراحه. وفي نهاية الأمر استقر به المقام في ميتسولكا، وهناك انتقل إلى جوار ربه. وبهذا بقيت ساخالين بلا مزارع كروم. أما بيت رايفسكي فقد صادرته خزانة الدولة

مقابل الديون وبيع إلى كونكوف مقابل 15 روبلاً. وعندما دفع العجوز ثمن البيت غمز بعينيه بمكر وقال لمدير الناحية: «انتظر أنا سأموت قريباً، وستجد مشاغل أخرى بشأن هذا البيت مجدداً». وفعلاً فبعد فترة قريبة تسمم العجوز بنبات البوريتس، ومرة أخرى انشغلت الإدارة في مسألة بيع البيت.

تقطن في ميتسولكا جريتهين الساخالينية (جريتهين - بطلة تراجيديا «فاوست» للكاتب الألماني جوته - المترجم)، وهي تانيا ابنة المستوطن نيقولايف المولودة في محافظة بسكوف، وبلغت سن 16 عاماً. علماً أنها لا تحب العمل ولا تتقن أية مهنة، إنها صبية ممشوقة القد، وملامحها دقيقة، وناعمة ورقيقة. وقد خطبت إلى مدير السجن. وكان يحدث أن أتجول عبر ميتسولكا فأراها جالسة في النافذة وغارقة في التأمل. بم يمكن أن تتأمل فتاة جميلة ألقت بها المقادير في ساخالين، وبم تحلم؟ - لا يعرف، ولابد أن الرب وحده يعرف ذلك.

توجد على مسافة خمس فرستات من ميتسولكا قرية جديدة اسمها ليستفينيتشنويه، والطريق إليها يمر عبر غابة من أشجار اللارقس. كما تطلق عليها تسمية خريستوفوركا لأن خريستوفور وهو من أبناء شعب الجيلياك كان ينصب هناك الشباك لصيد السمور. ولا يمكن اعتبار اختيار هذا المكان لبناء القرية قراراً صائباً، لأن التربة هناك رديئة لا تصلح للزراعة[1]. ويقطن فيها 15 فرداً. ولا توجد نساء هناك.

وكان يعمل بالقرب من هذا المكان عدد من السجناء في صنع مختلف الحاجات من الخشب، وسمح لهم بالإقامة هناك لحين انتهاء فترات محكومياتهم. لكن تبين أن المكان الذي أقاموا فيه غير مناسب للعيش، وفي عام 1886 نقلت بيوتهم الأربعة إلى مكان آخر يقع شمال ليستفينيتشنويه ويبعد عنها بمسافة أربع فرستات، أصبح لاحقاً كأساس لقرية *خوموتوفكا*. وتطلق عليها هذه التسمية لأنه كان يمارس الصيد هناك في وقت ما الفلاح خوموتوف. يبلغ عدد سكان القرية 25:38 من الذكور و13 من الإناث. وعدد المزارع 25. وتعتبر من أكثر القرى عدم إثارة للاهتمام، ولو أنها يمكن أن تفتخر بمعالمها:

1- تنمو هنا أشجار الفلين والكروم، لكنها انحطت ولم تعد شبيهة بأصلها، مثل قصب ساخالين الذي لا يشبه قصب سيلان.

إذ يقطن فيها المستوطن برونوفسكي الذي ذاع صيته في سائر أنحاء الجنوب بأنه لص جامح لا يشق له غبار.

ثم هناك على مسافة ثلاث فرستات قرية يلان الكبرى التي تأسست قبل سنتين. وتطلق تسمية يلان هنا على الوديان التي تنمو فيها أشجار إيلما والبلوط والزعرور وبوزينا والمران والبتولا. إنها محمية عادة من الرياح الباردة، فيما تدهش البصر النباتات في الجبال والمستنقعات المجاورة بضآلتها، وهي لا تختلف كثيراً عن النباتات في المنطقة القطبية، فإننا نجد هنا في يلان مروجاً فخمة والأعشاب أعلى بمقدار ضعفي قامة الإنسان، والأرض هنا تنفث بخاراً في الصيف وفي الأيام غير الغائمة، ويغدو الجو خانقاً كما في الحمام بسبب الرطوبة، وترغم الأرض الساخنة تحول جميع الغلال إلى تبنٍ. ومثلاً في خلال شهر واحد يبلغ علو الجوادار حوالي ستة أقدام. إن هذه الوديان، التي تذكر ابن مالروسيا بالمراعي في موطنه، حيث تتجاور المروج مع البساتين والأحراش، صالحة للسكن أكثر من غيرها[1].

يبلغ عدد سكان يلان الكبرى 32:40 من الذكور و8 من الإناث. وعدد المزارع 30. وعندما اقتلع المستوطنون الجذامير في الأرض من أجل بناء المساكن، صدر الأمر إليهم بعدم قطع الأشجار القديمة حيثما أمكن ذلك. ولهذا السبب لا تبدو القرية جديدة، حيث تنتصب في الشوارع وأفنية البيوت أشجار إيلما القديمة ذات الأوراق العريضة - كما لو أن الأجداد غرسوها هناك.

يجذب الانتباه بين المستوطنين هنا الشقيقان بابيتش من محافظة كييف، وكانا يقطنان سابقاً في عزبة واحدة، وبعد ذلك اشتد الخصام بينهما وطلبا من الإدارة فصلهما. وقد اشتكى أحدهما من شقيقه بقوله: «أنا أخاف منه كما أخاف من الثعبان».

تقع على مسافة خمس فرستات أخرى قرية فلاديميرسكويه التي تأسست في عام 1881 وأطلقت عليها هذه التسمية تكريماً لعقيد اسمه فلاديمير كان يتولى الإشراف على أعمال السجناء. ويدعونها المستوطنون أيضاً باسم النهر الأسود.

وعدد سكانها 55:91 من الذكور و36 من الإناث. وعدد أصحاب المزارع

1- تنمو هنا أشجار الفلين والكروم لكنها لم تعد مثل أسلافها حيث أصابها الانحطاط.

46 ويحيا 19 منهم حياة العزاب، ويقومون أنفسهم بحلب الأبقار. وهناك 6 أسر شرعية من بين 27 أسرة. إن هذه القرية بصفتها مستوطنة زراعية تعادل دائرتين شماليتين معاً، بينما توجد امرأة واحدة فقط بين مجموع النساء اللواتي رافقن أزواجهن إلى ساخالين، النساء الحرائر اللواتي لم يفسدهن السجن، وهو الأمر الأكثر قيمة بالنسبة للمستوطنة، لكنها زجت في السجن مؤخراً للاشتباه بتورطها في قتل زوجها. وكان بالمستطاع الاستفادة هنا كل الاستفادة من النساء التعيسات الحرائراللواتي زج بهن الموظفون في دويه في «الزنزانات الخاصة بالعوائل». يوجد في فلاديميروفكا أكثر من 100 رأس من الأبقار و40 حصاناً وأعشاب جيدة لكن لا توجد نساء للعناية بها، ومعنى ذلك لا توجد مزارع حقيقية».

وفي فلاديميروفكا شركة زراعية تابعة إلى المبنى الحكومي الذي يعيش فيه حاكم القرية السيد «ي» مع زوجته القابلة، ويطلق عليها الجنود تسمية المزرعة. علماً أن السيد «ي» يهتم بالعلوم الطبيعية، وبالأخص بعلم النبات ويطلق على النباتات التسميات اللاتينية ليس غير، مثلاً حينما تقدم إليه في وجبة الغذاء الفاصوليا يقول: «هذه – faseolus». وأطلق على كلبته الصغيرة السوداء اسم Favus. علماً أنه يعتبر بين جميع الموظفين في ساخالين الأكثر اطلاعاً في شؤون الزراعة، ويتعامل معها بنزاهة وبمحبة، لكن المحاصيل في مزرعته النموذجية غالباً ما تكون أسوأ من المحاصيل لدى المستوطنين، الأمر الذي يثير الحيرة وحتى السخرية. وباعتقادي أن هذا الفرق في المحاصيل يخص السيد «ي» وأي موظف آخر. فالمزرعة التي ليس فيها محطة للأرصاد الجوية ولا الماشية ولا المنشآت اللازمة من أجل الحصول على الروث ولا الشخص المحنك الذي يمارس أعمال الإدارة الزراعية فقط منذ الصباح وحتى المساء – لا تعتبر مزرعة بل شركة فحسب، أي نزوة جوفاء تحت اسم مزرعة نموذجية. ولا يمكن تسمية هذه الشركة حتى بالحقل التجريبي. لأن مساحتها خمس ديسياتينا فقط، ونوعية التربة فيها اختيرت، كما ورد في إحدى الأوراق الرسمية، دون المستوى المتوسط «من أجل أن تكون مثالاً يحتذي به السكان من حيث إنه لدى إبداء العناية اللازمة والعمل بشكل أفضل يمكن تحقيق نتائج مرضية فيها».

حدثت هنا في فلاديميروفكا قصة غرامية. فقد وجد الفلاح المدعو فوكول بوبوف زوجته في أحضان أبيه فانهال على العجوز بالضرب وقتله. وصدر عليه الحكم بالأشغال الشاقة، ونفي إلى دائرة كورساكوفسكي، وهناك نسبوه إلى شركة السيد «ي» للقيام بمهام حوذي. وكان رجلاً عملاقًا، وما زال شاباً وسيماً وديع الطبع ونبيهاً، صموتاً طوال الوقت وغارقاً في التأملات، - وأبدى أصحاب الشركة الثقة به منذ البداية، وعندما كانوا يسافرون إلى مكان ما يعلمون أن فوكول لن يسرق النقود من الصوان، ولن يشرب الكحول من الخزانة. ولم يكن يستطيع الزواج في ساخالين لأن زوجته بقيت في موطنه، ولم توافق على الطلاق منه. هذا توصيف البطل. أما البطلة فهي السجينة المنفية يلينا تيرتيشنايا، التي تعيش مع المستوطن كوشيليف، وهي امرأة مولعة بالخصام وغبية وغير جميلة. وبدأت تتشاجر مع عشيقها الذي تقطن معه، فقدم هذا الشكوى ضدها لدى حاكم الدائرة الذي فرض عليها عقوبة العمل في الشركة. وهناك رآها فوكول وأغرم بها. كما أحبته بدورها. ويبدو أن العشيق كوشيليف قد لاحظ ذلك، لأنه صار يلح عليها بأن تعود إليه.

فقالت له:

- حسناً، نحن نعرف ما تريدون أنتم الرجال منا! إن تزوجتني سأعود إليك.

قدم كوشيليف طلباً للزواج من الفتاة تيرتيشنايا وسمحت له الرئاسة بذلك. بينما صارح فوكول يلينا بحبه، وتوسل إليها أن تعيش معه، كما أنها أيضاً أقسمت له أنها تحبه بإخلاص. ولكنها قالت له:

- تعال إلي هكذا- أنا أستطيع قبول ذلك، أما العيش معك بصورة دائمة - فلا، أنت رجل متزوج، وشأني كامرأة هو أن أفكر بالمستقبل، ويجب علي الارتباط برجل طيب.

عندما علم فوكول أنها صارت مخطوبة، أصابه اليأس وسمم نفسه بنبات بوريتس. وفيما بعد جرى استجواب يلينا التي اعترفت قائلة: «أنا أمضيت معه أربع ليال». وروت أنه جاء قبل أسبوعين من وفاته، وتطلع إلى يلينا التي كانت تغسل الأرضية، وقال:

- إيه، ياللنساء، ياللنساء! حكم علي بالأشغال الشاقة بسبب امرأة، ويجب أن تحل نهايتي بسبب امرأة!

تعرفت في فلاديميروفكا على المنفي فاسيلي سميرنوف الذي عوقب بالنفي بسبب تزييفه الوثائق. وقد أنهى فترة العقوبة بالأشغال الشاقة والنفي، وصار الآن يمارس صيد السمور الذي يجلب له مسرة كبيرة. وروى لي أنه كان يكسب يومياً 300 روبل من تزييف الوثائق. لكن كشف أمره حين توقف عن ممارسة هذه الحرفة وبدأ العمل الشريف. وتحدث عن الوثائق المزيفة بلهجة الخبير العارف، وبرأيه أن تزييف أوراق البنكنوت أصبح الآن عملاً سهلاً، يمكن أن تمارسه حتى امرأة. وتحدث عن الماضي بهدوء، وبلا سخرية، وافتخر كثيراً بأنه دافع عنه في المحكمة السيد بليفاكو نفسه.

تنداح بعد فلاديميروفكا مباشرة المروج الواسعة البالغة مساحتها مائة ديسياتينا. وما أقصده هو الهلال الساحلي البالغ قطره أربع فرستات. وتقع في الطريق الذي ينتهي هناك قرية لوجوفويه أو لوجكي التي تأسست في عام 1888. ويعيش هناك 69 رجلاً و5 نساء فقط.مكتبة سُر مَن قرأ

وتليها على مسافة فاصلة تبلغ 4 فرستات قرية بوبوفسكيه يورتي التي تأسست في عام 1884. وكان يراد تسميتها بنوفو- ألكسندروفسكايا لكن هذه التسمية لم تعجب المسؤولين. وحدث أن انطلق الكاهن الأب سيميون قازانسكي أو الأب سيميون فحسب، في زلاجة تجرها الكلاب، إلى نايبوتشي بهدف «زيارة» جندي، وفي طريق العودة هبت عاصفة هوجاء، فأصابته وعكة شديدة (يقول البعض إنه عاد من ألكسندروفسك). ولحسن الحظ وجد هناك مربضاً لصيادي الأسماك الآينيين، فلاذ بأحد الخيام (اليورتات)، بينما أرسل زلاجته إلى فلاديميروفكا حيث عاش المستوطنون الأحرار. فجاء هؤلاء لأخذه إلى مخفر كورساكوفسكي في وضع يرثى له كاد يودي بحياته. وبعد ذلك صارت تطلق على المكان تسمية «بوبوفسكيه يورتي» (أي مربض خيام أبينا الكاهن).

علماً أن الأهالي أنفسهم يطلقون على قريتهم اسم وارشو، إذ يوجد فيها عدد كبير من الكاثوليك. وعدد السكان 111:95 من الذكور و16 من الإناث. وفيها 10 أفراد فقط من أصحاب المزارع الذين يعيشون مع عوائلهم.

تقع قرية بوبوفسكيه يورتي في منتصف الطريق بين مخفر كورساكوفسكي ونايبوتشي. وهنا ينتهي حوض نهر أوسوسي، وبعد معبر غير شديد الانحدار،

وبالكاد يلاحظ، نهبط إلى الوادي الذي يرويه نهر نايبوي. وتوجد أول قرية في هذا الحوض على مسافة 8 فرستات من يورتي وتسمى بيريوزينكين. لأنه كانت هناك أشجار بتولا كثيرة. وتعتبر أكبر قرية في الاتجاه الجنوبي. ويقطن هناك 159 فرداً: 142 من الذكور و17 من الإناث. وعدد المزارع 140. وهناك أربعة شوارع وميدان من المقرر أن تبنى فيه بمرور الزمن كنيسة ومحطة تلغراف وبيت مدير الإدارة. ومن المقرر أيضاً تشكيل إدارة قضاء في بيريوزينكين في حال تم الاستيطان هناك. لكن منظر هذه القرية بائس جداً، والناس فيها حزينون ولا يفكرون بتأسيس قضاء، بل فقط في إنهاء فترة المحكومية بسرعة والسفر إلى القارة. وأجابني أحد المستوطنين حينما سألته هل هو متزوج قائلاً بكآبة: «كنت متزوجاً وقتلت زوجتي». بينما راح آخر يبصق دماً باستمرار حينما علم أنني طبيب، وراح يتابعني طوال الوقت، وسألني ما إذا كان مصاباً بالتدرن الرئوي، وحدق في بنظرة فاحصة. كان يشعر بالفزع من فكرة الموت في ساخالين قبل أن يحصل على حقوق الفلاح.

تقع لاحقاً وعلى مسافة 5 فرستات قرية كريستي التي تأسست في عام 1885. وقتل هناك في زمن ما اثنان من الشريدين، ووضع على قبريهما صليبان لم يعد لهما وجود الآن. أو بالأحرى إن غابة أشجار الصنوبر قد اقتلعت هناك منذ وقت بعيد، ونشأ هنا مرج بهيئة صليب. إن كلا التفسيرين يتسم بالشاعرية، لكن في أغلب الظن أن الأهالي أنفسهم ابتدعوا تسمية كريستي (أي الصلبان).

بنيت قرية كريستي على ضفاف نهر تاكويه، وبالذات في مكان مصب رافد فيه: التربة – طفالية رملية يكثر فيها الطمي، ويتوفر المحصول فيها في كل عام تقريباً، والمروج كثيرة، والناس فيها، كما تبين، من المزارعين المستقيمين، لكن القرية كانت في الأعوام الأولى لتأسيسها لا تختلف كثيراً عن آرمودان العليا وكادت تهلك. ومجمل القضية أنه وجه للعمل هناك دفعة واحدة 30 شخصاً. كان ذلك في الوقت حين لم ترسل الأدوات والأجهزة إلى ألكسندروفسك خلال فترة طويلة. وأرسل المستوطنون إلى هناك فارغي الأيدي بكل معنى الكلمة. وأعطيت لهم إشفاقاً عليهم البلطات القديمة من السجن لكي يقتلعوا الأشجار. ومن ثم لم تجلب لهم الماشية خلال ثلاثة أعوام، – للسبب ذاته بصدد عدم إرسال الأدوات والأجهزة من ألكسندروفسك.

يبلغ عدد السكان 90 فرداً: 63 من الذكور و27 من الإناث. وأصحاب المزارع 52.

يوجد هنا حانوت يديره عريف متقاعد، السجان السابق في دائرة تيموفسكايا، ويبيع فيه مواد البقالية. توجد فيه أيضاً أساور نحاسية وسمك السردين. وعندما ولجت الحانوت ظن العريف أنني موظف رفيع المقام حيث أبلغني فجأة بلا أية مناسبة أنه تورط في أمر ما سابقاً، لكن جرت تبرئته، وصار يعرض علي مختلف شهادات التقدير، وأراني بالمناسبة رسالة من السيد شنايدر، ووردت في ختامها عبارة علقت بذاكرتي: «عندما يحل الدفء، اجعل الشواء أشد». ومن ثم ولرغبة العريف في أن يثبت لي أنه غير مدين إلى أي أحد، راح يقلب الأوراق ويبحث عن وصولات ما، لكنه لم يجدها، وخرجت من الحانوت، وقد راودتني الثقة ببراءته التامة، وأنا أحمل رطلاً من السكاكر الرخيصة، التي استحوذ العريف ثمناً لها على خمسين كوبيكاً من نقودي.

إن القرية التالية بعد كريستي تقع على نهر يحمل اسماً يابانياً هو تاكويه الذي يصب في نايبا. ويسمى الوادي الذي يجري فيه النهرتاكويسكوي وذاع صيته في أنه عاش فيه مستوطنون أحرار في زمن ما. وتوجد قرية بولشويه تاكويه رسمياً منذ عام 1884 لكنها تأسست قبل هذا بزمن بعيد. وقد أرادوا تسميتها بفلاسوفسكيه على شرف السيد فلاسوف، لكن هذه التسمية لم تصمد. عدد السكان 71 فرداً: 56 من الذكور و15 من الإناث. وعدد المزارع 47. ويعيش هنا بصورة دائمة مضمد ممتاز يصفه أبناء القرية بأنه خبير من الدرجة الأولى. وقد تسممت زوجته الشابة بنبات بوريتس قبل أسبوع من وصولي.

ترى بالقرب من القرية، وبالأخص في الطريق المؤدي إلى كريستي، أشجار شوح باسقة ممتازة. وعموماً ثمة وفرة من الخضرة، علماً أنها نضرة ومتألقة وكأنها غسلت للتو. إن النباتات في وادي تاكويه أكثر ثراء مما في الشمال، لكن مشهد الطبيعة الشمالي أكثر حيوية وغالباً ما يذكرني بروسيا. حقاً أن الطبيعة هناك بائسة وقاسية، لكن قسوتها روسية، وهنا نجدها تبتسم وتحزن، لابد أنه بأسلوب قومية آيني، ويثير في الروح الروسية مزاجاً غير محدد[1].

1- توجد على ضفة النهر على بعد فرستا من تاكويه الكبرى طاحونة شيدت بأمر الجنرال كونونوفتش من قبل المهندس الألماني السجين لاكس، وهو الذي صمم

تقع *تاكويه الصغرى* في وادي تاكويه على بعد أربع فرستات ونصف من تاكويه الكبرى وتقع على ضفاف جدول صغير يصب في نهر تاكويه[1]. وتأسست القرية في عام 1885. وعدد السكان 37:52 من الذكور و15 من الإناث. وأصحاب المزارع 35. ولا يعيش من بينهم في أسر سوى 9، ولا يوجد أي زوج منهم مرتبط بعقد زواج شرعي.

بينما توجد في مكان أبعد، على مسافة 8 فرستات، في المكان المسمى لدى اليابانيين والآينيين باسم سيانتشا، حيث وجد عنبر لصيادي الأسماك اليابانيين، قرية اسمها جالكينو- فراسكويه، أو سيانتشي، تأسست في عام 1884. والمكان جميل - في مصب رافد تاكويه في نهر نايبا، لكنه غير مريح البتة. ففي الربيع والخريف وحتى في الصيف يسود مناخ سقوط الأمطار، ونايبا نهر نزق، مثل جميع الأنهار الجبلية عموماً، فتغمر مياه الفيضان قرية سيانتشي، ويغلق التيار الشديد المدخل إلى تاكويه. وتصبح جالكينو- فراسكويه مثل مدينة البندقية، ويتم التنقل فيها بواسطة قوارب الآينيين، وغالبا ما تغمر المياه سطوح الأرضية في البيوت المبنية في المناطق المنخفضة. لقد اختار المكان لبناء القرية المدعو السيد إيفانوف، الذي لا يفقه شيئاً في هذه الأمور، كما أنه لا يعرف الكثير من اللغتين الجالياتيه والآينية، اللتين يعمل بوظيفة مترجم منهما بصورة رسمية. بالمناسبة كان في تلك الفترة يشغل أيضاً منصب مساعد مدير السجن، ويتولى منصب حاكم القرية حالياً. وقد حذره الآينيون والمستوطنون من أن هذا المكان عبارة عن مستنقعات. لكنه لم يصغ إليهم. وتم جلد من اعترض على ذلك. وقد هلك ثور في أحد الفيضانات، ونفق حصان في فيضان آخر.

يتشكل في موضع مصب تاكويه في نهر نايبا، شبه جزيرة أقيم فوقه جسر عال. والمكان جميل جداً، ويعتبر فعلاً روضة العنادل. المكان نظيف في

بناء الطاحونة على نهر تيمي بالقرب من ديربينسكي. وأجرة الطحن في طاحونة تاكويه تبلغ كوبيكاً واحداً لكل بود (16 كيلوغراماً). وأهل القرية راضون لأنهم كانوا سابقاً يدفعون 16 كوبيكاً لطحن كل بود أو كانوا يطحنون الحبوب في البيت بواسطة الرحى. ووجب شق قناة وبناء سد من أجل الطاحونة.

1- **أنا لا أذكر** الروافد الضحلة التي تقوم عليها القرية في حوضي سوسوي ونايبا، لأنها جميعاً تحمل أسماء يابانية يصعب النطق بها مثل إيكوريكي أو فوفكاساماناي.

مبنى إدارة مدير السجن، وحتى يوجد موقد للتدفئة. وتطل الشرفة على النهر، وتوجد في الباحة حديقة. ويعمل كحارس هنا العجوز سافيلييف، وهو سجين يقوم بدور الخادم والطباخ لدى مبيت الموظفين هناك. وحدث مرة أن تولى خدمتي مع أحد الموظفين في وقت الغداء، فصرخ الموظف فيه بحزم قائلاً: «أحمق!». آنذاك تطلعت إلى هذا العجوز الوديع، وأذكر أنه دار في فكري لحظتئذ أن كل ما استطاع المثقف الروسي عمله حتى الآن في قضية السجون هو فقط أنه جعل الأشغال الشاقة تتحول بصورة مبتذلة جداً إلى نظام القنانة.

آخر قرية في هذا المسار هي - دوبكي، التي تأسست في عام 1886 في مكان غابة أشجار البلوط. إنها تمتد لمسافة 8 فرستات بين سيانتسامي ودوبكي. والتقيت هناك الغابات المحترقة وبينها المروج التي ينمو فيها كما يقال «شاي كابورسكي». وعندما يتنقل المرء هناك يظهر الأهالي له بالمناسبة النهر الذي كان يصطاد السمك فيه المستوطن مالوفيتشكين، ويحمل هذا النهر اسمه الآن. عدد السكان في دوبكي 44: 31 من الذكور و13 من الإناث. وعدد المزارع 30. ويعتبر المكان طيباً نظرياً، فحيثما ينمو البلوط تكون التربة جيدة من أجل زراعة القمح. وكانت توجد حتى وقت قريب مستنقعات في قسم كبير من مساحة الأرض التي تحولت الآن إلى حقول ومروج، لكن المستوطنين حفروا بنصيحة السيد «ي» ترعة تؤدي إلى نايبا، يبلغ عمقها ساجيناً واحداً، وأصبحت الأرض الآن جيدة.

وبما أن هذه القرية الصغيرة تقع منعزلة، فقد ازدهر فيها لعب القمار وأوكار الإجرام. وفي يونيو خسر ليفانوف أحد الأهالي المحليين كل ممتلكاته وانتحر بتناول نبات بوريتس.

تتبقى من دوبكي حتى بلوغ مصب نايبا مسافة 4 فرستات فقط من الأراضي التي لا تصلح للسكن، بسبب وجود المستنقعات عند المصب، بينما ساحل البحر رملي وتنمو فيه النباتات البحرية - الرملية مثل ورد العليق ذي الثمار الكبيرة الحجم والنبات الشعري وغيرهما. ويستمر الطريق حتى البحر، لكن يمكن التنقل هناك بواسطة النهر، في زورق آيني.

كان يوجد عند المصب في زمان ما مخفر نايبوتشي. وقد تأسس المخفر في عام 1886. ووجد ميتسول هناك 18 مبنى، كان يسكن فيها الناس أو

خاوية، ومصلى وحانوتاً لبيع المواد الغذائية. وكتب أحد المراسلين الذي زار نايبوتشي في عام 1871 أنه رابط هناك 20 جندياً بقيادة نائب ضابط، وفي أحد البيوت قدمت له زوجة جندي حسناء ممشوقة القد البيض الطازج والخبز الأسود، وأثنت على المعيشة هناك، لكنها اشتكت فقط بسبب أن السكر غالي الثمن جداً. والآن لا يوجد أثر لتلك البيوت، وتصبح كأسطورة خرافية ما زوجة الجندي الحسناء لدى التطلع إلى البرية الخاوية هناك. ويجري تشييد بيت جديد لتكون إدارة السجن أو محطة فقط لا غير. ويبدو البحر بارداً، وعكر المياه، وصاخباً، والأمواج الرمادية العالية تلطم الساحل الرملي، كما لو أنها تود القول بيأس: «يا ربي لماذا خلقتني؟». إنه المحيط العظيم أو الهادئ. ويتردد على هذا الساحل صوت نايبوتشي متمثلاً بضربات فؤوس السجناء في موضع البناء، وعلى الساحل الآخر البعيد توجد أمريكا في الخيال. وترى من جهة اليسار وسط الضباب الرؤوس الساخالينية، ومن جهة اليمين رؤوس أيضاً... بينما لا يوجد هناك أي إنسان أو طير أو دابة. ويبدو غير مفهوم لأي سبب تصخب الأمواج هنا، ومن يستمع إليها في الليالي، ومن يحتاج إليها، وفي نهاية المطاف من أجل من ستعج صاخبة، حينما أغادر هذا المكان. وهناك على الساحل تسود لا الأفكار بل التأملات. إنه أمر يبعث على الرعب وفي الوقت نفسه تراودني الرغبة في الوقوف إلى الأبد والتطلع إلى الحركة المملة للأمواج والإصغاء إلى عويلها الرهيب.

-14-

تارايكا – المستوطنون الأحرار. – إخفاقاتهم. – آينو، حدود انتشارهم، عددهم، هيئتهم، طعامهم، ملابسهم، مساكنهم، أخلاقياتهم. – اليابانيون. – كوون- كوتان. – القنصلية اليابانية.

تقع قرية *سيسكا* في الموضع المسمى تارايكا، على ضفاف أحد أقصى الروافد الجنوبية لنهر بوروناي الذي يصب في خليج الصبر. علماً أن تارايكا كلها التي تنسب إلى الدائرة الجنوبية ببعض المبالغة فقط لأنها تبعد عن كورساكوفسك بمسافة 400 فرستا، والمناخ هناك رديء، وأسوأ مما في دويه. وستسمى الدائرة المقرر تشكيلها والتي ذكرتها في الفصل 11 بدائرة تاراكاينسكي، وستضم إليها جميع القرى الواقعة على ضفاف بوروناي ومنها سيسكا. آما الآن فيقطن فيها أبناء الجنوب. وعلم من الإدارة المحلية بأنه يسكن هناك 7 أشخاص فقط: 6 رجال وامرأة واحدة. وأنا لم أزر سيسكا، لكنني سأورد المعطيات المقتبسة من يوميات أخرى: – «إن هذه القرية مكان بائس جداً، قبل كل شيء لا تتوفر فيها مياه الشرب الجيدة والأخشاب. ويستخدم الأهالي مياه الآبار التي تصبح في أثناء المطر بلون أحمر وذات الصفات المميزة لسهوب التندرا. والساحل الذي تقوم عليه القرية رملي، وتنداح التندرا في شتى الأرجاء... وعموماً فإن المنطقة كلها تولد انطباعاً ثقيلاً يقبض النفس[1]».

1- تقع القرية عند مفترق الطرق الممتدة في الشتاء من ألكسندروفسك إلى كورساكوفسك أو بالعكس لدى التوقف للراحة هنا. وفي عام 1868 أقيم مخفر بالقرب من بلدة كانت يابانية آنذاك. وعاش فيها الجنود مع زوجاتهم، وفي وقت لاحق المنفيون.

يتبقى لي من أجل إنهاء الحديث حول جنوب ساخالين قول بضع كلمات حول الأشخاص الذين عاشوا هناك في زمن ما، ويعيشون الآن أيضاً، على الرغم من كونها مستوطنة للمنفيين. سأبدأ من محاولة وصف الاستيطان من قبل الأحرار. في عام 1868 تقرر تشكيل إحدى إدارات سيبيريا الشرقية في جنوب ساخالين بإسكان حتى 25 أسرة فيها. علماً أن المقصود نقل فلاحين أحرار، جرى توطينهم سابقاً بصورة غير موفقة على ضفاف آمور، ووصف أحد المؤلفين حياتهم بأنها بائسة، وبأنهم مساكين يثيرون الشفقة. علماً أنهم كانوا من الأوكرانيين، من محافظة تشيرنيجوف، وكانوا قبل نقلهم إلى آمور قد أسكنوا في محافظة توبولسك بصورة غير موفقة أيضاً. وقدمت الإدارة التي تولت مهمة توطينهم في ساخالين شتى الوعود المغرية. فوعدت أن تزودهم خلال عامين بلا مقابل بالطحين والحبوب، وتزود كل أسرة بالأدوات الزراعية المستأجرة وبالماشية والبذور والنقود، ويسدد الدين بعد خمسة أعوام، مع إعفائهم خلال 20 عاماً من الضرائب ومن الخدمة العسكرية الإجبارية. وأبدت الرغبة في الاستيطان عشر أسر من آمور و11 أسرة من قضاء بالاجان في محافظة إركوتسك، وعدد أفرادها الإجمالي 101 فرد. وفي عام 1869، في شهر أغسطس، استقلوا السفينة «ماندجور» إلى مخفر مورافييسكي بغية نقلهم لاحقاً من هناك بالالتفاف على رأس آنيفسكي في بحر أخوتسكويه إلى مخفر نايبوتشي، ومنه إلى وادي تاكويه الذي يبعد مسافة 30 فرستا فقط عن الموقع الذي تبدأ فيه حياتهم الاستيطانية الحرة. لكن حل الخريف، ولم تتوفر سفينة أخرى للنقل، فنقلتهم السفينة «ماندجور» نفسها مع متاعهم إلى مخفر كورساكوفسك، بغية أن ينقلوا من هناك إلى وادي تاكويه براً. آنذاك لم توجد أية طرق. و«انطلق» الملازم الثاني دياكونوف، حسب قول ميتسول، مع 15 جندياً لشق ممر ضيق في الغابة. لكنه

وكانت الحياة هناك تجري على قدم وساق في الأسواق خلال الشتاء والربيع ونهاية الصيف. كما كان يأتي إلى هناك في الشتاء أبناء التونغوس والياقوت وجيلياك إقليم آمور من أجل التجارة مع أبناء الجنوب من الشعوب الأخرى، وفي الربيع ونهاية الصيف يأتي اليابانيون في قوارب «الجونكا» من أجل صيد الأسماك. وقد بقيت تسمية المخفر – *مخفر تيخمينيفسكي – حتى الوقت الحاضر.*

تقدم ببطء شديد، كما يبدو، ولهذا توجهت 16 أسرة، من دون انتظار شق الممر إلى وادي تاكويه مباشرة عبر غابة التايغا على ظهور خيول الحمل وفي العربات في طريق غمرته الثلوج الكثيفة. وقد اضطروا إلى التخلي عن جزء من العربات، أما الجزء الآخر من الحمولات فقد وضعت في الزحافات. ولدى وصولهم إلى الوادي في 20 نوفمبر شرعوا فوراً ببناء الأكواخ المؤقتة وحفر الأقبية من أجل حماية أنفسهم من البرد. ووصلت ست أسر أخرى قبل أسبوع من عيد الميلاد. لكن لم يتوفر مكان للإقامة، وفات الوقت للبناء، فتوجهت للبحث عن ملجأ في نايبوتشي، ومنها توجهت إلى مخفر كوسينايسكي حيث عاش أفرادها في ثكنات الجنود خلال موسم الشتاء، وفي الربيع عادت إلى وادي تاكويه.

كتب أحد المؤلفين: «عندئذ ظهر تأثير كل إهمال وعجز الموظفين». إنهم وعدوا كل أسرة بتوفير شتى المعدات الزراعية بمبلغ 1000 روبل و4 رؤوس من المواشي المختلفة، لكن حينما نقل المستوطنون في السفينة «ماندجور» من نيقولايفسك لم تتوفر على السفينة الرحى للطحن ولا العجول المخصية ولا الأحصنة، كما أن المحاريث الخشبية كانت بلا أسنة. وفي الشتاء جلبت الأسنة في زحافات تجرها الكلاب، وجلبت 6 قطع منها فقط، وعندما طلب المستوطنون من المسؤولين في الإدارة لاحقاً توفير أسنة المحاريث «لم يلق طلبهم أي اهتمام». وأرسلت الثيران في خريف عام 1869 إلى كوسوناي، لكنها كانت منهكة، وبالكاد باقية على قيد الحياة، علماً أنه لم يحصد العشب في كوسوناي عموماً من أجل إطعامها. ولدى حلول الشتاء لم يبق من 41 ثوراً سوى 25. وبقيت الأحصنة في فصل الشتاء في نيقولايفسك، لكن بما أن العلف غالي الثمن فقد جرى بيعها في المزاد العلني، وتم بثمنها شراء أخرى في زابايكاليه، لكن تبين أن هذه الأحصنة أسوأ من السابقة، وتخلى الفلاحون عن بعضها بصفتها غير صالحة للعمل. كما تبين أن البذور رديئة النوعية، وخلط الجوادار الربيعي في الأكياس بالشتوي، وبهذا سرعان ما فقد المزارعون الثقة بأية بذور، ولو أنهم كانوا يستلمونها من الجهات المسؤولة إلا أنهم كانوا يطعمون بها الماشية أو يتناولونها هم أنفسهم. ونظراً لعدم توفر الرحى فلم تطحن الحبوب، وتم طبخها بشكل عصيدة.

حدث في أعقاب فقدان المحاصيل في عام 1875 فيضان مدمر سلب المستوطنين نهائياً كل رغبة في ممارسة الزراعة في ساخالين. وصاروا ينتقلون إلى مكان آخر مجدداً. وتأسست قرية تضم 20 أسرة على ضفاف آنيفا، في منتصف الطريق تقريباً بين مخفر كورساكوفسك ومورافيوفسكي، في موضع اسمه تشيبيساني. ثم طلبوا السماح لهم بالانتقال إلى إقليم يوجنو-أوسوريسكي. وانتظروا السماح لهم بفارغ الصبر طوال عشرة أعوام، بانتظار مكرمة خاصة، وكسبوا قوتهم خلال ذلك بصيد السمور والأسماك. وفي عام 1886 فقط انتقلوا إلى إقليم أوسوريسكي. كتب المراسل: «إنهم تركوا بيوتهم بجيوب فارغة، أخذوا معهم بعض الأمتعة وكذلك الأحصنة (صحيفة «فلاديفستوك»، 1886، العدد 22). وفي الوقت الحاضر تلتهم حرائق الغابات بعض المساكن بين قريتي تاكويه الكبرى والصغرى، في مكان يبعد قليلاً عن الطريق العام. وكانت توجد هناك سابقاً قرية فوسكريسينسكيه الحرة، وقد تركها أهلها، وأحرقها المتشردون. ويقال إنه بقيت سالمة حتى الآن في تشيبيساني البيوت والمصلى وحتى مبنى المدرسة. وأنا لم أذهب إلى هناك.

بقي في الجزيرة من بين المستوطنين الأحرار ثلاثة فقط هم خوموتوف، الذي أشرت إليه آنفاً، وامرأتان ولدتا في تشيبيساني. ويذكر عن خوموتوف أنه يتجول «مترنحاً في مكان ما» ويعيش، كما يعتقد، في مخفر مورافيوفسكي. ونادراً ما يشاهده أحد. إنه يمارس صيد السمور وصيد أسماك الزجر في خليج بوسيه. أما بصدد المرأتين فإحداهما، صوفيا، تزوجت الفلاح المنفي بارانوفسكي وتعيش في ميتسولكا، أما الأخرى، آنيسيا، فقد تزوجت المستوطن ليونوف، وتعيش في بادي الثالثة. إن خوموتوف سينتقل إلى رحمة ربه قريباً، بينما ستنتقل صوفيا وآنيسيا مع زوجيهما إلى القارة، ولهذا لن يتبقى من موضوع المستوطنين الأحرار سوى الذكريات فقط.

إذن يمكن القول إن الاستيطان الحر في جنوب ساخالين قد مني بالفشل. ومن الصعب الجزم على من يقع الذنب في ذلك هل هي الظروف الطبيعية التي استقبلت الفلاحين في البداية بصرامة وبلا مودة، أو أن عدم كفاءة وإهمال الموظفين أفسدا الأمر كله، لأن التجربة كانت قصيرة الأمد، بالإضافة إلى ذلك جرت تجارب على أناس لا يرغبون في الاستقرار، واعتادوا على

التجول وممارسة حياة البدو الرحل خلال فترة طويلة في أرجاء سيبيريا. ولا يعرف ما ستكون عليه خاتمة التجربة لو تكررت. وفي الحقيقة أن التجربة الفاشلة بالنسبة إلى مستوطنة من المنفيين يمكن أن تغدو درساً ذا عبرة في حالتين: أولاً، فقد مارس المستوطنون الأحرار الزراعة خلال فترة قصيرة وفي الأعوام العشرة الأخيرة وقبل الانتقال إلى القارة مارسوا فقط صيد الأسماك والحيوانات، وفي الوقت الحاضر يجد خوموتوف، على الرغم من كبر سنه، أن الأنسب والأنفع له صيد سمك الزجر وقنص السمور من زراعة الحنطة والكرنب، وثانياً، أنه من المستحيل ومن غير الممكن إبقاء الإنسان الحر في جنوب ساخالين، حين يردد له في كل يوم أنه على بعد يومين فقط في الطريق إلى كورساكوفسك يقع إقليم يوجنو - أوسورييسكي الدافئ والغني.

عندما يسأل أبناء جنوب ساخالين الأصليين، من الشعوب المحلية، عن أصلهم فإنهم لا يذكرون اسم عشيرة أو أمة، ويقولون فقط: *نحن آينو*. ومعنى ذلك الإنسان. وتؤشر آينو أو آينا في خارطة شرينك الإثنوغرافية بلون أصفر، وهذا اللون يغطي كليا جزيرة ماتسماي اليابانية والقسم الجنوبي من ساخالين حتى خليج تيربينيا. إنهم يعيشون أيضاً في جزر كوريل ولهذا تسمى أيضاً بكوريل الروسية. ولا يعرف بالضبط عدد أفراد شعب آينو القاطنين في ساخالين، ولا ريب في أن هذا الشعب على وشك الانقراض بسرعة بالغة. قال الطبيب دوبروتفورسك الذي عمل في جنوب ساخالين قبل 25 عاماً إنه كان بالقرب من خليج بوسيه فقط 8 قرى آينية كبيرة يصل عدد ساكني إحداها إلى 200 فرد. كما رأى بالقرب من نايبا آثار عدة قرى. ويورد ثلاثة أرقام تقريبية بالنسبة لزمانه مأخوذة من عدة مصادر هي: 2885 و2418 و2050، والرقم الأخير هو الأكثر وثوقاً. وبشهادة أحد المؤلفين من معاصريه فإنه كانت قرى الآينويين تمتد على الساحل من مخفر كورساكوفسك على كلتا الضفتين. لكنني لم أجد بالقرب من المخفر أية قرية لهم ورأيت عدة خيام (يورطات) آينية فقط بالقرب من تاكويه الكبرى وسيانتسي. وحسب المعطيات الرسمية فقد كان يعيش في دائرة كورساكوفسك 581 رجلاً و569 امرأة من شعب الآينو.

يعتقد دوبروفولسكي أن سبب انقراض الآينو يرتبط بالحروب المدمرة التى دارت في زمن ما في ساخالين، وقلة الولادات بنتيجة ضعف قدرة النساء على النسل، والأمر الرئيسي كثرة الأمراض. وتلاحظ لديهم دائماً أمراض السفلس والإسقربوط وكذلك الجدري أحياناً[1].

إن جميع هذه الأسباب التي تؤدي عادة إلى انقراض الشعوب الصغيرة لا تفسر سبب انقراض شعب آينو بمثل هذه السرعة، أمام سمعنا وبصرنا. فخلال الـ 25–30 عاماً الأخيرة لم تحدث أية حروب أو أوبئة كبيرة، بينما تقلّص عدد أفراد الشعب بأكثر من النصف خلال هذه الفترة القصيرة. وأعتقد أن من الأصوب القول إن هذا الاختفاء السريع، الشبيه بالذوبان، يجري ليس بسبب الانقراض فقط، بل بسبب انتقال أبناء شعب آينو إلى الجزر المجاورة.

كان أبناء شعب أينو قبل استيلاء الروس على جنوب ساخالين في وضع التبعية العبودية لليابانيين، وكان استعبادهم أسهل لأنهم وديعون ومطيعون، والشيء الرئيسي أنهم كانوا يتضورون جوعاً ولا يستطيعون التخلي عن تناول الرز[2].

عندما احتل الروس جنوب ساخالين حرروهم وتولوا حتى فترة قريبة حمايتهم من الإساءات وتجنبوا التدخل في حياتهم الداخلية. وقام السجناء الهاربون في عام 1885 بذبح عدة أسر من شعب آينو. وقيل أيضاً إنه عوقب بالجلد فرد من الآينو– كايور لرفضه نقل البريد، كما حدثت اعتداءات على عفة نساء من هذا الشعب لكن مثل هذه المضايقات والإساءات كانت نادرة. لكن الشيء المؤسف لم يجلبوا لهم الرز مع الحرية، وبعد انسحاب اليابانيين

1- من الصعب تصور أن هذا المرض الذي جلب الهلاك إلى ساكني شمال ساخالين وجزر كوريل قد رحم جنوب ساخالين. وكتب أ. بولونسكي أن الخيمة (يورطا) التي يوجد فيها أينو تترك، وينتقل الأهل للإقامة في مكان جديد. ويبدو أن هذه العادة قد نشأت في الأزمات حين واجه فيها شعب آينو الرعب من الجائحة، وتركوا مساكنهم الملوثة، وأقاموا في أماكن جديدة.

2- قال أبناء شعب آينو لريمسكي – كورساكوف: «سيزام ينام، وآينو يعمل بدلاً منه: يقطع الأشجار ويصطاد السمك. وعندما لا يريد آينو العمل ينهال عليه سيزام بالضرب المبرح») تعني كلمة سيزام هنا الغريب حامل السوط المترجم).

لم يعد أحد يصطاد السمك، وتوقف العمل لكسب الرزق، وصار أبناء آينو يعانون من الجوع. ولم يكن بوسعهم الاكتفاء بتناول السمك واللحم – كانوا بحاجة إلى الرز، ولهذا فعلى الرغم من نفورهم من اليابانيين، وبسبب الجوع، صاروا ينتقلون إلى ماتسماي حسب تعبيرهم. وطالعت في إحدى الصحف («جولوص»، 1876، العدد 16) أن وفداً من الآينيين جاء إلى مخفر كورساكوفسك وطلب توفير العمل لهم أو على الأقل تقديم الحبوب وتعليمهم كيفية حرث الأرض لزراعة البطاطس. ويبدو أن طلبهم في العمل قد رفض، ووعدوا بإرسال الحبوب لهم، لكن لم ينفذ الوعد، وواصل أبناء شعب أينو الهجرة إلى ماتسماي (اليابان) بسبب تدهور أحوالهم المعيشية. وطالعت خبراً آخر نشر في عام 1885 (صحيفة «فلاديفستوك»، العدد 38) أيضاً أن آينو أصدروا عدداً من البيانات، لكنها لم تلق كما يبدو الاحترام اللازم، ولهذا فإنهم صاروا يرغبون جداً في مغادرة ساخالين إلى ماتسماي.

وأبناء شعب آينو ذوو سحنات ملوحة مثل الغجر، ولحاهم كبيرة وعريضة ولهم شوارب وشعرهم أسود وكثيف وخشن. وعيونهم قاتمة ومعبرة ووديعة. علماً أن طولهم متوسط وبنيتهم قصيرة وعريضة المنكبين، وملامح الوجه غليظة، وتتسم بالخشونة، لكنها حسب قول ف. ريمسكي – كورساكوف من دون الفلطحة المنغولية، والعيون الضيقة الصينية. ويبدو أن أبناء آينو الملتحين يشبهون كثيراً الفلاحين الموجيك الروس. وفعلا حين يرتدي الآينو الزبون الذي يشبه القفطان الروسي ويتمنطق بالحزام يبدو شبيهاً جداً بالحوذي التابع لأحد التجار الروس.

يغطي جسد الآينو شعر قاتم يكون أحياناً كثيفاً عند الصدر، وبشكل حزم معقودة، لكنها بعيدة عن أن تكون كثة، علماً أن اللحية وكثافة الشعر يعتبران شيئا نادراً جداً لدى المتوحشين، لكنه أثار دهشة الرحالة الذين لدى عودتهم إلى أوطانهم كانوا يصفون الآينويين بأنهم من ذوي الشعر الكثيف. كما أن القوزاق الروس الذين كانوا يجبون منهم الضرائب في جزر كوريل وصفوهم أيضاً بذوي الشعر الكثيف.

يعيش أبناء شعب آينو إلى جوار الشعوب التي لا ينمو الشعر بكثافة على وجوههم ولهذا فليس من العجب أن تجعل لحاهم العريضة الباحثين

الإثنوجرافيين في حيرة من أمرهم إلى حد ما، ولم يجد العلم حتى الآن مكاناً للآينويين في جداول العناصر البشرية. والبعض ينسب شعب آينو إلى العنصر المغولي، والبعض الآخر ينسبهم إلى قبائل القوقاز. ووجد حتى أحد الإنجليز أنهم من سلالة اليهود الذين رمت بهم الأقدار في غابر الأزمان إلى الجزر اليابانية. وفي الوقت الحاضر يطرح رأيان هما الأكثر احتمالاً: أن الآينويين هم عنصر قائم بحد ذاته، كان أفراده يسكنون في الجزر بشرق آسيا، والرأي الآخر الذي يتمسك به عالمنا شرينك يفيد بأن هذا الشعب آسيوي قديم، ضايقته في زمن ما القبائل المغولية من البر الآسيوي فهاجر إلى الجزر في الأطراف البعيدة، وأن مسار طريق هذا الشعب من آسيا إلى الجزر يمر عبر كوريا. على أي حال زحف الآينو من الجنوب إلى الشمال، ومن الدفء إلى البرد، وغيروا ظروف الحياة الأفضل إلى الأسوأ. علماً أنهم ليسوا محاربين، ولا يطيقون العنف. ولم يكن صعباً قهرهم واستعبادهم أو إبعادهم عن مواطنهم. وقد أبعدهم المغول من آسيا، بينما أبعدهم اليابانيون من نيبون وماتسماي، كما لم يسمح لهم الجيلياك بالاستقرار في ساخالين في موضع أبعد من تارايكا، وقد التقوا في جزر كيريل مع القوزاق وأصبحوا في نهاية المطاف في وضع لا مخرج منه. وفي الوقت الحاضر يمشي آينو بلا قبعة وحافي القدمين وبسراويل ملفوفة إلى أعلى الركبتين، وعندما يلتقي بنا في الطريق يقوم بحركة ريفرانس تحية لنا ويتطلع بلطف، لكن بحزن ووجع، مثل الخائب، كما يود الاعتذار لكون لحيته قد نمت أكثر من اللازم، ولكونه لم يجد له حرفة بعد.

ترد التفاصيل عن شعب آينو في أعمال شرينك ودوبروتفورسكي وأ. بولونسكي. وما ذكر عن طعام وملابس الجيلياك ينطبق على الآينو أيضاً يضاف إليه أيضاً أن نقص الرز الذي ورث الآينو حب أكله عن الأجداد الذين عاشوا في زمن ما في الجزر الجنوبية يعتبر مشكلة بالنسبة إليهم، علماً أنهم لا يحبون الخبز الروسي. ويتميز طعامهم بالتنوع الكبير أكثر مما لدى الجيلياك فهم يأكلون إلى جانب اللحم والسمك مختلف النباتات والقواقع وما يدعوه الفقراء الإيطاليون عموماً بـ frutti di mare[1]. إنهم لا يأكلون

1- ثمار البحر.

كثيراً، لكن في أحيان كثيرة، في كل ساعة تقريباً، ولا يلاحظ لديهم النهم المميز للأقوام المتوحشة الشمالية. وبما أنه يتعين التحول مباشرة في إطعام الأطفال الرضع من الحليب إلى السمك وشحم الحوت، لهذا فإن فطامهم يتم بصورة متأخرة. وشاهد ريمسكي - كورساكوف طفلاً من الأينو في الثالثة من العمر يرضع من ثدي أمه على الرغم من أنه يتحرك وحده وحتى يحمل سكيناً في حزامه مثل الرجل البالغ. يلاحظ في الملابس والمساكن التأثير الشديد للجنوب - ليس جنوب ساخالين بل الجنوب الحقيقي. ففي الصيف يلبس آينو قميصاً يحاك من العشب أو من الألياف اللبية، وسابقاً حينما لم يكونوا فقراء جداً كان الآينو يلبس القفطان الحريري. ولا يعتمر قبعة ويمشي حافياً طوال الصيف والخريف وحتى سقوط الثلوج. ويسود في القشعة أو خيمة (اليورطا) الدخان والهواء النتن، لكن يسود فيها النور والنظافة، ويجوز القول إنها تتميز بحضارة أكثر مما لدى الجيلياك. وعادة توجد بالقرب من الخيمة آليات لتجفيف السمك تنبعث حولها لمسافة بعيدة رائحة عفنة وخانقة. وتنبح الكلاب وتهر. ويمكن أن يشاهد أحياناً قفص صغير يجلس فيه دب فتي: إنهم يقتلونه ويأكلون لحمه في الشتاء في ما يسمى عيد الدببة. ورأيت في إحدى المرات صباحاً صبية من قومية آينو تطعم الدب السمك المجفف المنقوع في الماء بواسطة ملعقة خشبية. علماً أن القشعات نفسها تتألف من ألواح خفيفة وركيزة، أما السقف فيتألف من أعواد رفيعة وتغطيها الأعشاب الجافة. وفي الداخل تنصب الأسرة الخشبية عند الجدران، وفوقها رفوف فيها مختلف الحاجيات منها قطع الفرو وزجاجات صغيرة فيها الزيت وشباك وأطباق وغير ذلك، وتجد هناك السلال والحصائر وحتى آلة موسيقية. ويجلس عادة على الأسرة الخشبية رب البيت ولا ينهض بل يواصل التدخين بالغليون، ولدى سؤاله يجيب بلا رغبة وبإيجاز، ولكن بدماثة. وفي وسط القشعة موقد (وجاغ) تشتعل فيه قطع خشبية، ويخرج الدخان من فتحة في السقف. ويعلق مرجل أسود كبير بواسطة خطاف فوق النار، ويغلي فيه حساء السمك، الرمادي اللون، وبرغوة، وأعتقد أن الأوروبي لن يتناوله مهما دفع له من ثمن. وتجلس «غيلان» عند الموقد. بقدر ما يبدو رجال الآينو وقورين وظريفين فإن الزوجات والأمهات

ذوات مظهر بشع. ويصف الكتاب مظهر نساء الآينو بأنه قبيح وحتى شنيع. فلون البشرة أسمر يشوبه الاصفرار، قضيم، العيون ضيقة، التقاطيع غليظة، وتتدلى جدائل الشعر الخشن عبر الوجه، مثل القصب في عنبر عتيق، والملابس مهلهلة، قبيحة، ولكن في الوقت نفسه إنهن بقوام ممشوق غير اعتيادي ولديهن ملامح الشيخوخة. وتطلي الزوجات شفاههن بلون أزرق مما يكسبهن مظهراً عجيباً غير بشري، وعندما تسنى لي التطلع إليهن ورؤية تلك الرصانة والقساوة تقريباً، وكيف يمزجن الطعام بالملاعق في القدور ويزلن الرغوة الوسخة منها، يتراءى لي أنني أرى ساحرات حقيقيات.

لكن الفتيات والصبايا لا يتركن مثل هذا الانطباع[1].

وأبناء شعب آينو لا يغتسلون أبداً، ويرقدون في الفراش من دون نزع ملابسهم.

إن جميع المؤلفين الذين كتبوا عن شعب آينو تناولوه من أحسن الجوانب. والانطباع العام هو أن هذا الشعب وديع ومتواضع جداً وطيب ويبدي الثقة بالآخرين بيسر، وهو حلو المعشر وودود ويحترم ممتلكات

1- إن ن. ف. بوسيه الذي نادراً ما يبدي العطف على الآخرين كتب ما يلي عن نساء الأينو: جاءني مساء أينو مخمور، يعرف بأنه سكير مدمن. وقد اصطحب معه زوجته، وبقدر ما استطعت أن أفهم بهدف التضحية بعفتها الزوجية بهدف الحصول على هدايا طيبة مني. علماً أن الآينكا كانت جميلة، وبدا لي أنها مستعدة لمساعدة زوجها، لكنني أظهرت لهما أني لا أفهم قصدهما. وعندما خرج الزوج والزوجة من بيتي صارا بلا كلفة يؤديان واجب الطبيعة تحت نافذة بيتي وأمام الحارس. وعموماً فإن هذه الآينكا لم تبد أي خجل كبير كامرأة. ولم يكن يغطي ثدييها أي شيء. والنساء الآينكات يرتدين ملابس تشبه ملابس الرجال، أي يرتدين عدة جلاليب قصيرة الواحد فوق الآخر وتشد بزنار من الأسفل. «بما أنهن لا يرتدين القمصان والملابس الداخلية ولهذا فإن أي انحلال في الملابس يكشف جميع العورات الخفية». لكن حتى هذا المؤلف الصارم يعترف بأنه «وجدت بين الفتيات حسناوات ذوات ملامح جميلة ونضرة، وعيون سوداء متوقدة». مع ذلك فإن الآينكات متخلفات جداً جسدياً، ويدلفن إلى الشيخوخة والذبول قبل الرجال. ربما ينبغي نسب ذلك إلى أن الشعب الذي واصل الترحال على مدى القرون كان من نصيب المرأة معاناة القسم الأكبر من الحرمان والعمل الشاق وذرف الدموع.

الغير، وجريء في الصيد وحسب تعبير الدكتور رولينا (Rollen`a)، رفيق لابيروز في رحلته، فإنه حتى مثقف. والصفات الرئيسية لأبناء هذا الشعب هي الإيثار والصراحة والصداقة والكرم. إنهم يلتزمون بالصدق ولا يطيقون الخداع. وقد ابتهج كروزنشترن كثيراً للتعرف عليهم، وذكر صفاتهم الروحية الحميدة، وقال في الختام: «إنهم يتسمون بهذه الصفات النادرة حقاً ليس بفضل التعليم العالي، بل من الطبيعة فقط، وقد أثارت هذه الصفات في الإحساس باحترام هذا الشعب أكثر من جميع الشعوب الأخرى التي عرفتها حتى الآن». بينما كتب رودانوفسكي: لا يمكن أن يوجد شعب مسالم ومتواضع أكثرمن هذا الشعب بين الشعوب التي لقيناها في الجزء الجنوبي من ساخالين». إنهم ينفرون ويفزعون من أي عنف. وروى أ. بولونسكي الحادث المؤلم التالي الذي استخرجه من الأرشيف. وحدث ذلك منذ وقت بعيد في القرن الماضي. فقد أراد تشيورني آمر سرية القوزاق الذي تولى قبول أبناء شعب آينو في المواطنة الروسية معاقبة بعضهم بالجلد. «لقد ارتعب الآينو لمجرد رؤية الاستعدادات لذلك، ولدى البدء بشد وثاق امرأتين بالحبال من الخلف، لكي يسهل جلدهما، هرب بعض أبناء شعب آينو إلى جرف عال، وهرب أحدهم مع 20 امرأة والأطفال في قارب إلى البحر... وتم جلد النساء اللواتي لم يلحقن بالهرب، بينما اقتاد القوزاق ستة من الرجال في الزوارق معهم، وبغية ألا يهربوا ربطوا أيديهم من الخلف، بشكل عنيف، لدرجة أن أحدهم فارق الحياة. وكان قد انتفخ جسده، وبدت يداه كأنهما تعرضتا للغليان، وربطوه بحجارة وألقوا به في البحر. وأراد تشيورني أن يظهر للبقية العبرة فقال: «هذا ما نفعله عندنا نحن الروس».

في الختام سأورد عدة كلمات عن اليابانيين الذين مارسوا دوراً بارزاً كهذا في تاريخ جنوب ساخالين. فمعروف أن الجزء الجنوبي من ساخالين أصبح تابعاً لروسيا بشكل قاطع فقط في عام 1875، أما قبل ذلك فكان ينسب إلى ممتلكات اليابان. وكتب الأمير ي. جوليتسين في عام 1854 في «إرشادات الملاحة التطبيقية وعلم الفلك البحري» - وهو كتاب يستخدمه البحارة حتى اليوم - أنه كان ينتمي إلى تبعية اليابان حتى شمال ساخالين مع رأسي ماريا ويليزافيتا. وكان الكثيرون ومنهم نيفيليسكي يشككون في

تبعية جنوب ساخالين إلى اليابان، كما إن اليابانيين لم يكونوا على ثقة بذلك حتى أقنعهم الروس، بسلوكهم الغريب، أن جنوب ساخالين هي أرض يابانية فعلاً في مطلع القرن الحالي، وليس قبل ذلك. وفي عام 1853 دون ن. ف. بوسيه حديثه مع مشايخ شعب آينو، الذين تحدثوا عن زمان استقلالهم وقالوا: «إن ساخالين هي أرض الآينيين، ولا توجد في ساخالين أرض يابانية». وفي عام 1806، في عام مآثر خفوستوف، كانت توجد على ضفة آنيفا قرية يابانية واحدة فقط. وكانت المباني فيها جميعاً من الألواح الخشبية الجديدة، وهذا يعني أن اليابانيين استقروا هناك منذ فترة قريبة جداً. وجاء كروزنشترن إلى آنيفا في أبريل في موسم تكاثر أسماك الرنجة، وكانت هناك وفرة من الأسماك والحيتان والفقمات وبدا كما لو أن المياه تغلي، علماً أنه لم تكن لدى اليابانيين شباك للصيد، وكانوا يغرفون الأسماك بواسطة الدلاء، ومعنى ذلك أن صيد الأسماك الوفير لم يكن يتم على نطاق واسع. وفي أغلب الظن أن هؤلاء كانوا أوائل المستوطنين اليابانيين من المجرمين الهاربين أو القادمين إلى أرض غريبة وتم طردهم من أرض الوطن.

لقد جذبت ساخالين اهتمام دبلوماسيتنا لأول مرة في مطلع القرن الحالي. ووجب على السفير ريازانوف المكلف بعقد تحالف تجاري مع اليابان أن يخضع أيضاً للتبعية الروسية جزيرة ساخالين التي «لم تكن تابعة للصينيين أو اليابانيين». وكان سلوكه بعيداً عن اللياقة بغية إرضاء اليابانيين. «فقد راعى تعصب اليابانيين حيال كل ما يتعلق بالديانة المسيحية» وحظر على أفراد طاقم السفينة رسم علامة الصليب وأمر بمصادرة جميع الصلبان منهم والأيقونات وكتب الأدعية والصلوات، وكل ما يمت بصلة إلى المسيحية والإشارة إليها». ولو صدقنا أقوال كروزنشترن فإن اليابانيين لدى استقبال ريازنوف لم يقدموا له حتى كرسياً للجلوس، ولم يسمحوا له بحمل السيف. وبحجة «مراعاة التعصب» حتى كان حافي القدمين. علماً أنه سفير، ونبيل روسي! واعتقد أن من الصعب إبداء اعتبارات الكرامة بقدر أقل. وأراد ريزانوف الانتقام من اليابانيين بعد فشل بعثته التام. فأمر ضابط البحرية خفوستوف بأن يرعب اليابانيين في ساخالين، وصدر هذا الأمر ليس

بالطريقة المعتادة بل بصورة غير مباشرة: وضع الأمر في مظروف مختوم لا يفتح إلا لدى الوصول إلى المكان المقرر»[1].

بهذا اعترف ريزانوف وخفوستوف لأول مرة أن جنوب ساخالين يعود إلى اليابانيين. لكن اليابانيين لم يسيطروا على ممتلكاتهم الجديدة وأرسلوا فقط أحد المساجين وهو ماميا – رينزو لمعرفة أحوال هذه الجزيرة. وعموماً كان سلوك اليابانيين في هذه القصة كلها حول ساخالين يتسم بعدم الحزم والخمول على الرغم من أنهم يتصفون بالمكر والنشاط والدهاء، ويعزى ذلك فقط إلى عدم توفر الثقة الكافية لديهم في حقوقهم مثل الروس.

بيكنيك مع القنصل الياباني (تشيخوف واقفاً من اليمين)

1- دمر خفوستوف مساكن اليابانيين ومستودعاتهم على ساحل آنيفا ومنح أحد شيوخ آينا الميدالية الفضية بشريط فلاديمير. وقد أثار هذا الاعتداء القلق الشديد لدى الحكومة اليابانية وأرغمها على إبداء الحذر أكثر. وفي وقت لاحق تم في جزر كوريل أسر القبطان جولوفين ومرافقيه، كما لو كانت البلاد في حالة حرب. وعندما أفرج حاكم ماتسماي عن الأسرى في وقت لاحق قال لهم رسمياً: «لقد تم أسركم جميعاً بسبب الاعتداءات التي قام بها خفوستوف، والآن حين أعلن المسؤولون في أخوتسكويه التوضيحات بهذا الشأن وكونها اعتداءات من قبل خفوستوف بات الأمر واضحاً ولهذا أعلن عن إعادتكم إلى بلدكم».

يبدو أنه تولدت لدى اليابانيين بعد دراسة الجزيرة فكرة استعمارها، وربما حتى تحويلها إلى مستعمرة زراعية، لكن هذه المحاولات إن وجدت كانت ستقود فقط إلى خيبة الأمل لأن العاملين اليابانيين لم يتحملوا الطقس في الشتاء أو تحملوه بجهد. وكان يأتي إلى ساخالين فقط صيادو السمك اليابانيون، مع النساء بصورة نادرة، فيسكنون هناك في الخيام (بيفواك). ولا يبقى هناك في الشتاء إلا عدد قليل منهم، يبلغ بضع عشرات، أما الباقون فيعودون في القوارب إلى مواطنهم: إنهم لم يزرعوا شيئاً ولم تكن لديهم حقول وماشية، وكانوا يجلبون معهم من اليابان كل مستلزمات المعيشة. وكان الشيء الوحيد الذي يجذبهم إلى جنوب ساخالين هو صيد الأسماك. وكانوا يحققون مكاسب كبيرة من ذلك نظراً لوفرة الأسماك هناك، ولم تكلفهم شيئاً تقريباً خدمات شعب آينو الذين كانوا ينفذون الجزء الأكبر من الأعمال الشاقة. وكانت الموارد تبلغ في البداية 50 ثم وصلت إلى 300 روبل في اليوم، وليس من العجب أن يرتدي أرباب الأعمال اليابانيون سبعة جلابيب حريرية. في البداية كانت لدى اليابانيين محطات تجارية فقط على ضفاف آنيفا وفي ماوكا حيث يعيش القنصل الياباني الآن. وفيما بعد شقوا طريقاً غير معبد من آنيفا إلى وادي تاكوي، ووجدت هناك حوانيتهم بالقرب من جالكين – فراسكي. ولم تنمُ النباتات في هذا الطريق حتى الآن وتطلق عليه تسمية الطريق الياباني. كما وصل اليابانيون إلى تارايكا حيث مارسوا صيد الأسماك في مواسم الصيد في بوروناي وأسسوا قرية سيسكو. ومن هناك بلغوا حتى خليج نايسكي. وكانت السفينة التي شاهدها بولياكوف في عام 1881 في ترو سفينة يابانية.

لقد اهتم اليابانيون بسخالين فقط من وجهة النظر الاقتصادية، كما اهتم الأمريكيون بجزيرة الفقمات. وبعد أن أسس الروس مخفر مورافيوفسكي في عام 1853 بدأ اليابانيون بممارسة النشاط السياسي. وقد أرغمهم احتمال فقدان الموارد الطيبة والعمال بالسخرة على متابعة تحركات الروس باهتمام، وحاولوا تقوية نفوذهم في الجزيرة لمواجهة النفوذ الروسي. لكن هذه المواجهة مع الروس كانت مجدداً غير حاسمة بشكل مضحك، ربما لعدم توفر الثقة بوجود حقوق لهم هناك، وسلك اليابانون سلوك الأطفال. واكتفوا

فقط بأن بثوا مختلف الإشاعات في أوساط شعب آينو، وتفاخروا بأنهم سيذبحون جميع الروس. وحالما كان الروس يقيمون مخفراً في مكان ما، سرعان ما يعمد اليابانيون إلى إقامة موقع لهم، لكن فقط على الضفة الأخرى من المكان نفسه. وعلى الرغم من رغبة اليابانيين في إظهار قوتهم فإنهم بقوا مسالمين ولطيفين، وكانوا يرسلون إلى الجنود الروس السمك، وحينما كان هؤلاء يطلبون منهم الشباك فإنهم يستجيبون للطلب عن طيب خاطر.

في عام 1867 وقعت معاهدة تنص على تبعية الجزيرة إلى الدولتين على أساس الملكية المشتركة: اعترف الروس واليابانيون بحقوق الجانبين في التصرف في الجزيرة، ومعنى ذلك أن الطرفين لم يعتبرا الجزيرة ملكاً لأحدهما[1]. ولكن في اتفاقية عام 1875 تم ضم ساخالين نهائياً إلى الإمبراطورية الروسية، بينما حصلت اليابان بالمقابل بمنزلة مكافأة على جميع جزر كوريل التابعة لنا[2].

وإلى جانب الوادي الذي أقيم فيه مخفر كورساكوفسكي واد آخر احتفظ بتسميته القديمة منذ أن وجدت فيه القرية اليابانية كوتان. ولم يبق أي مبنى ياباني هنا. لكن يوجد حانوت تبيع فيه عائلة يابانية البقول والسلع الصغيرة، أنا اشتريت هناك الكمثرى اليابانية الصلبة، - لكن هذا الحانوت افتتح في

1- يبدو أنه تنفيذاً لرغبة اليابانيين في استعباد شعب آينو على أساس قانوني قد أدرجوا في المعاهدة بنداً يتسم بالخطر واعتبروا فيه جميع الغرباء مدينين لهم ويجب عليهم دفع الدية بالعمل أو بشكل خدمات أخرى. علماً بأنه لم يكن في ساخالين أي آينو لا يعتبره اليابانيون مديناً لهم.

2- اعتبر نيفيلسكوي بإصرار أن ساخالين من ممتلكات روسيا بحكم أن أهلها هم شعب التونجوس الروس كما يرد في وثائق عام 1742 بينما جاء الروس إلى جنوب ساخالين في عام 1806. واعتبر التونجوس الروس من عشيرة الأوروتش، ولكن علماء الإثنوجرافيا لا يتفقون مع هذا الرأي. علماً أن الرحالة الهولنديين وصفوا ساخالين قبل الروس، أما بصدد احتلالها في عام 1806 فالحقائق تدحض مسألة الأولوية. فلا ريب في أن اليابانيين لهم حق إجراء الدراسات الأولية، وكان اليابانيون أول من احتل جنوب ساخالين. لكننا بالغنا في الكرم، كما أعتقد، وكان من الممكن إعطاء اليابانيين من «جانب الاحترام» كما يقول الموجيك خمس أو ست جزر كوريل القريبة من اليابان، بينما أعطينا 22 جزيرة تدر الآن دخلاً يعادل مليون روبل سنوياً.

فترة متأخرة. وينتصب في الوادي في موقع بارز مبنى أبيض يرفع فوقه أحياناً علم - أبيض وفي وسطه دائرة حمراء. إنه مبنى القنصلية اليابانية.

زارني في صباح أحد الأيام، حينما هبت رياح نورد - أوست، وكانت الشقة باردة، ولففت جسدي باللحاف، القنصل الياباني السيد كوزيه وسكرتيره السيد سوجياما. فاعتذرت فوراً بسبب البرد الشديد في شقتي.

أجاب الضيفان: - أوه، لا بأس. إن الجو دافئ جداً عندكم.

لقد حاولا في تعابير الوجه وفي اللهجة أن يظهرا لي أن الجو في شقتي ليس دافئاً فقط، بل حتى حار - إنها جنة على الأرض من جميع النواحي.

إنهما من اليابانيين الأقحاح ولديهما، طراز وجه مغولي، وقامة متوسطة. والقنصل في حوالي الأربعين من العمر، بلا لحية، والشوارب لا تكاد تلحظ، كما أنه عريض المنكبين. أما السكرتير فهو أصغر منه سناً بحوالي عشرة أعوام، يضع عوينات زرقاً - تبدو عليه علائم الإصابة بالتدرن الرئوي - أحد ضحايا الطقس في ساخالين. وثمة سكرتير آخر هو السيد سوزوكي. وهو قصير القامة، دون الطول المتوسط، وشاربه طويل يتدلى إلى الأسفل على الطريقة الصينية، وعيناه ضيقتان، فيهما حول، - يعتبر من وجهة النظر اليابانية وسيماً جداً. قال السيد كوزيه لدى الحديث عن أحد الوزراء اليابانيين: «إنه وسيم ويتصف بالرجولة مثل سوزوكي». إنهم يرتدون الزي الأوروبي خارج البيت - ويتقنون اللغة الروسية، وعندما كنت أزورهم في القنصلية كنت أجدهم في غالب الأحيان يطالعون الكتب الروسية أو الفرنسية، ولديهم صوان كامل مملوء بالكتب. إنهم ذوو ثقافة أوروبية ويتحلون بالدماثة واللباقة والبشاشة. ويجد الموظفون المحليون في القنصلية اليابانية ركناً جيداً ودافئاً، حيث يمكن نسيان السجون والأشغال الشاقة وخصومات الوظيفة، أي الاستجمام.

والقنصل يقوم بدور الوسيط بين اليابانيين العاملين في صيد الأسماك وغيرذلك من الأعمال والإدارة المحلية. وفي أيام المحافل والأعياد يتوجه القنصل مع سكرتاريه بأبهى حلة رسمية، إلى رئيس المخفر في وادي كوسون-كوتان، من أجل تقديم التهاني له. ويقابلهم السيد بيلي بالمثل،

فهو يتوجه سنوياً في أول ديسمبر إلى كوسون - كوتان لتقديم التهاني إلى القنصل بمناسبة عيد ميلاد الإمبراطور. ويشربون عندئذ الشمبانيا. وعندما يحضر القنصل إلى المحاكم العسكرية تطلق له التحية العسكرية سبع مرات. وقد حضرت المراسم أثناء تسليم وسامي آنا وستانيسلاف من الطبقة الثالثة إلى السيد كوزيه والسيد سوزوكي. وجاء السيد بيلي والرائد «ش» والسيد «ف» سكرتير مديرية الشرطة بالملابس الرسمية، بصورة احتفالية، إلى كوسون - كوتان لتسليم الأوسمة. وقد رافقتهما. وأعرب اليابانيون عن تأثرهم البالغ لمنحهم الأوسمة، وذلك بالهيئة الاحتفالية التي هم من هواتها، وقدموا الشمبانيا. ولم يخف السيد سوزوكي ابتهاجه وتفحص الوسام من كل الجوانب بعينين متألقتين، كما يتفحص الطفل لعبة ما.

ولاحظت على وجهه «الوسيم المتسم بالرجولة» الصراع التالي: أراد أن يذهب بسرعة إلى بيته لكي يري زوجته الشابة الوسام (كان قد تزوج منذ فترة قريبة)، وفي الوقت نفسه تطلبت آداب اللياقة أن يبقى مع الضيوف[1].

1- إن العلاقات بين الإدارة المحلية واليابانيين ممتازة، وهذا ما يجب أن تكون عليه، فإلى جانب تبادل أنخاب الشمبانيا في المناسبات الاحتفالية، يجد الطرفان وسائل أخرى لإقامة هذه العلاقات. وأورد ما جاء في إحدى الوثائق المستلمة من القنصل: «السيد رئيس دائرة كورساكوفسكي. بصدد الأمر الصادر عنكم بتاريخ 16 أغسطس والمرقم 741 حول توزيع العلاوات المرسلة من قبلكم للتعويض عن الأضرار الناجمة عن غرق السفينة الشراعية والزورق (جونكا) بما فيها من حمولة أربعة براميل من الأسماك المملحة وخمسة أكياس من الملح، ويشرفني الإعراب باسم أصحابها المساكين لكم، أيها السيد الموقر، عن الامتنان الخالص عن تعاطفكم وتبرع أمتكم الجارة الصديقة بالأشياء الهامة جداً لهم. وأنا على ثقة تامة بأن هذا سيترسخ في ذاكرتهم الطيبة إلى الأبد. كوزيه قنصل الإمبراطوريه اليابانية». بالمناسبة فإن هذه الرسالة يمكن أن تدل على النجاحات التي يحققها الأمناء الشباب اليابانيون في تعلم اللغة الروسية. فالضباط الألمان الذين يتعلمون اللغة الروسية والأجانب الذين يترجمون أعمال الأدب الروسي يكتبون بشكل أسوأ بكثير.

-15-

السجناء - أصحاب الأملاك. - الانضمام إلى المستوطنين. - اختيار مواقع القرى الجديدة. - منح رخص بناء المساكن. - الشراكة مناصفة. - الانتساب إلى الفلاحين. - انتقال الفلاحين المنفيين إلى القارة. - الحياة في القرى. - قرب السجن. - التركيبة السكانية وفقاً لمكان الولادة والانتماء الطبقي. - السلطات الريفية.

عندما ترمي العقوبات إلى تحقيق أهداف أخرى غير أهدافها المباشرة أي - الانتقام والترهيب أو الإصلاح، مثل أهداف الاستيطان، يكون من الضروري أن تتكيف باستمرار مع متطلبات التوطين أو تقديم تنازلات. فالسجن هو نقيض الاستيطان، ومصالح الاثنين تدرج في موقف متضاد. إن الحياة في الزنزنات المشتركة تحول الفرد إلى عبد وبمرور الزمن تقود السجين إلى الانحطاط. إن غرائز الإنسان المستقر، وصاحب العمل، ورب الأسرة، تخمد فيه، بينما تغلب عادات الحياة المتوحشة، وتتدهور صحته، ويدلف إلى الشيخوخة، ويضعف معنوياً، وكلما بقي الفرد في السجن فترة أطول وخرج منه في وقت متأخر، توفّرت الأسباب أكثر للخشية من أنه سيخرج من السجن ليس عضو المستوطنة النشيط والنافع، بل سيشكل عبئاً عليها فقط. ولهذا فإن ممارسات الاستيطان تتطلب قبل كل شيء تقليص فترة السجن والأعمال القسرية، ومن هذه الناحية فإن «نظام المنفيين» يقدم تنازلات كبيرة. فتحسب لفصيلة المحكومين بالأشغال الشاقة فترة عشرة أشهر بدلاً من كل عام، وإذا كان السجين من الدرجة

الثانية أو الثالثة، أي الذين تبلغ فترة محكوميتهم من 4 إلى 12 عاماً، فإنهم يوجهون للعمل في المناجم حيث يحسب كل عام من العمل هناك بكونه فترة عام ونصف[1]. وبموجب النظام يسمح للسجين الذي ينسب إلى فئة الإصلاحيين بالعيش خارج السجن، وبناء بيت له، والزواج وامتلاك النقود. علماً أن الحياة الواقعية في هذا المنحى قد تجاوزت أحكام «البيان». وبغية تيسيرالتحول من فئة إلى أخرى أكثر استقلالية أمر حاكم إقليم بريموريا في عام 1888 بالإفراج عن المجتهدين في العمل وذوي السلوك الطيب قبل الموعد المحدد للإفراج عنهم. وجاء ذلك في الأمر (رقم 302). بينما وعد الجنرال كونونوفتش بإعفاء السجناء من العمل قبل عامين وحتى ثلاثة أعوام من فترة العمل الكاملة المقررة. وتعيش جميع السجينات المحكومات بالأشغال الشاقة حتى بلا صدور أحكام وأوامر، لكن بحكم الضرورة، نظراً لوجود حاجة إلى عملهن في المستوطنة، كما يعيش الكثيرون ممن يجري اختبارهم وحتى الصادر عليهم الحكم المؤبد، إذا كانت لديهم أسر أو كانوا من الحرفيين الجيدين والمساحين وسائقي العربات التي تجرها الأيائل وهلمجرا. ويسمح للكثيرين بالإقامة خارج السجن لاعتبارات «إنسانية» بحتة، وانطلاقاً من أن هذا السجين لا يجلب أي ضرر لو عاش في مسكن، أو أن السجين «ز» المحكوم عليه بالسجن المؤبد يسمح له بالعيش بحرية في شقة فقط لأنه جاء مع زوجته وأطفاله، كما أن عدم السماح بذلك للسجين «ن» المحكوم لفترة قصيرة يعتبر شيئاً غير عادل.

كان يوجد بحلول 1 يناير 1890 في جميع السجون في الدوائر الثلاث في ساخالين 5905 أفراد من السجناء من الجنسين. وبلغ عدد المحكومين بالسجن لفترة 8 أعوام 2124 فردا (36%)، وللفترة من 8 إلى 12 عاماً –1567 فرداً (26,5%)، وللفترة من 12 إلى 15 عاماً – 747 فرداً (12,7%)،

1- يوجد في كل مكتب إدارة في ساخالين «كشف المواعيد». ويتبين فيه أن فترة وجود السجين الذي تبلغ فترة محكوميته 17 عاماً ونصف في الأشغال الشاقة تعادل في الواقع 15 عاماً و3 أشهر، وإذا ما شمله بيان العفو فإنها تبلغ 10 أعوام و4 أشهر فقط. ويتم الإفراج عن المحكوم بالسجن لفترة 6 أعوام بعد 5 أعوام وشهرين، وفي حالة صدور بيان العفو يفرج عنه بعد 3 أعوام و6 أشهر.

وللفترة من 15–20 عاماً – 731 (12,3%)، والمحكومين بالسجن المؤبد 386 فرداً (6,5%)، وعتاة المجرمين أصحاب السوابق المحكومين في الفترة من 20 إلى 50 عاماً – 175 (3%). ويشكل المحكوم عليهم بالسجن لفترة قصيرة وللفترة حتى 12 عاماً 62,5%. أي أكثر بقليل من نصف العدد الإجمالي للسجناء. أنا لا أعرف متوسط أعمار المحكوم عليهم بالسجن منذ فترة وجيزة، لكن اعتماداً على تشكيلة أعمار المنفيين في الوقت الحاضر فإنه يجب ألا يقل عن 35 عاماً، وإذا ما أضفنا إلى ذلك متوسط فترة السجن والنفي البالغة 8–10 أعوام، وإذا ما أخذ بنظر الاعتبار أيضاً، أن السجين في فترة الأشغال الشاقة يدلف إلى الشيخوخة بصورة مبكرة أكثر، مما في الظروف العادية، يغدو واضحاً أنه لدى تنفيذ الحكم على السجين بحذافيره والالتزام بـ «أحكام القانون»، والحبس الشديد في السجن، والعمل تحت رقابة الحراس من العسكريين وهلمجرا، فإن السجين يفقد القدرة على العمل ويأتي نصف السجناء إلى المستوطنة بهذا الوضع.

كان عدد السجناء أرباب العمل من الجنسين في أثناء وجودي هناك يبلغ 424، كما سجل السجناء من الجنسين القاطنون في المستوطنات بصفة زوجات وأخلاء وخليلات وعاملين وساكنين وهلمجرا، الذين سجلتهم يبلغ 908. وعاش إجمالاً خارج السجن في بيوت خاصة بهم وشقق حرة 1332، أي نسبة 23% من العدد الإجمالي للسجناء[1]. ولا يختلف السجناء في المستوطنات عن المستوطنين بصفتهم أصحاب مزارع. كما أن السجناء العاملين في المزارع كعمال ينجزون العمل نفسه الذي يقوم به العمال الريفيون عندنا. ويعتبر نسب السجين العامل إلى صاحب العمل، وهو من المنفيين أيضاً، يعتبر إلى حين شكل الشغل الشاق الوحيد الذي يتم تطبيقه في الممارسة الروسية، وهو بلا ريب أفضل من مكسب العامل الزراعي

1- أنا لا أذكر هنا السجناء الذين يعيشون في بيوت الموظفين كخدم. وأعتقد عموماً أن نسبة الذين يعيشون خارج السجون تعادل 25%. علماً أن هذه النسبة تزداد حين تشمل أحكام المادة 305 من «النظام» التي تسمح للسجناء بالعيش خارج السجن دائرة كورساكوفسكي حيث يعيش جميع السجناء بلا استثناء في السجن تنفيذاً لرغبة السيد بيلي.

المأجور في أوستراليا. إن الأهالي من السجناء يبيتون فقط في الشقق، لكن يجب عليهم الالتزام بالواجبات والأعمال مثل المقيمين في السجن. وعلى سبيل المثال فإن الحرفيين كالإسكافيين والنجارين ينجزون عملهم في الشقق[1].

وبما أن ربع السجناء والمنفيين يعيشون خارج السجن، لا تحدث أية اضطرابات، ولابد لي من الاعتراف بأن إحلال النظام في سجوننا غير سهل بالذات لأن بقية ثلاثة أرباع السجناء يعيشون في السجون. طبعاً، نحن نستطيع الحديث عن أفضليات البيوت بالقياس إلى الزنزانات المشتركة فقط لاحتمال عدم وجود رقابة ليلية لدينا في هذا المجال البتة. ولم يثبت أحد بعد أن الجرائم وحوادث الاعتداءات في أوساط السجناء الذين يعيشون في البيوت هي أقل مما لدى الرازحين في السجن، وأن عمل الفئة الأولى أكثر مردوداً من عمل الفئة الثانية، لكن من المحتمل جداً، أن إحصائيات السجون لابد أن تبحث هذه المسألة إن عاجلاً أو آجلاً، وإعطاء النتيجة النهائية لمصلحة السكن في البيوت. لكن لا يماري أحد حتى الآن في شيء واحد هو أن المستوطنة ستكون الفائزة لو أن كل سجين يبدأ حال وصوله إلى ساخالين ببناء مسكن له ولأسرته فوراً ويبدأ بممارسة عمله الاستيطاني في وقت مبكر قدر الإمكان، حينما يكون لا يزال شاباً ومعافى. ولن تخسر العدالة عندئذ أي شيء، لأن المجرم عندما يلتحق بالمستوطنة منذ اليوم الأول، يكابد أصعب الأمور قبل الانتقال إلى وضع المستوطن وليس بعد ذلك.

حينما تنتهي فترة العقوبة يتحرر السجين من الأعمال الشاقة وينتقل للعيش في المستوطنة، ولا يحدث تأخير في ذلك. يبقى المستوطن الجديد في ألكسندروفسك، أو في المستوطنة التي تعجبه، إذا ما توفرت لديه النقود، وحماية الرئاسة، واشترى أو بنى بيتاً له، إذا لم يفعل ذلك حين كان في وضع السجين، ولا يشترط بالنسبة لهذا السجين العمل في الزراعة أو

1- لدى جميع أصحاب البيوت في ألكسندروفسك مستأجرون، وهذا ما يجعل المخفر يتسم بصفات المدينة. وقد سجلت في أحد البيوت 17 فرداً. لكن عدد الشقق المزدحمة بالسكان كهذه لا يختلف كثيراً عن الزنزانات المشتركة.

ممارسة العمل الحرفي. وإذا ما كان ينتمي إلى الأكثرية العادية التي تشكل الأغلبية، فإنه يستقر عادة في قطعة الأرض التي تقررها الإدارة، وإذا كانت القرية مزدحمة ولا توجد قطعة أرض صالحة للزراعة، فينسب إلى مزرعة جاهزة بصفة مالك لها أو مشارك في ملكيتها، أو يرسل إلى مكان جديد[1]. إن اختيار المكان لتأسيس قرى جديدة يتطلب توفر الخبرة وبعض المعارف الخصوصية من قبل الإدارة المحلية، أي حكام الدوائر ومديري السجون ومديري المستوطنات. ولا توجد أية قوانين أو تعليمات بهذا الخصوص، وكل شيء يتوقف على الظرف الطارئ لهذا الملاك أو ذاك من الموظفين: سواء الموجودين في الخدمة منذ وقت طويل ويعرفون المنفيين والمكان مثل السيد بوتاكوف في الشمال والسيد بيلي والسيد يارتسيف في الجنوب، أو أن يكون الموظف حديث العهد في منصبه، وينتمي في أفضل الأحوال إلى أساتذة اللغة والحقوقيين والملازمين من المشاة، وفي أسوأ الأحوال - أن يكون من غير المتعلمين، ولم يخدم سابقاً في أي مكان، وأغلبهم من شباب المدن الذين لا يعرفون الحياة. أنا كتبت سابقاً عن موظف لم يثق بأبناء الأقليات القومية والمستوطنين، عندما حذروه من أن مياه الفيضانات ستغمر المكان الذي اختاره لتأسيس قرية بحلول الربيع وفي أثناء الأمطار الغزيرة. وفي أثناء وجودي في ساخالين ذهب أحد الموظفين مع حاشيته لمسافة 15-20 فرستا من أجل الإطلاع على مكان جديد ووافق على ذلك، وقال إن الرحلة كانت ممتعة جداً.

نادراً ما يتوجه الموظفون القدامى الأكثر خبرة للبحث عن أماكن جديدة، ولا تراودهم الرغبة في ذلك، لأنهم يكونون مشغولين دوماً

1- تعتبر ساخالين من الأقاليم الواقعة في أقصى سيبيريا. وفي أغلب الظن، وبسبب المناخ القاسي فيها، كان ينسب إلى العمل فيها فقط السجناء الذين أمضوا فترة العقوبة في الجزيرة، واستطاعوا بذلك الاعتياد على المكان أو التعرف عليه. ويبدو أن هناك رغبة الآن في تغيير هذا النظام. وفي أثناء وجودي أمر البارون أ. ن. كورف بأن يقتاد إلى ساخالين ويرسل إلى ديربينسكي يهوذا جامبرج المحكوم عليه بالنفي إلى سيبيريا بغية الاستقرار في الجزيرة، ويعيش في دوبكي المستوطن سيمون ساولات الذي يجب أن يقضي فترة محكوميته ليس في ساخالين بل في سيبيريا. كما يوجد هناك منفيون إدارياً.

بأعمال أخرى. أما الموظفون الصغار فهم عديمو الخبرة، ويتسمون بعدم المبالاة. إن الإدارة تتباطأ، وتجرجر الأمور، وفي النتيجة يحدث ازدحام في القرى الموجودة. وفي نهاية المطاف يحدث بصورة عفوية أن يطلبوا المعونة من السجناء والجنود الحراس، الذين يختارون أحياناً بصورة موفقة واعتماداً على الإشاعات أماكن مناسبة لتأسيس القرى. في عام 1888 طلب الجنرال كونونوفتش (رقم 280) «أن يتم من أجل اختيار أماكن صالحة لبناء المستوطنات الجديدة تشكيل فرق فوراً من السجناء والمنفيين الموثوق بهم وتحت حراسة سجانين أو موظفين حثيثين لهم خبرة كبيرة في هذا المجال»، بعد أن لم يعد يوجد في دائرة تيم ودائرة ألكسندروفسك مكان لاستقطاع الأراضي الزراعية، بينما يزداد عدد المحتاجين إلى ذلك بسرعة. وستقوم هذه الفرق بالتجول في الأماكن غير المكتشفة كلياً، ولم تطأها قدم الخبير الطوبوغرافي من قبل. ويجري اكتشاف الأماكن، لكن لا يعرف مدى ارتفاعها عن سطح البحر، ونوعية التربة هناك، وتوفر الماء وهلمجرا. ولا يمكن أن يتقرر مدى صلاحيتها للاستيطان والزراعة سوى بالحدس، ولهذا يتم اتخاذ القرار النهائي عادة بشأن صلاحية هذا المكان أو ذاك بصورة اعتباطية، وعسى ولعل، ولا يسأل عندئذ رأي الطبيب أو الخبير الطوبوغرافي اللذين لا وجود لهما في ساخالين، بينما يأتي المساح إلى المكان الجديد بعد اقتلاع الأشجار والإقامة فيه.

عندما قام الحاكم العام بجولة تفقدية في القرى أورد لي انطباعاته كالآتي: «الأشغال الشاقة تبدأ ليس في الأشغال الشاقة بل في الاستيطان». وإذا ما قيست شدة العقوبة بكمية العمل المنجز وبالحرمانات الجسدية، ففي ساخالين غالباً ما يتحمل المستوطنون عبء عقوبة أشد من السجناء. والمستوطن يعمل في المكان الجديد حيث تسود المستنقعات أو الغابات بينما لا توجد في حوزته سوى بلطة النجار والمنشار والمجرفة. إنه يقتلع أشجار الغابات ويشذب جذوعها ويحفر الترع من أجل تجفيف الأرض في المنطقة، ويعيش في العراء فوق هذه الأرض الرطبة طوال الوقت حين يقوم بالأعمال التحضيرية. إن خصوصية الطقس في ساخالين تكمن في أنه غائم والأمطار تهطل يومياً تقريباً، ودرجة الحرارة متدنية ولا تتحسس بحدة

في أي مكان كما في هذه الأعمال، حينما يعمل الإنسان خلال عدة أسابيع ولا يمكن أن يتخلى في أية لحظة عن الإحساس بالرطوبة الشديدة والقر. إنها حمى febris sachaliniensis[1] حقيقية يرافقها الصداع ووجع متواصل في كل الجسم، الناجم ليس عن العدوى بل عن الظروف المناخية. يجري في البداية بناء القرية ومن ثم شق الطريق المؤدية إليها، وليس بالعكس، وبفضل ذلك تهدر بلا فائدة تقريباً قوى كثيرة والصحة بلا معنى خلال تحمل الأعباء الثقيلة لمخفر لا يوجد منه حتى ممر مطروق إلى المكان الجديد... إن المستوطن المحمل بالمعدات والمواد الغذائية وهلمجرا يقتحم غابات التايغا الكثيفة، فيغوص في الماء حتى الركبتين، أو يسحب إلى فوق الجبال الحطب تارة أو يتعثر وسط أغصان باجولنيك القاسية تارة أخرى. إن المادة 307 من «نظام المنفيين» تقول إن السجناء الذين يستقرون للإقامة خارج السجن تمنح لهم الأخشاب من أجل بناء المساكن. وتفسر هذه المادة هنا كالآتي: أن المستوطن يجب أن يقطع الأشجار في الغابات وأن يشذبها بنفسه. في الأزمنة الماضية كان يخصص سجناء من أجل مساعدة المستوطن، وتمنح له النقود لكي يشغل النجارين ويشتري المواد، لكن تم التخلي عن هذا البند باعتبار أنه «حدث كما روى لي أحد الموظفين: أن حصلنا في النتيجة على كسالى متبطلين، فقد كان السجناء يعملون، بينما يمارس المستوطن في هذا الوقت لعبة الميسر- أورليانكا». أما الآن فإن المستوطنين يدبرون أمورهم بأنفسهم بمساعدة بعضهم بعضاً. فالنجار يبني الهيكل الخشبي للمسكن وعامل البناء يبني الموقد والنشار ينشر الألواح. إذا لم تتوفر لدى أحد ما القوة والقدرة على العمل، لكن تتوفر لديه النقود لكي يستأجر رفاقه. وينفذ أصعب الأعمال الأشخاص الأقوياء بدنياً القادرون على تحمل مشقات العمل، أما الضعفاء الذين فقدوا في السجن صفات الفلاح، إذا لم يمارسوا لعبة أورليانكا أو لعب القمار، أو يتخفون من البرد، فإنهم يمارسون أحد الأعمال الخفيفة نسبياً. علماً أن الكثيرين يرزحون تحت عبء العمل وتخور عزيمتهم فيتركون المساكن قبل إنجاز بنائها. إن أبناء قومية مانزي الصينية وشعوب القوقاز لا يحسنون

1- حمى ساخالين (باللاتينية).

بناء البيوت الروسية، وعادة يهربون في السنة الأولى. إن نصف أصحاب المزارع في ساخالين تقريباً لا يملكون مساكن خاصة بهم، ويعزى ذلك وقبل كل شيء، كما أعتقد، إلى الصعوبات التي يلقاها المستوطن في بداية الاستيطان. وطبقاً للمعطيات التي حصلت عليها من تقرير المفتش الزراعي فإن عدد أصحاب المزارع بلا مساكن في عام 1889 في دائرة تيم كان يعادل 50% من العدد الإجمالي، وفي دائرة كورساكوفسك - 42%، وفي دائرة ألكسندروفسك، حيث تقترن أعمال البناء بصعوبات أقل، وغالباً ما يشتري المستوطنون المساكن الجاهزة، بينما تشيدها نسبة 20% بالمائة فقط. وعادة حينما يتم بناء هيكل المسكن يوفر له الزجاج والحديد بشكل قرض. ويذكر حاكم الجزيرة هذا القرض في أحد الأوامر الصادرة عنه: «للأسف البالغ فإن هذه القروض، مثل أمور كثيرة أخرى، تنتظر فترة طويلة لتقديمها، مما يشل الرغبة في امتلاك المساكن.. وفي خريف العام الماضي لاحظت في أثناء جولتي في قرى دائرة كورساكوفسك وجود مساكن تنتظر الزجاج والمسامير والحديد من أجل أبواب المواقد، وقد لاحظت وجود مثل هذه المساكن التي تنتظر هنا أيضاً» (الأمر رقم 318، 1889)[1].

ولا تجري دراسة للمكان الجديد حتى إذا تم استيطانه. ويرسل إلى المكان الجديد 50-100 شخص من أصحاب المزارع، ثم يضاف إليهم العشرات من المستوطنين الجدد سنوياً، علماً أنه لا يعرف أحد الأفراد الذين يكفون للعمل في الأرض المناسبة، وهذا هو سبب نشوء الازدحام

1- يمكن أن تنفع هنا النقود التي يجب أن يحصل عليها السجين في المنفى مقابل عمله في فترة السجن. وبموجب القانون تمنح إلى السجين نسبة عشر أجرة العمل الذي ينجزه. وكانت أجرة العمل في شق الطرق تعادل 50 كوبيكاً يومياً. علماً بأنه يسمح للسجين بأن ينفق خلال فترة محكوميته لأغراضه الشخصية ما لا يربو عن نصف ما يكسبه من نقود. أما البقية فتسلم له لدى الإفراج عنه. علماً أنه لا يمكن أن تفرض على هذه النقود أية رسوم مدنية أو قضائية، وفي حالة وفاة السجين يسلم المبلغ إلى ورثته. وتعطى المعدات بالأجرة لمدة 5 أعوام بشرط أن يدفع المستأجر خمس المبلغ سنوياً. وفي دائرة كورساكوفسك يبلغ بدل أجرة البلطة 4 روبلات، والمنشار الطويل 13 روبلاً، والمجرفة روبلاً و80 كوبيكاً، وتمنح إلى المستأجر فقط إذا لم يستخدم نجاراً في العمل.

ووجود أفراد أكثر من الحاجة عادة بعد فترة قليلة من استيطانها. ولا يلاحظ ذلك في دائرة كورساكوفسك فقط، حيث تزدحم بالسكان المخافر والقرى في كلتا الدائرتين الشماليتين. وحتى المسؤول المهتم مثل أ. م. بوتاكوف، حاكم دائرة تيم، فإنه يوزع المستوطنين كيفما اتفق في الأراضي من دون اعتبار للمستقبل. ولا يوجد في أية دائرة أخرى مثل هذا العدد الكبير من المالكين المشاركين أو المزارع المجهزة الكبيرة، كما هو الحال لديه. ويبدو كما لو أن الإدارة نفسها لا تثق بالمستوطنة الزراعية وشيئاً فشيئاً استقرت لديها فكرة أن المستوطن لا يحتاج إلى الأرض لفترة طويلة، بل لمدة ستة أعوام فقط، وأنه حالما يحصل على حقوق الفلاح يغادر الجزيرة، وفي هذه الظروف تغدو مسألة قطع الأرض ذات أهمية شكلية فحسب. وطبقاً لما سجلته توجد 3552 مزرعة منها 638 أي 18% ذات ملكية مشتركة، وإذا استثنينا دائرة كورساكوفسك، حيث يوجد مالك واحد للمزرعة فقط، فإن هذه النسبة تكون أعلى بقدر كبير.. وفي دائرة تيم كلما كانت المزرعة فتية أكثر تكون نسبة المشاركين فيها بالمناصفة أعلى، وفي دائرة فوسكريسينسك مثلاً توجد 97 مزرعة، ويبلغ عدد المشاركين فيها بالمناصفة 77، وهذا يعني أنه يغدو صعباً أكثر في كل عام إيجاد أماكن جديدة وتوزيع قطع الأراضي على المستوطنين[1].

يلزم المستوطن بأن يدير شؤون المزرعة كما يجب وبصورة صحيحة. ويحكم عليه في حالة الكسل وقلة الهمة وعدم الرغبة في إدارة شؤون المزرعة بالعمل الشاق كسجين لمدة عام واحد وينقل من مسكنه إلى السجن. وتسمح المادة 402 من «النظام» للحاكم العام في أقليم بريموريه بأن «ينفق من مخصصات الميزانية على المستوطنين في ساخالين في حالة عدم توفر الموارد لديهم، حسب رأي السلطات المحلية. وفي الوقت الحاضر تتلقى غالبية المستوطنين في ساخالين من خزانة الدولة الملابس

1- يعيش صاحب المزرعة وشريكه في بيت واحد وينامون على سطح مدفأة واحدة. ولا يقف اختلاف العقيدة الدينية وحتى الجنس حائلاً دون إقامة شراكة. أذكر أنه وجد في ريكوفسكويه لدى المستوطن جولوبيف شريك بالمناصفة هو اليهودي ليوبارسكي. كما توجد هناك أيضاً شريكة لدى المستوطن إيفان خافريفتش هي ماريا بروديا جا.

والطعام بمقدار يعادل حصة السجين العادي خلال العامين الأولين وحتى ثلاثة أعوام الأولى من الاستيطان. إن الإدارة تقدم هذه المساعدة إلى المستوطنين انطلاقاً من الاعتبارات الإنسانية والضرورة العملية. وفعلاً لا يمكن قبول فكرة أن يستطيع المستوطن العمل في آن واحد في بناء المسكن لنفسه، وتهيئة الأرض للزراعة، وفي الوقت ذاته يكسب لقمة العيش لنفسه يومياً. لكن ليس من الأمور النادرة أن نجد في الأوامر أن المستوطن يفقد الحق في الحصول على المعونة إذا ما استسلم إلى الكسل «ولم يبدأ ببناء المسكن» وهكذا دواليك [1].

عندما تنصرم فترة عشرة أعوام من معيشة المستوطنين في المستوطنة تمنح لهم الفرصة للاستقرار كفلاحين. وتمنحهم هذه الصفة الجديدة الكثير من الحقوق. ويستطيع الفلاح من المنفيين عندئذ مغادرة ساخالين والاستقرار حسب رغبته في أي مكان في سيبيريا باستثناء مقاطعات سيميريتشينسك وأكمولا وسيميبالاتينسك، والانضمام إلى الجمعيات الفلاحية، والعيش بموافقتها في المدن وممارسة مختلف الحرف والصناعات. ويقدم الرجل للمحاكمة ويعاقب بموجب القوانين العامة وليس بموجب أحكام «نظام المنفيين». كما يتلقى ويرسل البريد أيضاً على أساس النظام العام، من دون

1- لقد تحدثت سابقاً عن الفقر الشديد لسكان الريف الذين يقضون فترة المحكومية بالسجن هنا على الرغم من المعونات والدعم المستمر من خزانة الدولة. وأعطى أحد المسؤولين صورة لحياة الإدقاع تقريباً هنا: «دخلت في قرية لوتوجا أحد الأكواخ الفقيرة العائد إلى المستوطن زيرين، وحرفته خياط رديء، وهو يحاول الاستيطان للعام الرابع. إن الفقر والفاقة في كل شيء يبعثان على الذهول. فإلى جانب الطاولة المتداعية ومقطع جذع الشجرة الذي يستخدم كمقعد لا يوجد أي أثر للأثاث. وباستثناء إبريق الشاي المصنوع من علبة صفيح الكيروسين لا يوجد أي أثر لأثاث أو لوازم منزلية، وبدلاً من الفراش هناك كومة من التبن، يوجد عليها معطف قصير من فرو الضأن وقميص ثان. وفيما يتعلق بالمهنة لا يوجد شيء أيضاً باستثناء عدة أبر وخيوط رمادية، وعدة أزرار، وكشتبان نحاسي يستخدم في الوقت نفسه كغليون، حيث عمل الخياط فيه ثقباً يضع فيه لدى الحاجة مشرب سيجارة رفيعاً مصنوعا من القصب المحلي، أما التبغ فيوجد فقط في ما تشكله سعة الكشتبان (الأمر قم 318، 1889).

الرقابة المسبقة التي تفرض على السجناء والمستوطنين. لكن يبقى مع هذا في وضعه الجديد العنصر الرئيسي للنفي، حيث إنه لا يتمتع بالحق في العودة إلى موطنه.

لا تفرض أية شروط خاصة في «النظام» على كسب حقوق الفلاح بعد مضي عشرة أعوام. باستثناء الحالات المنصوص عليها في المادة 375، حيث إن الشرط الوحيد هو مضي فترة عشرة أعوام، بغض النظر عما إذا كان المستوطن مزارعاً يمتلك مزرعة أو حرفياً. وقد أكد لي السيد كامورسكي مفتش السجون في إقليم بريموريه حين دار الحديث عن ذلك أن الإدارة لا تملك الحق في إبقاء المستوطن بعد مرور عشرة أعوام وفرض أية شروط لحصوله على حقوق الفلاح بعد هذه الفترة. علماً أنني التقيت في ساخالين شيوخاً بقوا بصفة مستوطنين بعد مضي أكثر من عشرة أعوام، ولم يحصلوا بعد على صفة الفلاح. إنني لم أفلح بعد من التحقق من أقوالهم بموجب القوائم الرسمية، ولهذا لا أستطيع الجزم بمدى صحة أقوالهم. فقد يخطئ الشيوخ في الحساب أو يكذب فحسب، ولو أنه يمكن توقع أية نزوات في وجود بلادة وغباء الكتاب الإداريين وقلة حنكة صغار الموظفين. ويمكن أن تقلص فترة الأعوام العشرة إلى ستة أعوام بالنسبة إلى المستوطنين الذين «كان سلوكهم طيباً جداً، ومارسوا العمل النافع، واستقروا في مكانهم الجديد». وتنص المادة 377 على السماح بهذا التخفيف، وينفذها حاكم الجزيرة ورؤساء الدوائر على نطاق واسع. وعلى أقل تقدير فإن جميع الفلاحين تقريباً، الذين أعرفهم، حصلوا على لقب فلاح بعد مضي ستة أعوام. ولكن مما يؤسف له أن ما يرد في «النظام» حول «العمل النافع» و«الاستقرار» كشرط لتقليص الفترة يفهم بصورة متباينة في جميع الدوائر الثلاث. فمثلاً في دائرة تيم لا تسبغ صفة الفلاح على المستوطن حتى يسدد ديونه إلى خزانة الدولة وحتى يغطي سقف بيته بالألواح. بينما لا يمارس المستوطن في ألكسندروفسك الزراعة، ولا يحتاج إلى الأدوات والبذور، ولهذا لا تكون عليه ديون كثيرة وبوسعه الحصول على حق اكتساب صفة الفلاح بصورة أيسر. وبات شرطاً أساسياً أن يكون المستوطن صاحب مزرعة، وغالباً ما يكون بين المنفيين أكثر مما في أي وسط آخر أفراد ليس من

طبعهم أن يكونوا ملاكين ويشعرون بالارتياح حين يخدمون كعاملين. وقد أجابوني في دائرة كورساكوفسك بالإيجاب حول السؤال بصدد هل يمكن أن يحصل المستوطن على التسهيلات وعموماً الحصول على حقوق الفلاح إذا لم تكن لديه مزرعة، ويعمل طباخاً لدى موظف أو مساعداً للإسكافي. أما في الدائرتين الشماليتين فأجابوني بشكل غير واضح. طبعاً لا يمكن الحديث في هذه الظروف عن أية قواعد إذا ما طلب الرئيس الجديد للدائرة من المستوطن وضع السقوف الحديدية في بيته وإبداء المهارة في الإنشاد في جوقة الخوروس (في الكنيسة)، وسيكون من الصعب أن نثبت له أن مطالبه هذه مجرد تعسف.

عندما كنت في سيانتسي أمر رئيس المقاطعة 25 مستوطناً بالاجتماع عند مبنى الإدارة وأعلن لهم أن حاكم الجزيرة أمر بمنحهم صفة فلاحين. ووقع الحاكم الأمر في 27 يناير، بينما أعلن ذلك للمستوطنين في 25 سبتمبر. استقبل جميع المستوطنين الـ 25 هذا النبأ السار صامتين، ولم يرسم أي أحد منهم شارة الصليب ولم يعلن شكره، بل وقفوا جميعاً بوجوه صارمة وسكتوا، كما لو أنهم جميعاً قد حزنوا لفكرة أن كل شيء في هذا الدنيا له نهاية، حتى الآلام. وعندما تحدثت أنا والسيد يارتسيف بصدد من سيبقى منهم في ساخالين، ومن سيسافر، تبين أن أي واحد من الـ 25 لم يعرب عن رغبته في البقاء. وقالوا جميعاً إنهم يتطلعون إلى القارة، ويودون السفر إلى هناك ولو في هذه اللحظة – لكن لا تتوفر لديهم الموارد لذلك، وهم سيفكرون في الأمر. ودار الحديث عن أنه لا تتوفر لديهم النقود الكافية للسفر، – لا ريب أن القارة تحب النقود أيضاً: فيجب أولاً السعي إلى قبولهم في المجتمع الجديد واستضافتهم وشراء قطعة أرض وبناء مسكن، – وهذا كله يكلف قرابة مائة وخمسين روبلاً. فأين يتم الحصول عليها؟ وفي ريكوفسك، على الرغم من كونها كبيرة، وجدت 39 فلاحاً فقط، وجميعهم بعيدون عن التفكير في تكريس وجودهم هناك، وجميعهم عقدوا العزم على الانتقال إلى القارة. ويعمل أحدهم ولقبه بيسبالوف في بناء مسكن كبير ذي طابقين وشرفة في قطعة الأرض التابعة له. إن هذا المسكن يشبه الداتشا (البيت الريفي)، وينظر الجميع إلى البناء بحِيرة، فما الغرض من ذلك. ربما

أنه رجل ثري لديه أبناء كبار يريد البقاء في ريكوفسك إلى الأبد، بينما كان بوسعه الاستقرار في موضع ما في زيبه، وهذا يولد انطباعاً بأنها نزوة غريبة وسلوك عجيب. وفي دوبكي أجابني أحد الفلاحين عن السؤال فيما إذا كان يرغب في السفر إلى القارة، وهو يتطلع إلى السقف بعجرفة: «سأسعى إلى السفر»[1].

إن الفلاحين يسعون إلى مغادرة ساخالين بسبب العوز والسأم والخوف على مستقبل الأبناء... أما السبب الرئيسي - فهو الرغبة الشديدة باستنشاق نسائم الحرية والعيش، ولو قبل الموت، حياة حقيقية وليست حياة السجناء. علماً أن أرض إقليم أوسورسكي وآمور التي يتحدث عنها الجميع بصفتها أرض الميعاد قريبة جداً: يمكن الوصول إليها بالإبحار في السفينة ثلاثة أو أربعة أيام وهناك - الحرية والدفء والمحاصيل... وكتب الذين انتقلوا إلى القارة واستقروا هناك إلى معارفهم في ساخالين أنهم يجدون المساعدة في القارة وسعر قنينة الفودكا 50 كوبيكاً فقط. وحدث مرة حين كنت أتجول على رصيف الميناء في ألكسندروفسك أن دخلت عنبر حفظ الزوارق فرأيت هناك رجلاً عجوزاً في سن 60-70 عاماً جالساً مع حزم وأكياس ويبدو أنه يعتزم السفر إلى مكان ما. فتبادلنا أطراف الحديث. كان الشيخ قد حصل على حقوق الفلاح منذ فترة قريبة والآن يسافر مع زوجته إلى القارة، في البداية إلى فلاديفستوك، ومن ثم إلى «ما يسمح به الرب». وحسب أقوالهما لا تتوفر لديهما النقود. وكان من المقرّر أن تبحر السفينة في اليوم التالي، ولهذا أتيا إلى الميناء ولاذا الآن مع متاعهما بعنبر الزوارق بانتظار السفينة، كما لو أنهما يخشيان أن يطلب منهما العودة إلى مكان إقامتهما. وقد تحدثا عن القارة بمحبة وإجلال وبثقة بأنه توجد هناك بالذات الحياة الهانئة الحقيقية. وفي المقبرة في ألكسندروفسك رأيت صليباً أسود نقشت

1- التقيت شخصاً واحداً فقط أعرب عن رغبته في البقاء في ساخالين إلى الأبد: هو شخص تعيس من أهالي دسكرة في تشيرنيجوف حكم عليه بالسجن لاغتصابه ابنته، فهو لا يحب موطنه لأنه أبقى هناك سمعة سيئة عن نفسه. كما أنه لا يكتب الرسائل إلى أبنائه الذين اصبحوا كباراً الآن بغية أن يذكرهم بوجوده. إنه لن يسافر إلى القارة لأن عمره لا يسمح له بذلك.

عليه صورة العذراء والعبارة التالية: «هنا يرقد رفاة الفتاة أفيميا كورنيكوفا. توفيت في عام 1888. في 21 مايو. عن عمر يناهز 18 عاماً. نصب الصليب هنا تذكاراً بمناسبة سفر الوالدين إلى القارة في يونيو عام 1889».

لا يسمح للفلاح بالانتقال إلى القارة إذا لم يكن سلوكه جيداً أو كانت عليه ديون الخزينة. وإذا ما عاشر الفلاح امرأة منفية وله أطفال منها، تمنح له تذكرة الرحيل فقط إذا ما ضمن لاحقاً معيشة خليلته وأطفاله غير الشرعيين منها بممتلكاته وأمواله (الأمر رقم 92، 1889). وفي القارة ينسب الفلاح إلى الناحية التي يرغب في الاستقرار فيها. ويعطي المحافظ الذي تتبع الناحية له تبليغاً إلى حاكم الجزيرة بهذا الأمر، ويعطي هذا الأمر إلى مديرية الشرطة بشطب هذا الفلاح وأفراد أسرته من القوائم - وبهذا ينقص منها شكلياً واحد من «التعساء». وقال لي البارون أ. ن. كورف إذا كان سلوك الفلاح سيئاً في القارة فإنه يعاد بأمر إداري إلى ساخالين إلى الأبد.

طبقاً للإشاعات فإن أبناء ساخالين يعيشون في القارة جيداً. وقد قرأت رسائلهم، لكن لم تسنح لي الفرصة لرؤية كيف يعيشون في أماكن إقامتهم الجديدة. بالمناسبة أنا رأيت واحداً منهم ليس في القرية بل في المدينة. فقد حدث أن خرجت برفقة الراهب الكاهن إيراكلي من مخزن في فلاديفستوك وإذا برجل يرتدي سترة بيضاء وبجزمتين عاليتين لامعتين، ربما هو كناس أو سمسار، يعرب عن ابتهاجه البالغ لرؤية الأب إيراكلي وتوجه نحوه لكي يباركه، وتبين أنه فلاح من المنفيين سابقاً وأحد رعايا الأب إيراكلي. وقد عرفه الأب إيراكلي وتذكر اسمه ولقبه. وسأله: «كيف الأحوال؟» فأجابه الفلاح: «بخير والحمد لله!».

يعيش الفلاحون قبل مغادرتهم ساخالين في المخافر أو القرى ويمارسون الأعمال في الظروف الصعبة مثل المستوطنين والسجناء. إنهم يبقون تابعين لإدارة السجن ويرفعون قبعاتهم أمام رئاسة السجن من مسافة 50 خطوة إذا ما كانوا يعيشون في الجنوب. علماً أنهم يعاملون بشكل أفضل ولا يعاقبون بالجلد، لكنهم مع ذلك لا يعتبرون من الفلاحين الحقيقيين بل يعاملون كسجناء. إنهم يسكنون بالقرب من السجن ويرونه يومياً. إن سجن المنفيين هو نقيض حياة المزارعين المسالمة ولا يمكن أن يوجدا جنباً إلى

جنب. شاهد بعض المؤلفين في ريكوفسكي جوقة مغنين مرحة وسمعوا ألحان الأرمونيكا إلى جانب السجن. وأنا لم أشاهد ولم أسمع شيئاً من هذا. وحتى إذا ما تسنى لي أن أسمع، باستثناء صليل السلاسل وصراخ السجانين، الغناء المرح لاعتبرت ذلك علامة سيئة، لأن الإنسان الطيب والرحيم لا يغني بالقرب من السجن. إن نظام السجن كالنظام العسكري يرهق ويقبض نفوس الفلاحين والمستوطنين وزوجاتهم الحرائر وأطفالهم، بقواعده الصارمة ووصاية الرئاسة الحتمية، ويجعلهم في وضع توتر مستمر وخوف دائم. وتسلبهم إدارة السجن المروج وخيرة أماكن صيد الأسماك وأفضل الغابات. ويؤذيهم السجناء الهاربون والمرابون في السجن واللصوص. أما جلاد السجناء الذي يتجول في الشارع فيثير فزعهم. والسجانون يفسدون زوجاتهم وبناتهم. والشيء الرئيسي أن السجن يذكرهم في كل لحظة بماضيهم ومن هم وأين هم.

إن سكان الأرياف هنا لا يشكلون مجتمعاً بعد. فلا يوجد بعد البالغون من مواليد ساخالين، الذين تعتبر الجزيرة وطناً لهم، أما الشيوخ فعددهم قليل، ويشكل القادمون حديثاً أغلبية السكان. ويتغير السكان في كل عام. إذا يسافر البعض ويصل البعض الآخر، وفي كثير من القرى يولد السكان انطباعاً بأنهم ليسوا من مجتمع الأرياف بل حشد تشكل بصورة عفوية. إنهم يصفون أنفسهم بالأخوة لأنهم يعانون الآلام معاً، لكن لا يوجد مع هذا ما يجمعهم معاً وهم غرباء بعضهم عن بعض. وتتباين معتقداتهم ويتحدثون بلغات مختلفة. ويحتقر الشيوخ هذا التنوع ويقولون بسخرية أي مجتمع يمكن أن يتشكل إذا ما عاش في قرية واحدة الروس والأوكرانيون والتتار والبولنديون واليهود والفنلنديون والقيرغيز والجورجيون والغجر؟ ...

كما يؤثر بشكل سيئ في تطور كل قرية تنوع من صنف آخر: إذ ينضم إلى المستوطنة كثير من الشيوخ والضعفاء والمرضى جسدياً ونفسياً والمجرمون ومن الأفراد العاجزين عن العمل، وغير المؤهلين عملياً الذين عاشوا في مواطنهم في المدينة ولم يمارسوا الأعمال الزراعية. وفي 1 يناير عام 1890 وحسب المعطيات التي استقيتها من الدوائر الرسمية وجدت في ساخالين كلها، في السجون والمستوطنات، 91 شخصاً من النبلاء، و924 من أبناء

المدن، أي من المواطنين المحترمين تقريباً والسجناء والبرجوازيين الصغار والأجانب. إنهم يشكلون معا نسبة 10% من مجموع المنفيين[1].

وفي كل قرية عمدة ينتخب من بين أصحاب البيوت، وبالذات من المستوطنين والفلاحين، ويصادق على ذلك رئيس إدارة القرى. وينتخب لمنصب العمدة عادة الأشخاص ذوو الجاه والفطنة والتعليم. لكن لم تحدد

1- لا يحسن النبلاء وأصحاب الامتيازات عموماً ممارسة الزراعة وبناء المساكن، بينما يجب عليهم العمل، وتحمّل العقوبات التي تشمل الجميع، لكن لا تتوفر لديهم القوى. إنهم بلا إرادة ومنهم من يبحثون عن العمل السهل وحتى لا يمارسون أي عمل في غالب الأحيان. بيد أنهم في حالة رعب دائم بأن تتغير مصائرهم ويرسلوا إلى المناجم، ويعاقبوا بالجلد، ويقيدوا بالسلاسل وهكذا دواليك. إن غالبيتهم أفراد أرهقتهم الحياة ويتسمون بالتواضع والكآبة، وحينما ينظر المرء إليهم لا يمكن أن يتصورهم بدور المجرمين الجناة. وقد يكون بينهم أيضاً بعض الماكرين والوقحين، الفاسدين كلياً، والمخبولين عقلياً الذين يولدون الانطباع بأنهم شغلوا وظائفهم بلا استحقاق، إن أسلوبهم في الحديث والابتسام والمشي، ومذلة الخادم، – هو نمط سيئ ومبتذل في السلوك. وفي كل الأحوال فإن المرء يتملكه الرعب لو كان في مكانهم. في إحدى المرات رأى سجين، وهو ضابط سابق، كان يسافر في عربة القطار الخاصة بالسجناء إلى أوديسا، رأى من النافذة «الطريقة الظريفة والشاعرية لصيد الأسماك بواسطة الأغصان المحترقة المطلية بالقطران والمشاعل.. وكانت الحقول في أوكرانيا قد فاضت بالخضرة. وكان يمكن أن تلاحظ على جانبي الطريق في أطراف غابات أشجار البلوط والزيزفون زهور البنفسج وزنبق الوادي المتفتحة، كما يفوح عبير الزهور متوافقاً مع الإرادة المفقودة» (صحيفة «فلاديفستوك»، 1886، العدد 14). وحدثني نبيل سابق، قاتل، كيف ودعه الأصدقاء من روسيا، وقال: «لقد استيقظ لدي الوعي، وأردت شيئاً واحداً فقط – أن أتوارى عن الأنظار، وأضيع، لكن معارفي لم يفهموا ذلك وسعوا، وقد نافس أحدهم الآخر في ذلك، إلى تهدئة خاطري وإبداء كل مواساة لي». لا يؤثر في السجناء ذوي الامتياز لدى اقتيادهم في الشارع أو نقلهم تأثيراً أسوأ كفضول الأحرار، بالأخص إذا كانوا من المعارف. ويشعر السجين بالألم البالغ حين يراد في حشد المعتقلين معرفة مجرم ذائع الصيت ويسألون عنه بصوت عال، ويذكرون لقبه. ومما يؤسف له غالباً ما يجري من استهزاء بالسجناء أصحاب الامتيازات في السجن وفي الشارع وحتى في الصحف. وقرأت في إحدى الصحف عن أحد المستشارين التجاريين يزعم أنه حدث في سيبيريا في أثناء نقله إلى مكان المنفى أن دعي لتناول طعام الإفطار، وعندما واصلوا نقله أبعد اكتشف صاحب النزل فقدان إحدى الملاعق: هل إن المستشار التجاري سرقها!

بعد مهام هذا المنصب، إنهم يحاولون التشبه بالعمدة في روسيا. ويقررون شتى الأمور الصغيرة، ويحددون عدد عربات المؤونة المقررة، ويدافعون عن محسوبيهم لدى الضرورة. ويوجد لدى عمدة ريكوفسكي حتى ختم. ويتلقى بعضهم الرواتب الشهرية.

وفي كل قرية مراقب يكون في غالب الأحيان ذا مرتبة دنيا في الإدارة المحلية، وجاهلاً، يقدم التقارير إلى الموظفين الزائرين، بأن كل شيء على ما يرام، ويراقب سلوك المستوطنين بغية ألا يغادروا القرية بلا رخصة وأن يمارسوا العمل الزارعي. علماً أنه أقرب ما يكون إلى رئيس قرية، وغالباً ما يكون القاضي الوحيد، وتعتبر تقاريره إلى الرئاسة الوثائق الوحيدة ذات الأهمية الكبيرة لدى تقييم مدى نجاح المستوطن في سلوكه الطيب وتدبير شؤون منزله واستقراره. وجاء في أحد الكشوف التي كتبها مراقب قرية آرمودان العليا أن أناني إيزدوجين وبيوتر فاسيلييف كيسيليوف وإيفان جليبين هم لصوص وأن سيميون جالينسكي وإيفان كازانكين من المهملين في تدبير الأعمال والطائشين.

-16-

تركيبة المنفيين وفقاً للجنس. - القضية النسائية. - النساء السجينات والقرويات. - الأزواج والزوجات بلا عقد شرعي. - النساء الحرائر.

يعيش في مستوطنة المنفيين كمعدل وسط 100 رجل و53 امرأة. وهذه النسبة صحيحة فقط فيما يخص الذين يعيشون في بيوت. وهناك أيضاً الرجال الرازحون في السجون والجنود العزاب الذين «لابد من توفر المادة الضرورية لإرضاء الحاجة الطبيعية لديهم»، حسب تعبير أحد المسؤولين هنا في وقت ما، ويتمثل ذلك في المنفيات أنفسهن أو النساء المرتبطات بالنفي. لكن إذا اعتمد من أجل تحديد تركيبة سكان المستوطنات وفقاً للجنس والوضع العائلي فينبغي أن تؤخذ في الحساب هذه الفئة من السكان، بشيء من التحفظ، وهذا أمر لابد منه. إنهم ما داموا لا يزالون يعيشون في السجون أو الثكنات، ينظرون إلى المستوطنات فقط من وجهة نظر الحاجة. وتمارس زياراتهم إلى المستوطنة دور التأثير الخارجي الضار، الذي يقلّص عدد المواليد ويزيد من الإصابة بالأمراض، التي تقع بالصدفة والتي يمكن أن تزيد أو تقل تبعاً للمسافة التي تبعد القرية عن السجن أو الثكنة. ويحدث الشيء نفسه في حياة أبناء القرية الروسية زولوتورروتسي الذين يعملون في الجوار في طريق السكك الحديدية. وإذا أخذنا الرجال جميعاً كيفما اتفق، ومن ضمنهم الذين في السجون والثكنات، فإن العد 53 يتقلص إلى النصف تقريباً، وسنحصل على نسبة 100:25. مهما بدت النسبة 53 و25 قليلة في مستوطنة المنفيين الحديثة العهد، التي تتطور في ظروف غير مناسبة جداً،

فلا يمكن اعتبارها نسبة منخفضة جداً. وتشكل النساء في سيبيريا في أوساط السجناء والمنفيين نسبة تقل عن 10%، وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ممارسات الترحيل الروسية، فسنلقى هناك المستوطنين من الفلاحين الموقرين، الذين لم يتم إفسادهم بالدلال إلى هذه الدرجة من هذه الناحية، لذا كانوا يستقبلون بابتهاج المومسات اللواتي تم جلبهن من القارة، ودفعوا إلى أصحاب السفن 100 رطل تبغ لقاء كل واحدة. إن ما يسمى القضية النسائية في ساخالين تطرح بشكل قبيح، لكن بشكل أقل بشاعة مما في مستوطنات المنفيين في أوروبا الغربية في الفترة الأولى من نشوئها. وتأتي إلى المستوطنات ليست المجرمات والمومسات فقط. فبفضل مديرية السجون العامة وأسطول المتطوعين اللذين أفلحا في تكوين وسيلة نقل سريعة ومريحة بين روسيا الأوروبية وساخالين، سهلت كثيراً مهمة الزوجات والبنات اللواتي رغبن بمرافقة أزواجهن وآبائهن إلى المنافي. ومنذ فترة قريبة رافقت زوجة واحدة فقط بعلها من بين 30 مجرماً، وفي الوقت الحاضر أصبح وجود النساء الحرائر شيئاً مألوفاً في المستوطنات، ومن الصعب تصور ريكوفسكويه أو نوفو- ميخايلوفكا مثلا بلا هذه الشخصيات المأساوية من النساء اللواتي جئن «لإصلاح حياة أزواجهن بينما أفسدن حياتهن هنّ».

دعنا نبدأ من النساء السجينات. بلغت نسبة عدد المجرمات في 1 يناير 1890 في جميع الدوائر الثلاث 11,5% من العدد الإجمالي للسجناء[1]. إن

1- هذا الرقم يفيد فقط في تحديد تشكيلة السجناء حسب الجنس، بينما لا تفيد بشكل مضمون من أجل التقييم المقارن لأخلاقيات كلا الجنسين. إن النساء نادراً ما يدخلن السجن ليس لكونهن أرقى من الرجال أخلاقياً، بل لأن طراز حياتهن نفسه، وإلى حد ما صفات تنظيمها، تجعل النساء يتعرضن بدرجة أقل من الرجال للتأثيرات الخارجية والمجازفة في ارتكاب جرائم خطيرة. إنهن لا يعملن في الدوائر والمؤسسات ولا يخدمن في الجيش ولا يشاركن في الأعمال الموسمية، كما لا يعملن في الغابات وفي المناجم وفي البحر، ولهذا فإنهن لا يعرفن الجرائم المتعلقة بالمنصب وخرق الانضباط العسكري والجرائم التي تتطلب توفر القوة الجسدية للرجل ومثال ذلك: السطو على البريد، وممارسة أفعال قطاع الطرق وهلمجرا. إن الأحكام حول الجرائم بحق العفة والاغتصاب وأفعال الزنا والفساد والرذائل الخارقة للطبيعة تخص الرجال فقط. لكن النساء يمارسن القتل والتعذيب والاعتداءات الجسدية

هؤلاء النساء من وجهة نظر الاستيطان يتمتعن بميزة أولية هامة هي أنهن يلتحقن بالمستوطنات في سن الشباب نسبياً، وغالبيتهن من النساء ذوات الطبع الفوار، وجرت إدانتهن في جرائم ذات طابع رومانسي وعائلي: «جئت في طلب زوجي» و«جئت في طلب الحمو».. إن غالبية القاتلات من ضحايا الحب والتسلط العائلي. وحتى اللواتي أقدمن على إضرام النار أو تزييف أوراق البنكنوت يتحملن في جوهر الأمر العقوبة بسبب الحب لأنهن تورطن في الإجرام مع عشاقهن.

يمارس عنصر الحب دوراً مهلكاً في حياتهن التعيسة قبل المحكمة وبعدها. وعندما يجري نقلهن إلى المنفى في السفن، تبدأ بالانتشار بينهن إشاعات مفادها أنه سيتم إرغامهن على الزواج قسراً. وهذا الأمر يثير القلق في نفوسهن. وحدث أن طلبن من إدارة الملاحة راجيات العمل على عدم إرغامهن على الزواج قسراً.

كانت النساء السجينات قبل 15–20 عاماً يلتحقن ببيوت الدعارة حال وصولهن إلى ساخالين. وكتب فلاسوف في تقريره: «كان يجري إسكان النساء في جنوب ساخالين في مباني المخابز لعدم وجود أماكن شاغرة خاصة لهن... وأمر ديبريرأدوفتش حاكم الجزيرة بتحويل القسم النسائي من السجن إلى بيت للدعارة». ولم يكن هناك أي حديث عن العمل. وكانت ترسل للعمل في المطبخ «فقط النساء اللواتي ارتكبن جريرة ما أو لا يحظين

الخطيرة والتخفي على جرائم القتل أكثر من الرجال. وتبلغ نسبة جرائم القتل من جانب الرجال 47% ومن جانب النساء نسبة 57%. أما بصدد الذين أدينوا بتهمة دس السم فإن نسبتهم بين النساء أكثر من الرجال وحتى بصورة مطلقة. وفي عام 1889 بلغت نسبتهن المطلقة في الدوائر الثلاث في ساخالين بمقدار ثلاثة أمثال أكثر من الرجال، ونسبياً بمقدار 23 مرة. ومهما يكن فإن عدد السجينات في المستوطنات أقل من الرجال، حتى على الرغم من مجيء نساء حرائر سنوياً، فإن الرجال يشكلون الأغلبية المطلقة. إن مثل هذا الاختلاف في توزيع الجنسين شيء حتمي في المنافي ولا يمكن أن يتحقق التعادل إلا لدى إيقاف النفي أو حين يبدأ بالتدفق على الجزيرة سيل من المهاجرين الذين يندمجون مع المنفيين، أو عندما تظهر عندنا «مس فراي» التي ستدعو بنشاط إلى فكرة الهجرة إلى ساخالين من أجل تطوير ملاك الأسر بجلب الفتيات الشريفات من الأسر الفقيرة.

بمودة الرجال». أما الباقيات فكن «يقدمن الخدمة» حسب الطلب «ويشربن الخمر إلى حد فقدان الوعي، وفي نهاية المطاف»، وحسب قول فلاسوف، فإن الفسق لديهن يبلغ درجة من الذهول وفقدان الصواب «إلى حد بيع أطفالهن لقاء ربع قنينة من الكحول».

الآن حين تصل وجبة من النساء السجينات إلى ألكسندروفسك، يتم اقتيادهن في البداية من رصيف الميناء إلى السجن في مسيرة احتفالية. تسير النساء في الدرب منحنيات الظهور تحت عبء الحزم والرزم، ومرهقات، وهن لم يستعدن بعد قواهن عقب مرض دوار البحر، ويسير خلفهن، كما في الأسواق وراء المهرجين، حشد كبير من النساء والرجال والأطفال والأفراد العاملين في المكاتب الخاصة. والمشهد يشبه مسيرة أسماك الرنكة في خليج آنيفا حين تمضي خلف الأسماك حشود كبيرة من الحيتان والفقمات والدلافين الراغبة في التلذذ بالتهام بيوض الرنكة. إن الرجال من المستوطنين يسيرون خلف الحشد بنيات شريفة وبسيطة: إنهم بحاجة إلى مدبرة للشؤون المنزلية. أما النساء فيتطلعن إلى معرفة ما إذا كانت في الوجبة الجديدة من السجينات واحدة من أبناء بلداتهن. ويحتاج الكتبة والحراس إلى «الفتيات». ويجري هذا عادة قبيل المساء. وتغلق الأبواب على النساء في الزنزانات ليلاً، ومن ثم تجري الأحاديث طوال الليل في السجن وفي المخفر حول الوجبة الجديدة، وبهجة الحياة العائلية، واستحالة تدبير الشؤون المنزلية بلا امرأة، الخ... وفي الأيام الأولى وقبل أن تعود الباخرة إلى كورساكوفسك يجري توزيع النساء القادمات على الدوائر. ويتولى ذلك الموظفون في ألكسندروفسك ولهذا فإن دائرتهم تحصل على حصة الأسد من حيث النوعية والكمية. وتحصل أقرب دائرة – وهي دائرة تيموفسكي على حصة أقل وأسوأ. يجري في الشمال انتقاء دقيق للسجينات. وتجري هناك غربلة فتبقى هناك من بين السجينات أكثرهن شباباً وجمالاً. ولهذا فإن سعادة العيش في الدائرة الجنوبية تكون من نصيب العجائز تقريباً اللواتي «لا يحظين بعناية الرجال». علماً أنهم لا يفكرون لدى التوزيع في المستوطنة الزراعية، ولهذا يتم توزيع النساء في دوائر ساخالين، وكما أشرت آنفاً، بصورة غير متساوية للغاية، وكلما كانت الدائرة أسوأ، تتقلّص الآمال في

نجاح الاستيطان فيها، ويزداد عدد النساء فيها: ففي دائرة ألكسندروفسك، وهي الأسوأ، توجد 60 امرأة مقابل 100 رجل، وفي الوسطى في دائرة تيموفسكي – 47، وفي أفضلها، في كورساكوفسك – 36 امرأة فقط[1].

يتم في دائرة ألكسندروفسك تعيين قسم من النساء بصفة خادمات لدى الموظفين. وبعد السجون وعربة نقل السجناء وعنبر الباخرة تبدو حجرات الموظفين النظيفة والوضاءة بالنسبة إلى المرأة السجينة كقصور ساحرة، ورب البيت نفسه – يبدو كالجني الطيب أو الشرير الذي يتمتع بسلطة لا حدود لها عليها. علماً أنها ستدرك حقيقة وضعها الجديد، لكن يسمع في حديثها خلال فترة طويلة عن السجن وعنبر السفينة قولها: «لا أريد أن أعرف ذلك» و«كل ياصاحب السعادة»، «بالضبط والتمام». أما القسم الآخر من النساء فينسبن إلى «حريم» الكتبة والحراس، بينما القسم الثالث، والأكبر، فيرسل إلى بيوت المستوطنين، علماً أنه يتقبل النساء فقط من هم أغنى ويتمتعون بالحماية. كما يمكن أن يحصل على امرأة أحد السجناء، حتى من فئة الجاري اختبارهم، إذا ما كان يمتلك النقود ويحظى بالنفوذ في عالم السجن.

يتم إسكان النساء القادمات حديثاً في مخفر كورساكوفسكي في عنبر خاص. ويقرر حاكم الدائرة ومدير المستوطنات معاً مَن من المستوطنين والفلاحين يستحق امرأة. وتعطى الأفضلية إلى المستقرين في بيوت وذوي المهارة في تدبير شؤون المنزل وذوي السلوك الحسن. ويرسل إلى القلائل الذين يقع عليهم الاختيار أمر ينص على وجوب حضورهم إلى المخفر أو السجن في يوم معين وساعة محددة من أجل استلام النساء. وفي اليوم المحدد يسير هنا وهناك نحو الجنوب في الدرب الطويل من نايبوتشي إلى المخفر من يطلقون عليهم هنا بلا مزاح تسمية العرسان أو الشبان. إن

1- كتب د. أ. ف. شيرباك في إحدى مقالاته الساخرة: «تم إجلاء الحمولة في صباح اليوم التالي فقط. وبقي أيضاً استلام السجناء والمنفيين المقرر إرسالهم إلى مخفر كورساكوفسكي، واستلام بعض الوصولات الخاصة بالتسليم. وتم إرسال الوجبة الأولى المؤلفة من 50 رجلاً و20 امرأة من دون وجود أية ملاحظات. ولم يحدد في كشوف التسليم ما هي مهن الرجال، أما النساء فكن في أرذل العمر. وسمح بتسليم الأسوأ». («مع السجناء والمنفيين». – «نوفويه فريميا»، العدد 5381).

مظهرهم يتسم بخصوصية ما فيرتدي أحدهم القميص الأحمر، بينما يضع الآخر على رأسه قبعة غير عادية يرتديها عادة أصحاب المزارع، أما الثالث فيسير بجزمتين لامعتين جديدتين بكعب عال لا يعرف أين وفي أية ظروف تم شراؤهما. عندما يصل الجميع إلى المخفر، يجري إدخالهم إلى عنبر النساء، ويبقون هناك مع النساء. وفي ربع الساعة أو نصف الساعة الأولى يسود الحياء والشعور بالارتباك، ويتجول العرسان بالقرب من التخوت ويتطلعون بصمت وبصرامة إلى النساء، بينما هن يجلسن بنظرات ذاهلة وقد أطرقن برؤوسهن. ويختار كل واحد امرأته بلا عبوس وتجهم، وبلا مزاح، بل بكل جد، وبنظرة «إنسانية» إلى غياب الجمال وإلى الشيخوخة، وإلى مظهر السجينات. إنه يتطلع ويود أن يحدس من الوجوه: أية واحدة منهن ربة بيت جيدة؟ لقد «جذبت» نظره إحدى الشابات أو الكهلات. فيجلس إلى جانبها ويبدأ الحديث من أعماق الروح معها. سألته هل لديه سماور، وهل إن سقف البيت من ألواح الخشب أو التبن. فأجابها أن لديه سماور وحصاناً وبقرة ذات عامين من العمر وسقف البيت من الألواح. بعد هذا الاختبار في التدبير المنزلي فقط، وحينما يشعر الاثنان بأن المسألة انتهت تقرر أن تطرح السؤال التالي:

- وهل ستضربني وتسيء إلي؟

انتهى الحديث. وتنسب المرأة إلى مستوطن ما في قرية كذا - وبهذا يتم عقد الزواج المدني. ويمضي المستوطن مع نزيلته إلى بيته وفي الختام، وبغية ألا يرتطم وجهه بالوحل خجلاً، قرر أن يستأجر عربة، وغالباً ما يكون بآخر ما لديه من نقود. وفي البيت تبادر النزيلة قبل كل شيء إلى نصب السماور، وحينما يتطلع الجيران إلى الدخان يتحدثون بحسد عن أن امرأة ظهرت لدى أحدهم.

لا أشغال شاقة للنساء في الجزيرة. حقاً أنّ النساء يعملن أحياناً في غسل الأرضيات في المباني الإدارية، وفي الحقول، ويخطن الأكياس، لكن لا يوجد عمل معين شاق وبالسخرة، وأعتقد أنه لن يكون مستقبلاً أبداً. إن المستوطنة عوضت كلياً عن السجن للنساء السجينات. وعندما ينقلن إلى الجزيرة، فإنهن لا يفكرن في العقوبة أو الإصلاح، بل فقط بقدرتهنّ على

إنجاب الأطفال والعمل في الزراعة. وتعطى النساء إلى المستوطنين بصفة عاملات بموجب المادة 345 من «النظام حول المنفيين»، التي تسمح للنساء المنفيات غير المتزوجات بـ «كسب الرزق في القرى القريبة لقدامى المستوطنين، لحين زواجهن». لكن هذه المادة ليست سوى تغطية فقط للقانون الذي يحرم الفحش والزنا، لأن السجينة أو المرأة الساكنة في بيت المستوطن، ليست الفلاحة الخادمة في أيام زمان، بل هي نزيلة تسكن معه، وزوجته غير الشرعية بعلم وموافقة الإدارة. ويسجل في الدوائر والأوامر الرسمية أنها تعيش مع المستوطن تحت سقف واحد بصفة «إدارة مشتركة للأعمال» أو «إدارة مشتركة للشؤون المنزلية»[1]، وتطلق عليهما تسمية «الأسرة الحرة». ويمكن القول باستثناء عدد قليل من ذوات الامتيازات أو اللواتي يصلن إلى الجزيرة بمرافقة أزواجهن، إن جميع السجينات يعتبرن من النزيلات الخليلات. وهذا يعتبر بمنزلة قاعدة. وقيل لي إن إحدى النساء في فلاديميروفكا لم ترغب أن تصبح خليلة، وأعلنت أنها جاءت إلى هنا كسجينة حكم عليها بالأشغال الشاقة، بغية أن تعمل وليس لأي غرض آخر. أثارت أقوالها دهشة الجميع[2].

لقد كونت الممارسات المحلية نظرة خاصة إلى المرأة السجينة، وهي سائدة في جميع المستوطنات في المنفى: فإما هي إنسان وربة بيت، وإما هي كائن أدنى حتى من الحيوان المنزلي. قدم المستوطنون في قرية سيسكا طلباً إلى حاكم الدائرة جاء فيه: «نرجو من معاليكم أن تزودونا بالأبقار من أجل توفير الألبان في المنطقة المذكورة أعلاه والنساء من أجل تدبير الشؤون

1- مثلاً الأمر «بناء على طلب السيد حاكم دائرة ألكسندروفسك، الوارد في التقرير رقم 75 المؤرخ في 5 يناير، تنقل أكولينا كوزنتسوفا السجينة والمنفية من سجن ألكسندروفسك إلى دائرة تيموفسكايا من أجل إدارة الشؤون المشتركة مع المستوطن ألكسي شارانوف»(1889، الرقم 25).

2- من الصعب إدراك أين ستعيش النساء إذا ما رفضن المعيشة المشتركة كخليلات. فلا توجد في المنافي أماكن خاصة بهن. وكتب مسؤول القسم الطبي في تقريره لعام 1889: «عندما تصل النساء إلى ساخالين يترك لهن اختيار مكان السكن.. جيث يتوجب على بعضهن البحث عن مورد للرزق من أجل دفع بدل الإيجار».

المنزلية». وقال حاكم الجزيرة، لدى التحدث مع أهالي قرية أوسكوفا بحضوري، وتقديم شتى الوعود لهم:

- فيما يخص النساء فسأدبر الأمر.

بالمناسبة قال لي أحد الموظفين:

إنه شيء غير حسن أن يجلبوا النساء إلى هنا من روسيا في الخريف وليس في الربيع؟ فلا يوجد لدى المرأة ما تفعله في الشتاء، إنها عندئذ ليست عوناً للرجل، بل هي فم إضافي فقط يجب إطعامه. لهذا فإن أصحاب المزارع لا يرغبون في قبولهن في الخريف.

هكذا يتحدثون عادة في الخريف عن أحصنة الحمل، حينما ترتفع أسعار العلف في الشتاء. ولا تؤخذ في الاعتبار بأي حال من الأحوال الكرامة الإنسانية، وكذلك أنوثة وحياء السجينة. ويسود كما يبدو الاعتقاد بأن هذا كله قد تكلل بالعار أو أنها فقدته، في أثناء تجوالها في السجون ومسيرات السجناء إلى المنافي. على أقل تقدير حينما تعاقب بالجلد، لا يرد في خاطرهم أنها ربما تشعر بالخجل. لكن إذلالها شخصياً لم يصل إلى حد إرغامها قسراً على الزواج أو على العيش كخليلة. إن الإشاعات حول المعاملة القاسية في هذا المضمار هي حكايات جوفاء مثل المشنقة على ساحل البحر أو العمل تحت الأرض[1].

1- أنا شخصياً كنت أشك دائماً بهذه الإشاعات، ومع ذلك كنت أتحقق من الأمر ميدانياً وأجمع كل الإشاعات التي قد تكون ذريعة لذلك. فقيل إنه قبل 3-4 أعوام حين كان الجنرال هينتسه حاكماً للجزيرة أرغمت سجينة أجنبية قسراً على الزواج من شرطي سابق في قسم الشرطة في ألكسندروفسك. أما السجينة ياجيلسكايا، في دائرة كورساكوف، فقد حكم عليها بـ30 جلدة لأنها أرادت ترك العيش مع خليلها المستوطن كوتلياروف. وهناك أيضاً اشتكى المستوطن ياروفيتي من أن امرأته ترفض العيش معه. وصدر الأمر التالي: «ن. ن. لتجلد». - «كم جلدة؟» - «سبعون». وجلدت المرأة لكنها أصرت على موقفها وانتقلت للإقامة عند المستوطن مالوفيتشكين الذي لا يكيل المديح لها الآن. والمستوطن العجوز ريزفتسوف ضبط خليلته في الفراش مع المستوطن رودين، فقدم الشكوى لدى السلطات. وصدر الأمر باستدعائها: «ادعوها إلى هنا!». وحضرت المرأة: «أنت كذا وكذا. لا تريدين العيش مع ريزفتسوف؟ تجلد!». وأمر ريزفتسوف بأن ينفذ الأمر شخصياً فوراً. لكنها أصرت

لا يقف حائلاً دون معيشة المرأة كنزيلة أو خليلة، لا شيخوختها ولا اختلاف العقيدة الدينية ولا وضعها كمتشردة. وقد لقيت خليلات في سن الـ 50 والأكبر سناً ليس لدى المستوطنين الشباب فقط، بل وحتى لدى رجال الشرطة الذين لم تتجاوز أعمارهم الـ 25 عاماً. وقد يحدث أن تأتي إلى المنفى امرأة كبيرة في السن وابنتها البالغة. وتنسب المرأتان إلى مستوطنين، ويبدو كما لو أنهما تبدآن المنافسة في إنجاب الأطفال. وغالباً ما يعيش الكاثوليك واللوثريون وحتى التتار واليهود مع الروس. وفي ألكسندروفسك التقيت في أحد البيوت امرأة روسية مع جماعة كبيرة من القيرغيز والقوقازيين الذين تولت خدمتهم عند المائدة، وسجلتها بصفتها نزيلة لدى أحد التتار أو الشيشاني كما وصفته. ويعرف الجميع في ألكسندروفسك أن التتاري كربلاي يعيش مع الروسية لوبوشينا ولديه ثلاثة أطفال منها[1]. والمتشردون يشكلون عوائل أيضاً، وأحدهم المتشرد إيفان، 35 عاماً، في ديربينسك، حتى إنه أعلن لي مبتسماً أن لديه امرأتين خليلتين: «إحداهما هنا والأخرى مسجلة في نيقولايفسك». ويعيش مستوطن آخر مع امرأة لا تذكر أصلها، منذ عشرة أعوام بصفتها زوجته، ولا يعرف مع ذلك اسمها الحقيقي ومن أين جاءت.

وعادة يجيب المستوطن وخليلته حول أحوالهما المعيشية: «نحن نعيش جيداً». وقالت لي بعض النساء السجينات إنهن كابدن من أزواجهن بروسيا الاستهتار والعبث والاعتداء بالضرب والمنة على كسرة خبز، وهنا في السجون رأين النور لأول مرة. «الحمد لله أعيش الآن مع رجل طيب، يشفق علي». إن المنفيين يشفقون على نسائهم من الخليلات ويعتزون بهن.

على موقفها وتم تسجيلها في نهاية الأمر كنزيلة لدى رودين وليس ريزفتسوف. هذه جميع الحوادث التي بقيت في ذاكرة الأهالي. وإذا كانت السجينة مشاكسة وسليطة اللسان أو تغير النزلاء في أحيان كثيرة لكونها فاسقة، فتجري معاقبتها، لكن هذه الحالات نادرة وتكشف فقط لدى تقديم الشكاوى من قبل المستوطنين.

1- في آرمودان العليا سجلت لدى التتاري تحفة الله النزيلة يكاترينا بتروفا، ولديها أطفال منه. ويعيش مع الأسرة كضيف مسلم أيضاً. وفي قرية ريكوفسكويه يعيش المستوطن محمد – أسطه نور مع آفدوتيا مدفيديفا. وفي آرمودان السفلى يعيش المستوطن اللوثري بيريتسكي مع نزيلة يهودية ليا برموت بروخا، وفي تاكويه الكبرى يعيش الفلاح المنفي كاليفسكي مع امرأة من شعب الآنيين.

قال لي البارون أ. ن. كورف: - هنا ونظراً لقلة النساء يقوم الرجل الموجيك بكل الأعمال في الحقل والمطبخ وحلب البقرة وإصلاح الملابس، وعندما تلتحق به المرأة فإنه يتمسك بها بقوة. انظر كيف يعتني بزيها. وتحظى المرأة بالاحترام لدى المنفيين.

وأضاف الجنرال كونونوفتش الذي حضر اللقاء قائلاً: - بالمناسبة هذا لا يحول دون أن تظهر المرأة أمام الملأ بكدمات زرق على وجهها.

قد يحدث خصام وشجار وعراك، ويصل الأمر إلى حد الكدمات، لكن مع ذلك يلقن المستوطن أصول السلوك لخليلته بحذر لأن القوة إلى جانبها: فهو يعرف أنها غير شرعية بالنسبة إليه، ويمكن بأي حال أن تهجره وتلتحق برجل آخر. طبعاً إن المنفيين يشفقون على نسائهم ليس لهذا السبب فقط. ومهما كانت أحوال الأسر غير الشرعية في ساخالين فإن الحب بأكثر مظاهره طهارة وجاذبية ليس غريباً عنها. وقد رأيت في دويه سجينة مخبولة تعاني من الصرع تعيش في بيت نزيلها السجين أيضاً، ويعتني بها كالممرضة الدؤوبة، وعندما قلت له إنه من الصعب، في أغلب الظن، العيش في غرفة واحدة مع مثل هذه المرأة، أجابني بمرح: «لا بأس، ياصاحب السعادة، هذه عناية إنسانية!». وفي نوفو ميخالوفكا وجدت لدى أحد المستوطنين خليلة فقدت ساقيها منذ وقت بعيد وترقد في أطراف الليل وآناء النهار في وسط الحجرة فوق كومة من الخرق، بينما يتولى هو رعايتها، وعندما قلت له إن من الأفضل لو أنها رقدت في المستشفى، راح يتحدث أيضاً عن الواجب الإنساني.

توجد بين الأسر الطيبة والعادية فئة من الأسر الحرة التي تعزى إليها السمعة السيئة التي ترافق «القضية النسائية» في مناطق النفي. إن مثل هذه الأسر التي تبعث للوهلة الأولى النفور بسبب تصنعها وزيفها، وتولد الشعور بأن الأسرة هنا، في أجواء السجن الفاسدة، قد تعفنت منذ وقت بعيد ونشأ بدلاً منها شيء آخر. ويعيش كثير من الرجال والنساء معاً، لأن هذا ضروري، وهذا أمر سائد في المنافي. وأصبحت المعيشة كنزلاء في المستوطنات تقليداً سائداً. ويخضع لهذا النظام الأفراد الضعفاء وذوو الطبيعة غير الحرة، على الرغم من أنه لم يفرض أحد عليهم ذلك. جاءت الأوكرانية ذات الـ 50 عاماً إلى نوفو- ميخايلوفكا مع ابنها، السجين أيضاً، ووجهت إليهما تهمة التورط في العثور

على جثة الكنة ميتة في البئر. إنها تركت في موطنها زوجها العجوز والأبناء، وتعيش هنا مع خليل، ويبدو أنها تنفر نفسها من ذلك، وتخجل من الحديث عنه مع شخص غريب. إنها تحتقر نزيلها ومع ذلك تعيش وتنام معه: هذا واجب في المنفى. إن أفراد مثل هذه الأسر غرباء بعضهم عن بعض إلى حد أنهم مهما عاشوا معاً تحت سقف واحد، ليكن ذلك 5-10 أعوام، لا يعرف بعضهم أعمار بعض، ومن أي محافظة، وما هو اسم الأب... وعندما سألت السجينة عن عمر خليلها أدارت رأسها جانباً بتكاسل وأجابت كالعادة: «الشيطان وحده يعرف ذلك!». وفيما ينهمك الخليل في العمل أو يلعب القمار في مكان ما ترقد الخليلة في الفراش، بخمول وكسل، جائعة. وإذا ولج أحد الجيران البيت تنهض من الفراش بتثاقل وتقول، بتثاؤب، إنها «سجنت بسبب زوجها»، وقد عانت الأمرين من تهمة بريئة منها: «فقد اغتاله، هو الشيطان، بعض الفتيان، بينما حكم عليّ بالأشغال الشاقة». يعود الخليل إلى البيت: لا يوجد أي شاغل، ولا يستطيع الحديث مع المرأة حول أي شيء. وقد نصب السماور لكن لا يتوفر السكر والشاي... ولدى رؤية نزيلته الراقدة يستولي عليه الشعور بالكآبة والكسل، على الرغم من الجوع والضجر، ويتثاءب أيضاً، وينطرح على الفراش. إذا مارست النساء من مثل هذه الأسر الدعارة فإن النزلاء يشجعون النساء على ذلك عادة. فالدعارة تجلب لقمة خبز إضافية، والخليل يعتبر المرأة حيواناً منزلياً نافعاً ويحترمها، أي يضع بنفسه السماور لها ويلتزم الصمت، حين تطلق الشتائم. علماً أنها غالباً ما تستبدل الخلان وتختار من بينهم الأكثر ثراء أو من لديه فودكا، أو تغيرهم بسبب الضجر ومن أجل التنويع.

تستلم السجينة حصة التموين من الأطعمة الخاصة بالسجناء التي تتناولها مع الخليل. وأحياناً تعتبر حصة المرأة هذه المصدر الوحيد لإطعام الأسرة. وبما أن الخليلة تعتبر عاملة شكلياً، فإن المستوطن يدفع إلى خزينة الدولة رسوماً مقابل اعتبارها عاملة، ويجب عليه أن ينقل لحساب الخزانة حمولة عشرين رطلاً من دائرة إلى أخرى أو يجلب إلى المخفر عشرة جذوع أشجار. إن هذا الواجب الشكلي يلزم به فقط المستوطن - الموجيك ولا يلزم به السجناء الذين يعيشون في المخافر ولا يعملون شيئاً. وبعد إنهاء فترة المحكومية تحول المرأة إلى وضع فرد في مستوطنة. ولن تستلم عندئذ

حصة التموين من طعام وملبس. وبهذا فإن انتقال السجينة إلى وضع القروية لا يعني في ساخالين البتة تيسر مصيرها: فالسجينات اللواتي يتلقين حصة التموين من الخزانة يعشن بشكل أفضل مما في القرى. وكلما تكون فترة الحكم بالسجن أطول، يكون ذلك أفضل بالنسبة إلى المرأة، وإذا كان الحكم بالمؤبد، فمعنى ذلك أنها ستحصل على الطعام إلى الأبد. وتحصل القروية على حقوق الفلاحين عادة وفق شروط تسهيلية بعد مرور ستة أعوام.

إن عدد النساء الحرائر اللواتي التحقن بأزواجهن طوعاً في المستوطنة في الوقت الحاضر أكبر من عدد النساء السجينات، وتبلغ نسبتهن بالمقارنة مع النساء المنفيات 2:3. وقد سجلت 679 امرأة حرة. بينما بلغ عدد السجينات والقرويات والفلاحات 1041 – ومعنى ذلك أن عدد النساء الحرائر في المنفى تبلغ نسبته 40% من مجموع عدد النساء في سن البلوغ[1]. ثمة أسباب مختلفة تدعو الزوجات إلى مرافقة أزواجهن المجرمين وترك الوطن والذهاب إلى المنفى. فبعضهن يفعلن ذلك لاعتبارات الحب والشفقة، والبعض الآخر لقناعة راسخة بأن الرب وحده يمكن أن يفرق بين الزوج والزوجة. والفئة الثالثة تضم اللواتي يهربن من البيت بسبب الخجل. ففي الأوساط الريفية الجاهلة يشمل عار الرجال زوجاتهم. فمثلاً حين تغسل المرأة ملابس الرجل يطلق عليها بقية النساء تسمية السجينة. والفئة الرابعة تنجذب إلى ساخالين وراء أزواجهن كما لو في الفخ، عن طريق الخداع. ويكتب كثير من السجناء وهم في عنبر السفينة رسائل إلى أهلهم يذكرون فيها أن الطقس دافئ في ساخالين، والأرض واسعة، والخبز رخيص الثمن والرئاسة طيبة القلب. كما أنهم يكتبون الشيء ذاته من السجن، وأحياناً يستمر ذلك خلال عدة أعوام، ويبتدعون مغريات جديدة وجديدة، بحساب أن الزوجات جاهلات ويصدقن بسرعة، وقد أظهرت الحقائق صواب ذلك في غالب الأحيان[2]. وأخيراً تأتي الفئة الخامسة إلى ساخالين لكونها ما زالت باقية تحت تأثير الأزواج المعنوي

1- في الأعوام العشرة الأولى لبدء النقل البحري، من 1879 إلى 1889، نقل بواسطة سفن أسطول المتطوعين 8430 سجيناً وسجينة و1146 فرداً من عوائلهم.

2- تفاخر أحد السجناء في رسالته بأن لديه قطعة نقود فضية أجنبية. إن لهجة هذه الرسائل تتسم بالسرور والمداعبة.

الشديد. ويمكن أن الزوجات شاركن في ارتكاب الجريمة أو حصلن على منافع منها، لكنهن لم يقدمن إلى المحكمة بسبب نقص الأدلة الثبوتية. وغالباً ما يذكر السببان الأوليان: الرأفة والشفقة إلى حد التضحية بالذات وقوة القناعة الراسخة. وبين النساء اللواتي التحقن بأزواجهن بالإضافة إلى الروسيات أيضاً نساء تتريات ويهوديات وغجريات وبولنديات وألمانيات[1].

عندما تصل النساء الحرائر إلى ساخالين لا يستقبلن فيها بالترحاب. ووقع الحادث المتميز التالي: في 19 أكتوبر 1889 وصلت إلى ألكسندروفسك في الباخرة «فلاديفستوك» التابعة لأسطول المتطوعين وعلى متنها 300 امرأة من الحرائر مع أبنائهن من المراهقين والأطفال الصغار. وأبحروا من فلاديفستوك وكابدوا خلال 3–4 أيام البرد، وبلا وجبة طعام ساخنة، ووجد بينهم كما ذكر لي الطبيب 26 مريضاً مصاباً بالحمى القرمزية والجدري والحصبة. وصلت الباخرة في وقت متأخر من المساء. وطلب القبطان ربما لخشيته من تدهور حالة الطقس أن يتم استقبال الركاب وتفريغ الحمولات ليلاً وعلى الفور. وتمت العملية من الساعة 12 وحتى الساعة الثانية ليلاً. وجرى وضع النساء والأطفال في مستودع حفظ الزوارق والعنبر الذي بني من أجل خزن البضائع في الميناء. وفرض على المرضى الحجر الصحي في سقيفة خاصة بالكرنتين. أما أمتعة المسافرين فقد كومت كيفما اتفق في صندل. وفي الصباح ترددت إشاعة مفادها أن الأمواج حملت الصندل إلى عرض البحر ليلاً. وفقدت إحدى النساء 300 روبل مع الأمتعة. وتم تسجيل محضر في الحادث واتهمت العاصفة بكل ما حدث. علماً أنه تم العثور في اليوم التالي لدى السجناء في السجن على بعض الأشياء المفقودة.

تبدو المرأة الحرة في الفترة الأولى من وصولها إلى ساخالين بهيئة المشدوهة. فيبعث على الذهول لديها وضع الجزيرة والسجناء. إنها تقول يائسة إنها حين جاءت إلى زوجها لم يراودها الخادع، وكانت تنتظر ما

1- يلتحق أحياناً الأزواج بزوجاتهم في المنفى. وعددهم في ساخالين ثلاثة: الجنديان المتقاعدان أندريه نايدوش وأندريه جانين في ألكسندروفسك والفلاح زيجولين في ديربينسكويه. والأخير عجوز يرافق زوجته والأطفال، ويمارس دور الأبله، ويغدو أضحوكة للشارع كله. والألماني رافق مع زوجته ابنه جوتليب.

هو أسوأ فقط، لكن تبين أن الواقع أبشع من جميع التصورات. وحالما تبادلت الأحاديث مع النساء اللواتي وصلن قبلها تولدت لديها القناعة بأن مصيرها وأولادها هو الهلاك. وعلى الرغم من أنه بقيت حتى انتهاء فترة السجن 10–15 عاماً، فإنها تهذي حول القارة، ولا تريد سماع أي شيء عن العمل هنا، الذي تبدو حصيلته تافهة لا تستحق الاهتمام. إنها تنتحب ليلاً ونهاراً وتطلق العويل، وتتذكر الأهل الذين تركتهم كما لو أنهم من الأموات، بينما يجلس زوجها الذي يشعر بذنبه الكبير حيالها صامتاً، متجهم السحنة، لكنه في نهاية الأمر يفقد صوابه وينهال عليها بالضرب لكونها جاءت إلى هنا.

إذا جاءت المرأة الحرة بلا نقود أو بالقليل منها، مما يكفي فقط لشراء بيت، وإذا لم يرسل الأهل إليها وإلى زوجها أي شيء، فإنه سيحل الجوع عاجلاً. إذ لا مجال لكسب الرزق، ولا مجال للصدقات والإحسان، فيتعين عليها العيش فقط بحصة المؤونة المخصصة للسجين التي يستلمها زوجها من السجن، والتي لا تكاد تكفي لإطعام فرد واحد بالغ[1]. ويوماً بعد يوم تنحصر الأفكار في اتجاه واحد هو ماذا سيأكلون وماذا سيطعمون الأطفال. وبمرور الزمن وبسبب الجوع المستمر، وتبادل الملامات بشأن الحصول على رغيف الخبز، وبسبب الثقة بأن الوضع لن يصبح أفضل، تغدو الروح غليظة، فالمشاعر الرقيقة لن تشبع المرء في ساخالين، تذهب المرأة لكسب الخمسة كوبيكات والعشرة كوبيكات «ببيع جسدها» حسب تعبير إحداهن. علماً أن الزوج تصيبه أيضاً غلاظة الروح، ولا مجال للنقاوة والطهارة، فهذا كله لا يعتبر شيئاً هاماً. وحال إتمام البنات سن 14–15 عاماً، يجري استغلالهن أيضاً. وتقوم الأمهات بالمتاجرة بهن في البيت أو تسلمهن إلى المستوطنين الأثرياء والسجانين بصفة خليلات. ويجري هذا كله بيسر، مما يجعل المرأة

1- يجذب الانتباه بحدة هنا اختلاف وضع هذه المرأة الحرة، الزوجة الشرعية، عن وضع الجارة – السجينة، ووضع الخليلة، التي تحصل من الخزانة على ثلاثة أرطال من الحبوب يومياً. وفي فلاديفستوك احتجزت امرأة حرة بتهمة قتل زوجها، وإذا صدر حكم المحكمة عليها بالأشغال الشاقة فإنها ستستلم حصة تموينية، أي أنها ستكون في وضع أفضل مما كانت عليه قبل المحكمة.

الحرة عاطلة تماماً طوال الوقت. فلا مجال للعمل في المخافر، أما في القرى ولا سيما في الدوائر الشمالية، يكون مجال إدارة الأعمال معدوماً تقريباً.

والمرأة الحرة لديها، إلى جانب عبء الحاجة والعطالة، مصدر ثالث لشتى المصائب هو الزوج. فهو قد يقارع بنت الحان أو يخسر في القمار حصته التموينية وحصة زوجته وحتى ملابس الأطفال. ووجهت إلى المستوطن بيشيفتس من دائرة تيموفسكي، تهمة محاولة القتل، واحتجز في زنزانة الحبس الانفرادي في دويه في أثناء وجودي هناك، وعاشت زوجته وأطفاله في ثكنات العوائل القريبة، وترك الرجل البيت والمزرعة. وفي مالو - تيموفو هرب المستوطن كوتشيرينكو، تاركاً زوجته وأطفاله لرحمة الأقدار. وإذا لم يكن الزوج في عداد من يقتل ويهرب، فإن الزوجة تخشى في كل يوم أن يعاقب، أو أن توجه له تهمة زور هو بريء منها، أو أن يهدم صحته، أو يصيبه المرض، أو يموت.

تمضي الأعـوام، وتقترب الشيخوخة. وقد أنهى الزوج فترة السجن والاستيطان، وصار يسعى إلى كسب حقوق الفلاح، وأصبح الماضي طي النسيان، وتحل ساعة الوداع، وتتراءى من بعيد بشائر الحياة الجديدة والمعقولة والسعيدة المرتبطة بالسفر إلى القارة. وقد يحدث شيء آخر. قد تموت الزوجة المصابة بالسل، ويسافر الزوج إلى القارة، عجوزاً ووحيداً. أو أنها تصبح أرملة ولا تعرف ما العمل، وإلى أين تسافر. في ديربنيسكي تركت زوجة ألكسندر تيموفييف الفلاح الحر، وهو من أتباع «الطائفة الحليبية» (طائفة منشقة عن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية - المترجم) وانضمت إلى الراعي أكيم، وصارت تعيش في كوخ ضيق وقذر وأنجبت منه صبية. أما الزوج فقد وجد لنفسه امرأة أخرى، خليلة له. كما تركت شوليكينا وفيدينا وهما من النساء غير السجينات زوجيهما والتحقتا بخليلين لهما». أما نينيلا كاربينكو فقد ترملت وتعيش الآن مع أحد المستوطنين. وخرج السجين ألتوخوف من بيته وأصبح متشرداً، أما زوجته الحرة يكاترينا، فارتبطت برابطة زواج غير شرعي[1].

1- يفرد «نظام السجناء» فقرة إلى النساء الحرائر أيضاً. فتنص المادة 85 على «أن النساء اللواتي يلتحقن برغبتهن بأزواجهن يجب عدم فصلهن عنهم طوال فترة الرحلة إلى الجزيرة ولا تفرض عليهن صرامة من جانب الحرس». وفي الجزء الأوروبي من

روسيا أو في باخرة أسطول المتطوعين لا تفرض عليهن أية رقابة. أما في سيبيريا حين تمضي المجموعة مشياً على الأقدام أو بوساطة النقليات لا يجد الحراس الوقت للتمييز في الحشد بين السجين من غير السجين. ورأيت في مقاطعة زابايكاليه كيف كان يستحم في النهر الرجال والنساء والأطفال، بينما وقف الحراس في نصف دائرة حولهم ولن يسمحوا لأحد بالخروج من نطاقه لأي أحد حتى للأطفال. وبموجب المادتين 173 و253 تحصل النساء اللواتي يلتحقن طوعاً بأزواجهنّ «على الملابس والأحذية وكلفة الطعام خلال فترة الرحلة كلها إلى المكان المقصود» بما يعادل حصة السجين. لكن لا يرد في «النظام» كيف يجب على النساء الحرائر عبور سيبيريا - هل مشياً على الأقدام أم في العربات. ويسمح لهن بموجب المادة 406 بمغادرة مكان النفي مؤقتاً في المحافظات الداخلية للإمبراطورية. وإذا توفي الزوج في المنفى أو حدث الطلاق بنتيجة ارتكاب جريمة جديدة فإن الزوجة تستطيع بموجب المادة 408 العودة إلى الوطن على حساب الدولة.

يذكر فلاسوف في تقريره لدى وصف وضع زوجات السجناء المنفيين وأطفالهن الذين تكمن جريرتهم فقط في أن الأقدار حكمت عليهم بأن يرتبطوا بصلة القرابة مع مجرمين، بقوله «يكاد هذا يعتبر الجانب الأكثر قتامة في نظامنا الخاص بالترحيل». وقد تحدثت آنفاً عن كيفية توزيع النساء الحرائر في الدوائر والقرى، ومدى عدم اهتمام الإدارات المحلية بهن. وأذكر القارئ *بثكنات دويه الخاصة بالعوائل*. وكيف تحتجز النساء الحرائر وأطفالهن في زنزانات مشتركة، كما في السجن، في جو فظيع مع لاعبي القمار وعشيقاتهم وخنازيرهم في دويه، أي في أفظع مكان في الجزيرة، مما يعطي صورة كافية عن سياسة الاستيطان والزراعة التي تمارسها السلطات المحلية.

-17-

التشكيلة السكانية بموجب الأعمار. - الوضع العائلي للمنفيين. - الزيجات. - المواليد. - أطفال ساخالين.

إن الأرقام المتعلقة بأعمار المنفيين البالغين، حتى لو كانت في غاية الدقة، وبأكمل شكل لا يقبل المقارنة، لا تعطي أي شيء تقريباً بالقياس إلى الأرقام التي جمعتها. فأولاً هي اعتباطية، حيث لا تمليها الظروف الطبيعية أو الاقتصادية، بل النظريات الحقوقية، ومجموعة القوانين حول العقوبات، وإرادة الأفراد في مديرية السجون. ومع تغير النظرة إلى النفي عموماً، وفي ساخالين بصورة خاصة، تتغير تشكيلة أعمار السكان. فماذا سيحدث إذا ما بدأ إرسال ضعف عدد النساء إلى جزيرة المنفى أو حين يتم مد خط سكك الحديد عبر سيبيريا، وتبدأ الهجرة الحرة. وثانياً، أن هذه الإرقام لدى وجود نظام الحياة الاستثنائي في جزيرة المنفى، لا تعني البتة الأهمية التي تعنيها في قضاء تشيريبوفتسكي أو قضاء موسكوفسكي. فمثلاً العدد الضئيل للشيوخ في ساخالين لا يعني وجود ظروف غير مناسبة، أو أن نسبة الوفيات عالية، بل يعني فقط أن غالبية المنفيين يغادرون الجزيرة لدى انتهاء فترة محكومياتهم إلى القارة قبل بلوغهم سن الشيخوخة.

في الوقت الحاضر تحتل المرتبة الأولى في المستوطنة السن من 25 إلى 35 عاماً (24,3%) ومن 35 إلى 45 عاماً (24,1%)، أما السن من 20 إلى 55 عاماً، التي يصفها الدكتور جريازنوف بأنها عاملة، فتعطي المستوطنة نسبة 64,6%، أي حوالي النصف تقريباً أكثر مما في روسيا عموماً. لكن وياللأسف فإن النسبة العالية، وحتى فائض الأفراد في السن العاملة أو

المنتجة، في ساخالين لا تعتبر البتة مؤشراً على الرفاهية الاقتصادية، بل تشير فقط إلى كثرة الأيدي العاملة، وعلى الرغم من وجود عدد هائل من الجياع العاطلين والعاجزين عن العمل، تبنى في ساخالين المدن وتشق طرق ممتازة. إن رخص المباني الجاري تشييدها وإلى جانب ذلك فقر وإدقاع ذوي الأعمار المنتجة يحمل على الاعتقاد بوجود تشابه بين هذه المستوطنة وتلك التي وجدت في أزمان وفرة الأيدي العاملة المشكلة بصورة مصطنعة، التي كانت تبني الكنائس وحلبات السيرك، أما الأعمار المنتجة فقد أصيبت بالحاجة المرهقة للغاية.

إن الأطفال، أي الذين في السن من الولادة إلى 15 عاماً، يعطون رقماً عالياً أيضاً – نسبة 24,9%[1]. بالقياس إلى روسيا تعتبر هذه النسبة متدنية، أما في مستوطنة المنفيين حيث تكون الحياة العائلية في ظروف سيئة، فتعتبر عالية. إن قدرة نساء ساخالين على الإنجاب، ونسبة وفيات الأطفال العالية، كما سيرى القارئ لاحقاً، ستزيد قريباً نسبة الأطفال المذكورة أعلاه، وربما ستصل حتى إلى مستواها في روسيا. وهذا شيء جيد لأنه علاوة على مختلف الاعتبارات الاستيطانية يقدم قرب الأطفال منهم الدعم الموجه القوي والأكثر نشاطاً من أي دعم آخر، حيث يذكرهم بالقرية الروسية العزيزة إلى قلوبهم. وبالإضافة إلى ذلك فإن رعاية الأطفال تنقذ النساء المنفيات من الخمول والعطالة. وهو أمر سيئ لأن الأعمار غير المنتجة تتطلب من السكان الإنفاق، بينما هم أنفسهم لا يكسبون شيئاً، مما يزيد من المصاعب الاقتصادية. إنها تفاقم العوز، ومن هذه الناحية تصبح المستوطنة حتى في وضع أسوأ مما في القرية الروسية. إن أطفال ساخالين يغادرون الجزيرة حينما يبلغون سن اليفاع والشباب إلى القارة، ولهذا لا يتم التعويض عن خسائر المستوطنة.

وتشكل الأعمار التي تمثل أمل وأساس المستوطنة، التي لم يكتمل نموها بعد، نسبة ضئيلة جداً في ساخالين. ويبلغ عدد الأفراد في سن من 15 إلى 20 عاماً في المستوطنة كلها 185 فرداً: 89 من الذكور و96 من الإناث.

1- في قضاء تشيريبوفتس 73,3% وفي تامبوف 39%.

أي نسبة 2% تقريباً. ويبلغ عدد الأطفال الأصليين في المستوطنة 27 فرداً فقط، وهم الذين ولدوا في ساخالين أو في الطريق إلى المنفى. أما الباقون فإنهم جميعاً من عنصر القادمين إليها. علماً أن الذين ولدوا في ساخالين ينتظرون فقط سفر الوالدين أو الأزواج إلى القارة بغية الالتحاق بهم. إن جميع الـ 27 هم من أبناء الفلاحين الأغنياء، الذين انتهت فترة محكومياتهم، وينتظرون في الجزيرة استكمال جمع رأس المال. ومنهم على سبيل المثال أسرة راتشكوف في بلدة ألكسندروفسك. وحتى ماريابارانوفسكايا ابنة مستوطن حر ولدت في تشيبيساني وبلغت الآن الـ 18 لن تبقى في ساخالين وستغادر إلى القارة مع زوجها. ولم يتبق في الجزيرة أي أحد من الذين ولدوا في ساخالين قبل 20 عاماً، وعمرهم الآن 21 عاماً. وبلغ العدد الإجمالي لمن أتم سن 20 عاماً 27 فرداً: منهم 13 فرداً من المنفيين و7 من أبناء المنفيين، وهم من الذين يعرفون الطريق إلى فلاديفستوك وإلى إقليم آمور[1].

وفي ساخالين 860 أسرة شرعية و782 أسرة طليقة بلا رابطة زواج، وهذان الرقمان يحددان بقدر كاف الوضع العائلي للمنفيين القاطنين في المستوطنة. وعموماً يتمتع بخيرات الحياة العائلية حوالي نصف السكان البالغين. وجميع النساء في المستوطنة يمارسن عملاً ما، وبالتالي فإن النصف الآخر أي حوالي ثلاثة آلاف نسمة، يعيشون وحدهم، هم من الرجال فقط. علماً أن هذه النسبة، باعتبارها عشوائية، تتغير باستمرار. فحينما صدر البيان السامي أفرج فوراً عن حوالي ألف سجين من المستوطنين الجدد وأرسلوا إلى المزارع، أي ازداد عدد غير أصحاب الأسر في المستوطنة. أما حينما سمح للمستوطنين في ساخالين، وحدث ذلك بعد وصولي إلى الجزيرة

1- يتبين من كشوف الإحصائيات أن نسبة الجنسين في سن الطفولة متعادلة تقريباً، أما في السن من 15 إلى 20 عاماً ومن 20 إلى 25 عاماً فيلاحظ حتى زيادة عدد النساء، لكن فيما بعد وفي السن من 25 إلى 35 عاماً يزداد عدد الرجال بمقدار الضعفين، وفي سن الكهولة والشيخوخة تصبح هذه الزيادة ساحقة. إن قلة عدد الشيوخ وغياب العجائز تقريباً يشيران إلى نقص عنصر الخبرة والتقاليد في الأسر في ساخالين. بالمناسبة كان يبدو لي في كل مرة أزور فيها السجون في ساخالين أن عدد الشيوخ أكبر من عددهم في المستوطنات.

بفترة وجيزة، بالعمل في إقليم أوسوري في طريق سكك حديد سيبيريا، فإن هذه النسبة انخفضت. على أي حال إن تطور العلاقات العائلية في أوساط المنفيين يعتبر ضعيفاً للغاية، والسبب الرئيسي لفشل الاستيطان حتى الآن يكمن بالذات في وجود عدد كبير من الأفراد غير المنتمين إلى عوائل[1]. الآن يطرح السؤال لماذا تطورت في المستوطنة على نطاق واسع العلاقات الزوجية غير الشرعية أو الحرة، وحين التطلع إلى الأرقام حول الوضع العائلي للمنفيين، لماذا يتولد الانطباع بأن المنفيين يتهربون عن قصد من الزواج الشرعي؟ لولا الزوجات المرتبطات بعلاقة زواج شرعية، اللواتي التحقن طوعاً بأزواجهن، لكان عدد الأسر غير الشرعية في المستوطنة أكثر بـ 4 أمثال من الأسر الشرعية. وقد وصف الحاكم العام هذا الوضع، حين أملى علي أقواله لتدوينها في الدفتر، بأنه وضع «صارخ» ولم يتهم، طبعاً، المنفيين في نشوئه. وتفضل غالبية المنفيين الزواج الشرعي لأن غالبيتهم من أصحاب التفكير الأبوي والديني. وغالباً ما يطلب الأزواج غير الشرعيين من رئيس الإدارة السماح لهم بعقد الزواج الشرعي. لكن ترفض غالبية هذه الطلبات في أحيان كثيرة لأسباب لا تتوقف على الإدارة المحلية أو على المنفيين أنفسهم. ومجمل القضية أنه على الرغم من حرمانهم من جميع الحقوق تنتهك حقوق الزوجية لدى المحكوم عليه بالسجن والنفي، ولا يعود له وجود في الأسرة، كما لو أنه توفي، ولكن مع ذلك فإن حقوقه الزوجية في المنفى تحدد ليس بالظروف الناجمة عن حياته لاحقاً، بل بإرادة الزوج غير المدان والباقي في الوطن. ويجب الحصول على موافقة هذا الزوج على فسخ عقد الزواج والطلاق، وبعد ذلك فقط يستطيع السجين والمنفي عقد قران جديد. وعادة لا يعطي من يتبقى من الأزواج والزوجات الموافقة على ذلك: بعضهم لاعتبارات دينية وإيمانهم بأن الطلاق خطيئة، والبعض الآخر لاعتقادهم أن فسخ عقد الزواج مسألة لا حاجة إليها ولا معنى لها، ونزوة، بالأخص حينما يكون كلا الزوجين قد بلغ حد الأربعين من العمر. تقول الزوجة لدى استلام رسالة من زوجها بشأن الطلاق: «هل يتزوج الرجل في

1- ولو أنه لا يلاحظ أن توطد المستوطنة في الفترة الأولى يتوقف على تطور العلاقات العائلية فيها. نحن نعلم أن رفاهية فيرجينيا قد بدأت قبل مجيء النساء إليها.

مثل عمره. ينبغي على الكلب العجوز أن يفكر بروحه». والفئة الثالثة ترفض الطلاق لأنها تخشى بدء عملية الطلاق المعقدة والعسيرة والكثيرة التكاليف، أو لمجرد عدم معرفة إلى من يقدم الطلب وبم تبدأ العملية. وغالباً ما لا يقدم المنفيون على تسجيل عقد الزواج الشرعي أيضاً بسبب عدم كمال كشوف الأصوليات التي تفرض في كل حالة العديد من الشكليات المرهقة، بروح النزعة البيروقراطية القديمة، التي تؤدي فقط إلى أن المنفي يلوح بيده عاجزاً في نهاية المطاف، بعد أن ينفق النقود على الكتبة وطوابع الرسوم والبرقيات، ويقرر أنه لن يستطيع الارتباط بعقد زواج شرعي. ولا توجد لدى كثير من المنفيين كشوف الأصوليات البتة، وتورد كشوف لا يشار فيها إلى الوضع العائلي للمنفي، أو يشار إلى ذلك بشكل غامض أو غير صحيح. بالمناسبة لا تتوفر لدى المنفي أية وثائق أخرى باستثناء كشف الأصوليات التي يمكن أن يشير إليها لدى الضرورة.

يمكن الحصول على المعلومات حول عدد الزيجات في المستوطنة من سجلات المواليد. وبما أن الزواج الشرعي يعتبر هنا نوعاً من الترف، الذي لا يتوفر لدى كل فرد، فإن هذه المعلومات لا تحدد البتة جميع تفاصيل الحياة الزوجية للسكان، وهنا يبرم عقد الزواج ليس لدى الرغبة، بل لدى توفر الإمكانية لذلك. علماً أن متوسط عدد أعمار المتزوجين هو رقم عقيم لا فائدة منه: لا يمكن الحكم بموجبه على غالبية الزيجات المتأخرة أو المبكرة واستخلاص أية استنتاجات من ذلك، لأن الحياة العائلية لدى غالبية المنفيين تبدأ قبل وقت طويل من أداء الطقوس في الكنيسة، ويعقد قران الزوجين عادة بعد أن ينجبا الأولاد. ويرى من سجل المواليد حتى الآن فقط أن أكبر عدد من عقود الزواج تم خلال الأعوام العشرة الأخيرة في شهر يناير. ففي هذا الشهر تم تسجيل ثلث عقود الزواج تقريباً. أما الزيادة في الخريف فهي ضئيلة بالمقارنة مع شهر يناير. لهذا لا مجال لمقارنتها بالأقاليم الزراعية في روسيا. إن الزيجات التي تعقد في ظروف اعتيادية حين يتزوج ابناء المنفيين، الأحرار، كانت كلها تتم بصورة مبكرة، وكان العرسان في عمر 18 حتى 20 عاماً والعرائس في عمر 15 حتى 19 عاماً. لكن عدد الفتيات الحرائر في سن من 15 إلى 20 عاماً أكثر من عدد الرجال الذين يغادرون الجزيرة عادة قبل

بلوغهم سن الزواج. وربما أن قلة عدد العرسان الشباب، وأحياناً الحالة الاقتصادية، تشكلان السبب في أنه غالباً ما تعقد زيجات غير متكافئة. ويزوج الوالدان الفتيات الشابات الحرائر، الصبايا تقريباً، من المستوطنين والفلاحين الكهول. ويفضل ضباط الصف والجنود والمضمدون العسكريون والكتبة والسجانون الزواج من فتيات في سن 15-16 عاماً[1].

إن حفلات الزفاف متواضعة ومملة. ويقال إنه تقام أحياناً في دائرة تيموفسكي حفلات زفاف مرحة وصاخبة، والأوكرانيون أكثر المشاركين فيها صخباً. وفي ألكسندروفسك، حيث توجد مطبعة، ترسل عادة من قبل المنفيين وقبل حفلة الزفاف بطاقات دعوة إليها. علماً أن عمال المطبعة الذين أصابهم السأم من طبع الأوامر الرسمية يتفننون عندئذ في طبع البطاقات التي تبدو من حيث الشكل والنص مختلفة عن البطاقات في موسكو. وتقدم الخزانة قنينة كحول إلى كل حفلة زفاف.

1- يعتبر ضباط الصف، وبالأخص السجانون، في ساخالين من العرسان المستحبين جداً، كما أنهم يقدرون أنفسهم من هذه الناحية، لذلك يتعاملون مع العرائس وآبائهم وأمهاتهم بغطرسة خليعة، مما جعل الكاتب ن. س. ليسكوف لا يحب «الموظفين الجشعين البهائم». وخلال 10 أعوام تم تسجيل عدة عقود زواج غير متكافئة. فتزوج كاتب إداري من ابنة سجين محكوم بالأشغال الشاقة، وتزوج المستشار الإداري من ابنة مستوطن، وتزوج نقيب من ابنة مستوطن، وتزوج تاجر من فلاحة ابنة منفيين، وتزوجت نبيلة من مستوطن. إن هذه الأمثلة النادرة حين يتزوج رجال من الإنتلجنسيا من بنات المنفيين، هو شيء طيب جداً، ولابد أن يترك أثره في مجتمع المستوطنة. وفي يناير 1880 عقد في كنيسة قرية دويه قران سجين وامرأة من قومية الجيلياك. وفي ريكوفو سجلت جريجوري سيفوكوبيلكا، 11 عاماً، كانت أمه جيلياكية. وعموماً فإن زيجات الروس وممثلي القوميات الأخرى نادرة جداً. وحدثوني عن حارس في السجن يعيش مع امرأة جيلياكية أنجبت منه طفلاً أرادت تعميده في الكنيسة بغية عقد القران لاحقاً. والأب إيراكلي عرف ياقوتياً تزوج امرأة من جورجيا وكلاهما لا يتقنان اللغة الروسية. أما بصدد المسلمين فإنهم في المنفى لا يتخلون عن تقليد تعدد الزوجات فتوجد لدى جاكسانبيتوف في ألكسندروفسك زوجتان - فاطمة وساسينا، بينما توجد لدى أبوبكروف في بلدة كورساكوفك زوجتان أيضاً - جانوستا وفيرخونيسا. وفي أندريه - إيفانوفسك رأيت تتارية حسناء، 15 عاماً، اشتراها زوجها من أبيها مقابل 100 روبل. وعندما لا يوجد الزوج في البيت تستلقي الزوجة في الفراش ويتمتع المستوطنون بالتطلع إلى حسنها.

يعتبر المنفيون أنفسهم أن نسبة المواليد عالية جداً، مما يعطي المبررات للسخرية من النساء باستمرار وإيراد شتى الملاحظات ذات المغزى العميق. ويقال إن الطقس نفسه في ساخالين يساعد المرأة على الحمل. وتلد الأطفال العجائز وحتى العاقرات ممن لا أمل لديهن في إنجاب الأطفال في أي وقت. والنساء يسارعن إلى الاستقرار في ساخالين، وغالباً ما يلدن توأمين. هناك امرأة كهلة في فلاديميروفكا لديها ابنة بالغة، استمعت كثيراً إلى الأحاديث حول التوائم، وكانت تتوقع أن تلد توأمين، لكنها أصيبت بخيبة أمل حين ولدت طفلاً واحداً. وطلبت من القابلة: «ابحثي أكثر» (أي أن تبحث في الرحم عن طفل آخر). لكن ولادة أطفال توائم هنا ليست أكثر مما في المناطق الروسية. فخلال عشرة أعوام وحتى أول يناير عام 1890 ولد في الجزيرة 2275 طفلاً من الجنسين، بينما كان عدد الولادات المتعددة الأطفال من قبل النساء يبلغ 26 فقط[1]. لذلك فإن جميع الأقاويل حول خصوبة النساء المبالغ بها وحول التوائم وهلمجرا تشير إلى أن سكان المنافي يتابعون موضوع الولادات باهتمام شديد، وأن هذا الأمر يتسم بأهمية كبيرة.

بما أن عدد السكان يتغير نتيجة المد والجزر باستمرار، علماً أن هذا يتم بالصدفة كما في السوق، فإن تحديد معامل الولادة العامة في الجزيرة خلال عدة سنوات يمكن اعتباره ترفاً بعيد المنال، ومما يزيد صعوبة الأمر أن المادة الرقمية التي جمعتها متواضعة جداً من حيث الحجم. فلا يعرف عدد السكان في الأعوام الماضية، وبدا أن تحديده بعد اطلاعي على مواد الدوائر الرسمية يعتبر عملاً شاقاً للغاية بالنسبة إلي، أما نتائجه فهي موضع شك كبير. يمكن تحديد المعامل بصورة تقريبية فقط فيما يخص الوقت الحاضر. ففي عام 1889 ولد في الأبرشيات الأربع كلها 352 طفلاً من الجنسين: إن مثل هذا العدد من الأطفال يولد سنوياً في ظروف روسيا الاعتيادية في المناطق التي يسكن فيها سبعة آلاف نسمة[2]. وقد عاش في الجزيرة مثل هذا العدد بالذات في عام 1889. إن معامل الولادات هنا هو، كما يبدو، أعلى فقط بقدر قليل

1- أخذت هذه الأرقام من سجلات المواليد في الكنائس والخاصة بالسكان الأرثوذكس فقط.

2- حسب تقدير يانسون يعادل 49,8 أو حوالي 50 ولادة لكل 1000.

مما في روسيا (49,8)، وفي الأقاليم الروسية مثل قضاء تشيريبوفتس. ويمكن القول إن عدد المواليد في ساخالين في عام 1889 كبير نسبياً مثل عددهم في روسيا عموماً، وإذا وجد اختلاف في المعامل، فهو قليل، ولا يتسم، كما يبدو، بأية أهمية. وبما أن معامل الولادات واحد في المنطقتين فإن خصوبة النساء تكون أعلى من تلك التي يكون فيها عدد السكان أقل نسبياً، فيمكن القول أيضاً إن خصوبة النساء في ساخالين أعلى مما في روسيا عموماً.

إن الجوع والحنين إلى الوطن والانحرافات المعيبة وفقدان الحرية - أي جميع الظروف غير المناسبة المميزة للسجن والنفي، لا تستثني القدرة على إنتاج النسل لدى المنفيين. ومعنى ذلك أن وجودها لا تعني أن حياتهم موفقة. إن سبب الخصوبة العالية للنساء وكذلك كثرة المواليد يكمن أولاً في حياة البطالة لدى المنفيين الذين يعيشون في المستوطنة، والتزام الأزواج والخلائل بالبقاء قسراً في البيت، بسبب عدم وجود أعمال موسمية ومصادر الكسب لديهم، ورتابة الحياة التي يعتبر إرضاء الغرائز الجنسية وسيلة التسلية الوحيدة لديهم، وثانياً، أن غالبية النساء هنا في سن إنتاج النسل. وبالإضافة إلى هذين السببين توجد، كما يبدو، عوامل أخرى لم تخضع للدراسة المباشرة. ربما ينبغي النظر إلى كثرة إنتاج النسل في الجزيرة بصفتها وسيلة، وكيف تعطي الطبيعة إلى البشر القدرة على مكافحة التأثيرات الضارة والمدمرة، وفي مقدمتها بعض الأعداء ذوي الصفة الطبيعية، مثل قلة عدد السكان ونقص النساء. وكلما يكون الخطر الذي يتهدد البشر أكبر يزداد عدد المواليد، ومن هذه الناحية يمكن القول إن الظروف السيئة قد تكون السبب في كثرة المواليد[1].

يوجد في ساخالين في الوقت الحاضر 2122 طفلاً، وبضمنهم المراهقون الذين بلغوا في عام 1890 سن 15 عاماً. وجاء من بينهم من روسيا برفقة ذويهم 644، وولد في ساخالين وفي الطريق إلى المنفى 1473 طفلاً، وهناك

1- إن الكوارث العنيفة السريعة الزوال مثل سوء المحاصيل والحروب وغيرها تؤدي إلى تقلص المواليد، أما الجوائح المزمنة مثل وفيات الأطفال العالية وكذلك الوجود في السجن والقنانة والنفي وغيرها فإنها تزيدها. تلاحظ زيادة المواليد في بعض الأسر مع احتدام الوضع النفسي.

5 أطفال لا أعرف مكان ولادتهم. والأوائل أقل بحوالي ثلاثة أمثال، وأغلبهم وصلوا إلى الجزيرة في الأعمار التي يبدأ فيها الأطفال بإدراك الأمور. إنهم يذكرون ويحبون الوطن. بينما لم ير المواليد في ساخالين أي شيء أفضل من ساخالين، ولابد أنهم ينجذبون إليها باعتبارها وطنهم الحقيقي. وعموماً فإن الفئتين تختلفان جداً بعضهما عن بعض. وفي الفئة الأولى تبلغ نسبة المواليد غير الشرعيين 1,7% فقط، أما في الفئة الثانية فالنسبة تعادل 37,2%[1]. ويطلق أفراد الفئة الأولى على أنفسهم تسمية الأحرار، وغالبيتهم العظمى ممن ولدوا وأنجبوا قبل إجراء المحاكمة، ولهذا فإنهم يحافظون على جميع الحقوق المتأتية عن وضعهم. أما الأطفال الذين ولدوا في المنفى فلا يطلقون على أنفسهم أية تسمية، وبمرور الزمن يسجلون أنفسهم ضمن الطبقات المنتمين إليها ويسمون بالفلاحين أو البرجوازيين الصغار، ويتقرر وضعهم الاجتماعي الآن كالآتي: الابن غير الشرعي للسجينة، وابنة المستوطن، والابنة غير الشرعية لعامل في البلدة وهلمجرا. وعندما علمت امرأة من النبلاء، زوجة أحد المنفيين، أن ابنها أدرج في سجل المواليد بصفته ابن مستوطن بكت بحرقة كما يقال.

لا يوجد ضمن الفئة الأولى البتة تقريباً أطفال رضع أو في عمر دون 4 أعوام: والأكثرية تنتمي إلى من هم في سن المدرسة. أما في الفئة الثانية من مواليد ساخالين، فالأمر بالعكس، إذ تغلب فيهم الأعمار الأصغر، علماً أنه كلما كان الأطفال أكبر سناً، قل عدد أقرانهم، وإذا ما سجلنا أعمال أطفال هذه الفئة في خطوط بيانية نجد أن الخط المنحني ينزل إلى الأسفل بحدة. وعدد الأطفال في عمر دون العام الواحد 203، ومن 9 إلى 10 أعوام – 45، ومن 15 إلى 16 عاماً – 11 فقط. ولم يبق أحد من مواليد ساخالين الذين تتجاوز أعمارهم العشرين عاماً. ولهذا يعوض النقص في المراهقين بالقادمين الجدد الذين تشب من بينهم الشابات والعرائس. وتعزى النسبة القليلة من الأطفال الأكبر سناً بين الأطفال المولودين في ساخالين إلى وفيات الأطفال

1- الفئة الأولى من المواليد غير الشرعيين تتألف من أطفال النساء الذين ولد أكثرهم في السجون بعد المحاكمة، أما في العوائل التي انضمت النساء طوعاً إلى أزواجهن ووالديهم فلا يوجد بينهم أطفال غير شرعيين.

وإلى عدم وجود نساء كثيرات في الجزيرة في الأعوام الماضية. ولهذا ولد عدد أقل من الأطفال، ولكن الذنب يقع بقدر أكبر على الهجرة. فالكبار حين يغادرون الجزيرة يأخذون الأطفال معهم. إن والدي الطفل الذي يولد في ساخالين يمضيان عادة فترة العقوبة قبل ولادته، وحينما يولد ويشب ويبلغ 10 أعوام، يحصل على وضع الفلاح ويغادر إلى القارة. أما وضع القادمين الجدد فيختلف تماماً. حينما يتم نفي والدي الطفل إلى الجزيرة يكون في عمر 5-8-10 أعوام، وحينما ينهيان فترة السجن والنفي، يكون قد شب من سن الطفولة، وفيما يطالب الوالدان بمنحهما حقوق الفلاحين، يكون قد أصبح عاملاً، وقبل الانتقال إلى القارة نهائياً، يكون قد مارس كسب الرزق في فلاديفستوك أو نيقولايفسك. وفي كل الأحوال لا يبقى في الجزيرة لا القادمون إليها ولا المولودون فيها، ولهذا فإن جميع القرى والمخافر في ساخالين لا يمكن تسميتها مستوطنات بل أماكن الإقامة المؤقتة.

إن مولد كل إنسان جديد لا يحظى بالترحيب في الأسرة. ولا تنشد التنويمات عند المهد، ويتردد فقط العويل المنذر بالسوء. ويقول الآباء والأمهات إنه لا يتوفر الطعام للأطفال، وإنهم لن يتعلموا أي شيء خير في ساخالين، و«الأفضل أن يأخذهم الرب الرحيم إلى رحابه بسرعة». إذا ما بكى الطفل أو عبث يصرخون فيه: «اسكت، أتمنى لو تزهق روحك». مع ذلك، ومهما قيل، فإن أكثر الناس نفعاً وضرورة وأكثرهم ظرفاً في ساخالين هم الأطفال، ويدرك المنفيون ذلك، ويثمنونهم كل التثمين. إنهم يجلبون إلى الأسرة الساخالينية الفظة والفاسدة أخلاقياً عنصر الرقة والطهارة والحياء والبهجة. وعلى الرغم من براءتهم، فهم يحبون بأكبر قدر أمهم الفاسدة وأباهم قاطع الطريق، وإذا ما كان المنفي الذي نسي الملاطفة في السجن يتأثر من ملاطفة الكلب له، فأي قيمة يجد في محبة الطفل. لقد ذكرت أن وجود الأطفال في الأسرة يشكل دعماً معنوياً للسجين والمنفي، والآن أضيف إلى ذلك أن الأطفال غالباً ما يكونون الشيء الوحيد الذي يربط الرجل والمرأة المنفيين بالحياة، وينقذهما من اليأس، ومن السقوط نهائياً. وقد تسنى لي مرة التحدث مع امرأتين من الحرائر لدى تسجيلهما، وقد رافقتا زوجيهما طوعاً إلى المنفى وتعيشان في شقة واحدة. وعندما

كنت في البيت سمعت إحداهما، التي ليس لديها أطفال، تشكو باستمرار من الأقدار، وتسخر من نفسها، قائلة إنها حمقاء وملعونة لكونها قد جاءت إلى ساخالين، وتشد قبضتيها بتشنج، وهذا كله جرى بحضور زوجها الموجود هناك، والذي كان يرنو إليها بشعور من الذنب، أما الأخرى التي توصف هنا بـ «أم الولد» إذ لديها عدة أطفال، فإنها لزمت الصمت، وأنا فكرت بأن وضع الأولى التي لا أطفال لديها، لابد أن يكون بائساً جداً. كما أذكر أنني سجلت صبياً تتارياً في الثالثة من العمر، يضع على رأسه طاقية (يرمولكا)، وثمة مسافة واسعة بين عينيه، وقلت له عدة كلمات للملاطفة، وفجأة تغيرت سحنة أبيه، التتاري من قازان، وهز رأسه بمرح، كما لو أنه يتفق معي، بأن ولده صبي طيب جداً، وتراءى أن هذا التتاري سعيد.

ويفهم القارئ مما ذكرته أعلاه كيف يشب الأطفال في ساخالين وتحت أية تأثيرات، وما هي الانطباعات التي تحدد نشاطهم الروحي. إن ما يعتبر في مدن وقرى روسيا شيئاً فظيعاً يعتبر هنا أمراً اعتيادياً. الأطفال هنا يتابعون بنظرات تنم عن اللامبالاة مسيرة وجبة من المعتقلين المقيدين بالسلاسل، وحينما يدفع هؤلاء السجناء عربة محملة بالرمل، يتعلق الأطفال بها من الخلف وهم يقهقهون. إنهم يمارسون لعبة الجنود والسجناء. وعندما يخرج الصبي إلى الشارع يهتف لأقرانه: «استعد!» و«استرح!». أو أنه يضع لعبه وقرص خبز في كيس ويقول لأمه: «سأذهب للتجول». وتقول الأم مازحة: «خذ حذرك، فقد يطلقون عليك النار». يخرج الصبي إلى الشارع ويبدأ بالتجول كشريد، بينما يقوم رفاقه بأداء دور الجنود، ويلقون القبض عليه. يتحدث الأطفال في ساخالين عن الشريدين والعصي والسياط ويعرفون معنى كلمات الجلاد والقيود والخليل. عندما تجولت حول البيوت في آرمودان العليا، لم أجد الكبار في أحدها. كان في البيت فقط صبي في العاشرة من العمر، أشقر الشعر، محدودب الظهر، حافي القدمين. وتغطي وجهه الشاحب حبات نمش كبيرة ويبدو شبيهاً بالمرمر. سألته: – ما هو اسم أبيك؟

أجاب: – لا أعرف؟

– كيف لا تعرف؟ أنت تعيش مع أبيك ولا تعرف اسمه؟ شيء مخجل.

- إنه ليس أبي الحقيقي.

- كيف ليس الأب الحقيقي.

- إنه خليل أمي.

- هل أمك متزوجة أم أرملة؟

- إنها أرملة. لقد جاءت إلى هنا بسبب زوجها.

- ما معنى - بسبب زوجها؟

- إنها قتلته.

- هل تذكر أباك؟

- أنا لا أذكره. أنا ابن غير شرعي. لقد ولدتني أمي في كارا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إن أطفال ساخالين شاحبو الوجوه وهزيلون وخاملون. إنهم يرتدون القمصانات الفضفاضة الرثة، ولديهم رغبة في الأكل باستمرار. وكما سيرى القارئ أدناه فإنهم يموتون لإصابتهم حصراً بأمراض الجهاز الهضمي. إن العيش شبه جياع، وكون الغذاء أحياناً مقتصراً على اللفت خلال أشهر كاملة، بينما يقتصر لدى الأغنياء على السمك المملح، ودرجة الحرارة المنخفضة والرطوبة، تهلك جسد الطفل ببطء، وبصورة سقيمة في غالب الأحيان، حيث تتفسخ جميع أنسجته شيئاً فشيئاً. ولولا الهجرة لكنا سنواجه بعد جيلين أو ثلاثة أجيال في الجزيرة جميع الأمراض المتعلقة باضطراب التغذية الشديد. وفي الوقت الحاضر يحصل أبناء المستوطنين الفقراء والسجناء من الخزانة على ما يسمى «الحصة التموينية»، حيث تخصص للأطفال في السن من العام الواحد إلى 15 عاماً مبلغ روبل ونصف الروبل، بينما تخصص للأيتام والمعوقين والمشوهين والتوائم 3 روبلات شهرياً. ويقرر حق الطفل في الحصول على هذه المساعدة الموظفون شخصياً حسب رغبتهم، والذين يفهمون كلمة «الفقير» كل حسب طريقتهم[1]. أما كيفية إنفاق الروبل والنصف والثلاثة فيقررها الآباء والأمهات. وتتوقف هذه

1- كما يتوقف مبلغ المنحة على تصور الموظف حول المعوقين والمشوهين حيث يعتبر أنهم الأعرج والأعضب والأحدب فقط أو المصابون بالتدرن الرئوي والمعتوهون والعميان.

المساعدة النقدية على موافقات عديدة وبسبب فقر وعدم نزاهة الوالدين غالباً ما لا تصل إلى مستحقيها، ووجب إلغاؤها منذ وقت بعيد. إنها لا تقلل من الفقر، بل تغطيه فقط، وترغم الناس غير العارفين على تصور أن الضمانة المالية مكفولة للأطفال في ساخالين.

كيف تقدم المعونة إلى أطفال ساخالين؟ أنا أعتقد أنه يجب قبل كل شيء ألا تربط المعونة بشروط مثل «الفقير جداً» أو «المعوق» وهلمجرا. تجب مساعدة جميع طالبي هذه المعونة بلا استثناء من دون خشية الخداع: من الأفضل أن تخدع وليس أن تخدع نفسك. ويحدد شكل المعونة بالظروف المحلية. لو توقف الأمر عليّ لافتتحت في المخافر بالنقود التي تنفق الآن على «الحصة التموينية» والقرى محال لتقديم الشاي إلى النساء والأطفال. ولقدمت الحصة التموينية والملابس إلى جميع النساء الحوامل بلا استثناء والأمهات المرضعات، ولأبقيت «التموينية» بمبلغ روبل ونصف الروبل - ثلاثة روبلات شهرياً فقط للفتيات من سن 13 عاماً وحتى الزواج، ولأعطيتهن هذه النقود بأيديهن.

يرسل أهل الإحسان في بطرسبورج سنوياً إلى أطفال ساخالين المعاطف القصيرة والمآزر وأحذية اللباد والقلنسوات والأرمونيكات والكتيبات التنويرية والريش. وعندما يستلم حاكم الجزيرة هذه الأشياء يدعو السيدات المحليات إلى تولي مهمة توزيع هذه الهدايا. ويقال إن الآباء يشربون الخمر ويلعبون القمار بأثمانها. وكان الأفضل أن يرسل بدلاً من الأرمونيكا الخبز وغيره من الحاجيات، لكن يجب ألا تحرج أهل الخير مثل هذه الملاحظات. وعادة يبدي الأطفال الفرح الغامر لذلك، بينما يعرب الآباء والأمهات عن الشكر البالغ. لقد كان من المناسب جداً لو أن المحسنين الذين يهتمون بمصير أطفال المنفيين يتلقون سنوياً معلومات تفصيلية عن أطفال ساخالين وعددهم وتشكيلتهم من حيث الانتماء الجنسي والعمر وعدد المتعلمين وغير المسيحيين.. الخ. وإذا ما علم المحسن كم عدد الأطفال المتعلمين فسيعرف كم يجب أن يرسل من الكتب أو الأقلام، بغية عدم الإساءة إلى أي أحد، أما إرسال اللعب والملابس فهو أمر مريح أكثر حينما يعرف عمر الطفل وجنسه وقوميته. أما في ساخالين نفسها فينبغي أن تبعد جميع الأعمال

الخيرية من سيطرة إدارات الشرطة الغارقة أصلاً في المشاغل، وتسليم مهمة تنظيم المساعدة إلى الإنتلجنسيا المحلية. إذ يوجد في أوساطها عدد كبير من الأشخاص الذين يسرهم أخذ هذه المهمة الحيوية على عاتقهم. تقدم في الشتاء أحياناً في ألكسندروفسك عروض مسرحية للأطفال. ومنذ فترة قريبة جمع الموظفون في مخفر كورساكوفسك النقود واشتروا مختلف الحاجيات، بينما وجدت زوجاتهم الملابس والأفرشة لغرض توزيعها على الأطفال.

إن الأطفال يشكلون عبئاً من الناحية الاقتصادية وعقوبة من الرب بسبب ارتكاب الخطايا، لكن هذا لا يقف حائلاً أمام المنفيين دون تبني أطفال الغير إذا لم يكن لديهم أطفال. ويتمنى أصحاب الأطفال أن يموت أطفالهم. بينما يحدث أحياناً أن يتبنى المنفيون الأيتام أو الأطفال الفقراء أملاً في الحصول على الحصة التموينية وغيرها من المنح والعلاوات وحتى يبلغ الأمر حد إرسال الأطفال للتسول في الشارع. لكن غالبية المنفيين لهم دوافع نزيهة أخرى. وينسب إلى «الأطفال» ليس الأطفال فقط، بل والكبار وحتى الشيوخ أيضاً. فمثلاً يعتبر المستوطن إيفان نوفيكوف الأول، 60 عاماً، ابناً بالتبني للمستوطن يفجيني يفيموف، 42 عاماً، وفي ريكوفسكويه ينسب يليسي ماكلاكوف، 70 عاماً، بصفته ابن إيليا مينايف بالتبني.

ينص «نظام المنفيين» على أن الأطفال الصغار الذين يرافقون والديهم المنفيين إلى سيبيريا أو الذين يرسلهم آباؤهم وأمهاتهم إلى هناك، ينقلون بواسطة عربات نقل، علماً أن كل عربة نقل تخصص لخمسة أفراد. ولا يذكر في «القانون» من هم الأطفال الصغار في هذه الحالة. ويحصل الأطفال الذين يرافقون والديهم على الملابس والأحذية والنقود لشراء الطعام خلال فترة الرحلة كلها. وإذا ما تبعت الأسرة المنفي بإرادتها إلى المنفى، فإن الأطفال الذين بلغوا سن 14 عاماً يذهبون إلى هناك فقط برغبتهم. أما الأبناء الذين بلغوا سن 17 عاماً فيمكن أن يتركوا مكان النفي ويعودوا إلى الوطن بلا موافقة الوالدين.

-18-

أعمال المنفيين. – الزراعة. – صيد الفرائس. – صيد الأسماك. – سمكة الموسم: الحوت والرنجة. – الصيد من قبل السجناء. – المهارة.

إن فكرة تعليم السجناء والمستوطنين الأعمال الزراعية قد انبثقت، كما ذكرت من قبل، في بداية تحويل ساخالين إلى مكان للنفي. علماً أن هذه الفكرة بحد ذاتها جذابة جداً: فأعتقد أن العمل الزراعي يتضمن جميع العناصر اللازمة من أجل جذب المنفي للعمل وتحبيب الأرض إليه وحتى إصلاحه. علاوة على أن هذا العمل يناسب الأغلبية الساحقة من المنفيين، لأن النفي عندنا هو مؤسسة رجالية في أغلبيتها، وعشر السجناء والمستوطنين فقط لا ينتمون إلى طبقة المزارعين. إن هذه الفكرة حققت النجاح، وعلى أقل تقدير فإن الزراعة كانت في الفترة الأخيرة المهنة الرئيسية للمنفيين في ساخالين التي لم تكف عن تسميتها بالمستوطنة الزراعية.

فخلال فترة وجود المستوطنة كلها جرت أعمال الحرث والبذر، ولم يتوقف هذا العمل، وتوسعت مساحة المزارع سنوياً بفضل حماسة السكان. إن عمل المزارع في ساخالين ليس قسرياً فقط، بل وشاق أيضاً، ولئن كانت العلائم الأولى للأشغال الشاقة هي الإكراه وتوتر القوى الجسدية، فلا يمكن إيجاد ما يناسب بأكبر قدر صفة «الشاقة» أي عمل للمجرمين مثل ممارسة الزراعة في ساخالين. فهي حتى الوقت الحاضر تطابق أكثر أهداف التنكيل قسوة.

لكن هل كانت الزراعة ذات مردود، وتتجاوب مع أهداف الاستيطان أيضاً، إن هذا قد تجسد منذ بداية النفي إلى ساخالين وحتى الفترة الأخيرة في طرح

مختلف الآراء وفي غالب الأحيان أكثرها تطرفاً. فقد اعتبر البعض ساخالين جزيرة خصبة جداً، وحتى كما يقال، أرسلوا برقيات مترعة بالابتهاج وذكروا في تقاريرهم ومراسلاتهم أن المنفيين سيطعمون في نهاية المطاف أنفسهم ولا يحتاجون إلى النفقات من جانب الدولة، بينما أبدى البعض الآخر الشكوك بشأن مستقبل الزراعة في ساخالين وأعلنوا بشكل قاطع أن الزراعة لا مستقبل لها في الجزيرة. وقد نشأ هذا الخلاف لأنه أصدر الأحكام على الزراعة في ساخالين في غالب الأحيان أناس لا يعرفون الوضع الحقيقي للأمور هناك. وقد تم البدء بالاستيطان في الجزيرة قبل إجراء دراسة وافية لها، وكانت تعتبر من وجهة النظر العلمية terram Incognitam [1] كلياً، وجرى الحكم على الظروف الطبيعية وإمكانيات الزراعة فيها فقط بموجب علامات مثل السعة الجغرافية وقربها من الجارة اليابان ووجود البامبوك وأشجار الفلين وغيرها في الجزيرة. واتسم بأهمية حاسمة بالنسبة إلى المراسلين، الذين أعطوا أحكامهم بموجب الانطباعات الأولى في غالب الأحيان، الطقس الجيد أو الرديء، وأصناف الخبز والزبدة التي قدمت لهم في البيوت، وتارة وجودهم في مكان بائس مثل دويه أو تارة أخرى في مكان يبعث على البهجة للوهلة الأولى مثل سيانتسي. علماً أن غالبية الموظفين الذين عهدت إليهم مهمة إدارة المستوطنة الزراعية لم يكونوا سابقاً وقبل توليهم مناصبهم من أصحاب الأطيان أو الفلاحين ولا يفقهون شيئاً في أمور الزراعة أبداً. وقد استخدموا في إدارة شؤون مؤسساتهم المعلومات التي زودهم بها السجانون. أما المهندسون الزراعيون المحليون فمعلوماتهم قليلة في اختصاصهم ولم يفعلوا شيئاً، أو أن تقاريرهم اتسمت بالتحيز بجلاء، أو أنهم جاءوا إلى الجزيرة من مقاعد المدرسة مباشرة، وفي البداية استخدموا الجانب النظري والشكلي من المهنة وضمنوا تقاريرهم المعلومات التي جمعها صغار الموظفين من أجل الإدارات[2]. وكان يبدو أن أصح المعلومات يجب أن

1- الأرض المجهولة (باللاتينية).

2- كتب حاكم الجزيرة في ملاحظاته حول تقرير المفتش الزراعي في عام 1890: «في نهاية الأمر توجد وثيقة، ربما هي بعيدة عن الكمال، لكنها قائمة إلى أقصى حد على معطيات الدراسة التي جمعها خبير ومن لا توجد لديهم رغبة في إرضاء أحد». ويصف هذا التقرير بأنه «أول خطوة في هذا الاتجاه». ومعنى ذلك أن جميع التقارير

ترد من الناس الذين بذروا وحصدوا، لكن تبين أن هذا المصدر لا يؤتمن أيضاً. فالمنفيون عادة يشيرون إلى مساحة الأرض المزروعة والمحاصيل دون الواقع، وذلك خوفاً من حرمانهم من المنح والتوقف عن توفير البذور والعلاوات لهم. إن المنفيين الأغنياء الذين لا يحتاجون إلى المنح لا يقولون الحقيقة أيضاً، ولكن

التي كتبت قبل عام 1890 ليس من أجل إرضاء أحد ما». وذكر الجنرال كونونوفتش في تقريره لاحقاً أن المصدر الوحيد للمعطيات حول الزراعة في ساخالين كان قبل عام 1890 «مجرد خزعبلات تافهة».

تطلق على المهندس الزراعي في ساخالين تسمية المفتش الزراعي. علماً أنها وظيفة من الدرجة السادسة وذات راتب محترم. وقام المفتش الحالي بإعداد تقرير بعد مضي عامين على وجوده في الجزيرة، وهو عمل إداري صغير لا يتضمن الملاحظات الشخصية للكاتب واستنتاجاته لا تتميز بالتحديد والوضوح. لكن ترد في التقرير باقتضاب معلومات عن حالة الطقس والنباتات تعطي صورة واضحة عن الظروف الطبيعية للجزء المسكون من الجزيرة. وقد نشر هذا التقرير وفي أغلب الظن سيلحق بالمواد المتعلقة بساخالين. أما بخصوص المهندسين الزراعيين الذين عملوا من قبل فلم يحالفهم الحظ البتة. وقد أشرت مراراً إلى م. س. ميتسوله الذي كان مهندساً زراعياً، ومن ثم أصبح رئيس قسم وفي نهاية المطاف توفي لإصابته بالذبحة الصدرية قبل أن يبلغ سن 45 عاماً. أما المهندس الزراعي الآخر الذي حاول جاهداً، كما يقال، أن يثبت أن الزراعة في ساخالين مستحيلة، وراح يرسل الأوراق والبرقيات إلى الجهات المسؤولة، وكانت نهايته أيضاً، كما أظن، هي الإصابة بالاضطراب العصبي الشديد، ويتذكرونه الآن على كل حال بكونه رجلاً شريفاً ومطلعاً، لكنه رجل مخبول. أما الثالث «رئيس القسم الزراعي»، وهو بولندي، فقد أقصاه من منصبه حاكم الجزيرة بسبب فضيحة نادرة في المدونات التاريخية للموظفين: «لقد صدر الأمر بمنحه نفقات السفر، لكن فقط في حالة تقديمه العقد بالاتفاق مع سائق الزحافة التي تقودها الكلاب أو الأيائل على نقله حتى مدينة نيقولايفسك». ويبدو أن رئيس الإدارة كان يخشى أن المهندس الزراعي سيبقى في الجزيرة إلى الأبد (الأمر رقم 349، 1888). أما المهندس الزراعي الرابع، وهو ألماني، فهو لم يفقه شيئاً في الزراعة. وروى لي الأب إيراكلي أن المهندس توجه إلى ريكوفسكويه بعد حدوث برد شديد في أغسطس مما أدى إلى تلف محصول الحبوب فجمع الفلاحين وسألهم بوقار: «لماذا عندكم برد؟». وانبرى من الحشد أذكى الفلاحين وأجابه: «نحن لا نعرف، ياصاحب السعادة، إنها إرادة الرب كما يبدو». وقد رضي المهندس الزراعي تماماً عن هذا الجواب، وركب العربة وانصرف إلى بيته بشعور من الارتياح البالغ بأنه أدى واجبه.

ليس من الخوف، بل من الدوافع ذاتها التي أرغمت بولونيوس (أحد أبطال مسرحية «هاملت لشكسبير» - المترجم) على الموافقة على أن الغيمة تشبه في آن واحد الجمل وابن عرس. إنهم يتابعون بإمعان الموضة واتجاه التفكير، فإذا لم تكن الإدارة المحلية تثق بالزراعة فإنهم لا يثقون بها أيضاً، وقد سادت في الإدارة موضة في الاتجاه المعاكس، فإنهم يبدأون بالتأكيد على أنه من الممكن العيش في ساخالين، والحمد لله، وأن المحاصيل جيدة، ولكن هناك مصيبة واحدة - هي أن الناس أصبحوا الآن مدللين وهلمجرا. وعندئذ يلجأون من أجل إرضاء الرؤساء إلى الكذب الفاضح وشتى أنواع الخبث والاحتيال. وعلى سبيل المثال فهم يختارون في الحقل أكبر السنابل ويأتون إلى ميتسول، فيصدق الأخير أقوالهم عن طيب خاطر، ويخلص إلى استنتاج مفاده أن المحصول ممتاز. وأبرزت للزائرين حبات بطاطس بحجم الرأس وثمار لفت وبطيخ يبلغ وزنها سبعة كيلوغرامات، فينظر الزائرون إلى هذه المعجزات ويصدقون أن أفضل أصناف الحنطة تنمو في ساخالين.

كانت المسألة الزراعية في ساخالين في أثناء وجودي هناك في مرحلة خاصة ما، حين كان من الصعب فهم أي شيء. فلم يصدق الحاكم العام للجزيرة ورؤساء الأقاليم إنتاجية ومردود عمل المزارعين في ساخالين، ولم تراودهم أية شكوك في أن المحاولات لجذب المنفيين إلى الزراعة قد منيت بالفشل التام وأن مواصلة الإصرار على أن تصبح الجزيرة منطقة زراعية تعني تبذير أموال الخزانة عبثاً وجلب الآلام إلى الناس بلا معنى. وقد سجلت ما أملاه علي الحاكم العام بهذا الصدد: «إن تكوين مستوطنة زراعية من المجرمين أمر غير قابل للتحقيق. يجب إعطاء الناس الفرصة للكسب، أما الزراعة فهي معونة لهم فقط».

قال صغار الموظفين الكلام ذاته وانتقدوا بحضور رؤسائهم ماضي الجزيرة. بينما أجاب المنفيون أنفسهم عن السؤال، حول كيف تسير الأمور، بعصبية وبيأس وبسخرية. وعلى الرغم من إجماع الرأي هذا بصدد الزراعة، فإن المنفيين يواصلون الحرث والبذر، بينما تواصل الإدارة تزويدهم بالبذور والمعونات، ويصدر حاكم الجزيرة، الذي يؤمن أقل من الجميع بنجاح الزراعة في ساخالين، الأوامر التي يؤكد فيها «لا بد من جذب المنفيين إلى الزراعة»، وأنه لن ينسب إلى فئة الفلاحين أبداً «أولئك المستوطنين الذين لا يعطون الآمال الوطيدة في نجاح

أعمالهم الزراعية في قطع الأراضي التي أفردت لهم». (الأمر رقم 276، 1890). ولا تفهم البتة سيكولوجية هذه المفارقات.

لا ترد حتى الآن مساحة الأراضي الزراعية في التقارير بشكل أرقام مبالغ فيها أو منتقاة (الأمر رقم 366، 1888)، ولن يقول أحد بدقة ما هو معدل حصة كل فرد من الأراضي الزراعية. إن المفتش الزراعي يحدد متوسط مساحة الأرض بـ 1555 ساجيناً مربعاً أي حوالي 2/ 3 ديسياتينا. وهذا يخص أفضل الدوائر أي دائرة كورساكوفسك - تبلغ مساحتها 935 ساجيناً مربعاً. علاوة على ذلك فإن هذه الأرقام قد تكون غير صحيحة، ومما يقلل من أهميتها أن الأراضي موزعة على الفلاحين بصورة غير متكافئة البتة: يمتلك من جاء من روسيا ومعه نقود أو كونه من المزارعين الأثرياء (الكولاك) 3-5 وحتى 8 ديسياتينا من الأراضي الزراعية، ويوجد عدد كبير من المزارعين، بالأخص في دائرة كورساكوفسك الذين يمتلكون عدة ساجينات مربعة فقط لا غير. ويبدو أن عدد قطع الأراضي الزراعية يزداد عاماً بعد عام، بينما لا تزداد مساحة الأراضي الزراعية وحتى يبدو كأنها قد تبقى بهذه المساحة بصورة دائمة[1].

تبذر الحبوب الحكومية التي تستلم في كل مرة بشكل قرض. وفي عام 1889 كانت توجد في أفضل دائرة، وهي دائرة كورساكوفسك، «165 بوداً فقط من الحبوب لدى المزارع من أجمالي كل الحبوب التي تم بذرها والبالغة 2060 بوداً، ولم يمتلك البذور شخصياً من مجموع 610 أشخاص بذروا هذه الكمية سوى 56 شخصاً فقط» (الأمر رقم 313، 1889). وطبقاً لمعطيات المفتش الزراعي تبلغ الحصة المتوسطة لكل ساكن ممن بذروا الحبوب 3 بودات و18 رطلاً فقط، وهذا المعدل بأدنى قدر في الدائرة الجنوبية. وينبغي أن نشير بهذا الصدد إلى أن الزراعة تتم في الدائرة، ذات الظروف المناخية المناسبة بقدر أكبر، بصورة أقل نجاحاً مما في الدوائر الشمالية، وهذا لا يحول دون اعتبارها من أفضل الدوائر.

لم تلاحظ في الدائرتين الشماليتين ولو مرة واحدة كمية الدفء التام من أجل نضوج الشوفان والحنطة بصورة كاملة، وساد خلال عامين فقط مقدار الدفء اللازم من أجل نضوج الشعير. ويكون الربيع وبداية الصيف باردين دائما

1- مع ازدياد عدد السكان يغدو من الصعب أيجاد أراض صالحة للزراعة.

تقريباً. وفي عام 1889 ساد البرد في يوليو وأغسطس، بينما بدأ الطقس الرديء منذ 24 يوليو، واستمر حتى نهاية أكتوبر. يمكن مكافحة البرد، ويعتبر تكيف نباتات الحبوب في ساخالين واحدة من أكثر المهام نبلاً، لولا الرطوبة العالية، التي لن يكون بالمستطاع مكافحتها في أي زمن. وفي فترة ظهور السنابل وتفتح الزهور ونضوج الحبوب، وبالأخص في فترة تكون كمية الأمطار المتساقطة في الجزيرة عظيمة بما لا يقاس، ولهذا تعطي الحقول محاصيل حبوب غير ناضجة تماماً، ورطبة، ومتغضنة وخفيفة الوزن. إن محصول الحبوب يتلف كله بسبب غزارة الأمطار، ويتعفن أو يترك في الأكداس في الحقول. ويتزامن وقت حصاد محاصيل الحبوب، وبالأخص من المحاصيل الربيعية، هنا دائما تقريباً، مع الطقس ذي الأمطار الغزيرة. وقد يحدث أن يترك المحصول كله في الحقل بسبب الأمطار. يورد المفتش الزراعي كشف المحاصيل خلال الأعوام الخمسة الأخيرة، بموجب المعطيات التي يصفها حاكم الجزيرة بـ «التلفيقات السخيفة». ويمكن أن يستنتج من هذه الكشوف تقريباً أن المعدل المتوسط لمحاصيل الحبوب في ساخالين يعادل سام - ثلاثة. ويتم التأكد من ذلك من رقم آخر: ففي عام 1889 بلغت حصة الفرد الواحد من إجمالي محصول الحبوب حوالي 11 بوداً، أي أكثر مما بذر بثلاثة أمثال. لكن الحبوب من هذا المحصول رديئة النوعية. وعندما تطلع حاكم الجزيرة في إحدى المرات إلى نماذج الحبوب، التي جاء بها المستوطنون، الراغبون في استبدالها بدقيق، وجد أن بعضها لا يصلح للبذار أصلا، أما البقية الباقية فتحتوي على كمية كبيرة من مزيج الحبوب غير الناضجة والتالفة بسبب الزمهرير (الأمر رقم 41، 1889).

لقد وجب على المزارع في ساخالين في ظروف شحة المحاصيل هذه أن يمتلك لكي يشبع ما لايقل عن 4 ديسياتينا من الأراضي الخصبة، وأن لا يقيم عمله بأي شيء، وأن لا يدفع إلى العاملين أي أجور. عندئذ وفي المستقبل القريب حين يطبق نظام زراعة حقل واحد في الموسم، وبلا ازدواجية بين موسم وآخر، وبلا أسمدة، تفقد التربة خصوبتها ويدرك المنفيون «ضرورة التحول إلى أساليب رشيدة أكثر في استثمار الحقول وإلى نظام جديد في دورة المزروعات»، ووجود حاجة لتوفير مساحة أكبر من الأرض وبذل جهد أكبر، وإلا فستترك الزراعة باعتبارها غير ذات مردود وخاسرة.

إن ذلك الفرع من الزراعة الذي يتوقف نجاحه ليس على الظروف الطبيعية بل على جهود ومعارف المزارع الممتازة، - هو البستنة وزراعة الخضروات، وهو يعطي حسب اعتقادي نتائج طيبة في ساخالين. ومما يدل على نجاح البستنة المحلية أن عوائل كاملة تعتاش أحياناً طوال الشتاء كله على اللفت السويدي. وفي يوليو حين اشتكت لي إحدى السيدات في ألكسندروفسك لكون الزهور في حديقتها لم تتفتح بعد، بينما رأيت في كورساكوفسك في أحد البيوت منخلاً مليئاً بالخيار. ويتبين من تقرير المفتش الزراعي أن حصة الفرد الواحد من محصول عام 1889 في دائرة تيموفسكي بلغت أربعة بودات وعشر البود من الكرنب وحوالي بودين من مختلف النباتات الدرنية، أما في كورساكوفسك فبلغت 4 بودات من الكرنب و4 بودات وثمن البود من النباتات الدرنية. وفي العام نفسه بلغت حصة الفرد الواحد من البطاطس في دائرة ألكسندروفسك 50 بوداً وفي دائرة تيموفسكي 16 بوداً وفي دائرة كورساكوفسك 34 بوداً. وعموماً فإن محاصيل البطاطس جيدة، وتؤكد ذلك ليس الأرقام فقط بل الانطباع الشخصي أيضاً. أنا لم أشاهد عنابر أو أكياس الحبوب، ولم أشاهد المنفيين وهم يأكلون الخبز المصنوع من دقيق الحنطة، على الرغم من زراعة الحنطة هناك بكميات أكبر من الشعير، لكنني سمعت الشكاوى من تلف كثير من البطاطس في الشتاء. ومع نمو الحياة المدنية في ساخالين تزداد شيئاً فشيئاً الحاجة إلى وجود السوق، وقد خصص في ألكسندروفسك مكان تبيع فيه النساء الخضروات، وغالباً ما يشاهد في الشوارع منفيون يبيعون الخيار ومختلف أصناف الخضروات. وفي بعض الأماكن في الجنوب، ومثلاً في قرية بادي الأولى، أصبحت زراعة الخضروات مهنة ناجحة[1].

تعتبر زراعة الحبوب المهنة الرئيسية للمنفيين. بينما يعتبر صيد الفرائس والأسماك من الحرف الثانوية لكسب الرزق. ومن وجهة الصياد فإن الحيوانات

1- لم تفلح حتى الآن لسبب ما زراعة البصل فقط. ويتم التعويض عن نقص البصل في طعام المنفي بزراعة الثوم البري allium victorial الذي ينمو هنا وحده. وهذا النبات الذي يتميز برائحة الثوم النفاذة كان حسب اعتقاد جنود المخافر والمنفيين وسيلة علاج ناجحة من داء الأسقربوط، وتقوم الدائرة العسكرية ورئاسة السجون بجمع مئات البودات منه سنوياً مما يتيح الحكم على مدى انتشار هذا الداء هنا. ويقال إن الثوم البري لذيذ الطعم لكن لا يرتاح كل إنسان إلى رائحته. وأنا أشعر بالاختناق حين يوجد في الحجرة أو في الباحة من تناول الثوم في طعامه.

الفقرية تعتبر ترفاً في ساخالين. أما الحيوانات الثمينة جداً بالنسبة للصياد التي تتوفر هنا بكثرة فهي السمور والثعلب والدب. وينتشر السمور في كل أنحاء الجزيرة. ويقال إن السمور ابتعد في الآونة الأخيرة بسبب قلع أشجار الغابات عن الأماكن السكنية إلى الغابات البعيدة. وأنا لا أعرف مدى صواب هذا الحكم فلدى تواجدي في فلاديميروفكا اصطاد سجان بمسدسه سموراً كان يعبر الجدول فوق جذع شجرة عائمة، بينما قال الصيادون - المنفيون الذين تسنى لي الحديث معهم إنهم يمارسون الصيد عادة بالقرب من بلداتهم. كما تعيش الثعالب والدببة في جميع أنحاء الجزيرة أيضاً. وفي الأزمان الماضية لم يكن الدب يهاجم البشر والحيوانات الأليفة، وكان يعتبر حيواناً مسالماً، لكن حالما بدأ المنفيون يقطنون في منابع الأنهر ويقلعون الأشجار هناك، وسدوا الطريق أمامه لصيد الأسماك، وهي طعامه الرئيسي، صار يظهر في سجلات الولادات والوفيات وفي «سجلات الحوادث» فقرة حول سبب الموت هي «افترسه الدب». وفي الوقت الحاضر يعتبر الدب كظاهرة مخيفة في الطبيعة تجب مكافحتها بجد. كما توجد الأيائل وأيائل المسك وثعالب الماء والجراف والوشق، وفي بعض الأحيان الذئب وبقدر أقل القاقم والنمر. وعلى الرغم من وفرة الفرائس فإن الصيد لا يعتبر حرفة سائدة في الجزيرة.

إن المنفيين الأثرياء الذين كسبوا هنا ثروة من التجارة يمارسون عادة بيع وشراء الفرو الذي يحصلون عليه من الأهالي الأصليين في الجزيرة بأسعار زهيدة ومقابل الكحول، لكن هذا لا ينسب إلى حرفة الصيد بل إلى حرفة أخرى. إن الصيادين من المنفيين هنا يعدون على الأصابع. وعددهم قليل جداً. وأغلبهم ليسوا من الصيادين المحترفين بل من الصيادين الهواة، ويمارسون الصيد ببنادق صيد عتيقة وبلا كلاب ومن أجل التسلية فقط. ويبيعون الفريسة التي يصطادونها بثمن بخس أو مقابل الخمر. وفي كورساكوفسك طلب مني أحد المستوطنين مقابل طائر التم «ثلاثة روبلات أو قنينة فودكا». وأعتقد أن الصيد في الجزيرة لن يصل أبداً إلى مستوى الحرفة، وبالذات لأنها حرفة المنفي. ويجب على من يمارس الصيد أن يكون شخصاً حراً وجسوراً ومعافى، أما المنفيون فأغلبهم أفراد ضعاف الشخصية وغير حازمين ويتسمون بالوهن العصبي. كما أنهم لم يكونوا في مواطنهم صيادين ولا يجيدون استخدام السلاح، وأرواحهم

المضطهدة بعيدة جداً عن ممارسة مهنة حرة، والمنفي يفضل على الأغلب، وخوفاً من العقاب، أن يذبح حملاً يأخذه بصفة قرض من الخزانة، على الخروج لصيد طيور الطيهوج أو الأرانب. وهيهات أن توجد رغبة في الجزيرة لممارسة هذه المهنة، حيث يرسل إليها القتلة بصورة رئيسية. ولا يجوز السماح للقاتل السابق بأن يواصل قتل الحيوانات والقيام بالأفعال الوحشية ذاتها التي لا تخلو منها أية رحلة صيد. وعلى سبيل المثال ذبح أيل جريح، وقطع عنق طير كروان أسقط بطلقات الرصاص وهلمجرا.

إن ثروة ساخالين الرئيسية أو مستقبلها الذي تحسد عليه والسعيد، لا يتمثل في فراء الحيوانات ولا الفحم، كما يسود الاعتقاد، بل في الأسماك التي تحمل أكثريتها مياه الأنهار إلى المحيط، ثم تعود الأسماك إليها بصورة دورية سنوياً بصفة أسماك موسمية. إن سمك السلمون السيبيري وهو من صنف السلمون ويشبه من حيث الحجم واللون والمذاق السلمون عندنا، ويتوفر في الجزء الشمالي من المحيط العظيم (الهادي). إن هذه الأسماك تدخل في فترات معينة من حياتها إلى بعض الأنهار في شمال أمريكا وسيبيريا وتندفع بقوة خارقة، وبأعداد كبيرة لا تحصى، إلى الأعلى ضد التيار حتى تصل إلى أعالي الأنهار حيث الينابيع الجبلية. ويحدث ذلك في ساخالين عادة في أواخر يوليو أو في الثلث الأول من أغسطس. إن كمية الأسماك التي ترصد في هذه الفترة تكون كبيرة وسرعتها بالغة وغير اعتيادية إلى حد أن من لم ير هذه الظاهرة العجيبة لا يمكن أن يدرك مغزاها الحقيقي. ويمكن ملاحظة سرعة وازدحام الأسماك من سطح ماء الأنهر الذي يبدو أحياناً وكأنه يفور ويكتسب الماء مذاق السمك، والمجاذيف ترتطم بالأسماك وترفعها عالياً. وعند مصب الأنهار تكون الأسماك معافاة وقوية ولكن مع تواصل الصراع ضد التيار السريع والازدحام والجوع والاحتكاك بجذوع الأشجار والصخور تصاب بالوهن والهزال، ويغطى جسدها بالكدمات الدامية، ويصبح لحمها رخواً وأبيض اللون، وتصطك أسنانها، وتتغير هيئة السمكة كلياً، مما يجعل الأشخاص غير المطلعين يعتقدون أنها من صنف آخر ويسمونها بسمكة المشرط وليس بالسلمون السيبيري. إنها تضعف شيئاً فشيئاً، ولا تستطيع مقاومة التيار، وتلج خور النهر أو تحتمي بجذع شجرة غارقة أو تلصق بوزها بالضفة. وهناك يمكن الإمساك بها باليدين، وحتى

الدب يلتقطها بمخالبه. وفي نهاية المطاف تهلك بعد أن تضنيها الرغبة الجنسية والجوع، ويظهر في وسط تيار النهر عدد كبير من الأسماك النائمة، أما ضفاف أعلى النهر فتكون مغطاة بالأسماك الميتة التي تنبعث منها رائحة نتنة. إن جميع هذه المعاناة التي تكابدها الأسماك في موسم الحب تطلق عليه تسمية «رحلة الموت»، لأنها تقود إلى الموت حتماً، ولا تعود أية سمكة إلى المحيط، وتهلك كلها في الأنهار. يقول ميدندورف: «إن دفقات الشبق الجنسي، التي لا تقهر إلى حد انقطاع الأنفاس، هي جوهر فكرة الهجرة. وتوجد مثل هذه المثل العليا في السمكة الرطبة والباردة البليدة!».

ولا تقل شهرة عن ذلك رحلة سمك *الرنجة* التي تظهر بين فترة وأخرى عند سواحل البحر في موسم الربيع، وعادة في النصف الثاني من شهر أبريل. وتندفع أسماك الرنجة في أسراب كبيرة و«بكميات هائلة» حسب تعبير شهود العيان. ويتم التعرف على اقتراب الرنجة في كل مرة وفق العلائم التالية: تظهر رغوة بيضاء دائرية في مساحة واسعة من البحر وتظهر أيضاً أسراب طيور النورس والقطرس والحيتان التي تطلق النافورات، وقطعان أسود البحر. المشهد رائع! إن عدد الحيتان التي تنطلق وراء أسماك الرنجة في خليج آنيفا كبير جداً إلى حد أنها أحاطت بسفينة كروزنشتيرن ووجب عليه النزول إلى الشاطئ «بحذر». وفي موسم هجرة أسماك الرنجة يبدو البحر كأنه يفور.

لا تتوفر الإمكانية لكي تحدد ولو بشكل تقريبي كمية الأسماك التي يمكن اصطيادها في كل مرة أثناء وجودها في أنهار ساخالين وعلى الساحل. ويعتبر كل رقم يذكر بأنه جسيم جداً.

في كل الأحوال يمكن القول بلا مبالغة إنه لدى التنظيم الواسع والصائب لصيد الأسماك، ونظراً لوجود تلك الأسواق منذ وقت بعيد في اليابان والصين، فإن صيد الأسماك الموسمية في ساخالين يمكن أن يدر الملايين من الموارد. وحينما كان اليابانيون يسيطرون على جنوب ساخالين وكاد صيد الأسماك من قبلهم أن يبدأ بالتطور، كانت موارد الأسماك تقدر بنصف مليون روبل سنوياً. وطبقاً لحسابات ميتسول فإن الحصول على شحم الحوت في جنوب ساخالين كان يتطلب توفير 611 مرجلاً وحتى 15000 ساجين من الحطب، وكانت أسماك الرنجة وحدها تعطي 295806 روبلات سنوياً.

بعد أن سيطر الروس على جنوب ساخالين أصابت مهنة صيد الأسماك الركود الذي يستمر حتى يومنا هذا. كتب ل. ديتر في عام 1880: «يسود الخواء الآن تقريباً في المكان، الذي كانت تدب فيه الحياة منذ فترة قريبة، مما كان يوفر الطعام إلى الآينيين - أبناء أحد شعوب الأقليات القومية، ويعطي صيادي الأسماك أرباحاً طائلة». إن الأسماك التي يصطادها الآن منفيونا في كلتا الدائرتين الشماليتين تافهة ولا يمكن وصفها بغير ذلك. أنا كنت على ضفاف تيم حينما كانت أسماك السلمون السيبيري تندفع نحو أعالي النهر، وكان ينتشر على الضفاف هناك بعض الصيادين ويلتقط بعضهم الأسماك نصف الحية بواسطة خطاطيف مثبتة بعصى طويلة. وفي الأعوام الأخيرة عمدت السلطات من أجل توفير مصدر لكسب الرزق للمنفيين إلى تقديم طلبيات لشراء السمك المملح. ويحصل المستوطنون على الملح بأسعار تسهيلية وبشكل قرض، وبعد ذلك يشتري السجن الأسماك منهم بسعر غال، من أجل تشجيعهم. لكن تنبغي الإشارة إلى مصدر الرزق الضئيل الجديد لهم هذا فقط من أجل التنويه بأن حساء السمك الذي يطبخه المستوطنون المحليون يتسم حسب قول السجناء بأنه كريه المذاق جداً وذو رائحة نتنة لا تطاق. إن المستوطنين لا يحسنون صيد وطبخ الأسماك، ولا يعلمهم أحد ذلك، بينما شغلت السجون في المنطقة أفضل أماكن الصيد حالياً، وأبقت لهم الشلالات والأماكن الضحلة حيث يلقون شباكهم الرخيصة المصنوعة يدوياً فوق جذوع الأشجار والأحجار. عندما كنت في ديربينسكي كان السجناء يصطادون السمك من أجل السجن. وقد أمر حاكم الجزيرة الجنرال كونونوفتش المستوطنين بالاجتماع، وخاطبهم وألقى عليهم اللوم لأنهم باعوا في العام الماضي أسماكاً للسجن لا تصلح للأكل. وقال لهم: «إن السجين هو أخوكم وابني. وعندما تخدعون الخزانة فإنكم تسيئون بذلك إلى أخيكم وابني». وقد وافق المستوطنون على كلامه، ولكن لدى التطلع إلى وجوههم، تولد انطباع بأن الأخ والابن سيأكل في العام القادم السمك الفاسد والنتن ذاته. وحتى لو تعلم المستوطنون بشكل ما طبخ السمك، فإن مورد الرزق الجديد هذا لن يعطي مع ذلك أي شيء للسكان، لأن الرقابة الصحية ستحظر إن عاجلاً أو آجلاً استخدام السمك الذي يجري اصطياده في أعالي الأنهر في الطعام.

لقد شاهدت صيد السمك من قبل السجناء في ديربينسكي في 25 أغسطس.

وولد استمرار هطول الأمطار فترة طويلة حالة من الكآبة في الطبيعة كلها. في البداية دخلنا عنبراً ما حيث قام 16 سجيناً برش الملح على الأسماك بإشراف فاسيلينكو، الرئيس السابق لإدارة صيد الأسماك في تاجانروك. وقد أنجز تمليح 150 برميلاً، وحوالي 2000 بود من الأسماك. وتولد انطباع بأنه لو لم يحكم على فاسيلينكو بالأشغال الشاقة لما عرف أي أحد كيفية التعامل مع السمك. ويمتد من العنبر منحدر نحو ضفة النهر حيث يقوم ستة سجناء بقطع السمك إلى شرائح ويرمون الأحشاء في النهر، الماء قرمزي، وعكر. وتنتشر الرائحة الثقيلة للسمك والأوساخ الممتزجة بدماء السمك. وفي جانب المكان يقوم بعض السجناء - جميعهم بملابس مبللة وحفاة الأقدام أو منتعلين - بإلقاء شبكة صغيرة. وقد سحبوها مرتين بحضوري وكانت في الحالتين مملوءة بالسمك. علماً أن جميع السلمون السيبيري يبعث على الشبهة للغاية. إنها جميعاً ذوات أسنان بارزة وظهر محدودب وفيه بقع. وجميع الأسماك تقريباً ذات بطون رمادية أو خضراء، ويسيل منها براز سائل. وتموت السمكة حالما تلقى فوق الضفة، إذا لم تمت في الماء أو حينما كانت تلبط في الشبكة. أما الأسماك القليلة التي لا توجد فيها بقع، وتسمى بالفضية، فكانت تكدس بعناية جانباً، ولكن ليس من أجل القدر في السجن، بل لإعداد «الباليتشكا» أو السمك المقدد.

هنا لا يعرفون بدقة التاريخ الطبيعي للسمكة التي تلج في فترات معينة الأنهار، ولا تتوفر بعد القناعة حول وجوب صيدها عند مصبات الأنهر فقط وفي المجرى السفلي، لأنها تصبح في المجرى العلوي غير نافعة. حينما كنت في الباخرة في نهر آمور سمعت من السكان القدامى الشكوى بأنهم يصطادون السلمون السيبيري الحقيقي عند مصب النهر، بينما يصطادون سمك المشرط فقط في المجرى الأعلى. ودار الحديث في الباخرة عن أنه حان الحين لفرض النظام في صيد الأسماك، أي حظر صيدها في المجرى الأسفل[1]. وفيما كان

1- بالمناسبة إن نهر آمور غني جداً بالأسماك لكن تنظيم أعمال الصيد ضعيف، وأعتقد أن السبب هو أن الصيادين يبخلون بالمال من أجل دعوة الاختصاصيين من روسيا. فيجري هنا مثلاً صيد كميات كبيرة من سمك الزجر، بينما لا يستطيعون إعداد الكافيار بشكل يبدو فيه روسياً ولو من حيث المظهر. وفن الصيادين هنا اقتصر على صناعة السمك المقدد من السنمون السيبيري ولم يمضوا أبعد من ذلك.

السجناء والمستوطنون يصطادون في تيم العليا السمك المكتنز وشبه الحي، يواصل المهربون اليابانيون الصيد بصورة غير قانونية بسد مجرى النهر بسياج من الخوازيق، بينما يصطاد الجيلياكيون من أجل كلابهم السمك الأكثر عافية والطيب المذاق الذي يصطاد في دائرة تيموفسكي من أجل البشر. لقد كان اليابانيون يحملون بالسمك زوارقهم (جونكي) وحتى السفن الكبيرة، وربما أن السفينة الجميلة التي شاهدها بولياكوف في عام 1881 عند مصب تيم قد جاءت إلى هنا في الصيف الحالي.

يجب من أجل إكساب صيد الأسماك صفة ذات أهمية أن تقرب المستوطنة من مصب نهر تيم أو نهر بوروناي. بيد أن هذا ليس الشرط الوحيد. فيجب أيضاً ألا يتولى عنصر حر الإشراف على عمل المنفيين حيث لا يوجد عمل تتصادم فيه المصالح لا يسود فيه الأحرار على المنفيين. بينما ينافس اليابانيون المستوطنين، فهم يمارسون صيد الأسماك بالتهريب أو لا يدفعون الضرائب، بينما يستحوذ الموظفون على أفضل الأماكن من أجل الصيد من قبل السجناء. وبات قريباً الوقت الذي سيتم فيه مد الطريق عبر سيبيريا وتطوير الملاحة وعندئذ سينجذب العنصر الحر إلى الجزيرة بسبب انتشار الإشاعات حول الثروة السمكية الغنية ووفرة فرو الحيوانات فيها. وستبدأ الهجرة إليها، وينظم صيد الأسماك الحقيقي، الذي سيشارك المنفيون فيه ليس بصفة أصحاب العمل بل كعمال أجراء فقط، ومن ثم تبدأ الشكاوى من أن عمل المنفيين أقل قيمة إلى حد كبير من عمل الأحرار من نواح كثيرة، وحتى من عمل المانزيين والكوريين. وسيعتبر المنفيون من وجهة النظر الاقتصادية عبئاً على الجزيرة.

وبعد ازدياد الهجرة وتطور الحياة المستقرة والصناعية ستجد الدولة نفسها أن دعم العنصر الحر أكثر عدالة ونفعاً من دعم عمل المنفيين وستوقف النفي. إذن إن السمك هو ثروة ساخالين وليس ثروة السجناء والمنفيين[1].

1- فيما يخص المنفيين الذين يعيشون الآن عند مصبات الأنهار الصغيرة وعلى ساحل البحر يمكن أن يصبح صيد الأسماك عوناً كبيراً لهم في كسب المعيشة ويوفر لهم مورد الرزق إلى حد ما، لكن يتطلب ذلك تزويدهم بالشباك الجيدة، وأن يوفر السكن عند البحر فقط للذين عاشوا في وطنهم عند البحر وهلمجرا.

في الوقت الحاضر تدفع السفن اليابانية القادمة إلى جنوب ساخالين من أجل صيد

لقد أشرت إلى استخراج الكرنب البحري لدى وصف قرية ماوكي. ويكسب المستوطن من هذه الحرفة في الفترة من 1 مارس إلى 1 أغسطس من 150 إلى 200 روبل، وينفق ثلث المبلغ على الطعام، بينما يجلب المنفي الثلثين الباقيين إلى البيت. ويعتبر ذلك مكسباً جيداً، لكن لا يحصل عليه، ويالأسف، الآن سوى المنفيين في دائرة كورساكوف. ويحصل العمال مقابل عملهم على أجرة مقطوعة ولهذا تتوقف على مستوى المهارة والاجتهاد في العمل والنزاهة، - وهي صفات لا يتمتع بها جميع المنفيين، لأنه لا يذهب إلى ماوكا كل واحد منهم[1].

يوجد بين المنفيين عدد كبير من النجارين والخياطين وغيرهم، لكن أغلبهم يجلسون بلا عمل، أو يمارسون زراعة الحبوب. ويصنع أحد عمال البرادة المنفي البنادق، وقد باع أربعاً منها في القارة، أما المنفي الآخر فيصنع سلاسل مبتكرة من الصلب، ويعمل ثالث في صنع حاجيات من الجبس. بيد أن جميع هذه البنادق والسلاسل والعلب الثمينة جداً لا تعني شيئاً كثيراً بالنسبة إلى الوضع الاقتصادي للجزيرة، أو كما يفعل أحد المستوطنين في الجنوب حيث يجمع عظام الحيتان على الساحل، بينما يجمع آخر خيار البحر. فهذا كله يجري بالصدفة. إن الأشياء الغالية والجميلة المصنوعة من الخشب التي عرضت في معرض السجن تبين فقط أنه يوجد بين المنفيين أحياناً نجارون ماهرون جداً، لكن لا توجد أية علاقة لهم بالسجن، لأن السجن لا يعطيهم المجال للتسويق ولا يعلمهم السجن الحرفة. كان السجن حتى وقت قريب يستغل عمل الحرفيين الماهرين الجاهزين. إن عرض عمل الحرفيين الماهرين يزيد كثيراً عن الطلب. وقال لي أحد السجناء: «هنا حتى لا يمكن ترويج الوثائق المزيفة». ويعمل

الأسماك رسوماً بمبلغ 7 كوبيكات ذهبية لكل بود. وتفرض الرسوم أيضاً على جميع المنتجات السمكية وتبلغ جميعها 20 ألف روبل، وهذا يعتبر المورد الوحيد الذي نحصل عليه من استثمار ثروات ساخالين.

1- أعتقد أنه المكان الوحيد في ساخالين الذي يمكن أن يعيش ويعمل فيه المنفي بفضل توفر الكرنب البحري والطقس الناعم نسبياً على الساحل الجنوبي - الغربي. في عام 1885 قدم في اجتماع شركة تطوير إقليم آمور تقرير ممتع حول الكرنب البحري أعده مدير الشركة ي. ل. سيميونوف. ونشر التقرير في صحيفة «فلاديفستوك» في العددين 47 و48.

النجارون مقابل 20 كوبيكاً في اليوم، والطعام على حسابهم، بينما يعمل الخياطون مقابل الفودكا[1].

لو استعرضنا حصيلة المداخيل التي يحصل عليها المنفي مقابل بيع الحبوب للخزانة، وصيد الفرائس وصيد الأسماك وغيرها فيكون الرقم ضئيلاً جداً: 29 روبلاً و21 كوبيكاً[2]. علماً أن كل مزرعة مدينة إلى الخزانة بمعدل وسط 31 روبلاً و51 كوبيكاً. ويتضمن هذا المبلغ قيمة حصة التموين والعلاوات من الخزانة والنقود المحولة بواسطة البريد، ويكون مكسب المنفي يتألف بصورة أساسية من الراتب الذي يحصل عليه من الخزانة، وتكون المدفوعات عالية عن قصد، فإن حوالي نصف المداخيل خيالية أما المديونية إلى الخزانة فهي أكثر من المعلن.

1- كان الحرفيون يكسبون رزقهم حتى الآن فقط في المخافر في العمل لدى الموظفين والمنفيين الأثرياء. ورجال الأنتلجنسيا المحلية جديرون بالثناء لأن أفرادها يدفعون بسخاء دائماً مقابل الخدمات. ومن هذه الحالات قيام الطبيب بتسجيل الإسكافي في مستوصف الإدارة المحلية مقابل أن يصنع هذا جزمة لولده، أو الموظف الذي ينسب لنفسه خياطة للعمل بصفة خادمة من أجل أن تخيط الملابس لزوجته وأطفاله، ويشار إلى هذه الأمور هنا باعتبارها مؤسفة.

2- حسب معطيات المفتش الزراعي.

-19-

طعام المنفي. – ماذا وكيف يأكل السجناء. – الملابس. – الكنيسة. – المدرسة. – معرفة القراءة والكتابة.

يحصل المنفي في ساخالين من الدولة إبان وجوده في عهدتها على 3 أرطال من الخبز و40 زولوتنيكاً من اللحم (الزولوتنيك يعادل 4 غرامات وربع الغرام – المترجم) وحوالي 15 زولوتنيكاً من الحبوب ومختلف المأكولات بمبلغ كوبيك واحد، وفي يوم الصوم يستبدل اللحم برطل من السمك. ومن أجل تحديد مدى تطابق هذه المعطيات مع الاحتياجات الفعلية للسجين، لا تكفي المقارنة مع الحصص المقررة في المكتب، والتقييم السطحي الخالص لحصة الطعام المقررة لمختلف الفئات في خارج البلاد وفي روسيا. ولئن حصل السجناء في السجون السكسونية والبروسية على اللحم ثلاث مرات في الأسبوع فقط، وفي كل مرة بمقدار لا يتجاوز ⅕ رطل، وإذا ما كان الفلاح في تامبوف يتناول 4 أرطال خبز في اليوم، فهذا لا يعني أن المنفي في ساخالين يحصل على كثير من اللحم وقليل من الخبز، بل يعني ذلك فقط أن مديري السجون الجرمانية (الألمانية) يخشون أن تتولد الشبهة في أنهم يمارسون الإحسان الزائف. وطعام الفلاح (الموجيك) في تامبوف بروسيا يختلف فقط في كونه يحتوي على كمية كبيرة من الخبز. ومن المهم جداً من الناحية التطبيقية أن يجري تقييم حصص الطعام لمجموعة ما من السكان ليس من الكمية بل من تحليلها النوعي، ويجب أن تدرس عندئذ الظروف الطبيعية والمعيشية التي تحيا فيها هذه المجموعة، وسيتم حل المسألة بلا تشخيص صارم وحيد الجانب، ويكون مقنعاً ربما فقط بالنسبة إلى ذوي النزعة الشكلية.

رجعت مرة برفقة المفتش الزراعي السيد فون فيركن من كراسني يار إلى ألكسندروفسك، وكنت في عربة بينما كان هو على صهوة جواد. كان الطقس حاراً والجو في الغابة خانقاً. فأوقف السجناء العاملون في شق الطريق بين المخفر وكراسني يار حصاني عربتي، وهم بلا قبعات وبقمصان مبللة، عندما اقتربت منهم، ربما لاعتقادهم أنني موظف، وراحوا يشكون من أنهم يستلمون خبزاً لا يمكن أكله. وعندما قلت لهم إن من الأفضل إبلاغ الرئاسة بذلك أجابوني:

- نحن أبلغنا دافيدوف كبير السجانين، لكنه قال لنا: «أنتم متمردون».

لقد كان الخبز رديئاً حقاً. وعندما يقطع قالب الخبز تتألق فيه تحت أشعة الشمس قطرات الماء، ويلتصق بالأصابع ويبدو ككتلة وسخة ولزجة، ولا يطيب للمرء أن يمسكها بيديه. وجلبت لي عدة وجبات منه فوجدت أن جميع الخبز شبه عجين، وأعد من دقيق لم يطحن جيدا. ويبدو جلياً للعيان أنه لم يحمص البتة. وقد تم خبزه في نوفو- ميخايلوفكا تحت إشراف دافيدوف كبير السجانين.

إن 3 أرطال من الخبز التي تتضمنها حصة التموين غالباً ما تكون نتيجة التحايل في صنعها، حيث تحتوي على كمية من الدقيق أقل مما نص عليه في السجل الرسمي للتموين[1]. وكان الخبازون - السجناء في نوفو- ميخايلوفكا الآنفة الذكر يبيعون حصصهم من الخبز، بينما يأكلون أنفسهم الفائض مما يتبقى لدى صنع الخبز. ويتناول السجناء في سجن ألكسندروفسك طعامهم من القدر المشترك ويتناولون خبزاً جيداً، أما السجناء الذين يعيشون في الشقق فيحصلون على خبز من نوعية أردأ، ويتناول السجناء العاملون خارج المخفر خبزاً أسوأ أكثر. بعبارة أخرى إن الخبز الجيد يتوفر فقط حيثما يقع نظر رئيس الدائرة أو السجان عليه. ويمارس الخبازون والسجانون، الذين لهم علاقة بالتموين، شتى الاحتيالات من أجل زيادة كمية الخبز الجاري صنعه، والتي جربت في سيبيريا من قبل، ومنها إضافة الماء المغلي إلى

1- «سجل قواعد إطعام السجينات والسجناء» على أساس المرسوم السامي المؤرخ في 31 يوليو 1871 حول تموين وإطعام القوات.

الدقيق – وهذه إحدى الوسائل البريئة جداً – بغية زيادة وزن الخبز، وفي زمن ما كان يجري في دائرة تيموفسكي خلط العجين بالطين المغربل. إن مثل هذه الإساءات تجري بصورة أسهل حين لا يستطيع الموظفون الجلوس في المخبز طوال اليوم ويحرسون أو يتابعون كل وجبة يتم خبزها. بينما لا ترد شكاوى من قبل السجناء تقريباً.

وعادة لا يأكل السجين جميع الحصة التموينية بغض النظر عما إذا كان الخبز جيداً أو رديئاً. فالسجين يتناول الحصة مع اعتبار أن الخبز الحكومي، كما سادت العادة في سجوننا ومنافينا، منذ وقت بعيد، هو بمنزلة مطية لمنفعة الآخرين. إن السجين يعطي الخبز إلى من ينظف الزنزانة، وإلى من يعمل بدلاً منه، ومن يتغاضى عن مواطن ضعفه، كما يدفع الخبز كعملة مقابل الإبر والخيوط والصابون، وبغية تنويع وجبة طعامه الشحيحة، والرتيبة، والطعام المملح دائماً، تجده يجمع الخبز ومن ثم يبادله في الميدان بالحليب والكعكة البيضاء، والسكر والفودكا... إن غالبية أبناء القوقاز ينفرون من الخبز الأسود ولهذا يسعون إلى التخلص منه. إذن إذا ما اعتبرت الأرطال الثلاثة من الخبز حسب قواعد السجل كافية تماماً من الناحية الكمية، فإنه لدى الاطلاع على نوعية الخبز والظروف المعيشية في السجن، تغدو هذه الميزة وهمية، وتفقد الأرقام قيمتها. يستخدم اللحم المملح فقط في إعداد الطعام، وكذلك السمك. ويقدم اللحم والسمك بصورة مغلية أو في الحساء. وحساء السجن، أوحساء «بوخليوبكا»، هو عبارة عن عصيدة شبه سائلة من الحبوب والبطاطس المغلية، تطفو فيها قطع اللحم أو السمك، التي كال بعض الموظفين المديح لها، لكنهم كانوا لا يجسرون هم أنفسهم على تناولها. علماً أنه حتى الحساء الذي يطبخ من أجل المرضى شديد الملوحة. وتؤثر في مذاق الحساء ولونه ورائحته أمور كثيرة منها توقع مجيء زائرين إلى السجن، وظهور دخان باخرة في الأفق، وحدوث شجار في المطبخ بين السجانين والطباخين. والرائحة غالباً ما تكون نتنة، ولا تنفع حتى إضافة الفلفل أو أوراق الغار إلى الحساء. واتسم بسمعة سيئة على الأخص حساء السمك المملح، والسبب مفهوم – فأولاً أن هذا المنتوج سريع التلف، ولهذا تستخدم بعجلة الأسماك التي بدأت بالتفسخ، وثانياً، توضع في القدر

الأسماك المريضة التي يصطادها في أعالي الأنهر المستوطنون من السجناء. وفي سجن كورساكوفسك كان يجري في وقت ما إطعام السجناء بحساء الرنجة المملحة. وحسب أقوال رئيس القسم الطبي فإن هذا الحساء يتميز بإنعدام المذاق، وتتحول السمكة فيه بسرعة إلى قطع صغيرة، ونظراً لوجود العظام الدقيقة فإنه يصعب التهامها، وتولد التهاب الأغشية المخاطية في الجهاز الهضمي. ولا يعرف كم من المرات يتقيأ السجين الحساء في القصعة لاستحالة ابتلاعه، لكن هذا يحدث أحياناً.

كيف يأكل السجناء؟ لا توجد مطاعم. وفي منتصف النهار يقف طابور السجناء عند العنبر أو المبنى الذي يستخدم كمطبخ، كوقوف المسافرين عند صندوق بيع التذاكر في محطة القطار. ويحمل كل واحد منهم صحناً ما. ويكون الحساء عندئذ جاهزاً، ومتهرّئاً، و«متحلّلا»، في القدور المغلقة، ويمسك الطباخ عصا طويلة ثبت فيها «برميل صغير»، يغرفه في القدر ويعطي كل سجين يدنو حصته، علماً أنه يستطيع أن يغرف دفعة واحدة قطعتين من اللحم أو قطعة واحدة، حسب رغبته. وعندما يصل آخر السجناء، يكون الحساء ليس حساء، بل كتلة دافئة غليظة في قاع القدر، يجب أن يضاف إليها الماء[1]. وبعد أن يستلم السجناء حصصهم يبتعدون جانباً، بعضهم يأكل ماشياً وبعضهم يجلس على الأرض، والآخرون يجلسون على التخوت. ولا رقابة عليهم للتحقق من أنهم أكلوا جميعاً أو باعوا حصصهم أو بادلوها بشيء ما. ولا يسأل أحد فيما إذا تناول الجميع طعام الغداء، أو إذا كان أحدهم نائماً. وإذا ما سئل القائمون على شؤون المطبخ فيما إذا كان بين السجناء المضطهدين والمنحلين أخلاقياً عدد كبير من الأفراد الواجب العناية بهم والتأكد من أنهم أكلوا وجباتهم، وحتى جرى إطعامهم قسراً، فإن هذا السؤال يبعث على الدهشة في الوجوه ويجيبون: «أنا لا أعلم ياصاحب السعادة!».

1- قد يخطئ الطباخ ويعد كمية أكبر أو أقل من الوجبات، ويتوقف ذلك على الكمية التي توضع في القصعة. ففي سجن ألكسندروفسك جرى في 3 مايو 1890 إطعام 1279 سجيناً من القدور، واستخدم في الطبخ 13 بوداً ونصف البود من اللحم و5 بودات من الرز وبوداً ونصف البود من الدقيق وبوداً واحداً من الملح و24 بوداً من البطاطس. وثلث رطل من أوراق الغار وثلثي رطل من الفلفل..

تبلغ نسبة من يحصلون على وجبات الغذاء الحكومية من مطبخ السجن 25–40%، أما الباقون فتسلم لهم المواد الغذائية باليد مباشرة. وتنقسم هذه الأكثرية إلى فئتين: فئة تتناول الطعام في البيوت مع عوائلها أو الشركاء بالمناصفة، وفئة أخرى يرسل أفرادها للعمل بعيداً خارج السجن، فهم يتناولون وجبات الطعام حيث يعملون. ويقوم كل عامل بعد انتهاء وجبة العمل بطهي طعام الغذاء لنفسه في قدر صغير على انفراد، إذا لم يحُل دون ذلك سقوط المطر، وإذا وجدت لديه رغبة شديدة للنوم بعد العمل المرهق. إنه يصبح فريسة للتعب والجوع وفي أحيان كثيرة يأكل اللحم المملح والسمك المملح بلا طبخ. وإذا غلبه النوم في وقت الغذاء أو باع وجبته من الطعام أو خسرها في القمار، أو فسد الطعام لديه، وتبلل الخبز تحت المطر، فهذا لا يعني الحارس في السجن البتة. ويحدث أحياناً أن يلتهم السجناء وجبات ثلاثة أو أربعة أيام دفعة واحدة، وبعد ذلك يأكلون الخبز فقط ويعانون من الجوع، علماً أنهم حسب أقوال رئيس الوحدة الطبية لا يتوانون لدى العمل على ساحل البحر أو ضفاف الأنهر عن تناول القواقع والأسماك التي تلقيها الأمواج هناك. بينما توفر الغابات مختلف الجذور، وبعضها سام. وبشهادة مهندس المناجم كيبين كان العاملون في المناجم يأكلون الشموع الشحمية[1].

يحصل المستوطنون في العامين الأولين وفي أحوال نادرة في الأعوام الثلاثة لانتهاء فترة محكوميتهم على المواد التموينية من الخزانة وبعد ذلك يطعمون أنفسهم على حسابهم الخاص وبالاتكال على أنفسهم فقط. لا تتوفر أرقام أو أية معطيات وثائقية حول طعام المستوطنين سواء في

1- تعتقد الإدارة والأطباء المحليون أن وجبات الطعام التي يحصل عليها السجناء غير كافية من الناحية النوعية أيضاً. وطبقاً لمعطيات التقرير الطبي التي حصلت عليها فإن الوجبة تتألف بالغرامات من: الزلال – 9. 142، الشحوم – 37. 4، الهيدروكربونات – 9. 659. ويحصل السجناء العاملون في المناجم خلال أشهر الصيف الأربعة على تغذية مكثفة وتتألف من 4 أرطال من الخبز ورطل من اللحم و24 زولوتنيك (الزولوتنيك يعادل أربع غرامات وربع الغرام – المترجم) من الحبوب. وتلبية لطلب الإدارة المحلية بدأ تقديم مثل هذه الوجبات إلى عمال شق الطرق أيضاً.

الأدبيات الرسمية أو في الإدارات. لكن إذا أصدرنا الحكم وفقاً للانطباعات الشخصية وتلك المعطيات القليلة التي يحصل عليها محلياً، فإن البطاطس تعتبر مادة الطعام الرئيسية في الجزيرة. وتضاف إليها الدرنيات مثل اللفت والروتباج، وهي غالباً ما تعتبر الطعام الوحيد للعائلة خلال فترة طويلة. ويأكلون السمك الطري فقط في فترة الصيد، بينما يتوفر السمك المملح بأسعار عالية[1]. ولا مجال للحديث عن اللحم. إن أصحاب الأبقار يفضلون بيع الحليب وليس لحمها، ويحفظونه عادة في أوان خزفية، أما الحليب في القناني فهو يدل على أنه للبيع. وعموماً فإن المستوطن يبيع بكل طيب خاطر منتجات مزرعته، حتى لو كان ذلك يجلب الضرر إلى صحته. فهو يعتبر النقود أهم من صحته. ومن دون توفير النقود لن يستطيع الرحيل إلى القارة، وسيكون بوسعه تناول الطعام الكافي حتى الشبع وتعديل صحته بمرور الزمن، حين يكتسب الحرية. وتشمل وجبات الطعام من النباتات البرية الثوم البري ومختلف أصناف الثمار البرية مثل توت العليق الأحمر وعنب الدب والطحلب وغيرها. ويمكن القول إن المنفيين القاطنين في المستوطنة يأكلون الطعام النباتي حصراً، وهذا يصدق على أغلبيتهم. على أي حال فإن وجبات طعامهم تحتوي على كمية قليلة من الشحوم، وبهذا فإنهم ربما سعداء أكثر من الذين يطعمون من قدور السجن[2].

يحصل السجناء على الملابس والأحذية مجاناً، كما يبدو. ويعطى كل واحد من السجناء والسجينات سنوياً جلباباً ومعطف فرو ضأن قصيراً، بينما يحصل الجندي الذي يعمل بقدر لا يقل عن السجناء في ساخالين على بزة عسكرية مرة كل ثلاثة أعوام والمعطف العسكري مرة كل عامين. والسجين يستهلك أربعة أزواج من البوتات وزوجين من الجزم سنوياً، أما الجندي فيستهلك زوجاً واحداً من الجزم ونعلين. لكن الجندي يعيش في ظروف صحية أفضل، فلديه فراش ومكان يلوذ به في الجو الرديء من أجل تجفيف

1- تباع سمكة السلمون الرخيصة عادة بمبلغ 30 كوبيكاً للسمكة الواحدة.

2- يتناول أبناء الأقليات القومية المحلية طعاماً يحتوي على كمية كبيرة من الشحوم، وهذا يساعدهم بلا ريب على مقاومة البرد والرطوبة العالية. وقيل لي إن الصيادين الروس على الساحل الشرقي أو في الجزر المجاورة بدأوا أيضاً بتناول شحم الحوت.

ملابسه. أما السجين فهو يجب بلا إرادة منه أن يستهلك ملابسه وأحذيته فيصيبها البلى. ونظراً إلى عدم وجود فراش لديه ينام فوق الجبة أو شتى الأطمار البالية والمتعفنة ويفسد الجو بزفيره، ولا يوجد مكان يجفف فيه ملابسه، لذلك فهو غالباً ما ينام بملابس مبللة، بهذا تبقى معلقة مسألة كيفية تلبية حاجات السجين من ملابس وأحذية بالكمية الكافية حتى توفر له الظروف الإنسانية. أما بصدد النوعية فهنا تتكرر قصة الخبز، فمن يحظَ باهتمام الرئاسة ويحيَ تحت بصرها يحصلْ على ملابس أفضل، أما الذي يحيا بعيداً في نوبة عمل فأحواله أسوأ.

الآن لنتحدث عن الحياة الروحية وإرضاء الحاجات الأسمى. إن المستوطنة توصف بأنها إصلاحية، لكن ليس في ساخالين هيئات أو أشخاص يمارسون خصيصاً مهمة إصلاح المجرمين كما لا تُلحظ أية إرشادات أو تعليمات في قانون «نظام المنفيين» باستثناء بعض العبارات في حالة استخدام الضباط أو ضباط الصف السلاح ضد المنفي والسجين أو عندما يجب على الكاهن «أن يعظ حول أحكام العقيدة والأخلاق»، ويقدم إلى المنفيين الوصايا حول «أهمية الهبات المقدسة التي تجلب له المواساة» وهلمجرا. كما أنه ما من أفكار محددة بهذا الشأن. لكن جرت العادة على الاعتقاد أنّ الكنيسة والمدرسة تحتلان مكانة الصدارة في تربية الإنسان، وبعد ذلك يمكن أن تمارس دورها في تليين الأخلاق تلك الفئة الحرة من السكان ذات المكانة المتميزة بسلوكها وبمثالها الشخصي حين تكون عبرة للآخرين.

تعتبر ساخالين من حيث التبعية للكنيسة جزءاً من أبرشية أسقف كامتشاتكا وجزر كوريل وبلاجوفيشينسك. وقد زار الأسقف ساخالين مراراً متجولاً بكل بساطة وتحمل مشاق الطريق والحرمانات مثل أي كاهن بسيط. وكان يوجه إلى المنفيين كلمات المواساة والأمل في أثناء وضع حجر الأساس للكنائس وتقديس مختلف المباني. ويمكن الحكم على طابع نشاط رجال الكنيسة التوجيهي من أحد مقاطع قرار صاحب النيافة غوري في إحدى الوثائق المحفوظة في كنيسة كورساكوفسك: «إذا لم يتوفر الإيمان والتوبة لدى الجميع (أي لدى المنفيين)، فهما يتوفران على أي حال

لدى الكثيرين، وهذا ما لاحظته شخصياً، أي بالذات شعور التوبة والإيمان الذي جعلهم يذرفون الدموع الساخنة عندما ألقيت عليهم المواعظ في عامي1887 و1888. إن مهمة السجن، بالإضافة إلى العقوبة لقاء الجريمة، تكمن في استثارة المشاعر الطيبة الأخلاقية لدى السجناء، وبالأخص، أن لا يستسلموا في وضعهم هذا إلى اليأس التام». إن وجهة النظر هذه تميز ممثلي الكنيسة الأدنى مكانة أيضاً. إن الكهنة في ساخالين كانوا دوماً يقفون جانباً من أوضاع العقوبات، ويعاملون المجرمين كبشر، ومن هذه الناحية كانوا يبدون قدراً أكبر من اللباقة والتعاطف، وتفهم واجبهم أكثر من الأطباء والمهندسين الزراعيين الذين غالباً ما يتدخلون في أمور لا تخصهم.

شغل أبرز مكانة في تاريخ كنيسة ساخالين حتى الآن الأب سيميون قازانسكي، أو كما يدعوه الأهالي، أبونا سيميون، الذي كان في أعوام السبعينيات كاهن كنيسة أنيفا أو كورساكوفسك. وقد عمل في تلك «الأزمان الغابرة» حين لم يكن في جنوب ساخالين طرق وكان السكان الروس، وبالأخص من العسكريين، مبعثرين كمجموعات صغيرة في جميع أنحاء الجنوب. وكان الأب سيميون يقضي طوال الوقت في العراء متنقلاً من مجموعة إلى أخرى في زحافات تجرها الكلاب والأيائل، وفي الصيف يبحر في قارب شراعي أو يسير مشياً على الأقدام، عبر الغابات. وكان يعاني من البرد، وتغمره الثلوج، ويصاب بالمرض في الطريق، وينهشه البعوض والدببة، بينما ينقلب زورقه في الأنهر السريعة الجريان ويضطر للسباحة في الماء البارد. وقد تحمل كل هذه المشاق بيسر بالغ، ووصف البراري بأنها طيبة ولم يجأر بالشكوى لكون الحياة صعبة. وكان يعامل الموظفين والضباط كرفاق له، ولم يتخلف قط عن معاشرة الآخرين، ويستطيع إدخال نص كنائسي ما وسط الأحاديث المرحة. وقال بصدد السجناء: «نحن جميعاً متساوون أمام خالق الكون»، وجاء هذا في وثيقة رسمية. وفي زمانه كانت كنائس ساخالين فقيرة في التجهيزات. وقال مرة بشأن هذا الفقر لدى تقديس حامل الأيقونات الكنيسية في آنيفا: «ليس لدينا جرس واحد، ولا كتب للصلوات والدعاء، لكن المهم وجود الرب في هذا المكان». وقد أشرت إليه لدى الحديث عن خيام «أبونا». وقد ذاع صيته في سيبيريا كلها

في أوساط الجنود والمنفيين، وأصبح الأب سيميون الآن شخصية أسطورية في ساخالين وما حولها.

في ساخالين في الوقت الحاضر أربع كنائس تابعة للأبرشية: في ألكسندروفسك ودويه وريكوفسكويه وكورساكوفسك. والكنائس ليست فقيرة عموماً، ويستلم الكهنة ألف روبل سنوياً، وفي كل رعية جوقة من المرتلين الذين ينشدون وفقاً للنوتات الموسيقية ويرتدون قفطانات الأعياد. وتقام الصلوات فقط في أيام الآحاد والأعياد الكبرى، ففي العشية تقام الخدمة السهرانية ومن ثم في الساعة 9 صباحاً يقام القداس، وفي المساء لا يقام قداس. ولا يلتزم الكهنة المحليون بأية واجبات، تبعاً للوضع الخاص للسكان، ونشاطهم اعتيادي مثل نشاط كهنة الأرياف عندنا، أي يقتصر الأمر على إقامة الخدمة الكنسية في الأعياد وصلوات الخدمة التقديسية مثل تكريس البيوت وتقديس الماء وهلمجرا، وتقديم الدروس في المدارس. ولم يتسن لي سماع أية محادثات ومواعظ وغيرها.

في فترة الصوم الكبير تجري تهيئة السجناء للمناولة من طقوس صيام وصلوات، وتخصص لذلك ثلاثة صباحات. وعندما تجري طقوس المناولة للسجناء ذوي القيود أو الرازحين في سجني فويفودا ودويه يقف الحراس حول الكنيسة، مما يولد مشهداً رهيباً. علماً أن السجناء من العمال البسطاء لا يأتون عادة إلى الكنيسة، لأن كل واحد منهم يستغل يوم العيد من أجل نيل قسط من الراحة، وإصلاح المعدات، أو الذهاب إلى الغابة لجمع الثمار البرية. علاوة على ذلك فإن الكنائس هنا ضيقة المجال، ولهذا جرت العادة على أن يرتاد الكنيسة من يرتدي ملابس الأحرار فقط، أي ما يسمى الجمهور النظيف. وعلى سبيل المثال، عندما حضرت القداس في ألكسندروفسك كان الموظفون وأفراد أسرهم يشغلون نصف الكنيسة، وبعد ذلك يليهم صف من زوجات الجنود وزوجات السجانين بملابس زاهية، والنساء الحرائر مع أطفالهن، ومن ثم السجانون والجنود، بينما وقف خلفهم جميعاً عند الجدار المستوطنون بملابس مدنية وكتبة السجن. هل يستطيع المجيء إلى الكنيسة السجين الحليق الرأس، الذي نقشت على ظهره علامة أو علامتا «آس»، إذا رغب، هو المقيد بالأغلال أو إلى عربة؟ أجاب أحد الكهنة حول سؤالي بهذا الصدد: «أنا لا أعرف».

يتهيأ المستوطنون للمناولة والصيام ويعقدون القران ويعمدون الأطفال في الكنائس إذا كانوا يعيشون بالقرب منها. ويذهب إلى القرى البعيدة الكهنة أنفسهم وهناك يدعون السجناء إلى «الصوم» ويقومون بالطقوس الأخرى. كان لدى الأب إيراكلي مساعد أسقف في كل من آرموودان العليا ومالو – تيموفو، هما السجينان فورونين وياكوفينكو اللذان كانا يتلوان الصلوات في أيام الآحاد. وعندما كان الأب إيراكلي يذهب إلى قرية ما لإقامة الصلوات، كان أحد الرجال يجوب الشوارع ويرفع عقيرته صائحاً: «هيا إلى الصلاة!». وحيثما لا توجد كنيسة أو مصلى تقام الصلاة في الثكنات أو الأكواخ.

عندما أقمت في ألكسندروفسك زارني الأب يجور كاهن المحلة في إحدى الأمسيات، وبعد أن جلس هنيهة، توجه إلى الكنيسة لأداء طقوس عقد القران. فرافقته. وكانت قد أوقدت المباخر، ووقف المرتلون بوجوه خالية من أي تعبير عند الخوروس، مكان إنشاد المرتلين، بانتظار حضور العروسين. كان هناك عدد كبير من النساء والسجناء والأحـرار، وهم يتطلعون بنفاد صبر إلى البوابة. وسمع صوت حفيف ما. ولوح أحد ما بيده عند البواب وهمس محذراً: «إنهم قادمون!». بدأ المرتلون بالنحنحة. واندفعت من البوابة موجة من الناس، وصرخ أحد ما بصوت صارم، وأخيراً ظهر العروسان عامل تنضيد – سجين، قد أتم عامه الخامس والعشرين، يرتدي سترة بياقة منشاة، مطوية من الزوايا، وبربطة عنق بيضاء، والعروس– السجينة، التي تكبره بـ 3–4 أعوام، في فستان أزرق مزركش بالمخرمات البيض وثبتت زهرة على رأسها. وتم بسط منديل فوق السجاد فوطئه العريس أولاً. وكان وكلاء العريس من المنضدين بربطات عنق بيضاء أيضاً. خرج الأب يجور من المذبح، وراح يقلب خلال فترة طويلة صفحات كتاب على منضدة تلاوة الكتاب المقدس. وتلا «ربنا باركنا...»، وبدأت طقوس عقد القران. وعندما وضع الكاهن فوق رأسي العروس والعريس التاج ودعا الرب أن يكون قرانهما مجيداً وشريفاً، عبرت وجوه النساء الحاضرات عن مشاعر التأثر والفرح، وبدا أن الحاضرين نسوا أن الطقوس تجري في كنيسة السجن، في المنفى، بعيداً عن الوطن. وقال الكاهن مخاطباً العريس: «مجد المرأة كما فعل إبراهام..». عندما خلت الكنيسة من الناس بعد عقد القران

انتشرت رائحة حريق ناجمة عن الشموع، التي سارع الحارس إلى إطفائها، وساد جو الحزن. خرجنا إلى مدخل الكنيسة. مطر. وقف بالقرب من الكنيسة حشد من الناس، بينما رابطت في العتمة عربتان: ركب العروسان إحداهما، بينما بقيت الأخرى فارغة.

تعالت الأصوات: - أبونا تفضل! ، - وامتدت إلى الأب يجور عشرات الأيدي كما لو تريد الإمساك به، - تفضل! شرفنا!

جرى إجلاس الأب يجور في العربة التي انطلقت به إلى العروسين.

في 8 سبتمبر، في يوم العيد، خرجت من الكنيسة بعد القداس برفقة موظف شاب، وفي هذه اللحظة حمل نعش ميت، وقد حمله أربعة سجناء، بأسمال، ووجوه كالحة ومتغضنة، تشبه وجوه المتسولين في مدننا. وسارت في أعقابهم امرأتان، مثلهم أيضاً، مع طفلين والجورجي الأسمر كيلبوكياني الذي يرتدي زي الأحرار (يعمل كاتباً ويطلقون عليه لقب الأمير). وكان الجميع كما يبدو يسرعون لخشيتهم من غياب الكاهن في الكنيسة. وقد علمنا من كيلبوكياني أن المرأة الحرة لياليكوفا التي سافر زوجها المستوطن إلى نيقولايفسك قد توفيت، وخلفت طفلين، وهو أي كيلبوكياني الذي يقطن في شقتها كمستأجر لا يدري ما يفعل بالطفلين.

لم يتبق لي ورفيقي ما نفعله هناك وذهبنا إلى المقبرة مسبقاً، من دون انتظار قداس الجنازة. وتبعد المقبرة عن الكنيسة مسافة 1060 متراً. وراء البلدة عند ساحل البحر مباشرة فوق تل شديد الانحدار. وعندما صعدنا التل كانت مسيرة الجنازة قد لحقت بنا: ويبدو أن قداس الجناز استغرق 2–3 دقائق فقط. وشاهدنا من الذروة كيف كان النعش يهتز فوق النقالات، بينما كان صبي تقوده امرأة، متخلفاً عن المسيرة، ساحباً يدها.

بدا من جانب المشهد الواسع للمخفر وأطرافه، ومن جانب آخر – البحر الهادئ الذي يتألق تحت الشمس. وجدتُ قبوراً وصلباناً كثيرة فوق التل. ويتجاور صليبان عاليان حيث قبر ميتسول ومدير السجن ساليفانوف الذي قتله أحد السجناء. أما الصلبان الصغيرة فوق قبور السجناء، – فكلها متشابهة، وجميعها صامتة. ستبقى ذكرى ميتسول حية لبعض الزمن، بينما

لن يتذكر أحد أولئك الراقدين تحت الصلبان الصغيرة من قتلة وهاربين ومقيدين بالسلاسل. ربما سيرد ذكرهم في مكان ما من السهوب الروسية، عند شعلة نار، أو في الغابة، وسيروي سائق عربة عجوز دفعاً للسأم كيف أن أحدهم في قريته كان يمارس أفعال قطاع الطرق. أما السامع الذي يتطلع في الظلام، فإنه يرتجف رعباً، بينما يصرخ عندئذ طائر ليلي - وهذا هو مجمل التأبين. ونقش فوق شاهد قبر ممرض منفي البيتان التاليان:

ياعابر السبيل! دع هذا الشعر يذكرك، بأن
كل شيء تحت رحمة السماء.. الخ

وفي النهاية:

اطلب الصفح، يارفيقي، حتى طلوع
الفجر البهيج!

ي. فيودورف

يمتلئ بالماء ربع القبر الذي حفر حديثاً. وتحدث السجناء المحكومون بالأشغال الشاقة بصوت عال حول شيء ما لا علاقة له بالجنازة، وهم يلهثون، ويتصببون عرقاً، وأخيراً رفعوا النعش ووضعوه على حافة القبر. النعش صنع على عجل من الألواح الخشبية، وغير مطلي بالدهان.

قال أحدهم: - هيا بنا؟

بقبق النعش الذي أُنزل بعجلة في الماء. وصارت الكتل الطينية تقرع غطاءه، والنعش يهتز، والماء يطرطش، بينما واصل السجناء الحديث عن أمور ما، وهم يعملون بواسطة المجارف، أما كيلبوكياني فيتطلع إلينا بحيرة، ويلوح بيديه، ويشكو ماذا سأفعل الآن مع الأطفال؟ سأنشغل بهم فترة طويلة! أنا ذهبت إلى مدير السجن، ورجوته أن يدبر لنا امرأة، - لكنه لم يعطنا واحدة!

كان الصبي أليوشا وهو في سن 3-4 أعوام، الذي أمسكت امرأة بيده، ينظر إلى القبر في الأسفل. لقد ارتدى قميصاً بمقاس أكبر من حجمه، ذا كمين طويلين، وسروالاً أزرق حائل اللون، فيه عند الركبتين لصقتان بلون أزرق ساطع.

سأله رفيقي: - أليوشكا، أين ماما؟

- لقد دف - نو - ها؟ - قال أليوشكا، وضحك، وأشار بيده نحو القبر[1].

في ساخالين 5 مدارس، ما عدا المدرسة في ديربيسنكويه التي لا تجري الدراسة فيها بسبب عدم توفر معلم. وفي فترة 1889-1890 درس في المدارس المذكورة 222 تلميذاً: 144 صبياً و78 صبية، أي بمعدل وسط 44 تلميذاً في كل واحدة منها. أنا زرت الجزيرة في فترة العطلة المدرسية، ولم تقدم الدروس فيها، لذا فإن الحياة الداخلية في المدارس، المبتكرة والطريفة جداً، كما أعتقد، بقيت مجهولة لدي. وثمة إجماع في الرأي على أن المدارس

1- سجلت إجمالاً 5. 86% من الأرثوذكس و9% من الكاثوليك واللوثريين و7. 2% من المسلمين (المحمديين) أما الباقون فهم من اليهود والأرمن - الجريجوريين. يأتي إلى ساخالين من فلاديفستوك مرة في العام كاهن كاثوليكي، وعندئذ «يقتاد قسراً» من كلتا الدائرتين الشماليتين إلى ألكسندروفسك، وهذا يجري عادة في فترة التحلل الربيعي. واشتكى الكاثوليكي لي من أن الكاهن الكاثوليكي (ألكسندر) نادراً جداً ما يأتي إليهم، ويبقى الأطفال فترة طويلة بلا تعميد، ويطلب كثير من الآباء والأمهات من الكاثوليك إلى الكاهن الأرثوذكسي تعميدهم، بغية ألا يموت أحدهم بلا تعميد. وأنا التقيت فعلاً عدداً من الأطفال الأرثوذكس بينما الآباء والأمهات - من الكاثوليك. وعندما يموت الكاثوليكي ونظراً لعدم وجود كاهن كاثوليكي يلجأون عادة إلى الكاهن الروسي لكي يتلو على الميت صلاة «ليقدس الرب». وفي ألكسندروفسك جاء الي لوثري أدين في حينه في بطرسبورج بتهمة إضرام النار عن قصد، فقال إن اللوثريين في الجزيرة أسسوا جمعية وأراني لإثبات قوله ختماً نقش عليه: «ختم جمعية اللوثريين في ساخالين». ويجتمع اللوثريون في بيته من أجل الصلاة وتبادل الأفكار. بينما يختار التتار من بينهم الملا، واليهود - الحاخام، ولكن بصورة غير رسمية. ويشيد مسجد في ألكسندروفسك. ويبني المسجد الملا فاس - حسن - ماميدوف، وهو شاب وسيم في سن 38 عاماً، من مقاطعة داغستان، ويبني المسجد على حسابه الخاص. وقد سألني فيما إذا كانوا سيسمحون له بعد انتهاء فترة محكوميته بالسفر إلى مكة المكرمة. وتوجد طاحونة هوائية في حي بيسيكوف في ألكسندروفسك، مهملة كلياً، ويقال إنه بناها تتاري ما مع زوجته. وقام الزوجان بقطع الأشجار ونشر الألواح، ولم يساعدهما أحد، واستمرا في العمل ثلاث سنوات. لكن التتاري سافر بعد أن حصل على درجة فلاح إلى القارة وسلم الطاحونة إلى الخزانة، وليس إلى أبناء جلدته التتار، بسبب غضبه الشديد منهم، لأنهم لم ينتخبوه لكي يكون الملا.

في ساخالين فقيرة، وغير مجهزة جيداً، ووجدت بالصدفة، والدراسة فيها غير إلزامية، ووضعها غير محدد البتة، إذ لا يعرف أحد ما إذا كانت ستبقى أم لا. ويتولى الإشراف عليها موظف واحد في دائرة حاكم الجزيرة، وهو شاب متعلم، لكنه مثل الملك الذي لا يحكم، ولا يدير الأمور، لأنه يدير المدارس في الواقع رؤساء دوائر الجزيرة ومديرو السجون الذين يتوقف عليهم اختيار المعلمين وتعيينهم. ويتولى مهمة التعليم السجناء الذين لم يكونوا في مواطنهم معلمين، ولا تتوفر لديهم المعارف حول المهنة، وبلا أي إعداد لهذا الغرض. علماً أنهم يتلقون مقابل عملهم راتباً قدره 10 روبلات في الشهر، والإدارة تعتقد أن دفع مبلغ أكبر غير ممكن، ولا تستدعي للعمل الأشخاص من غير السجناء الذين يجب أن يدفع لهم ما لا يقل عن 25 روبلاً شهرياً. ويبدو أن الاعتقاد السائد هو أن التعليم في المدارس غير مهم لأن السجناء من عداد المنفيين الذين غالباً ما يقومون بمهام غير محددة ويخدمون الموظفين ويتقاضون 40 وحتى 50 روبلاً شهرياً[1].

تبلغ نسبة الذكور من البالغين والأطفال الذين يحسنون القراءة والكتابة 29%. ونسبة النساء 9%. علماً أن نسبة 9% هذه تخص من هن في سن المدرسة، لأنه يمكن القول إن النساء البالغات في ساخالين لا يعرفن القراءة والكتابة عموماً. فالمرأة هناك لم يمسها التنوير، وتذهل بسبب غباوتهن وجهلهن.

1- كتب رئيس دائرة ألكسندروفسك في تقريره المؤرخ في 27 فبراير 1890 بصدد تنفيذ أمر حاكم الجزيرة حول إيجاد أشخاص موثوق بهم من الأحرار أو المستوطنين لكي يحلوا محل المعلمين السجناء في المدارس الريفية، أنه لا يوجد في الدائرة التابعة له أي أحد من الأحرار أو المستوطنين يمكن تعيينه كمعلم. كما كتب: «لهذا أجد صعوبة في اختيار الأشخاص اللائقين إلى حد ما لممارسة عمل المعلم. أنا لا أقدم على اختيار أحد ما من المستوطنين أو الفلاحين القاطنين في الدائرة التابعة لي للقيام بوظيفة المعلم». وبما أن رئيس الدائرة يقرر تكليف أحد المنفيين للقيام بمهمة المعلم، لذلك فإنهم يبقون مع ذلك في وظائف المعلم وبأمر منه. وبدا أنه كان من الممكن بغية تجنب هذه المفارقة استدعاء معلمين حقيقيين من روسيا أو سيبيريا، ومنحهم الراتب الذي يحصل عليه السجانون، لكن وجب عليه عندئذ أن يغير بصورة جذرية موقفه من مهنة المعلم، وعدم اعتبارها أقل أهمية من مهنة السجان.

-20-

السكان الأحرار. – الرواتب الصغيرة في القيادات العسكرية المحلية. – السجانون. – الإنتلجنسيا.

تطلق على الجنود تسمية «رواد» ساخالين، لأنهم سكنوا فيها قبل مجيء السجناء والمنفيين. واعتباراً من أعوام الخمسينيات، حين بدأ استيطان ساخالين، وحتى أعوام الثمانينيات قاموا، بالإضافة إلى الواجبات المباشرة الملقاة على عاتقهم، بموجب النظام العسكري، قاموا أيضاً بالأعمال التي ينفذها السجناء الآن. فقد كانت الجزيرة خالية، ولم يكن فيها مساكن، ولا طرق، ولا ماشية، ووجب على الجنود بناء الثكنات والبيوت، وشق الطرق، وحمل الأحمال على كواهلهم. وإذا ما جاء إلى ساخالين في مهمة مهندس أو عالم كان يوضع تحت أمره عدة جنود يؤدون مهام الأحصنة له. كتب مهندس المناجم لوباتين: «عندما كنت أتوغل في أعماق غابة التايغا في ساخالين، لم أكن أفكر بركوب الحصان أو نقل الأحمال الثقيلة. كنت أجد مشقة حتى في السير مشياً على الأقدام عبر جبال ساخالين الشديدة الانحدار التي تغطيها الغابات الكثيفة الأشجار أو أحراش البامبوك المحلي. ووجب عليّ أن أقطع بهذه الصورة مسافة تربو على 1600 فرستا». وسار خلفه الجنود وحملوا على كواهلهم الأحمال الثقيلة.

كانت مجموعات صغيرة من الجنود موزعة على السواحل الغربية والجنوبية والجنوبية – الغربية، وأطلقت على المراكز التي سكنوا فيها تسمية المخافر. إن هذه المخافر التي أصبحت مهملة ومنسية الآن كانت تلعب آنذاك دوراً مثل دور المستوطنات حالياً، وكانت تعتبر بادرات المستوطنة

في المستقبل. وكانت ترابط في مخفر مورافيوفسكي سرية من المشاة، وفي مخفر كورساكوفسك ثلاث سرايا تابعة للكتيبة السيبيرية الرابعة وسرية من البطارية الجبلية، وفي المخافر الأخرى مثل مخفر مانويسكي أو مخفر سورتونايسكي وجد ستة جنود فقط. كان الأشخاص الستة، الذين يبعدون عن سريتهم بمسافة عدة مئات من الفرستات، قد وضعوا تحت إمرة عريف أو حتى شخص غير عسكري، يعيشون مثل روبنسون كروزو تماماً. كانت الحياة متوحشة، ورتيبة، ومملة. وفي الصيف، إذا كان المخفر واقعاً على ساحل البحر، تأتي سفينة وتترك للجنود بعض المؤونة ثم تنصرف. وفي الشتاء يأتي إليهم من أجل «المناولة» قبيل الصوم كاهن يرتدي معطفاً من الفرو وسراويل، وتشبه هيئته أحد أبناء شعب الجيلياك أكثر من هيئة كاهن. ولا تصبح الحياة متنوعة إلا لدى وقوع كارثة ما. كأن تحمل الأمواج جندياً في قارب لنقل التبن، أو أن يفترسه الدب، أو يغمره الثلج، أو يهاجمه الهاربون، أو يصيبه داء الأسقربوط... أو أن يتملك الجندي السأم ويجلس في عنبر يغمره الثلج، أو يذهب إلى الغابة، أو يأخذ بـ«العربدة والسكر والوقاحة»، أو يضبط متلبساً بالسرقة، وبتبذير المؤن، أو يقدم إلى المحاكمة بسبب عدم احترامه لخليلة أحد ما».

ونظراً لانهماك الجندي في ممارسة مختلف الأعمال فإنه لا يجد الوقت لإتقان العمل العسكري، وينسى ما تعلمه سابقاً، وبالإضافة إلى ذلك يتخلف معه مستوى الضباط أيضاً، ويغدو التدريب العسكري في وضع مؤسف للغاية. وكان يرافق الاستعراضات العسكرية في كل مرة سوء فهم وإعراب الرؤساء عن عدم رضاهم. كانت الخدمة العسكرية شاقة. كان الأفراد يستدعون من الحراسة فوراً لمرافقة قافلة، ومن القافلة يعودون إلى الحراسة مجدداً، أو إلى حصد العشب، أو لتفريغ الحمولات الحكومية، ولم يكن هناك وقت للراحة نهاراً أو ليلاً. وكانوا يسكنون في ثكنات ضيقة وباردة وقذرة، لا تختلف كثيراً عن السجون. وكان الحرس في مخفر كورساكوفسك يقطنون حتى عام 1875 في سجن المنفيين والسجناء. وهناك سجن العساكر الانفرادي وهو عبارة عن زنزانات مظلمة. كتب الطبيب سينتسوفسكي: «ربما أن هذا الوضع الضيق له ما يبرره لدى اتخاذ تدابير العقوبة، لكن لا علاقة للجندي

الحارس بالأمر، فلمَ ينبغي عليه أن يكابد مثل هذه العقوبة – هذا أمر غير معروف». وإذا كانت بزاتهم حقيرة من الأسمال مثل ملابس السجناء فلأنه في مثل عملهم لا تكفي أية ملابس. وجرت معاملة الجنود في غابات التايغا وكأنهم من الهاربين لأن ملابسهم وأحذيتهم مهلهلة لدرجة أنهم اعتبروا في إحدى المرات في جنوب ساخالين كسجناء هاربين وأطلقوا عليهم النار.

في الوقت الحاضر تتألف القوة العسكرية لحماية الجزيرة من أربع قيادات: في ألكسندروفسك ودويه وتيموفو وكورساكوفسك. وفي يناير عام 1890 كان عدد الأفراد من الرتب المتدنية 1548. وكان الجنود ينجزون كالسابق الأعمال الشاقة، التي لا تتفق مع قدراتهم الجسدية، وتطورهم، وأحكام نظام الخدمة العسكرية. صحيح أنهم لم يعملوا في قطع الأشجار وبناء الثكنات، لكن الجندي بقي كالسابق يتوقع لدى عودته من الحراسة أو التدريب نيل قسط من الراحة: لكنه يمكن أن يرسل فوراً لمرافقة قافلة، أو إلى حصاد العشب، أو لمطاردة السجناء الهاربين. كما أن الأشغال المنزلية تستحوذ على جهد عدد كبير من الجنود. ولهذا هناك نقص دائم في الحرّاس لمرافقة القوافل. كما أن مواقع الحراسة لا يمكن أن تعوّل على ثلاث نوبات حراسة. وفي مطلع أغسطس، حين كنت في دويه، عمل 60 فرداً من فريق جنود دويه في حصد العشب، وأرسل نصفهم لهذا الغرض مشياً على الأقدام إلى موضع الحصد لمسافة 109 فرستات.

إن الجندي في ساخالين وديع وصموت ومطيع ولا يقرب الخمر. وأنا لم أر جنوداً سكارى يصخبون في الشارع إلا في مخفر كورساكوفسك. كما أن الجندي نادراً ما يغني وإذا ما غنى فهو يردد الأغنية ذاتها: «عشر فتيات، وأنا وحيد وأينما ذهبت الفتيات أذهب معهن.. الفتيات يذهبن إلى الغابة، وأنا وراءهن»، – إنها أغنية مرحة لكنه يغنيها بكآبة بالغة، إلى حد أن المرء يبدأ لدى سماعها بالحنين إلى الوطن بتحسس كل قبح وبشاعة الطبيعة في ساخالين. إنه يكابد طائعاً «جميع» الحرمانات، ويبدي اللامبالاة إزاء المخاطر التي غالباً ما تهدد حياته وصحته. لكنه فظ وجلف وبليد، وبسبب عدم توفر وقت الفراغ لا يفلح في إدراك الواجب العسكري والشرف العسكري ولهذا يرتكب الأخطاء التي تجعله في غالب الأحيان عدواً لا بد

من حراسته ومطاردته. إنه يكشف نواقصه هذه بشكل بارز على الأخص، حين يكلف بالالتزامات التي لا تتفق مع مستوى تطوره، وحينما يصبح مثلاً سجاناً.

تنص المادة 27 من «نظام المنفيين» في ساخالين «يعين مدير السجن السجانين من المرتبتين الأقدم والأدنى ويحدد عددهم بحيث يشرف السجان الأقدم على أربعين فرداً والسجان الأدنى على عشرين فرداً من السجناء، وتوافق على ذلك مديرية السجون العامة سنوياً». يعين ثلاثة سجانين، أحدهم من الرتبة الأقدم واثنان من الرتبة الأدنى، لكل 40 شخصاً، أي سجّان واحد لكل 13 سجيناً. وإذا ما تصورنا أن 13 شخصاً يعملون ويأكلون ويقضون أوقاتهم في السجن وغيره تحت رقابة شخص واحد نزيه وقدير، فإن هذا الشخص يكون تحت رقابة شخص أرقى منه مرتبة هو مدير السجن. بينما يكون في مرتبة أعلى منه مدير الدائرة أو المنطقة وهلمجرا، فيمكن للمرء أن يطمئن إلى فكرة أن كل شيء بأفضل حال. أما في الواقع فإن وظيفة السجّان تعتبر الموضع الأكثر إيلاماً في نظام السجون في ساخالين.

وفي ساخالين في الوقت الحاضر حوالي 150 فرداً بمرتبة السجان الأقدم، أما عدد السجّانين من المرتبة الأدنى فهو أكثر بمقدار الضعفين. ويشغل وظيفة السجان الأقدم ضباط الصف أو الجنود الذين أنهوا الخدمة العسكرية في القواعد المحلية وأفراد منحدرون من شرائح اجتماعية مختلفة. إن عدد الأخيرين قليل جداً. أما ذوو المراتب الأدنى الذين هم في الخدمة الفعلية فإنهم يشكلون نسبة 6% من مجموع ذوي المراتب الأقدم، بينما يشغل وظيفة السجان من المرتبة الأدنى الجنود العاديون فقط، الذين ترسلهم القيادات العسكرية المحلية. وفي حالة عدم توفر العدد الكافي من السجانين فإن «النظام» يسمح بأن يقوم بمهام السجانين من المرتبة الأدنى الأفراد من المرتبة الأدنى في القيادات العسكرية المحلية، وبهذا يتولى وظائف السجانين الشباب من سيبيريا، الذين لا يمكنهم حتى القيام بمهام حارس مرافق، ولكن «مؤقتاً» و«في حدود الضرورة القصوى»، بيد أن المؤقت هذا يستمر فترة عشرة أعوام، بينما تتسع أكثر «حدود الضرورة القصوى»، مما يجعل نسبة المراتب الأدنى للقيادات المحلية تصل إلى

73% من مجموع السجانين من المرتبة الأدنى، ولا يستطيع أحد أن يضمن عدم وصول هذه النسبة بعد مضي 2-3 أعوام إلى 100%. ولابد من ملاحظة أنه ينتدب للقيام بوظيفة السجان ليس خيرة الجنود، لأن رؤساء القيادات العسكرية يرسلون للعمل في السجن أسوأ الجنود بينما يبقون في الوحدات أفضلهم[1]. وفي السجون عدد كبير من السجانين، لكن ينعدم النظام ويشكل السجانون مصدر عرقلة دائمة للإدارة، ويشهد على ذلك حاكم الجزيرة نفسه. ففي كل يوم تقريباً يصدر الأوامر بفرض العقوبات عليهم بخصم جزء من رواتبهم أو تسريحهم من الخدمة نهائياً:

أحدهم بسبب عدم الضمان وعدم تنفيذ الأوامر، والآخر - لسوء السلوك وانعدام الضمير والتخلف، والثالث بسبب سرقة المؤونة الحكومية المكلف بحراستها، والرابع بسبب إخفاء الأشياء المسروقة، والخامس الذي نسب حارساً في صندل، لكنه لم يحافظ على النظام هناك، بل حتى شارك نفسه في سرقة الجوز في الصندل، أما السادس فيجري التحقيق معه لبيعه الفؤوس والمسامير الحكومية، والسابع لتورطه مراراً في سرقة العلف المخصص للماشية التابعة للحكومة، والثامن بسبب عقده صفقات غير قانونية مع السجناء. ونحن نتعرف من الأوامر أن أحد السجانين سمح لنفسه حين كان في نوبة حراسة في السجن بدخول القسم النسائي عبر النافذة، بعد أن انتزع

1- هذا يدعو إلى الاعتقاد بوجود إجحاف جلي للعيان، فأفضل الجنود الذين يبقون في الوحدات العسكرية يحصلون على حصة مؤونة الجندي فقط، أما الجنود الأسوأ في القدرات الذين يعملون في السجون فإنهم يحصلون على حصتهم من المؤونة بالإضافة إلى الراتب الشهري. واشتكى الأمير شاخوفسكوي في «الملف» قائلاً: «إن الفريق الرئيسي من السجانين (66%) يتألف من الجنود في الوحدات العسكرية المحلية الذين يتلقون من خزانة الدولة راتباً شهرياً قدره 12 روبلاً و50 كوبيكاً. إن ما يتصفون به من جهل، ومستوى التطور المتدني، ونظرتهم المتسامحة إزاء الأفعال الممكنة في أوساطهم مثل الرشوة، وغياب الحزم السابق في الخدمة العسكرية، والحرية اللامتناهية في السلوك، باستثناء حالات قليلة، تقود إلى ممارسة التعسف اللاقانوني حيال السجناء المجرمين، أو التذلل أمامهم». أما حاكم الجزيرة الحالي فهو يرى «أن خبرة سنوات طويلة قد أظهرت مدى ضمانة السجناء المنتدبين من القيادات العسكرية المحلية».

مسبقاً المسامير، بهدف ذي سمة رومانسية، أما الآخر فإنه سمح في أثناء نوبة الحراسة ليلاً، لجندي آخر هو حارس أيضاً، بدخول زنزانة احتجزت فيها نساء معتقلات. ولا تقتصر مغامرات السجانين الغرامية فقط على التسلل إلى عنابر وزنزانات النساء الانفرادية. فقد وجدت في شقق السجانين صبايا أجبن عن سؤالي حول من هن بالقول: «أنا – خليلة». ولدى دخول شقة السجان أجده رجلاً غليظ البنية، شبعان، ممتلئ الجسم، يرتدي صدرية مزرّرة، وفي جزمتين جديدتين يصرفان صريفاً، وكان جالساً عند المائدة «يحتسي» الشاي. بينما جلست عند النافذة صبية ذات 14 عاماً بسحنة ذابلة، وشاحبة. إنه يسمي نفسه عادة بضابط – صف، السجان الأقدم، بينما يقول عنها إنها ابنة سجين، وإن عمرها 16 عاماً، وإنها خليلته.

يسمح السجانون للسجناء أثناء نوبات الحراسة في السجن بلعب القمار، ويشاركون فيه هم أنفسهم. إنهم يسكرون مع السجناء، ويتاجرون بالخمر. كما نلقى في الإدارة العربدة والتمرد والمعاملة الوقحة لمن هم أكبر سناً بحضور السجناء، وأخيراً الاعتداء بالضرب، حيث يضرب السجين بالعصا على رأسه، وبنتيجة ذلك تتولد جروح وكدمات.

إنهم أفراد أجلاف وغير متطورين يسكرون ويلعبون القمار مع السجناء، ويمارسون الجنس وشرب الكحول مع السجينات بكل طيب خاطر، ولا يعرفون الانضباط، وغير نزيهين وسمعتهم سيئة حقاً. ولا يحترمهم المنفيون ويعاملونهم باحتقار مشوب بالازدراء. كما يصفونهم بحضورهم بـ «الأجلاف» ويخاطبونهم بصيغة المفرد كدليل على عدم الاحترام. ولا تهتم الإدارة البتة بتحسين سمعتهم، لاعتقادها، كما يبدو، أنه لا جدوى من ذلك. ويخاطب الموظفون السجان بصيغة المفرد، ويشتمونه كما يحلو لهم، بلا خجل، وبحضور السجناء. فيقال له مثلاً: «أين نظرت، يا أحمق؟». أو: «أنت لا تفهم شيئاً أيها الغبي!». ويرى مدى عدم احترام السجانين هنا أن الكثيرين منهم يعينون «انطلاقاً من عدم توافقهم مع نظام الخدمة العسكرية»، وبعبارة أخرى فإنهم يعملون لدى الموظفين بصفة خدم وسعاة. أما السجانون من النخبة، فيبدو أنهم يخجلون من وظيفتهم، فيسعون إلى التميز عن رفاقهم بشيء ما: أحدهم يضع على كتفيه شرائط سميكة أكثر، والآخر

يضع في قبعته شارة ضابط، والثالث يضع شارة كاتب إداري، ويصف نفسه في الوثائق بأنه ليس سجاناً بل «رئيس الأعمال والعمال».

إن السجّانين في ساخالين لم يرتقوا إلى مستوى فهم أهداف السجان، لكن بمرور الزمن، وبحكم وضع الأشياء، تقتصر أهداف السجان شيئاً فشيئاً على وضعهم الحالي. إنها تنحصر الآن في دور الفرد الجالس عند الزنزانة، وهاجسه «ألا يثير أحد الصخب» وألا يقدم أحد الشكاوى إلى الرئاسة. وفي الأعمال تجده مسلحاً بمسدس، ولحسن الحظ لا يجيد إطلاق النار به، وبسيف يصعب سحبه من الغمد بسبب الصدأ، وتراه واقفاً ويتطلع إلى العمل بلا مبالاة، ويدخن ويكتئب. إنه في السجن يؤدي دور الخادم الذي يفتح الباب ويغلقه، بينما هو في الأعمال فرد زائد عن الحاجة. ويشرف على كل 40 سجيناً ثلاثة سجانين - أحدهم برتبة الأقدم والاثنان الآخران برتبة أدنى. ولكن يشاهد باستمرار كيف يعمل 40-50 سجيناً تحت رقابة سجان واحد أو بلا إشراف مراقب البتة. وإذا حضر أحد السجانين في أثناء تنفيذ الأعمال، فإن الآخر يقف عند الحانوت الحكومي ويؤدي التحية إلى الموظفين المارين به، أما الثالث فيجلس في مدخل بيت أحد ما، أو يقف بهيئة الاستعداد بلا ضرورة لذلك في حجرة استقبال المرضى في مستشفى السجن[1].

لن أتحدث كثيراً عن ممثل الإنتلجنسيا. فالواجب يملي عليه بحكم منصبه وقسمه أن يعاقب أخاه الإنسان القريب منه، وأن يكون قادراً في كل ساعة على تحمل عبء النفور والفظاعة وبُعد مكان العمل، والراتب الضئيل، والسأم، وأن يكون بالقرب من ذوي الرؤوس الحليقة، والقيود والسلاسل، والجلادين، والحسابات بالقروش، والمشاجرات، والشيء الرئيسي إدراك عجزه التام عن مكافحة الشر المحيط به، - إن جميع هذه الأمور مجتمعة تجعل الخدمة في إدارة السجن والمنفى شاقة للغاية ومنفّرة. في الماضي كان يخدم في السجون والمنافي أفراد غالبيتهم من الفاسدين

1- يبلغ راتب السجان الأقدم 480 روبلاً في السنة وراتب السجان الأدنى رتبة 216 روبلاً. ويزداد الراتب في مواعيد معينة بمقدار الثلث والثلثين وحتى الضعفين. وهذا الراتب يعتبر جيداً وجذاباً للموظفين الصغار.

والحقراء والثقلاء الذين لا يهمهم أين يعملون بشرط توفر السبل لكي يأكلوا ويشربوا ويناموا وكذلك يلعبوا القمار. أما الأفراد المستقيمون فكانوا يأتون إلى هذا العمل مرغمين تدفعهم إلى ذلك الحاجة وتراهم يتركون العمل لدى توفر أول فرصة، أو يدمنون على شرب الخمر أو يصيبهم مس من الجنون أو ينتحرون، أو تجرهم أوضاعهم شيئاً فشيئاً إلى القذارة، مثل الأخطبوط، فيبدأون كذلك بالسرقة، وبممارسة الجلد بقسوة...

إذا ما اعتمدنا على التقارير الرسمية والمواد الصحفية فإن الإنتلجنسيا في ساخالين كانت في أعوام الستينيات والسبعينيات تتميز بالابتذال الأخلاقي التام. وفي أيام أولئك الموظفين تحولت السجون إلى أوكار للفساد، وإلى دور للعب الميسر، وفساد الأخلاق، واتصف الموظفون بالقسوة، وبجلد الضحايا حتى الموت... وكان من أبرز الرؤساء من هذه الناحية في تلك الفترة المدعو الرائد نيقولايف، الذي تولى خلال سبعة أعوام منصب رئيس مخفر دويه. وغالباً ما يتردد اسمه في تقارير المراسلين. وكان من سلالة الأقنان المتحررين من سلطة أصحاب الأطيان. ولا تتوفر معلومات حول كيفية ترقي هذا الرجل الفظ وغير المهذب إلى رتبة رائد. وعندما سأله أحد الصحفيين هل كان في أي وقت في وسط الجزيرة وماذا رأى هناك أجاب الرائد: «الجبل والوادي – ثم الوادي، والجبل مجدداً، وكما هو معروف فإن التربة بركانية، ناجمة عن الحمم». كما أجاب عن السؤال حول ما هو الشيء المسمى بالثوم البري بقوله: «أولاً هذا ليس شيئاً بل هو نبات، وثانياً هو نبات نافع ولذيذ الطعم، حقاً أن البطن تنتفخ بسببه، لكن هذا لا يهمنا، فنحن لا نلتقي مع السيدات». وقد استبدل العربات لنقل الفحم بالبراميل بغية دحرجتها بسهولة فوق الجسور، وكان يحبس في هذه البراميل السجناء المخطئين ومن ثم يدحرجها على الساحل. «يدحرج المحبوب خلال ساعة وبعدها يصبح طيعاً وألين من ريش النعام». وقد أراد أن يعلم الجنود الأرقام فلجأ إلى لعبة لوتو. «لدى ذكر الأرقام، إذا لم يستطع أحدهم ذلك، يجب عليه أن يدفع عشرة كوبيكات، وعندما يدفع مرة أخرى، فسيدرك عندئذ بأن هذا ليس فيه منفعة. وتراه يتمسك بالرقم بشدة، وهكذا سيحفظه خلال أسبوع». إن مثل هذه الخزعبلات والسخافات تفعل فعلها في إفساد الجنود

في دويه لدرجة أنهم كانوا يبيعون أسلحتهم إلى السجناء. وكان الرائد حين يبدأ بمعاقبة السجين يبلغه مسبقاً بأنه لن يبقى على قيد الحياة، وفعلاً كان المجرم يفارق الحياة فوراً بعد معاقبته بالجلد. بعد هذا الحادث قدم الرائد نيقولايف إلى المحكمة التي أصدرت عليه حكمها بالأشغال الشاقة.

عندما سئل أحد المستوطنين الشيوخ هل كان في الجزيرة أناس طيبون في زمانه، كان أولاً يلتزم الصمت هنيهة، كما لو أنه يستعيد الذكريات في ذهنه، ثم يجيب: «لقد كان هناك أناس من مختلف الأصناف». لا تُنسى الأمور القديمة بسرعة في أي مكان كما في ساخالين، وذلك بفضل الحراك غير الاعتيادي للمنفيين الذين يتغيرون بصورة جذرية في كل خمسة أعوام، وبسبب عدم إعداد أرشيفات جيدة نوعاً ما في الإدارات هنا. وما حدث قبل 20–25 عاماً يعتبر «من غابر الأزمان»، المنسي والمنعدم بالنسبة إلى التاريخ. وقد بقيت بعض المباني، وبقي ميكريوكوف، وحوالي عشرين نكتة ومزحة، كما بقيت أرقام لا تستحق الوثوق بها بأي شكل من الأشكال، فلم تعرف أية إدارة عدد السجناء في الجزيرة وعدد الهاربين والمتوفين وهلمجرا.

تواصلت «الأزمان الغابرة» في ساخالين حتى عام 1878 حين تم تعيين الأمير نيقولاي شاخوفسكوي حاكماً عاماً لمقاطعة بريموريه الخاصة بالسجناء والمنفيين، وهو إداري ممتاز، ورجل ذكي وشريف. وبقي بعد رحيله «ملف إدارة جزيرة ساخالين» النموذجي من كل النواحي، المحفوظ الآن في دائرة حاكم الجزيرة. لقد كان رجلاً إدارياً حقاً. كما عاش السجناء في عهده بصورة لا بأس بها بالقياس إلى ما كانت عليه حياتهم قبله، ومما لا ريب فيه أن ملاحظاته التي كان يذكرها لمرؤوسيه، و«الملف» الذي أعده، الملف المستقل والصريح، ربما كانت بداية نفحات طيبة جديدة.

في عام 1878 بدأ عمل «أسطول المتطوعين» وصار يتولى المناصب في ساخالين شيئاً فشيئاً موظفون من القسم الأوروبي من روسيا. وفي عام 1884 بدأ تطبيق نظام جديد في ساخالين أسفر، كما يقال هنا، عن تدفق أناس جدد كثيرين على الجزيرة. وفي الجزيرة في الوقت الحاضر ثلاث مدن كبيرة يعيش فيها الضباط والموظفون وأفراد أسرهم. وأصبح المجتمع متنوعاً ويسود فيه ممثلو الإنتلجنسيا، وعلى سبيل المثال تمتع الجمهور في

ألكسندروفسك في عام 1888 بمشاهدة عرض مسرحي للهواة لمسرحية «الزواج» (مؤلفها نيقولاي جوجول - المترجم). وعندما كانت تجري هنا في ألكسندروفسك في أيام الأعياد الكبرى حملة تبرعات لمصلحة أسر السجناء الفقيرة وأطفالهم، كان يتم ذلك باتّفاق بين الموظفين والضباط، على أن الحملة تجري بدلاً من القيام بزيارات متبادلة بينهم. ويصل كشف تواقيع المتبرعين عادة إلى 40. يترك مجتمع ساخالين انطباعاً طيباً لدى زائر الجزيرة. فهو يتسم بالبشاشة وكرم الضيافة ويقارن من كل النواحي مع المجتمعات في أقضيتنا، ويعتبر في الساحل الشرقي من الجزيرة من أكثر المجتمعات حيوية وظرفاً. على الأقل أن الموظفين هناك لا يرغبون مثلاً بالانتقال إلى نيقولايفسك أو دي - كيستري. ولكن بما أنه تحدُث في مضيق تتارسكي عواصف هوجاء، ويقول البحارة إنها أصداء الزوابع في بحري اليابان والصين، وكذلك في حياة هذا المجتمع تتردد بين حين وآخر أصداء الماضي القريب، والتواجد بالقرب من سيبريا. ويتبين كم عدد الشبان الجسورين الذين التحقوا بالخدمة هنا بعد إصلاحات عام 1884، وصدور الأوامر حول التسريحات من العمل، والتقديم إلى المحاكم، أو صدور البيانات الرسمية حول الفوضى في الخدمة التي بلغت حد «الفساد الوقح» (الأمر رقم 87، 1890)، وكذلك من الفكاهات والقصص مثلاً قصة السجين زولوتاريوف، وهو رجل غني، أقام علاقات مع الموظفين ولعب معهم القمار. وعندما ضبطته زوجته برفقة موظفين أخذت تخزيه، لكونه يلتقي أشخاصاً يمكن أن يؤثروا تأثيراً سلبياً في سلوكه وأخلاقه. والآن هناك موظفون لا يكلف أحدَهم شيئاً التلويح باليد ولطم سجين ما بقبضته، حتى لو كان شخصاً متميزاً، أو إعطاء الأمر إلى الشخص الذي لم يرفع قبعته بصورة عاجلة: «اذهب إلى السجان وقل له أن يذيقك ثلاثين جلدة».
ما زال ممكناً في السجن حدوث مثل انعدام النظام هذا، حيث اعتبر اثنان من السجناء مفقودين طوال عام كامل تقريباً، بينما كانا طوال هذا الوقت يحصلان على وجباتهما من الطعام من القدر وحتى يشاركان في الأشغال (الأمر رقم 87، 1890). أعتقد أنه لا يعرف كل سجان كم عدد المعتقلين الرازحين في السجن عنده، وكم عدد الذين يتناولون الطعام من القدر في

السجن فعلاً، وكم عدد الهاربين، وهلمجرا. ويرى حاكم الجزيرة نفسه «أن وضع الأمور في دائرة ألكسندروفسك عموماً يترك في جميع فروع الإدارة انطباعاً ثقيلاً، ويتطلب إجراء تحسينات كثيرة، أما فيما يتعلق بتسيير الأمور في الإدارة نفسها فإنه متروك أكثر مما يجب إلى الكتبة، الذين «يعبثون بلا رقابة، اعتماداً على أفعال التزوير التي كشفت بالصدفة». (الأمر رقم 314، عام 1888). سأتحدث فيما بعد عن الوضع البائس لقسم التحقيقات هنا. في مكتب البريد والتلغراف يجري التعامل مع الناس بفظاظة، ويسلم الإنسان البسيط مراسلاته فقط بعد مضي أربعة أو خمسة أيام من وصولها. ورجال التلغراف أميون، كما لا تحافظ سرية البرقيات. أنا لم أستلم برقية واحدة لم تشوه بكل همجية. وعندما حدث أن أضيفت إلى نص برقيتي عبارة من برقية غريبة، طلبت إصلاح الخطأ بغية استعادة مغزى البرقيتين، قيل إنه من الممكن فقط إجراء ذلك على حسابي.

يلعب دوراً بارزاً في تاريخ ساخالين الحديث ممثلو التشكيلة المتأخرة وهم مزيج من ديرجيموردا وياجو (ديرجيموردا الشرطي الجلف أحد أبطال مسرحية جوجول «المفتش العام»، وياجو النذل أحد أبطال مسرحية شكبير «عطيل» – المترجم)، – أي السادة الذين لا يعترفون لدى التعامل مع من هم أقل منهم منزلة سوى استخدام قبضة اليد والعصا والشتائم المقذعة، بينما يعاملون من هم أرقى منهم منزلة بكل لباقة وحتى بكل ليبرالية.

ومهما كانت الحال فلم يعد هناك وجود لـ «بيت الموتى» (المقصود رواية «يوميات من بيت الموتى» للكاتب دوستويفسكي – المترجم). التقيت في ساخالين في أوساط أفراد الإنتلجنسيا العاملين كرؤساء في الدوائر الرسمية أشخاصاً يتسمون بالعقل والطيبة والنبل، ويعتبر حضورهم ضمانة كافية لاستحالة العودة إلى الماضي. فلا تجري الآن دحرجة السجناء في البراميل، ولا جلدهم بالعصا، ولا دفعهم إلى الانتحار، من دون استثارة المجتمع المحلي وتردد الأحاديث حول ذلك في كل أنحاء آمور أو سيبيريا كلها. إن أية فعلة شنيعة تكشف إن عاجلاً أو آجلا، وتعلن أمام الملأ، وتؤكد ذلك قضية محزنة، أونورسكي المؤلمة التي أثارت الأقاويل ونشرت في الصحف، مهما جرت المحاولات للتستر عليها، وذلك بفضل إنتلجنسيا

ساخالين نفسها. ولم يعد أمراً نادراً لقاء أناس أخيار ووجود أفعال طيبة. منذ فترة وجيزة توفيت في ريكوفسكي ممرضة عملت في ساخالين خلال أعوام كثيرة ووضعت هدفاً لها تكريس حياتها كلها لخدمة الناس الذين يتألمون. وحدث مرة في أثناء وجودي في كورساكوفسك أن جرفت الأمواج في البحر سجيناً في صندل لنقل التبن. فتوجه الرائد «ش» مدير السجن في قارب بخاري على الرغم من العاصفة، وعرض حياته للخطر، وواصل البحث عنه منذ المساء وحتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، حتى عثر في الظلام على الصندل وأنقذ السجين[1].

لقد أظهرت إصلاحات عام 1884 أنه كلما ازداد عدد الموظفين في مستوطنة المنفيين كان ذلك أفضل. فإن تعقيد وتشتت الأعمال يتطلبان آلية معقدة ومشاركة عدد كبير من الأفراد. وينبغي ألا تلهي المشاغل الصغيرة الموظفين عن واجباتهم الرئيسية. وحينما لا يتوفر سكرتير أو موظفون لدى حاكم الجزيرة تراه منهمكاً في أكثر الأوقات في إعداد الأوامر وشتى الوثائق والأوراق، وتسلبه الأعمال المكتبية المعقدة والحثيثة الوقت كله تقريباً، وهو الوقت الذي يحتاجه من أجل تفقد السجون والتجول في المراكز السكنية. ويجب على رؤساء المناطق أن يتولوا، بالإضافة إلى ترؤس دوائر الشرطة، توزيع المؤونة على النساء والمشاركة في مختلف اللجان والجولات التفتيشية وهلمجرا. ويتولى مديرو السجون ومساعدوهم وظائف التحقيق وأعمال الشرطة. وفي هذه الظروف يتعين على الموظف في ساخالين أن

1- غالباً ما يتعرض الموظفون هنا إلى الأخطار الشديدة لدى أداء واجباتهم. فقد أصاب السيد بوتاكوف رئيس دائرة تيموفسكويه الإسهال الدموي عندما سار مشياً على الأقدام على ضفاف بورونايا ذهاباً وإياباً، وكاد يلقى حتفه. أما السيد بيلي رئيس دائرة كورساكوفسك فقد توجه في إحدى المرات من كورساكوفسك إلى ماوكا في قارب من طراز فيلبوت، وهبت عاصفة وحملته الأمواج بعيداً عن الساحل في البحر وبقي يصارع الأمواج خلال يومين تقريباً. وقرر بيلي والسجين قائد الدفة والجندي الذي كان في القارب بالصدفة أن نهايتهم قد حلّت. لكن الأمواج حملتهم إلى الساحل بالقرب من فنار كريليون. وعندما جاء بيلي إلى مراقب الفنار وتطلع في المرآة لاحظ ظهور خصلة شعر بيضاء في رأسه لم تكن سابقاً. بينما استسلم الجندي إلى النوم ولم يستطيعوا إيقاظه في غضون 40 ساعة.

يجهد نفسه في العمل حتى الانفعال الشديد، كما يقال، أو يلوح بيده يائساً ويترك قسماً كبيراً من عمله إلى الكتبة - السجناء، وهذا ما يحدث في غالب الأحيان. وينهمك الكتبة - السجناء ليس في أعمال الاستنساخ فقط، بل في إعداد الوثائق الهامة بأنفسهم أيضاً. وغالباً ما يكونون أكثر حنكة ونشاطاً من الموظفين، بالأخص من الحديثي العهد في العمل، ويحدث أن يحمل السجين أو المستوطن كل عبء الأعمال الإدارية وإعداد التقارير وحتى إجراءات التحقيق. وفي غضون أعوام كثيرة يشوش الكاتب، بسبب جهله أو عدم نزاهته، جميع الأعمال المكتبية، بشكل يجعله وحده قادراً على ترتيب الملفات والأوراق في هذا التشوش واختلاط الأمور. مما يجعله شخصاً ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه، ولا تستطيع الرئاسة حتى أكثرها حزماً أن تستغني عن خدماته. وثمة وسيلة واحدة للتخلص من مثل هذا الكاتب «الجبار» هي أن يحل محله واحد أو اثنان من الموظفين الحقيقيين.

إينما يتوفر عدد كبير من أفراد الإنتلجنسيا يغدُ أمراً حتمياً تكوّن الرأي العام، الذي يولد الرقابة الأخلاقية ويملي على كل شخص الأحكام الأخلاقية التي لا يستطيع انتهاكها أحد، حتى الرائد نيقولايف. ولا يماري أحد أيضاً في أنه مع تطور الحياة الاجتماعية تفقد الخدمة هنا شيئاً فشيئاً خصائصها غير الجذابة وتتقلص نسبة المجانين والسكارى والمنتحرين[1].

1- صارت ممكنة الآن بعض وسائل التسلية مثل العروض المسرحية للهواة ورحلات البيكنيك والحفلات. وفي الفترة السابقة كان من الصعب حتى تشكيل مجموعة لممارسة لعبة البريفيرانس. وبات من اليسير تلبية الحاجات الروحية. وتسجل الاشتراكات في المجلات والجرائد والكتب، وفي كل يوم ترد برقيات من الوكالة الشمالية. وتوجد آلات بيانو كبيرة (رويال) في كثير من البيوت. ويجد الشعراء المحليون القراء والسامعين. وفي فترة ما كانت تصدر في ألكسندروفسك مجلة «بوتونتشيك» المكتوبة بخط اليد، لكنها توقفت عن الصدور في العدد السابع. ويقطن الموظفون الكبار في شقق واسعة ودافئة، ولديهم طباخون وأحصنة، أما من هم أدنى مرتبة فإنهم يستأجرون الشقق من المستوطنين، ويشغلون بيوتاً بأكملها أو بعض الحجرات المؤثثة فيها والمجهزة بكل شيء. كان موظف شاب، شاعر، وقد أشرت إليه آنفاً، يستأجر حجرة فيها كثير من الأيقونات وسرير فخم وستائر وحتى سجاد معلق على الجدار نقشت فيه صورة فارس يطلق سهماً على نمر.

-21-

أخلاق السجناء والمنفيين. - الجريمة. - التحقيق والمحكمة. - العقوبات. - الجلد بالعصا أو بالسوط. - الإعدام.

يتحمل بعض المنفيين العقوبات بجرأة، ويعترفون بذنوبهم عن طيب خاطر، وعندما يسألون عن سبب نفيهم إلى ساخالين، يجيبون عادة كالآتي: «لا يُرسل أحد إلى هنا لقاء الأعمال الخيرة». أما البعض منهم فيثيرون الدهشة بما يبدونه من اللاأبالية وبمظهرهم البائس، فهم يشكون ويبكون، ويتملكهم اليأس والحزن ويقسمون بأغلظ الأيمان على أنهم أبرياء». ويرى أحدهم أن النفي هو خير له فإنه، حسب قوله، لقد عرف الرب فقط في

يبلغ راتب حاكم الجزيرة 7000 روبل، ورئيس القسم الطبي - 4000 روبل، والمفتش الزراعي 3500 روبل، والمهندس المعماري - 3100 روبل، وكل واحد من رؤساء الأقاليم - 3500 روبل، ويحصل الموظف مرة واحدة خلال 3 أعوام على إجازة لمدة نصف عام مع بقاء الراتب. وبعد مضي 5 أعوام يزداد راتبه بنسبة 25%. وبعد 10 أعوام يحال إلى التقاعد. وتحسب كل فترة عامين بثلاثة.

مع ذلك فإن الموظفين هنا غير راضين عن حياتهم. إنهم سريعو الانفعال ويتشاجرون بعضهم مع بعض لأتفه الأسباب. ويتولد لديهم ولدى أفراد أسرهم الاستعداد للإصابة بمرض السل والأمراض العصبية والنفسية. وفي أثناء وجودي في ألكسندروفسك كان موظف شاب طيب السريرة يحمل طوال الوقت مسدساً كبيراً حتى في النهار. وعندما سألته عن السبب قال:

- هنا موظفان يريدان الاعتداء عليّ وقد هاجماني مرة.
- وماذا تستطيع عمله بالمسدس؟
- بكل بساطة، سأقتلهما مثل الكلاب، بلا كلفة.

المنفى، بينما يهرب آخر في أول فرصة تسنح له، ويلوّح بالهراوة حين يلقون القبض عليه. ويعيش تحت سقف واحد عتاة المجرمين والأشرار والقساة للغاية الذين لا يمكن إصلاحهم مع المجرمين بالصدفة و«التعساء» والأبرياء المظلومين[1]. لهذا فإنه لدى طرح مسألة أخلاق المنفيين يتولد عموماً انطباع مختلط ومشوَّش للغاية، ومن غير الممكن استخلاص استنتاجات جادة ما باستخدام وسائل البحث المتوفرة. وعادة يصدر الحكم على أخلاق السكان بموجب الأرقام التي تحدد الجريمة، لكن تبين أنه حتى هذه الوسيلة العادية والبسيطة تعتبر غير مفيدة حين يتعلق الأمر بالمنفيين. فالمنفيون الذين يعيشون في وضع غير طبيعي واستثنائي لديهم فهمهم الخاص للجريمة، و*نظامهم* الخاص، والجرائم التي نعتبرها خفيفة تعتبر هنا خطيرة، والعكس بالعكس، ولا يسجل عدد كبير من الجرائم الجنائية البتة، لأنها تعتبر في ظروف السجن من الأمور العادية، بل والضرورية تقريباً[2].

تلاحظ لدى السجناء والمنفيين العيوب وانحرافات الفساد المميزة في غالب الأحيان لغير الأحرار والرقيق والجياع الذين يعيشون في حالة خوف دائم. فالكذب والخداع والجبن واللامبالاة وانتهاك القانون والسرقات

1- قال لي السيد كامورسكي مفتش السجون في إدارة الحاكم العام للجزيرة: «إذا ما غادر الجزيرة في نهاية الأمر 15-20 إنساناً مستقيماً من مجموع 100 سجين فيعود الفضل في ذلك ليس إلى التدابير الإصلاحية التي نتخذها بل إلى المحاكم الروسية التي فيها كثير من العناصر الطيبة وإلى المدانين ظلماً وعدواناً».

2- إن التطلع الطبيعي الذي لا يقهر إلى أسمى خير – أي الحرية – يعتبر هنا من الميول الإجرامية، وتجري معاقبة من يهرب بالأشغال الشاقة وبالجلد باعتبار ذلك جريمة جنائية فاحشة. وتجري معاقبة المستوطن الذي يوفر الملاذ للسجين الهارب، انطلاقاً من دوافع شريفة، ومن أجل المسيح، بالحكم عليه بالأشغال الشاقة. إذا أبدى المستوطن الكسل أو عاقر الخمر فيمكن أن يرسله حاكم الجزيرة إلى العمل في المناجم لفترة سنة واحدة. وفي ساخالين يعتبر عدم تسديد الديون جريمة لا تغتفر. ويعاقب المدينون بعدم تحويلهم إلى فئة الفلاحين. وتصدر الشرطة قراراً بإرسال المستوطن إلى الأشغال الشاقة لمدة سنة واحدة، بسبب كسله وعدم إبداء الهمة في تدبير أموره المنزلية، والتهرب عن قصد من تسديد الديون إلى خزانة الدولة. بينما نادراً ما تجري محاكمة الفرد لارتكابه السرقة التي غالباً ما ترتكب في السجون والقرى.

وشتى أصناف الانحرافات السرية - تشكل الترسانة التي يطرحها السكان، الذين يعيشون بالإكراه، أو على أقل تقدير غالبيتهم، ضد الرؤساء والسجانين الذين لا تحترمهم وتخافهم وتعتبرهم من أعدائها. وبغية التهرب من العمل الشاق أو العقوبة الجسدية، وكسب لقمة الخبز وقبضة شاي وملح وتبغ، يلجأ المنفي إلى الخداع، وكما أظهرت التجربة له فإن الخداع في ظروف الصراع من أجل البقاء هو أفضل وسيلة وأكثرها ضمانة. إن السرقة هنا أمر اعتيادي ويشبه الحرفة. ويستحوذ السجناء على كل ما يقع تحت بصرهم بلا رقابة، بإصرار وجشع أسراب الجراد النهمة، وفي هذا المجال يفضلون الطعام والملابس. إنهم يسرقون في السجن، بعضهم من بعض، ومن المستوطنين، وفي محل العمل، وفي أثناء تفريغ شحنات السفن، ويفعلون ذلك بمهارة فائقة، وبغية القيام بمثل هذه السرقات يجب على اللصوص هنا التدرب. وحدث مرة في دويه أن سرق كبش حي وبرميل من الكرنب المملح. علماً أن صندل الحمولات لم يكن قد ابتعد عن السفينة بعد، لكن لم يتم العثور على المسروقات. وحدث مرة ثانية أن سرق القبطان، حيث تم تفكيك المنورات والبوصلة. وفي مرة ثالثة تسلل اللصوص إلى حجرات سفينة أجنبية وسرقوا أدوات الطعام الفضية. وفي أثناء تفريغ الحمولات تفقد حزم وبراميل بأكملها[1].

يتسلى المنفي خفية كاللصوص. وبغية الحصول على كأس فودكا البالغ سعره في الظروف العادية خمسة كوبيكات فقط، يجب عليه اللجوء إلى مهرب ودفع الثمن، فإذا لم تتوفر لديه النقود يعطيه خبزه أو شيئاً ما من ملابسه. والتسلية الروحية الوحيدة تتمثل بلعب القمار - ربما ليلاً فقط تحت ضوء بقايا الشموع أو في الغابة. وتتحول كل تسلية سرية بمرو الزمن وفي غالب الأحيان شيئاً فشيئاً إلى ولع، حيث إن الرغبة الشديدة في التقليد لدى

1- يرمي السجناء أكياس الدقيق في الماء ثم يستخرجونها من قاع البحر ليلاً في أغلب الظن. وقال لي مساعد قبطان إحدى السفن: «حالما أبعد نظري تتم سرقة حمولة كاملة. فمثلاً حينما يتم تفريغ براميل السمك المملح، يسعى كل واحد منهم إلى ملء جيوبه وقميصه وسراويله بالسمك.. إنهم يعاقبون بسبب ذلك! فإذا أمسك أحدهم ذيل سمكة يتلقى صفعة، وصفعة أخرى...

المنفيين، تجعل أحد السجناء ينقل العدوى إلى الآخر، وفي نهاية المطاف تتحول صغائر الأمور مثل تهريب الفودكا أو لعب القمار، إلى أفعال شغب وتمرد لا نظير لها. وكما ذكرت سابقاً فإن المنفيين الذين يمارسون تجارة الكحول والفودكا سراً يكسبون مبالغ طائلة. ومعنى ذلك أنه إلى جانب المنفي الذي يمتلك 30–50 ألفاً أفراد يخسرون باستمرار طعامهم وملابسهم. إن لعب القمار، بصفته مرضاً وبائياً، قد تفشى في جميع السجون. وأصبحت السجون بمنزلة بيوت قمار كبيرة، أما القرى والمخافر فهي فروع لها. وقد انتشر على نطاق واسع جداً، ويقال إن منظمي القمار، الذين يعثر لديهم في أثناء التحريات على مئات آلاف الروبلات، يقيمون علاقات عمل دائبة مع السجون في سيبيريا، ومنها السجن في إركوتسك، حيث يجري حسب تعبير السجناء لعب قمار «حقيقي». وتوجد في ألكسندروفسك عدة بيوت قمار، وحدثت في أحدها الواقع في شارع كيربيتشنايا الثاني فضيحة مميزة لمثل هذه البيوت السرية: حيث انتحر سجان خسر في اللعب. إن لعبة «شتوس» بورق الكوتشينة تولد البلادة في الذهن، مثل المخدر، ولا يحس السجين الذي يخسر مؤونته وملابسه بالجوع والبرد، وحينما يجلد لا يشعر بالألم، ولغرابة الأمر، فإنه خلال العمل مثل تفريغ حمولة الفحم من صندل يدق بسطحه السفينة وترتطم بها الأمواج ويصيب الأفراد الشحوب بسبب مرض دوار البحر، يجري في الصندل لعب القمار ويختلط الحديث حول العمل بالحديث المتعلق بالقمار: «اقلع! اثنان من الجانب! حاضر!».

يساعد وضع المرأة غير الحرة وفقرها ومذلتها على تنامي الدعارة. وعندما كنت في ألكسندروفسك سألت هل هناك مومسات أجابوني: «إن عددهن كبير لا يعد ولا يحصى!»[1]. ونظراً للإقبال الشديد لا تقف حائلًا دون ممارسة الدعارة لا الشيخوخة ولا القبح ولا حتى السفلس من الدرجة الثالثة. كما لا يقف حائلاً دون ذلك كون المومس ما زالت صبية. وقد التقيت في الشارع في ألكسندروفسك صبية في سن 16 عاماً مارست الدعارة حسب ما جاء في الأحاديث منذ أن كان عمرها 9 أعوام. ولهذه الصبية أم لكن

1- زودتني مديرية الشرطة بقائمة تضم أسماء 30 مومساً فقط يخضعن للفحص الطبي أسبوعياً.

الوضع العائلي في ساخالينسك لا ينقذ البنات من السقوط دائماً. ويقال إن أحد الغجر يبيع بناته ويمارس التجارة بنفسه. وفي بلدة ألكسندروفسكايا امرأة من الحرائر تدير «ماخوراً» تخدم فيه بناتها فقط. وعموماً فإن الفسق يكتسب في ألكسندروفسك طابعاً شاملاً على نطاق المدينة. وهناك حتى «حمّامات عائلية» يديرها يهودي، وتذكر أسماء أشخاص من القوادين.

كانت نسبة المجرمين أصحاب السوابق، الذين أدانتهم المحكمة المحلية مجدداً، في 1 يناير 1890، حسب معطيات الدوائر الرسمية، 8% من مجموع السجناء. وكان بين أصحاب السوابق أفراد أدينوا للمرة الثالثة والرابعة والخامسة وحتى السادسة، كما وجد 175 سجيناً من أصحاب السوابق الذين بلغت محكومياتهم بالأشغال الشاقة أجمالاً 20–50 عاماً، أي أن نسبتهم تعادل 3% من العدد الإجمالي للسجناء. لكنهم جميعاً من أصحاب السوابق المزيفين حيث أدينوا في حوادث الهرب بصورة رئيسية. كما أن هذه الأرقام فيما يخص الهاربين غير صحيحة، حيث لا يقدم العائدون بعد الهرب إلى المحكمة دائماً، وفي غالب الأحيان يتقرر مصيرهم وفق الأنظمة المحلية. ولا يعرف بعد مقدار ميل السكان المنفيين المحليين إلى الجريمة، أو بتعبير آخر الميل إلى السوابق. حقاً تجري هنا المحاكمات لارتكاب جرائم، لكن يوقف النظر في كثير منها بسبب عدم العثور على المذنبين، ويعود الكثيرون إلى استكمال النظر في القضية أو استيضاح الحكم أو إيقاف النظر في الدعوى بسبب عدم الحصول على أجوبة عن مختلف الاستفسارات من الدوائر المحلية في سيبيريا. وفي نهاية المطاف، وبعد مماطلات روتينية طويلة، تودع القضية في الأرشيف بسبب وفاة المتهم أو عدم إعادته من الهرب، والشيء الرئيسي أنه من الصعب الاعتماد على معطيات التحقيق الذي يقوم به الشباب الذين لم يتلقوا التعليم الحقوقي في أي مكان، أما محكمة دائرة خاباروفسك فهي تحاكم المتهمين من ساخالين بصورة غيابية واعتماداً على الأوراق فقط.

تمت خلال عام 1889 محاكمة وإجراء التحقيق مع 243 سجيناً أي مع واحد من كل 25 سجيناً. وكان عدد المستوطنين الذين جرى التحقيق معهم ومحاكمتهم 69، أي مع واحد من كل 55، بينما بلغ عدد الفلاحين الذين

قدموا إلى المحاكم 4 أي واحداً من كل 115. ويتبين من هذه النسب أنه بعد تخفيف مصائر السجين وتحويله إلى وضع أكثر حرية تقلّصت فرصة مثوله أمام المحكمة بمقدار الضعفين. إن جميع هذه الأرقام تشير إلى أنه وجد تحت المحاكمة والتحقيق، وليس لارتكاب الجريمة خلال عام 1889، حيث تضم إلى ملفات هذا العام أيضاً ملفات قضايا بدأت منذ أعوام عديدة سابقة ولم تختتم بعد. ويمكن أن تعطي هذه الأرقام القارئ صورة عن كيف يرزح عدد كبير من الناس في ساخالين تحت وطأة المحاكمة والتحقيق سنوياً، لأن النظر في القضايا يستمر خلال أعوام طويلة، ويمكن أن يتصور القارئ مدى التأثير المهلك لهذا النظام على الوضع الاقتصادي للسكان وعلى نفسياتهم.

يكلف بإجراء التحقيق عادة مساعد مدير السجن أو سكرتير مديرية الشرطة. وحسب أقوال حاكم الجزيرة «تبدأ إجراءات التحقيق بلا توفر مسوغات كافية، وتجري ببطء وبقلة كفاءة، ويحتجز السجناء بلا أية أسباب». ويحبس المشتبه به أو المتهم ويزج به في السجن الانفرادي. وعندما قتل أحد المستوطنين في جولي ميس اشتبه بأربعة أشخاص ووضعوا في الحبس، وزج بهم في زنزانات انفرادية مظلمة وباردة. وبعد عدة أيام تم الإفراج عن ثلاثة منهم وأبقوا على واحد فقط، وقيدوه بالسلاسل، وصدر الأمر بأن يعطى وجبة الطعام الساخنة فقط مرة في كل يومين وفي اليوم الثالث، ومن ثم صدر الأمر، بسبب شكوى من السجان، بمعاقبته بـ 100 جلدة، وأبقوه في الزنزانة شبه جائع ويعاني من الخوف، حتى يعترف. وفي هذه الفترة احتجزت في السجن أيضاً امرأة من الأحرار هي جارانينا التي اشتبه بقتلها زوجها. علماً أنها أيضاً كانت ترزح في زنزانة انفرادية مظلمة وتحصل على وجبة الطعام الساخنة مرة كل يومين أي في اليوم الثالث. وعندما استجوبها أحد الموظفين بحضوري قالت إنها مريضة منذ وقت بعيد، وإنهم لسبب ما لا يريدون أن يفحصها الطبيب. فأجابها كالتالي بالضبط: أنا أبلغت السيد مدير السجن فقال: دعها تنفق!

إن عدم القدرة على تمييز التوقيف في سجن الموقف عن الحبس في السجن العادي (ناهيك عن الحبس في الزنزانة الانفرادية في سجن الأشغال الشاقة!)، وعدم القدرة على تمييز الأحرار من المحكومين بالأشغال الشاقة،

قد أثارت دهشتي لاسيما أن رئيس الدائرة هناك قد أنهى دورة دراسية في كلية الحقوق، أما مدير السجن فقد عمل في وقت ما في شرطة بطرسبورج.

في المرة الأخرى زرت في وقت مبكر من الصباح السجن الانفرادي برفقة رئيس الدائرة. وعندما أخرج من الزنزانات الانفرادية أربعة سجناء منفيين وجهت لهم تهم القتل، كانوا يرتجفون من البرد. وكانت جارانينا بجوارب، ولكن بلا حذاءين، كانت ترتجف أيضاً، وتخزر عينيها من الضوء. أمر رئيس الدائرة بنقلها إلى حجرة مضيئة. ولاحظت هذه المرة وجود جورجي بين الآخرين، وكان يجوب كالشبح عند مدخل الزنازين. إنه باق في الزنزانة المظلمة طوال خمسة أشهر، بتهمة دس السم، وينتظر نتائج التحقيق الذي لم يبدأ حتى الآن.

لا يقطن المدعي العام في ساخالين، ولا يوجد من يتابع سير التحقيق. ويتوقف اتجاه وسرعة التحقيق كلياً على مختلف المصادفات التي لا علاقة لها أبداً بالقضية نفسها. وقد قرأت في إحدى المؤسسات أن الهدف من قتل المدعوة ياكوفليفا «هو السرقة مع اغتصابها، كما يدل على ذلك الفراش المبعثر في السرير، والخدوشات الطرية وبصمات مسامير كعب الحذاء في الحاجز الخلفي للسرير». إن هذه الاعتبارات تقرر مسبقاً القضية كلها، ولا توجد ضرورة عندئذ لتشريح الجثة. في عام 1888 قتل سجين هارب الجندي خروماتيخ، ولم يتم تشريح الجثة إلا في عام 1889، تلبية لطلب المدعي العام، حين أغلق ملف التحقيق وسلم إلى المحكمة[1].

1- في الفترة السابقة كان يحدث أن يفقد ملف القضية بصورة غامضة أو يغلق «السبب غير معروف». وحدثت حتى سرقة ملف الدعوى كما جاء في قرار رئيس المحكمة الميدانية ج. فلاسوف بشأن قضية السجين المحكوم بالسجن المؤبد إسحاق شابيرا. فقد كان هذا اليهودي يقطن في دويه ويبيع الفودكا هناك. وفي عام 1870 وجهت إليه تهمة إفساد صبية في الخامسة من العمر. لكن القضية أغلقت على الرغم من ضبط المتهم متلبساً بالجرم ووجود القرائن. وتولى التحقيق في القضية ضابط في وحدة المخفر كان قد رهن لدى شابيرا بندقية الصيد، كما كان مديناً له. وعندما سحب ملف القضية من الضابط تبين عدم وجود الوثائق التي تدين شابيرا فيه. علماً أن الأخير كان يحظى بالاحترام الكبير في دويه. وحدث أن سأل قائد المخفر أين شابيرا فقيل له: «لقد ذهب لشرب الشاي».

تعطي المادة 469 من «النظام» الرئاسة المحلية الحق في أن تقرر بلا إجراء التحقيق الشكلي من قبل الشرطة، وتصدر الحكم بالعقوبة وتنفذه في جرائم وجنح المنفيين التي تفرض القوانين الجنائية العامة عقوبة لا تتجاوز الحرمان من جميع الحقوق والامتيازات في السجن. وعموماً فإن العقوبات في القضايا غير الهامة في ساخالين تقررها دوائر الشرطة. وعلى الرغم من الصلاحيات الواسعة للمحكمة التي تخولها إصدار الأحكام في القضايا غير الهامة، وكذلك الكثير من الأمور، التي تعتبر غير هامة شرطياً فقط، فإن الأهالي هنا لا يعرفون القضاء ويعيشون بلا محكمة. وحيثما يتمتع الموظف بالحق وفقاً للقانون في أن يعاقب الشخص بالجلد أو بزجه في السجن، وحتى إرساله للعمل في المناجم، وبلا محكمة وتحقيق، يكون وجود المحكمة ذا صفة شكلية فقط.

تصدر المحكمة في دائرة بريموريه أحكامها في القضايا الهامة بالاعتماد على الوثائق فقط بلا استجواب المتهمين والشهود. ويوجه قرار هذه المحكمة إلى حاكم الجزيرة من أجل المصادقة عليه. وفي حالة عدم موافقته على الحكم يستخدم صلاحياته في معالجة القضية، علماً أنه يبلغ مجلس الشيوخ الحاكم بأي تغيير في الحكم. وإذا اعتبرت الإدارة أن الجريمة المرتكبة شنيعة للغاية، وأن العقوبة الواردة في «نظام المنفيين» غير كافية، فإنها تطلب توجيه المتهم إلى المحكمة العسكرية الميدانية.

إن العقوبات التي تفرض على السجناء والمستوطنين، لارتكابهم جرائم، تتصف بالصرامة البالغة، وإذا ما كان «نظامنا حول المنفيين» لا يتفق تماماً مع روح الزمن والقوانين، فهذا يلاحظ قبل كل شيء في ذلك الجزء المتعلق بالعقوبات. إن العقوبات التي تمثل إذلالاً للمجرم وتجعله قاسياً صلب القلب، تساعد على غلاظة الأخلاق، وتعتبر منذ وقت بعيد ضارة للسكان الأحرار، قد بقيت على حالها بالنسبة إلى المستوطنين والسجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. كما لو أن المنفيين يتعرضون بقدر أقل إلى القساوة، وغلاظة السلوك ولا يفقدون كلياً الكرامة البشرية. وتنفذ هنا على نطاق واسع عقوبات الجلد بالعصا والسياط وتقييد السجين بالسلاسل إلى عربة الشحن، – وهي عقوبات تجلب العار لشخصية المجرم، وتسبب الألم الجسدي له وتعذبه. وتنفذ عقوبة

الجلد بالسياط أو العصا لقاء ارتكاب أية جريمة سواء أكانت جنائية أو تافهة، وتطبق بصفتها عقوبة إضافية إلى العقوبات الأخرى أو بصورة منفردة، فهي تمثل على حد سواء المحتوى اللازم لكل حكم على المجرم.

ويعتبر الجلد بالعصيّ من العقوبات الأكثر انتشاراً[1]. وكما يرد في «السجل الإداري» فقد نفذ الحكم بالجلد في دائرة ألكسندروفسك خلال عام 1889 بحكم إداري بحق 282 من السجناء والمستوطنين: 265 فرداً بالعقوبة الجسدية أي بالجلد بالعصيّ، و17 فرداً بعقوبات أخرى. أي أن الإدارة تلجأ

1- لقد فقدت أهميتها السابقة شارة «الأس» على الظهر وحلق نصف الرأس، وكانتا سابقاً من علائم التحذير لمنع الهرب أو لسهولة التعرف على السجناء، وتبقى الآن فقط بصفتها عقوبة تجلب العار. وشارة «الأس» وشكل مزقة رباعية الأركان، يصل طولها إلى 9 سنتيمترات في كل ركن ويجب أن تكون حسب «النظام» بلون يختلف عن لون الملابس نفسها، كانت حتى وقت قريب بلون أصفر، ولكن بما أن هذا اللون يميز القوزاق في مناطق آمور وما وراء بحيرة بايكال فقد أمر البارون أن تصنع شارة «الأس» من القماش الصوفي الأسود. وقد فقدت شارات «الأس» أهميتها في ساخالين حيث اعتاد عليها الناس منذ وقت بعيد ولم يعد أحد يلقي بالاً إليها. والشيء نفسه ينطبق على الرؤوس الحليقة. وفي ساخالين نادراً جداً ما يحلقون الرؤوس، وتحلق فقط رؤوس الهاربين والمقيدين بالسلاسل إلى عربات الشحن في المناجم. أما في دائرة كورساكوفسك فلا تحلق الرؤوس البتة. وحسب «نظام المعتقلين تحت الحراسة» يجب أن يكون وزن القيود والسلاسل من خمسة أرطال إلى خمسة أرطال ونصف رطل. ومن بين النساء ربطت بالقيود في اليدين امرأة واحدة فقط هي الملقبة بـ«اليد الذهبية». وتعتبر القيود إلزامية لمن هم تحت الاختبار ويسمح «النظام» بنزع القيود فقط إذا كان ذلك ضرورياً لإنجاز الأعمال. وبما أن القيود تشكل في جميع الأعمال تقريباً عقبة في العمل، فيجري نزعها لدى جميع السجناء تقريباً. علماً أن القيود والسلاسل لا تفرض على جميع المحكومين بالسجن المؤبد ولو أن «النظام» ينص على وضعها في اليدين والساقين. ومهما كانت القيود خفيفة فإنها تعرقل الحركة. كما أن السجناء يعتادون عليها، وإن لم يكونوا جميعهم. وأنا شاهدت بعض السجناء، من غير الشباب، يخفون القيود والسلاسل تحت البرانس. وتوجد لدي صورة فوتوغرافية تبين كيف جرى تقييد حشد من السجناء بالسلاسل في دويه وفويفودا. وكان معظم السجناء يقفون بشكل بحيث لا تظهر السلاسل في الصورة الفوتوغرافية. ويبدو أن هذه العقوبة تشكل عاراً بالنسبة إليهم، إن السلاسل تحقق هدفها، لكن الإحساس بالذل الذي تولده لدى المجرم، هيهات أن تقترن بالخجل بأي شكل من الأشكال.

إلى العصيّ في 94 من مجموع 100 حالة. وفي الواقع لا تدون في السجل الإداري جميع العقوبات الجسدية: فيرد في سجل دائرة تيموفسكي لعام 1889 فقط 57 عقوبة جلد بالعصي للسجناء، وفي دائرة كورساكوفسكي 3. علماً أنه تجري في كلتا الدائرتين يومياً معاقبة عدة أفراد بالجلد بالعصا، وفي دائرة كورساكوفسك تجري معاقبة 10 أفراد. وعادة يعاقب الفرد بـ 30 أو 100 جلدة لقاء أقل هفوة: إذا لم ينفذ السجين الواجب اليومي (مثلاً إذا لم يصنع الإسكافي ثلاثة أزواج من الخفاف)، وبسبب السكر والعربدة، والفظاظة، وشق عصا الطاعة... إذا لم ينفذ الواجب 20-30 عاملاً، فيتم جلدهم جميعاً. قال لي أحد الموظفين:

إن السجناء، وبالأخص المقيدين بالسلاسل، يحبون تقديم شتى الطلبات التافهة والسخيفة. وعندما جرى تعييني هنا وقمت بأول جولة في السجن قدم لي 50 طلباً. وقد استلمتها وأبلغت أصحاب الطلب بأنه سيعاقب مقدمو الطلبات التي يتبين أنها غير جديرة بالاهتمام. وتبين أن هناك طلبين فقط يعتبران مشروعين. أما بقية الطلبات فهي تافهة. وأمرت بجلد 48 شخصاً. وفيما بعد قدم 25 طلباً وبمرور الزمن تقلّص عدد الطلبات شيئاً فشيئاً، والآن لا تقدم لي طلبات. أنا جعلتهم يقلعون عن هذه العادة السيئة.

في الجنوب عثر لدى أحد السجناء بوشاية من سجين آخر على يوميات اعتبرت مراسلات إجرامية فضرب 50 جلدة واحتجز 15 يوماً في زنزانة انفرادية مظلمة وتناول الخبز والماء فقط. وعاقب مدير سجون المستوطنات بموافقة رئيس الدائرة بالجلد جميع أهالي القرى على ضفاف نهر ليوتوجا. وقال حاكم الجزيرة ما يلي: «أبلغني رئيس دائرة كورساكوفسك، بالمناسبة، بحادث خطير يتعلق بتجاوز صلاحيات السلطة، الذي سمح لنفسه (بشأن تسمية الأنهر) بإنزال العقوبة الجسدية الشديدة ببعض المستوطنين وبشكل يتجاوز أحكام القانون. إن هذا الحادث شنيع بحد ذاته، ويبدو لي هذا أكثر شناعة، لدى معرفة الظروف التي أدت إلى تطبيق هذه العقوبات بحق البريء والمذنب، ومن بينهم امرأة حامل، من دون التحقيق في القضية، التي تتلخص في وقوع شجار بسيط وبلا نتائج بين اثنين من المنفيين» (الأمر رقم 258 لعام 1888).

وغالباً ما يعاقب المذنب بـ 30 أو 100 جلدة بالعصي. وهذا لا يتوقف

على الذنب، بل على من أصدر الأمر بمعاقبة المذنب، رئيس الدائرة أم مدير السجن: الأول يتمتع بالحق في إعطاء حتى 100 جلدة، والثاني حتى 30. وهناك مدير سجن يأمر دائماً بـ 30، ولكن عندما أتيحت له الفرصة لتولي منصب رئيس الدائرة مؤقتاً زاد حصته في العقوبة فوراً إلى 100. كما لو أن المائة جلدة يمليها منصبه الجديد في السلطة. وقد مارس هذه السلطة حتى رجوع رئيس الدائرة. وبعد ذلك عاد مجدداً وفوراً إلى فرض عقوبة الـ 30 جلدة. إن عقوبة الجلد بالعصي قد أصبحت مبتذلة للغاية من كثرة ممارستها في ساخالين، لذلك فهي لا تولد أي نفور أو خوف لدى الكثيرين، ويقال إنه بين السجناء عدد غير قليل ممن لا يشعرون بالألم لدى تنفيذ هذه العقوبة.

أما الجلد بالسياط فيمارس بدرجة أقل، وينفذ فقط بقرار من المحكمة. ويتبين من تقرير رئيس القسم الطبي أن الأطباء حضروا لدى تنفيذ عقوبة الجلد بالسياط بـ 67 شخصاً «من أجل التحقق من تحمل السجين للعقوبة الجسدية قبل تنفيذ قرار المحكمة». وتعتبر هذه العقوبة من بين جميع العقوبات المنفذة في ساخالين من أكثرها شناعة بسبب قسوتها ووضعها، ورجال العدل في القسم الأوروبي من روسيا، الذين يصدرون الأحكام على المتشردين وأصحاب السوابق بالجلد بالسياط، كانوا سيتخلون عن فرض هذه العقوبة لو أنها نفذت بحضورهم. لكن تحميهم من حضور المشهد المخزي والمهين للمشاعر المادة 478 من «النظام» التي تنص على تنفيذ أحكام المحكام الروسية والسيبيرية في مكان النفي.

أنا شاهدت في دويه كيف تنفذ عقوبة الجلد. فقد هرب المتشرد بروخوروف، وهو أيضاً ميلنيكوف، البالغ من العمر 35–40 عاماً، من سجن فويفودا، وصنع طوافة صغيرة أبحر بها إلى القارة. لكن لوحظ على البر في الوقت المناسب، وتوجه إلى ملاحقته قارب بخاري. وبدأ التحقيق في قضية الهرب، وطال أمدها، وتطلعوا في كشف الأحكام الصادرة، فتبين فجأة أن بروخوروف أو ميلنيكوف هذا أصدرت محكمة إقليم خاباروفسك حكمها عليه لقتله قوزاقياً واثنين من أحفاده بـ 90 جلدة وبربطه بالسلاسل إلى عربة الشحن، لكن الحكم لم ينفذ في حينه. لو لم يفكر بروخوروف في الهرب آنذاك، فربما لم يكن سيكشف الخطأ، ولما وجب جلده بالسياط وتقييده

بالعربة. والآن لم يعد هناك مهرب من تنفيذ العقوبة. وفي اليوم المقرر، في صباح 13 أغسطس، توجه مدير السجن والطبيب وأنا إلى مكتب الإدارة بلا عجلة. وكان بروخوروف الذي صدر الأمر بجلبه إلى هناك في العشية، جالساً عند مدخل المبنى مع الحراس، ولم يعرف بعد ما ينتظره. وعندما رآنا نهض، وربما أنه أدرك حقيقة الأمر، فقد أصابه الشحوب الشديد.

أمر مدير السجن: - هيا إلى مكتب الإدارة.

دخلنا مكتب الإدارة. وأُقتيد بروخوروف إلى هناك. أمره الطبيب الألماني الشاب بأن يخلع ملابسه، وأصغى إلى دقات قلبه للتحقق كم عدد الجلدات التي يمكن أن يتحملها هذا السجين.

قال الطبيب مشفقاً بلهجة ألمانية واضحة، وهو يغمس السلاية في المحبرة: - أه، يامسكين! لابد أنك تنوء بثقل القيود! . اطلب من السيد مدير السجن أن تنزع عنك.

صمت بروخوروف، وأبيضّت شفتاه وارتجفتا.

تابع الطبيب قوله: - عبثاً فعلت ذلك. كل هذا تم عبثاً. في روسيا نجد مثل هؤلاء الأشخاص المشبوهين! آه، ياللمسكين، ياللمسكين! .

كان القرار جاهزاً، وضم إلى ملف التحقيق في قضية الهرب. وأعقبت ذلك فترة صمت. كان الكاتب يدون شيئاً ما، وكذلك كتب الطبيب ومدير السجن شيئاً ما... وبدا أن بروخوروف لم يعرف بعد سبب اقتياده إلى هنا: هل في قضية الهرب فقط، أم بسبب القضية القديمة أو القضيتين معاً؟ كان المجهول يضنيه.

في نهاية الأمر سأل مدير السجن: - ماذا رأيت في الحلم الليلة؟

- لقد نسيت ياصاحب السعادة.

ثم قال مدير السجن وهو ينظر إلى كشف الأحكام: - إذن اسمع. في تاريخ كذا وعام كذا أصدرت محكمة إقليم خاباروفسك حكمها عليك في قضية قتل القوزاقي بتسعين جلدة.. ويجب أن تتذوقها اليوم.

ولطم مدير السجن جبين السجين وقال بلهجة وعظ:

- ولم هذا كله؟ لأنك تريد أن تصبح أكثر ذكاء من الجميع، ولديك

رأس متوقد الذهن. إنهم يهربون ويعتقدون أن الأمور ستكون أفضل، لكن الذي يحدث أنها تكون أسوأ.

توجهنا جميعاً إلى «مبنى السجانين» - وهو مبنى رمادي قديم من طراز العنبر. ورجا المضمد العسكري الواقف عند المدخل ملتمساً، كما لو أنه يستجدي:

- ياصاحب السعادة اسمحوا لي بمشاهدة تنفيذ العقوبة!

توجد في وسط إدارة السجن فلقة، وهي عبارة عن مصطبة مائلة فيها فتحات لربط اليدين والساقين. وقف الجلاد تولستيخ، وهو رجل طويل القامة، مفتول العضلات، يتصف بهيئة لاعب أكروبات قوي، بلا سترة، وبصديرية مفتوحة الأزرار، ولوح برأسه إلى بروخوروف. فاستلقى هذا على المصطبة صامتاً. سحب تولستيخ بلا عجلة، وصامتاً أيضاً، سرواله حتى الركبتين وبدأ بشد اليدين والقدمين إلى المصطبة. تطلع مدير السجن إلى النافذة بلا اكتراث، بينما مشى الطبيب جيئة وذهاباً.

وسأل: - ربما نعطيك قدح ماء؟

- بحق الرب، ياصاحب السعادة.

وأخيراً ربط بروخوروف. وأمسك الجلاد بالسوط ذي الذيول الثلاثة وراح يعدله بلا عجلة.

- تماسك! - قال ذلك بصوت خافت، ولم يلوّح بالسوط، بل كان يقيسه فقط، ووجه الضربة الأولى.

قال مدير السجن: - وا- حد!

في اللحظة الأولى لزم بروخوروف الصمت وحتى لم يتغير تعبير وجهه، لكن جسده ارتعش من الألم ولم يصدُر صراخ بل زعيق.

صاح مدير السجن: اثنان!

كان الجلاد يقف جانباً ويوجه الضربات بشكل يجعل السوط ينهال على الجسد عرضاً. ومن ثم ينتقل ببطء بعد كل خضعة إلى الجانب الآخر ويأخذ قسطاً من الراحة نصف دقيقة. التصق شعر بروخوروف بجبينه، وانتفخت رقبته. وبعد مضي 5-10 دقائق تغطى جسده بالندوب، بعد اللسعات الأولى، واصطبغ بالحمرة والزرقة، وصار جلده يتشقق بعد كل خضعة.

- ياصاحب السعادة! - تردد وسط الزعيق والبكاء - ياصاحب السعادة! ارحمني، ياصاحب السعادة!

ومن ثم بعد 20-30 خضعة كان بروخوروف يتفجع ويندب كالسكران أو كما لو كان في هذيان:

- أنا رجل تعيس، أنا رجل تعيس.. لأي سبب تعاقبونني؟

ثم تقلصت الرقبة بشكل غريب، وترددت أصوات التقيؤ.. وبعد ذلك لم يصدر عن بروخوروف أي صوت، بل سمع النواح والشخير فقط. وبدا لي أن الجلد يتواصل منذ زمن بعيد، بينما كنت أسمع صوت مدير السجن فقط: «اثنان وأربعون! ثلاثة وأربعون!». والوقت بعيد حتى بلوغ رقم التسعين. خرجت من المبنى. الهدوء يخيم في كل مكان في الشارع، وتراءى لي أن خضعات السوط الصادرة من مبنى إدارة السجن تتردد في كل مكان في دويه. ومر بجانبي سجين برداء فضفاض، ورمق بسرعة خاطفة مبنى إدارة السجن، وبان الرعب على سحنة وجهه وحتى في مشيته. دخلت مبنى إدارة السجن مرة أخرى، ثم خرجت مرة أخرى، ومدير السجن يواصل التعداد.

أخيراً بلغ العدد رقم التسعين. وتم فك يدي وقدمي بروخوروف وساعدوه على النهوض. وكان موضع لسعات السوط مصطبغاً بلون أحمر وأزرق والدم ينزف منه. الأسنان تطقطق والوجه شاحب ومبلل، والعينان ذاهلتان. وعندما أعطوه قطرة ماء كان يعض القدح بارتجاف... غسلوا وجهه واقتادوه إلى مخفر الشرطة.

وشرحوا لي لدى عودتنا إلى البيت حال السجين بقولهم: - هذه عقوبة القتل، وسيعاقب لقاء الهرب على حدة.

قال الممرض العسكري بابتهاج، وهو راض جداً لكونه قد شبع من رؤية ذلك المشهد الفظيع: - أنا أحب مشاهدة كيف يعاقبونهم! أنا أحب ذلك! إنهم أنذال وسفلة.. يجب شنقهم!

إن العقوبات الجسدية تبذر القسوة والفظاظة ليس في قلوب السجناء فقط، بل في قلوب الذين ينفذون ويحضرون في أثناء تنفيذ العقوبات أيضاً. ولا يستثنى من ذلك حتى الأفراد المتعلمون. وعلى أقل تقدير أنا لم

ألاحظ أن الموظفين من ذوي التعليم الجامعي ينظرون إلى العقوبات بشكل مختلف عن نظرة الممرض العسكري أو من أنهى الدورات في المدارس العسكرية أو المدارس الدينية. فبعضهم يعتاد جداً على السياط والعصي، ويصبحون غلاظ القلوب إلى درجة تجعلهم في نهاية المطاف يتلذذون بمشاهدة الجلد. ويقال عن أحد مديري السجون إنه كان يصفر حينما كان يشاهد كيف يجري الجلد بحضوره. أما الآخر، العجوز فكان يقول للسجين بتشف: «لماذا تصرخ، الله معك؟ لا بأس، لا بأس، تحمل! اضربه، اضربه! اجعله يرقص!». بينما أمر ثالث بربط عنق السجين إلى المصطبة، بغية أن يشخر، ويلسعه بـ 5-10 ضربات ثم يخرج إلى مكان ما لمدة ساعة أو أكثر لكي يعود ويواصل الضربات الباقية[1].

1- روى يادرنتسيف أن المدعو ديميدوف عمد من أجل كشف جميع تفاصيل الجريمة إلى تعذيب زوجة القاتل بواسطة الجلاد، علماً أنها من النساء الحرائر، وجاءت إلى سيبيريا للانضمام إلى زوجها طوعاً، ولهذا لا تجوز معاقبتها جسدياً، ثم عذبت ابنة القاتل البالغة من العمر 11 عاماً، وبقيت الصبية معلقة في الهواء، بينما كان الجلاد يضربها بالعصا من الرأس وحتى القدمين. وانهال على الصبية بالضرب حتى بالسوط عدة مرات وعندما طلبت جرعة من الماء، أعطوها سمكة أمول مملحة. كان من الممكن أن يتواصل الضرب لو لم يرفض الجلاد نفسه ذلك. وقال يادرنتسيف «إن قسوة ديميدوف هي نتيجة طبيعية للتربية التي تلقاها خلال وجوده فترة طويلة من عمله في إدارة شؤون السجناء والمنفيين». كما روى فلاسوف في تقريره حول الملازم ثان يفرونوف أن ضعفه «قاد من جانب إلى أن الثكنة التي سكن فيها المحكومون بالأشغال الشاقة قد تحولت إلى حانة للعب الورق ووكر لمختلف الجرائم، ومن جانب آخر أدى اندفاعه في القسوة إلى غلاظة سلوك السجناء. وعمد أحد السجناء الذي أراد التخلص من عقوبة الجلد إلى قتل مدير السجن قبيل تنفيذ العقوبة».

الجنرال كونونوفتش الحاكم العام الحالي للجزيرة كان دوماً يعارض العقوبات الجسدية. وحينما تقدم له أحكام دوائر الشرطة ومحكمة خاباروفسك لغرض المصادقة عليها كان يكتب دوماً: «أصادق باستثناء العقوبات الجسدية». ومما يؤسف له أنه نادراً جداً ما يزور السجون، لضيق الوقت، ولا يعرف أنه غالباً ما يتم في الجزيرة، وعلى بعد 200-300 خطوة من شقته، معاقبة السجناء بالجلد بواسطة السياط، ويتم الحكم على عدد من المعاقبين فقط في الدوائر الرسمية. وحدث مرة حين كنت في ضيافته أن قال لي بحضور بعض الموظفين ومهندس مناجم زائر: عندنا في ساخالين، نادراً جداً ما يلجأون إلى العقوبات الجسدية، ولا يحدث هذا أبداً تقريباً».

تضم المحكمة العسكرية الميدانية ضباطاً محليين يعينهم حاكم الجزيرة، ويرسل ملف القضية مع قرار المحكمة إلى الحاكم العام لغرض المصادقة عليه. وفي الفترة الماضية كان السجناء يرزحون في السجن الانفرادي سنتين أو ثلاث سنوات بانتظار هذه المصادقة. أما الآن فهي ترسل برقياً. وعادة تصدر المحكمة العسكرية الميدانية حكمها بالإعدام شنقاً حتى الموت. وأحياناً يخفف الحاكم العام هذا الحكم باستبداله بـ100 جلدة، والتقييد إلى عربة الشحن، والحبس المؤبد. أما إذا كان الحكم الصادر بسبب جريمة القتل، فإنه نادراً جداً ما يخفف الحكم. وقال لي الحاكم العام: «أنا أشنق القتلة».

وعشية الإعدام، في الليل أو المساء، يزور المحكوم عليه بالشنق الكاهن الذي يقدم له النصح والموعظة ويتبادل معه الأحاديث. وروى لي أحد الكهنة قائلاً: «في بداية عملي، حينما كنت في سن 25 عاماً قدمت النصح في سجن فويفودا إلى اثنين من المحكوم عليهم بالإعدام شنقاً لارتكابهما جريمة قتل أحد المستوطنين بغية الاستحواذ على روبل وأربعين كوبيكاً. فدخلت إليهما في زنزانة السجن الانفرادي، وجبنت لكوني لم أعتد بعد على ذلك، وأمرت بأن لا يغلق الباب ورائي وأن يبقى السجان معي.

- لا تخف يا أبانا، فنحن لن نقتلك. تفضل اجلس.

فسألت: أين أجلس؟ جلست على برميل صغير فيه ماء، ثم استجمعت قوتي، وجلست على التخت بين المجرمين. فسألتهما من أي محافظة هما، وغير ذلك من الأمور، وبدأت الوعظ. وفي أثناء الوعظ رأيت في النافذة أعمدة المشنقة ومتعلقاتها.

سأل السجينان: ما هذا؟

- يبدو أنه يجري بناء شيء ما من أجل مدير السجن.

- كلا يا أبانا إنها لشنقنا. قل يا أبانا هل يمكن أن نشرب الفودكا؟

- لا أعلم. سأذهب وأسأل.

ذهبت إلى العقيد «ل» وقلت له إن المحكومين بالإعدام يريدان شرب الخمر. أعطاني العقيد قنينة، وبغية تجنب الأحاديث، طلبت إبعاد السجان.

أخذت كأساً من الحارس المناوب وتوجهت إلى الزنزانة حيث جلس السجينان. وبدأت أصب في القدح. فقالا:

– لا يا أبانا، اشرب أنت أولاً، وإلا فلن نشرب.

اضطُررت أن أتجرع الكأس. لكن من دون مازة. قالا:

– حسناً، إن الأفكار تصفو بسبب الفودكا.

بعد ذلك واصلت الوعظ. جلست معهما حوالي الساعة أو أكثر. وفجأة صدر الأمر:

– هيا خذوهما إلى الخارج!

بعد ذلك، وحين جرى شنقهما، أصبحت خلال فترة طويلة أخاف دخول حجرة مظلمة، بسبب عدم اعتيادي على ذلك المشهد.

إن الخوف من الموت وأجواء الإعدام ترهق نفوس المحكوم عليهم بالغم الشديد. ولم يحدث في ساخالين قط أن سار المجرم إلى الإعدام بروح نشيطة. عندما أُقتيد المجرم تشيرنوشي قاتل صاحب الحانوت نيكيتين قبيل الإعدام، من ألكسندروفسك إلى دويه، أصابته نوبات في المثانة، وصار يتوقف باستمرار في الطريق، أما رفيقه في الجريمة كينجالوف فراح يهذي بلا توقف. وقبيل الإعدام كان يتم ارتداء الكفن، وتتلى صلوات المحتضر. عندما جرى إعدام قاتلي نيكيتين لم يحتمل أحدهما صلوات المحتضر وأغمي عليه. لكن أصغرهم سناً بازوخين بعد أن ألبس الكفن وتُليت صلاة المحتضر، أبلغ بأنه صدر العفو عنه، واستبدل حكم الإعدام بالسجن المؤبد. ما أكثر ما كابد هذا الرجل من عذاب وآلام خلال تلك اللحظات القصيرة! فقد دار الحديث طوال الليل مع الكهنة، وطقوس الاعتراف، وفي الصباح قدم له نصف قدح فودكا، وصدر الأمر «اقتادوهم»، ثم الكفن، وتلاوة صلاة المحتضر، وبعد ذلك فرحة إعلان العفو، وعلى الفور وعقب إعدام رفاقه جرت معاقبته بمائة جلدة، وبعد الخضعة الخامسة بالسوط حدث الإغماء، وفي نهاية المطاف تم تقييده إلى عربة الشحن.

في دائرة كورساكوفسك صدر الحكم بإعدام 11 شخصاً لقتلهم أحد أفراد شعب آينو. وطوال الليل عشية الإعدام لم يخلد الموظفون والضباط إلى النوم، وراح يزور بعضهم بعضاً، ويشربون الشاي. لقد ساد لديهم شعور

الاهتياج، وغمرتهم سورة انفعال، وأخذ كل واحد منهم يذرع المكان ذاهباً آيباً. وأصيب اثنان من المحكوم عليهم بالتسمم بنبات البوريتس - وهذا أمر مزعج جداً بالنسبة إلى القيادة العسكرية التي يكون المحكوم عليهم بالإعدام في عهدتهم. وسمع رئيس الدائرة الجلبة فأبلغوه أن رجلين أصيبا بالتسمم، ومع هذا فإذا تحشد الجميع قبيل تنفيذ حكم الإعدام بالقرب من المشانق، كان لابد له أن يطرح السؤال على رئيس فريق التنفيذ:

- لقد صدر الحكم بإعدام أحد عشر شخصاً. بينما أرى هنا تسعة فقط. أين الاثنان الباقيان؟

أما رئيس الفريق فبدلاً من الإجابة بلهجة رسمية غمغم بكلمات مشوشة:

- إذن اشنقوني أنا نفسي. اشنقوني...

حدث ذلك في أكتوبر في وقت مبكر من الصباح الرطب والبارد والمعتم. وقد غمر وجوه المحكومين الشحوب والصفرة بسبب الفزع، بينما كانت خصلات شعرهم تهتز فوق رؤوسهم. تلا موظف قرار الحكم، وكان يرتجف ويتلعثم من الاضطراب، ولكونه لا يرى جيداً. وقدم الكاهن ذو الحبرية السوداء الصليب إلى الجميع لتقبيله، وهمس مخاطباً رئيس الدائرة:

- بحق الرب، اسمح لي بالذهاب أنا لا أستطيع...

جرت طقوس طويلة: فوجب أن يرتدي كل واحد الكفن، ثم يتم اقتياده إلى منصة الإعدام. وعندما انتهى إعدام تسعة أشخاص تولدت في الهواء «ضفيرة كاملة» منهم حسب تعبير رئيس الدائرة، الذي روى لي الحادثة المتعلقة بالإعدام هذه. وعندما أُنزل المشنوقون وجد الأطباء أنّ أحدهم ما زال على قيد الحياة. إن هذه المصادفة لها مغزاها الخاص: فالسجن الذي تعرف فيه جميع الجرائم التي يرتكبها أفراده، وبضمنهم الجلاد ومساعدوه، يعرفون أن هذا الفرد الباقي على قيد الحياة ليس مذنباً في الجريمة التي شنقوه بسببها.

اختتم رئيس الدائرة حديثه بالقول: - لقد شنق في مرة أخرى. وبعد ذلك فارقني السهاد طوال شهر كامل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-22-

السجناء الهاربون في ساخالين. - أسباب الهرب. - تشكيلة الهاربين من حيث الأصل والانتماء الطبقي وهلمجرا.

اعتبرت لجنة عام 1868 الشهيرة أن إحدى الأفضليات الرئيسية لساخالين هي وضعها كجزيرة. وبدا أنه كان من اليسير أن يقام في الجزيرة التي يفصلها عن القارة البحر الهائج سجن بحري عائم كبير حيث «الماء يحيط بها، وفي وسطها جائحة» ويمكن استحداث منفى على الطريقة الرومانية، لا يمكن أن يحلم أحد في الهرب منه. في الواقع تبين منذ بداية العمل في ساخالين أن الجزيرة هي insula quasi [1]. أما المضيق الذي يفصل الجزيرة عن بر القارة فيتجمد كلياً في أشهر الشتاء، ولهذا فإن الماء الذي يقوم في الصيف بدور جدار السجن، يغدو في الشتاء ذا سطح مستو وأملس، يشبه الأرض العراء وبوسع كل راغب أن يعبرها مشياً على الأقدام أو في زلاقة تجرها الكلاب. كما أن المضيق غير مضمون في الصيف: ففي أضيق مكان منه بين رأسي باجوبي ولازيريف لا يتجاوز عرضه ست أو سبع فرستات، وحينما يكون الجو صافياً وصاحياً يمكن بيسر عبور 100 فرستا في قارب صغير يستخدمه الأهالي المحليون. وحتى في المواضع التي يكون فيها المضيق عريضاً، يرى أبناء ساخالين أرض القارة بوضوح تام. ويجذب المنفي ويغريه خط الأرض المضبب ذو قمم الجبال الجميلة يوماً بعد يوم، واعداً إياه بكسب الحرية والوطن. ولم تتنبأ اللجنة أو لم تضع في بالها، إلى جانب الظروف الطبيعية، أن الهرب يمكن ألا يتم إلى القارة بل إلى داخل

1- الجزيرة الوهمية (باللاتينية).

الجزيرة، الأمر الذي يولد لها متاعب لا تقل عن الهرب إلى القارة، ولهذا فإن وضع ساخالين كجزيرة لم يبرر الآمال التي عقدتها اللجنة عليها.

إلا أنها تبقى مع ذلك ضمن الأفضليات. إن الهرب من ساخالين ليس يسيراً. ويعلن المتشردون، الذين يمكن التعويل عليهم من هذه الناحية، وبصراحة بصفتهم خبراء، أن الهرب من ساخالين أكثر صعوبة من الهرب، مثلاً، من أماكن النفي في كار أو نيرتشين. وفي ظروف الفساد وشتى مظاهر الضعف التي حدثت في عهد الإدارة القديمة، بقيت سجون ساخالين مع هذا مكتظة بالنزلاء، ولا يهرب السجناء منها في أحيان كثيرة، كما ربما رغب السجانون، الذين يعتبر هرب السجناء أحد أكبر موارد الكسب لهم. ويعترف الموظفون حالياً بأنه لو لا الخوف من العقوبات الجسدية، ونأي أماكن الأشغال الشاقة، مع ضعف الرقابة، لما بقي في الجزيرة إلا من يرغب في العيش فيها.

ربما أن ما يخيف الأفراد ويمنعهم من الهرب، ومن بين العقبات الرئيسية التي تحول دون هربهم، ليس البحر. إن غابات التايغا الكثيفة في ساخالين، والجبال، والرطوبة الدائمة، والضباب، وعدم وجود بشر، والدببة، والجوع، والبعوض، وفي الشتاء الزمهرير الشديد والعواصف الثلجية – تمثل الأصدقاء الحقيقيين للسجانين. وفي غابات ساخالين حيث يتعين في كل خطوة اجتياز أكوام من الأشجار والأغصان الساقطة، والتعثر بأحراش الباغولنيك والبامبوك، والغوص حتى الحزام في مياه المستنقعات والجداول، وطرد البعوض، لا يستطيع حتى الأفراد الأحرار والشبعانين قطع مسافة تتجاوز 8 فرستات في اليوم، أما الفرد الذي أضناه السجن، ويتناول في الغابة الأطعمة المتعفنة والمملحة، ولا يعرف أين الشمال وأين الجنوب، فلا يقطع عموماً مسافة 3–5 فرستات. علاوة على ذلك فهو مضطر للسير ليس في اتجاه واحد، بل في حركة التفافية بعيدة، بغية ألا يصادفه مخفر للحراسة. وعندما يبقى الفرد في وضع الهرب فترة أسبوع أو أكثر، وفي أحيان نادرة فترة شهر، يلقى حتفه في مكان ما من الغابة بعد أن ينهكه الجوع والإسهال والحمى، ويلسعه البعوض، ويكون بساقين متورمتين، وبجسد مبلل وقذر وبأسمال ممزقة، أو يبذل جهده للعودة من حيث أتى ويتوسل إلى الرب أن يجعله يلتقي جندياً أو جيلياكياً يأخذه إلى السجن، ويعتبر ذلك بالغ السعادة.

إن السبب الذي يدفع المجرم إلى البحث عن الخلاص في الهرب، وليس

في العمل والخنوع، يتمثل بصورة أساسية في الشعور بحب الحياة الذي لم يخمد لديه. وإذا لم يكن فيلسوفاً فإنه يحيا في جميع الأحوال بصورة جيدة على حد سواء، لكنه لا يستطيع ولا يمكنه التخلي عن الرغبة في الهرب.

بادئ ذي بدء، فإن ما يدفع المنفي إلى الهرب من ساخالين هو حبه الشديد لموطنه. ولدى الإصغاء إلى أحاديث السجناء تجد فيها تطلعهم إلى بهجة الحياة في مواطنهم! بينما يتحدثون عن ساخالين، والأرض هنا، بسخرية واحتقار ونفور وحزن، ويعتقدون أن كل شيء في روسيا رائع وساحر يسلب الألباب. ولا يمكن أن تنبجس أية فكرة جريئة حول وجود أناس تعساء في روسيا، فإن أسمى السعادة هي أن يعيش المرء في مكان ما في محافظة تولا أو محافظة كورسك، ويرى البيوت الريفية، ويستنشق الهواء الروسي. وليسلط الرب عليه الفقر والمرض والعمى والطرش والعار من الناس لكن بشرط واحد أن يموت في كنف الوطن. وأبدت عجوز سجينة، رافقتني فترة من الزمن لخدمتي، كانت تبدي إعجابها بحقائبي وكتبي ولحافي، فقط لكونها ليست ساخالينية، بل من جانبنا أي من روسيا. وعندما كان يزورني الكهنة، لم تكن تطلب تبريكاتهم بل تنظر إليهم بسخرية، لأنه لا يمكن أن يكون في ساخالين كهنة حقيقيون. ويتجسد الحنين إلى الوطن بشكل ذكريات دائمة، حزينة ومؤثرة، مصحوبة بالشكوى وذرف الدموع، أو بشكل آمال لن تتحقق، غالباً ما تذهلني بسبب سخفها ولكونها شبيهة بالجنون، أو بشكل اختبال واضح لا ريب فيه[1].

كما يدفع السجناء إلى الهرب من ساخالين تطلعهم إلى الحرية، الذي يتميز به الإنسان ويعتبر في الظروف الطبيعية إحدى سجاياه النبيلة. وحينما يكون السجين المنفي لا يزال شاباً وقوي البنية فهو يسعى إلى الهرب إلى مكان أبعد، إلى سيبيريا أو روسيا. وعادة يتم إلقاء القبض عليه، لكن هذا ليس أمراً فظيعاً. فثمة شاعرية خاصة في المشي ببطء تحت الحراسة في سيبيريا وتغيير السجون، والرفاق والحراس، في أحيان كثيرة، وكذلك في مغامرات الطريق، فهذا مع

1- غالباً ما كنت أرى في مدينتنا فلاديفستوك بين الموظفين والبحارة من يحن إلى الوطن. وقد رأيت هناك اثنين من المجانين - حقوقي وقائد جوقة للإنشاد. ولئن كانت هذه الحالات قليلة في أوساط الأحرار والأفراد الذين يعيشون في وضع صحي نسبياً، فإنها لا بد أن تكون كثيرة في ساخالين. وهذا أمر مفهوم.

ذلك يشبه الحرية بقدر أكبر، وأكثر مما في سجن فويفودا أو ممارسة أشغال شق الطرق. لكن عندما يضعف الفرد بمرور الزمن ويفقد الثقة بساقيه يهرب إلى أي مكان ما قريب... إلى إقليم آمور أو حتى إلى غابات التايغا، أو إلى الجبال، بشرط أن يكون ذلك المكان أبعد من السجن، بغية ألا يرى الجدران البغيضة والأفراد الحقراء، وألا يسمع صليل القيود والسلاسل وأحاديث السجناء. يعيش في مخفر كورساكوفسك السجين المنفي ألتوخوف، وهو عجوز له من العمر 60 عاماً أو أكثر كان يهرب كالتالي: يأخذ قطعة من الخبز، ويغلق كوخه، ويبتعد عن المخفر مسافة لا تتجاوز فرستا واحدة، ويجلس على قمة جبل ويتطلع إلى الغابة، وإلى البحر، وإلى السماء، ويجلس هناك ثلاثة أيام ثم يعود إلى البيت، ويأخذ المؤونة ثم يذهب إلى الجبل مرة أخرى... في السابق كانوا يعاقبونه بالجلد، أما الآن فيثير هروبه هذا الضحك فحسب. بعض السجناء يهربون من أجل التمتع بالحرية خلال شهر أو أسبوع، بينما يكتفي البعض الآخر بالهرب لمدة يوم واحد فقط، لكنه يومهم. إن الحنين إلى الحرية يستحوذ على فكر بعض الأفراد بين فترة وأخرى، ويشبه ذلك السكر المتواصل عدة أيام أو الصرع. ويقال إن هذا يحدث في فترة معينة من السنة أو الشهر. ولهذا يحذر السجين الأمين والنزيه في كل مرة الرئاسة بهروبه مسبقاً حين يشعر باقتراب نوبة الصرع. وعادة تجري معاقبة الهاربين بلا استثناء بالجلد بالسوط أو العصي، لكن تكرار حوادث الهرب يثير من البداية وحتى النهاية العجب، بما يتسم به من سخف وحمق، إذ غالباً ما يهرب الأفراد العقلاء والمتواضعون وأصحاب العوائل بلا ملابس وبلا خبز وبلا هدف وبلا خطة، وتراودهم الثقة بأنه سيتم إلقاء القبض عليهم حتماً، ويجازفون بفقدان الصحة، وبثقة الرئاسة، وبحرّيتهم النسبية، وأحياناً حتى برواتبهم الشهرية، كما يجازفون بالتجمد من البرد أو بإطلاق النار عليهم، - إن هذا السخف يجعل الأطباء في ساخالين الذين يتوقف عليهم الحكم في معاقبة أو عدم معاقبة السجين، يجعلهم يتعاملون في أغلب الأحيان ليس مع جريمة بل مع مرض.

ينبغي أن ينسب إلى الأسباب العامة للهروب الحكم بالسجن المؤبد. وكما هو معروف تقترن الأشغال الشاقة بالنفي إلى سيبيريا إلى الأبد. وينفصل المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الوسط البشري العادي بلا أمل في العودة إليه في زمن ما وبهذا يبدو كأنه ميت بالنسبة إلى المجتمع الذي ولد وشب فيه.

ويقول السجين مخاطباً نفسه: «الموتى لا يعودون من المقابر». إن فقدان الأمل المطبق لدى السجين المنفي ويأسه يقودانه إلى اتخاذ القرار بالهرب، وتغيير المصير، فلن يكون الوضع أسوأ! وإذا ما هرب يقال عنه: «لقد ذهب لتغيير مصيره». وإذا ما أُلقي القبض عليه وأعيد إلى السجن فيوصف ذلك كالتالي: لم يحالفه الحظ، وأضاع الفرصة. يعتبر الهرب في حالة النفي المؤبد شراً ضرورياً لابد منه وحتى يشكل ما يشبه صمام الأمان. لو توفر لدى السجين أقل قدر من الأمل في الهرب باعتباره الوسيلة الوحيدة لتغيير مصيره، والعودة من المقبرة، فإن يأسه وعدم وجود مخرج من الوضع، ربما كانا سيغدوان بشكل آخر، طبعاً بشكل أكثر قسوة وفظاعة من الهرب.

وثمة سبب عام آخر للهرب: هو الإيمان بأن الهرب سهل ويتم بلا عقوبة وشرعي تقريباً. على الرغم من أنه صعب في الواقع، والعقوبة قاسية، ويعتبر جريمة جنائية. ويتولد هذا الإيمان الغريب لدى الناس على مدى الأجيال، وتفقد بدايته في ضباب ذلك الزمان الطيب القديم حينما كان الهرب سهلاً فعلاً وحتى يلقى التشجيع من قبل الرئاسة. إن مدير المصنع أو مدير السجن يعتبر أنّ العقوبة ستكون أكبر إذا لم يهرب السجناء لديه لسبب ما، ويبتهج إذا ما غادروه بحشود كاملة. إذا ما كان يهرب قبيل أول أكتوبر - الموعد الذي توزع فيه الملابس الشتوية - 30-40 فرداً فيعتبر ذلك شيئاً اعتيادياً. وعندئذ يبقى الـ 30-40 معطفاً قصيراً من فرو الضأن في حوزة السجانين. وحسب أقوال يادرينتسيف فإن مدير المصنع كان يصرخ عادة لدى استلام وجبة جديدة من السجناء قائلاً: «من يرد البقاء يستلم الملابس، أما من يعتزم الهرب فلا حاجة له إلى ذلك!». يبدو أن الرئاسة قد فرضت بمكانتها شرعية الهرب، وقد تمت تربية سكان سيبيريا كلهم على الروح هذه، حيث لا يعتبر الهرب بالنسبة إليهم خطيئة حتى الآن. ويتحدث السجناء أنفسهم عن الهرب بسخرية ليس إلا، أو يبدون الأسف، لدى فشل الهرب. وعبثاً أن ينتظر منهم الندم أو تأنيب الضمير. ومن مجموع الهاربين الذين تسنى لي التحدث معهم أبدى عجوز طاعن في السن فقط، تم ربطه بالسلاسل بعربة الشحن، أسفه لكونه هرب عدة مرات، ولام نفسه بحزن لهروبه، لكنه لم يعتبر الهرب جريمة، بل سخافة: «عندما كنت شاباً اقترفت السخافات، بينما يتعين عليّ الآن معاناة الألم».

ثمة أسباب كثيرة لتعدد حوادث الهرب. وأذكر من بينها الاستياء من أنظمة السجن، ورداءة الطعام في السجن، وقسوة أحد السجانين، والكسل، وعدم القدرة على ممارسة العمل، والمرض، وضعف الإرادة، والميل إلى تقليد الآخرين، وحب المغامرة... وحدث أن هربت مجموعات كبيرة من السجناء فقط من أجل «النزهة» في الجزيرة، ورافق ذلك ارتكاب جرائم القتل وشتى أنواع الأفعال الشنيعة التي تبث الرعب وتولد الغيظ لدى الأهالي إلى أقصى حد. وسأتحدث عن الهرب بهدف الانتقام. فقد جرح الجندي بيلوف السجين الهارب كليمينكو لدى إلقاء القبض عليه، واقتياده إلى السجن في ألكسندروفسك. وفيما بعد هرب كليمنكو مجدداً لدى التئام جرحه بهدف واحد هو الانتقام من بيلوف. فمضى إلى المخفر مباشرة، وأُلقي القبض عليه هناك. وقال رفاق بيلوف له: «هاهو صاحبك مجدداً - هذه سعادتك». فقاده. وفي الطريق تبادل الحارس والمعتقل الحديث. الخريف، الريح، البرد.. توقفا من أجل تدخين الغليون. وعندما رفع الجندي ياقة معطفه لكي يشعل الغليون اختطف كليمينكو سلاحه وقتله فوراً، ثم عاد إلى مخفر ألكسندروفسك كما لو أنه لم يحدث شيء. وهناك اعتُقِل ثم سرعان ما شنق.

وسأتحدث عن الحب. كان السجين والمنفي أرتيوم - لا أذكر لقبه - وهو شاب في العشرين من العمر، يعمل في نايبوتشي حارساً في إحدى المؤسسات الحكومية. وقد أحب فتاةً من شعب آيني تقطن في إحدى الخيام (يورطا) على ضفة نهر نايبا، ويقال إنها بادلته الحب بالمثل. وحدث أن وجهت إليه الشبهة في السرقة وزج به في سجن كورساكوفسك عقاباً له، أي في مكان يبعد 90 فرستا عن الفتاة. وصار يهرب من السجن إلى نايبوتشي للقاء حبيبته، وحدث ذلك مراراً وأخيراً أطلقوا عليه النار وأصيب بجرح في ساقه.

كما قد يكون سبب الهرب نفعياً بهدف الاحتيال. ويتصف أحد أصناف الاحتيال بالجمع بين الطمع في كسب النقود وأبشع الخيانات. يراقب متشرد عجوز خط الشيب شعر رأسه، ذو خبرة في الهرب والمغامرات، في حشد القادمين الجدد من هو أكثر غنى (يمتلك القادمون الجدد النقود دائماً تقريباً)، فيغريهم بالهرب معه. إن الإقناع ليس أمراً صعباً، فيهرب القادم الجديد معه إلى الغابة وهناك يقتله المتشرد ويعود إلى السجن مجدداً. وصنف الاحتيال الآخر

الأكثر شيوعاً يتعلق بمبلغ 3 روبلات الذي تدفعه الخزانة لقاء إلقاء القبض على الهارب. فيهرب من السجن عدة أفراد بالاتفاق مسبقاً مع الحارس أو أحد أبناء شعب جيلياك، ويلتقون في مكان متفق عليه في الغابة أو على ساحل البحر مع الحارس، الذي يعيدهم فوراً إلى السجن بصفتهم من الهاربين، ويقبض مبلغ ثلاثة روبلات عن كل سجين، ومن ثم يجري تقاسم هذا المبلغ، طبعاً. ويبدو مضحكاً أحياناً مشهد الجيلياكي الهزيل البدن القصير القامة المسلح بعصا فقط وهو يقود أمامه 6-7 من المتشردين العريضي المناكب الأقوياء البدن. وشاهدت مرة الحارس «ل» وهو يقود أمامه 11 فرداً.

إن إحصائيات السجون لم تمس حتى الآن الهاربين. ويمكن حتى الآن فقط القول إنه يهرب أكثر من الآخرين المنفيون الذين يؤثر فيهم الفرق الشديد بين المناخ في ساخالين ووطنهم. ويذكر من بينهم أكثر من غيرهم أبناء القوقاز والقرم وبيسارابيا ومالوروسيا (أوكرانيا). وأحياناً لا يرى في كشوف الهاربين أو العائدين ويصل عددهم إلى 50-60 شخصاً أي فرد بلقب روسي، فجميعهم أوغلي وسليمان وغسان. ولاريب أيضاً أن المحكومين بالسجن المؤبد أو لفترة طويلة غالباً ما يهربون أكثر من السجناء من الفئة الثالثة، ويعيشون في السجون أكثر من القاطنين خارجها، والسجناء الجدد أكثر من القدامى. أما النساء فإنهن نادراً ما يهربن بالقياس إلى الرجال، ويعزى ذلك إلى أن المرأة ترتبط فور وصولها بوشائج متينة. إن الواجبات حيال المرأة والأطفال تمنع الرجل من الهرب، لكن يحدث أحياناً أن يهرب أصحاب العوائل أيضاً. ونادراً ما يهرب الزوجان المرتبطان بعقد قران شرعي. وغالباً ما تجيب السجينات لدى تجوالي في البيوت عن سؤال حول أين الخليل بالقول: «من يعرف. اذهب وابحث عنه».

ويهرب السجناء أصحاب الامتيازات مع السجناء العاديين أيضاً. فقد وجدت لدى تصفح السجل الأبجدي في مديرية الشرطة في كورساكوفسك أن نبيلاً هرب، وكان قد حكم عليه بالسجن لارتكابه جريمة قتل في أثناء الهرب، وعوقب بـ80 أو 90 جلدة. كما أن لاجيف الذائع الصيت المنفي لقتله مدير المعهد اللاهوتي في تفليس الذي عمل في كورساكوفسك بصفة معلم - قد هرب في ليلة عيد الفصح في عام 1890 مع السجين نيقولسكي، ابن كاهن، وثلاثة متشريدين آخرين. وبعد عيد الفصح بقليل ترددت إشاعة مفادها أن ثلاثة

متشردين شوهدوا بملابس «مدنية»، لدى سيرهم على الساحل باتجاه مخفر مورافيوفسكي، لكن لم يكن معهم لاجييف ونيقولسكي. وفي أغلب الظن أن المتشردين أقنعوا لاجييف ورفيقه بالهرب معهم وفي الطريق أجهزوا عليهما وقتلوهما من أجل الاستحواذ على نقودهما وملابسهما. كما هرب إلى روسيا ابن الكاهن الأول «ك» لارتكابه جريمة قتل، فارتكب هناك جريمة قتل أخرى وأعيد إلى ساخالين. وحدث أن رأيته في وقت مبكر من الصباح مع جماعة من السجناء بالقرب من النبع: إنه هزيل للغاية، بعينين زائغتين، وبمعطف عتيق وسراويل ممزقة، متدلية فوق جزمة عالية، وقد أفرط في النوم. كان يرتجف من برد الصباح، ودنا من السجان الواقف إلى جانبي، ونزع قبعته، وكشف عن رأسه الأقرع، وراح يرجوه بشأن أمر ما.

وبغية معرفة في أي فصل من السنة يجري الهرب راجعت بعض الأرقام التي تسنى لي العثور عليها في السجلات. ففي أعوام 1877 و1878 و1888 و1889 هرب 1501 سجين. وتتوزع هذه الأرقام وفقا للشهور كالتالي: يناير – 117، فبراير – 64، مارس – 20، أبريل – 20، مايو – 147، يونيو – 290، يوليو – 283، أغسطس – 231، سبتمبر – 150، أكتوبر – 44، نوفمبر – 35، ديسمبر – 100. إذا ما رسمنا منحنياً بيانياً لحوادث الهرب فإن أعلى نقطة فيه تكون في أشهر الصيف، وفي أشهر الشتاء التي يبلغ فيها الزمهرير ذروته. ويبدو أن الأوقات المناسبة للهرب تكون في أثناء الطقس الدافئ، ولدى العمل خارج السجن، في موسم صيد الأسماك، ونضوج الثمار البرية في الغابات، وتوفر البطاطس لدى المستوطنين، ثم البحر الذي تغطيه طبقة من الجليد، عندما لا تصبح ساخالين في وضع جزيرة. بينما يجري الهرب بأقل نسبة في مارس وأبريل. كما أن أشهر الصيف والشتاء مناسبة بأكبر قدر لوصول وجبات جديدة من السجناء في الرحلات الربيعية والخريفية. ويهرب السجناء بقدر أقل في مارس وأبريل لأنه في هذين الشهرين يذوب الجليد في الأنهر ويغدو الحصول على القوت أمراً صعباً سواء في الغابات أو لدى المستوطنين الذين يبقون بلا مخزون من الحبوب لدى حلول الربيع.

هرب من سجن ألكسندروفسك في عام 1889 عدد من السجناء تبلغ نسبتهم 15,33% كمعدل متوسط سنوياً، بينما هرب من سجني دويه وفويفودا حيث

يوجد إلى جانب السجانين حراس يحملون البنادق لمراقبة السجناء 6,4%، ومن سجن دائرة تيموفسكي – 9%. ترد هذه الأرقام في سجلات عام واحد، لكن إذا ما أخذنا إجمالي عدد الهاربين منذ وصولهم إلى الجزيرة، فإن نسبة الهاربين في مختلف الأوقات لا تقل عن 60%، أي أن ثلاثة من مجموع 5 أشخاص تراهم في السجن أو في الشارع كانوا ضمن الهاربين. وقد تولد لدي انطباع من الأحاديث مع المنفيين: أن الجميع يهربون. ونادراً ما لا يذهب السجين في «إجازة» خلال فترة سجنه[1].

وفي العادة يجري التفكير في الهرب منذ وجود السجين في عنبر السفينة التي تنقل السجناء إلى ساخالين. وفي الطريق يطلع الشيوخ المتشردون رفاقهم الشباب على جغرافية الجزيرة، وعلى الأنظمة السائدة في ساخالين، وعلى السجانين، وعلى الخيرات والحرمانات المتأتية عن الهرب من ساخالين. لو تم عزل المتشردين القدامى عن السجناء والمنفيين الجدد في السجون ومن ثم في عنابر السفن، فلربما لم يفكر القادمون الجدد بالهرب بهذه السرعة. ويهرب الجدد عادة بسرعة وحتى فور تسلمهم من السفينة. وفي عام 1879 هرب 60 شخصاً منذ الأيام الأولى لوصولهم، بعد أن هجموا على جنود الحراسة.

لا يحتاج السجين من أجل الهرب إلى الاستعدادات والمحذورات الواردة في قصة ف. ج. كورولينكو الرائعة «الصقار». فالهرب ممنوع منعاً باتاً، ولا يلقى التشجيع من الرؤساء، لكن ظروف حياة السجون المحلية والحراسة والأشغال الشاقة، وتضاريس الطبيعة المحلية هي بشكل يغدو معه من المستحيل الحيلولة دون محاولة الهرب في غالبية الأحوال. وإذا لم يتسن الخروج من السجن عبر البوابة المفتوحة اليوم، فيمكن غداً الهروب إلى الغابات، حينما يخرج إلى العمل 20–30 سجيناً تحت رقابة جندي واحد. ومن لا يهرب من الغابة ينتظر شهراً أو شهرين حينما يرسل السجين إلى خدمة أحد الموظفين أو إلى العمل

1- أذكر أنني اقتربت مرة في زورق بخاري من سفينة ابتعد عنها صندل من آمور ممتلئ بالهاربين. كان بعضهم متجهم السحنة بينما كان البعض الآخر يقهقه. وأحدهم بلا ساقين البتة، فقد تجمدتا. كانت تجري إعادتهم إلى نيقولايفسك. لدى التطلع إلى هذا الصندل المكتظ بالبشر، عندئذ جال في خاطري كم عدد السجناء الهاربين الذين يتجولون في أرجاء روسيا وفي الجزيرة!

لدى أحد المستوطنين. ولا يحتاج إلى كل التحذيرات، وخداع الرؤساء، وكسر الأقفال، وحفر الأنفاق، وهلمجرا، إلا القلائل من السجناء المقيدين بالسلاسل وفي الزنزانات الانفرادية، وفي سجن فويفودا، وربما من يعمل في المناجم حيث لا يقف الحراس في كل مكان من سجن فويفودا وحتى دويه. وهنا تقترن محاولة الهرب بالخطر، لكن مع هذا تتوفر يومياً تقريباً الظروف المناسبة للهرب. ولا فائدة كلياً من تغيير الزي أو القيام بشتى الحيل الأخرى، ويلجأ إليها عادة الباحثون عن المغامرات وهواتها مثل السجينة «اليد الذهبية» التي ارتدت بزة جندي من أجل الهرب.

يتجه القسم الأكبر من الهاربين نحو الشمال.. نحو المكان الحاصر من المضيق بين رأسي بوجوبي ولازاريف، أو إلى الشمال قليلاً: فهناك الأصقاع خالية من البشر، ومن السهل إيجاد مخبأ، والحصول على زورق من الجيلياكيين، أو صنع طوف والعبور إلى الجانب الآخر، أما في الشتاء ففي حالة الطقس الجيد تكفي ساعتان من أجل العبور. وكلما كان مكان العبور في أقصى الشمال قريباً من مصب نهر آمور كان خطر الموت بسبب الجوع والبرد أقل. ويوجد عند مصب آمور عدد كبير من قرى الجيلياتيين، وبالقرب من مدينة نيقولايفسك، ومن ثم مورمانسك وسوفيسك ودساكر القوزاق حيث يمكن الحصول على عمل في الشتاء، وحتى، كما يقال، يوجد بين الموظفين أشخاص يوفرون الملاذ والطعام للمساكين. وقد يحدث أن لا يعرف الهاربون أين الشمال، فيدورون حول أنفسهم، ويعودون إلى المكان الذي انطلقوا منه.

نادراً ما يحدث أن يحاول الهاربون عبور المضيق من مكان قريب من السجن. فهذا يتطلب جرأة غير عادية، وتوفر حسن الصدف على الأخص، والشيء الرئيسي توفر الخبرة المسبقة المتكررة عدة مرات، التي تبين مدى صعوبة الطريق نحو الشمال المحفوف بالمخاطر عبر غابات التايغا. ويتوجه إلى البحر المتشردون – أصحاب السوابق، الهاربون من سجن فويفودا أو سجن دويه في محاولة الهرب الأولى أو الثانية. وعندئذ لا يأخذون بنظر الاعتبار البتة الزوابع والمخاطر، بل الخوف الحيواني فقط المتعلق بالهرب والتطلع إلى الحرية: ليكن مصيري الغرق ولكن بحرية. وعادة يتجهون مسافة 5–10 فرستات نحو جنوب دويه وآجنيفو، ويصنعون هناك طوفاً، ويسرعون في الإبحار نحو الساحل الذي

يخيم فوقه الضباب على مسافة 60–70 ميلاً في البحر العاصف والبارد. وفي أثناء وجودي في المكان هرب من سجن فويفودا المتشرد بروخوروف، وهو ميلنيكوف أيضاً، الذي رويت قصته في الباب السابق. وكان السجناء يهربون أيضاً في عوامات – شالاندات أو صنادل نقل التبن لكن البحر يحطمها في كل مرة بلا رحمة أو يلقي بها على الساحل. وحدث مرة أن هرب السجناء في قارب بخاري يعود إلى شركة المناجم. وقد يحدث أن يهرب السجناء بواسطة السفن التي تنقلهم. ففي عام 1883 هرب في السفينة «تريومف» السجين فرانتس جيتس الذي اختبأ في مستودع الفحم في السفينة. وعندما اكتشفوا وجوده وأخرجوه من المستودع، كان يجيب عن كل الأسئلة فقط بقوله: «أعطوني الماء، أنا لم أشرب الماء منذ خمسة أيام».

إن الهاربين الذين يفلحون في الوصول إلى البر يتوجهون نحو الغرب، محاولين التسول باسم المسيح والعمل، حيثما أمكن، وسرقة كل ما تطاله أيديهم. إنهم يسرقون الماشية والخضروات والملابس – وباختصار كل ما يمكن أكله ولبسه أو بيعه. ويجري إلقاء القبض عليهم واحتجازهم في السجون فترة طويلة، ومحاكمتهم وإعادتهم بموجب أحكام صارمة، لكن الكثيرين، وكما يعرف القارئ من متابعة أنباء الصحف حول المحاكمات، يصلون حتى إلى «خيتروف رينوك» (حي بموسكو مشهور بكونه بؤرة للإجرام – المترجم)، وحتى إلى القرى حيث مواطنهم. في باليفو روى لي الخباز جورياتشي، وهو رجل بسيط وصريح، كما يبدو، كيف أنه وصل إلى قريته، والتقى زوجته وأطفاله، وفيما بعد جرى نفيه إلى ساخالين مجدداً حيث تنتهي الآن فترة النفي الثانية. بالمناسبة ترد في الصحف فرضية مفادها أن صيادي الحيتان الأمريكان يلتقطون الهاربين في البحر وينقلوهم إلى أمريكا. طبعاً، هذا ممكن، لكنني لم أسمع عن أي حادثة من هذا النوع. إن صيادي الحيتان الأمريكان الذين يمارسون حرفتهم في بحر أخوتسكويه نادراً ما يقتربون من ساخالين، كما يندر بقدر أكبر أن يقتربوا من الساحل الشرقي المقفر في وقت وجود الهاربين هناك. وحسب أقوال السيد كوربسكي (صحيفة «غولوص»، 1875، العدد 312) فإنه تقطن في Indian Territory في الجانب الأيمن من نهر مسيسيبي مجموعات كبيرة من الهاربين من ساخالين. إن هؤلاء الهاربين إن كان لهم وجود فعلاً، قد انتقلوا إلى

أمريكا ليس في سفن صيادي الحيتان، بل في أغلب الظن عبر اليابان. على أي حال فقد هربوا ليس إلى روسيا بل إلى الخارج، ولو أن هذا شيء نادر، لكن لا شك فيه. ففي أعوام العشرينيات هرب سجناؤنا من مصنع الملح في أخوتسك إلى الأقاليم الدافئة أي إلى جزر ساندويتش.

إن الخوف من السجناء الهاربين كبير، وهذا يفسر سبب فرض عقوبات شديدة عليهم لقاء الهرب، تذهل المرء بقساوتها. وحينما يهرب من سجن فويفودا أو سجن المقيدين بالسلاسل متشرد معروف، فإن هذا النبأ يثير الفزع ليس في أهالي ساخالين فقط بل حتى في أهالي القارة. ويروى أن المدعو بلوخا هرب مرة، فأثارت الإشاعة حول ذلك الرعب في أهالي مدينة نيقولايفسك لدرجة أن مدير الشرطة بعث برقية يستفسر فيما إذا هرب بلوخا حقاً[1]. والخطر الرئيسي يتجسد في ما يمثله الهرب بالنسبة إلى المجتمع، أولاً، في أنه يطور ويدعم التشرد، وثانياً، في أنه يجعل كل هارب في وضع الخارج على القانون، أي يجعله في غالب الأحوال يرتكب جرائم جديدة. والسجناء الهاربون يشكلون أكبر مجموعة من أصحاب السوابق، ويرتكب الهاربون أبشع الجرائم وأكثرها جسارة في ساخالين.

في الوقت الحاضر تطبق التدابير القمعية بصورة رئيسية من أجل الوقاية من الهرب. إن هذه التدابير تقلل من حوادث الهرب، لكن إلى حد معين فقط، فالقمع الذي بلغ حد الكمال المثالي، لا يستبعد احتمال وقوع حوادث الهرب. وهناك حد إذا تجاوزته التدابير القمعية تصبح غير فعالة. فمن المعروف أن السجين يواصل محاولات الهرب حتى في اللحظات التي يراقبه السجان فيها، ولا يمنعه من الهرب هبوب العاصفة في البحر، والثقة بأنه سيغرق. وهنالك كذلك حد إذا تم تجاوزه تصبح تدابير القمع نفسها حافزاً للهرب. فمثلاً التهديد

1- ذاع صيت بلوخا هذا في محاولاته للهرب وفي أنه ذبح أفراد عدة عوائل جيلياتية. وفي الفترة الأخيرة جرى حبسه بقيود في يديه وساقيه وعندما قام الحاكم للمقاطعة بجولة تفقدية مع حاكم الجزيرة أمر الأخير بنزع القيود من يدي بلوخا وأخذ منه كلمة شرف بأنه لن يهرب في المستقبل. والطريف في الأمر أن بلوخا هذا قد اشتهر بكلمة الشرف هذه. وعندما كان يجلد تراه يصرخ: «أنا استحق ذلك، ياصاحب السعادة! أنا استحقه! هكذا يجب أن أعاقب!». ثمة احتمال كبير في أنه سيلتزم بكلمة الشرف. والسجناء يعجبهم أن يكتسبوا السمعة في كونهم شرفاء.

بالعقوبة لقاء الهرب المتمثل بإضافة عدة سنوات إلى فترة سجنه القديمة، يزيد عدد المحكومين بالسجن المؤبد أو لفترة طويلة، وبهذا تزداد محاولات الهرب. وعموماً لا مستقبل للإجراءات القمعية الرامية إلى مكافحة الهرب، إنها تتجافى كلياً عن المثل العليا لتشريعاتنا، التي ترى في العقوبة قبل كل شيء وسيلة للإصلاح. عندما تتركز جميع جهود السجان يوماً بعد يوم على وضع السجين في ظروف فيزيقية صعبة تجعل الهرب شيئاً مستحيلاً، عندئذ لا مجال للحديث عن الإصلاح، ويدور الحديث في هذه الحال فقط عن تحويل السجين إلى وحش، والسجن إلى قفص للوحوش. إن هذه الإجراءات غير عملية: أولاً لأنها تشكل دوماً تعسفاً بحق الأفراد الذين لم يفكروا في الهرب ولا ذنب لهم فيه، وثانياً، أن حبس الفرد في سجن ذي أنظمة صارمة، والقيود، وشتى أصناف الزنازين الانفرادية والمظلمة وعربات الشحن، تجعله غير قادر على العمل.

إن ما يسمى بالإجراءات الإنسانية، وشتى أصناف التحسينات في حياة السجين، سواء كان كسب لقمة خبز إضافية أو الأمل في مستقبل أفضل، تخفض أيضاً عدد محاولات الهرب. وأورد على سبيل المثال أن عدد الهاربين في عام 1885 كان 25 مستوطناً، وبلغ في عام 1886 بعد جني المحاصيل 7 فقط. إن عدد المستوطنين الهاربين أقل بكثير من السجناء، بينما لا يهرب الفلاحون المنفيون أبداً تقريباً. ويهرب أقل عدد من الأفراد من دائرة كورساكوفسك، لأن المحاصيل هناك أفضل، وغالبية السجناء يقضون فترة سجن قصيرة، والمناخ أكثر لطفاً كما أن فرص الحصول على وضع فلاح أفضل مما في شمال ساخالين، وبغية كسب لقمة خبز لا حاجة للعودة إلى المناجم. وكلما كانت حياة السجن أيسر، يقل خطر هروب السجين، ومن هذه الناحية تعتبر مضمونة بأكبر قدر تدابير تحسين الأنظمة في السجن، وبناء الكنائس، وافتتاح المدارس والمستشفيات، وضمان معيشة عوائل المنفيين، ومصادر الكسب في المعيشة وهلمجرا.

يحصل، كما ذكرت آنفاً، كل جندي وجيلياكي، وكل من يعمل في مطاردة الهاربين عموماً من الخزانة على مبلغ 3 روبلات عن كل هارب يلقى القبض عليه ويقتاد إلى السجن. ولا ريب في أن المكافأة النقدية مغرية بالنسبة إلى الرجل الجائع، ويساعد القضية، ويزيد من عدد «المقبوض عليهم والذين يعثر عليهم أمواتاً أو قتلى». لكن هذه المساعدة طبعاً لا تعوض البتة عن الضرر المتأتي

عن تولد الغرائز الضارة لدى أهالي الجزيرة بنتيجة السعي إلى كسب الروبلات الثلاثة هذه. إن من يطارد الهاربين ليس بحكم واجبه ولا بحكم الحاجة بل من الاعتبارات النفعية، تصبح المطاردة هذه بالنسبة إليه حرفة بشعة، وتشكل الروبلات الثلاثة ثمناً وضيعاً للغاية.

يتبين من المعطيات المتوفرة أن من مجموع 1501 هارب ألقي القبض عليهم أو عادوا طوعاً 1010 سجناء، بينما عثر على 40 من السجناء أمواتاً أو قتلى. وفقد أثر 451 سجيناً. ومعنى ذلك أن نسبة عدد المفقودين من بين جميع الهاربين في ساخالين تبلغ الثلث، على الرغم من وضعها كجزيرة. ويُذكر في صحيفة «الوقائع» التي استقيت منها هذه الأرقام عدد معين ممن عادوا طوعاً أو ألقي القبض عليهم، كما يذكر عدد آخر من الموتى والقتلى في أثناء المطاردة بصورة منفردة أيضاً، ولهذا لا يعرف عدد المطاردين ونسبة الهاربين الصرعى برصاص الجنود.

-23-

أمراض ووفيات السجناء والمنفيين. - المؤسسة الطبية. - المستشفى في ألكسندروفسك.

في عام 1889 سجل في الدوائر الثلاث 632 سجيناً ضعيفاً هزيلاً غير قادر على العمل أي نسبة 10,6% من مجموع السجناء. إن هناك فرداً واحداً ضعيفاً وغير قادر على العمل من كل 10 أفراد. أما بصدد القادرين على العمل من السكان فهم لا يولدون انطباعاً بأنهم أصحاء. فلن تجد بين الرجال المنفيين أفراداً مكتنزين جيداً وبدينين وذوي خدود حمر، وحتى المستوطنون الذين لا يمارسون أي عمل شاق يتسمون بالهزال والشحوب. وفي صيف عام 1889 كان بين 131 سجيناً عملوا في شق الطرق في تارايكا 37 مريضاً، أما الباقون الذين جاءوا للقاء حاكم الجزيرة فهم بأفظع هيئة: «في أطمار، وكثيرون بلا قمصان، وعليهم آثار لسعات البعوض، وتخدشت أجسادهم بأغصان الأشجار اليابسة، لكن لم يجأر أي أحد منهم بالشكوى». (الأمر رقم 318، عام 1889).

وبلغ عدد من طلب تقديم العلاج لهم 11309 أشخاص، ويرد في التقرير الطبي الذي أستقي منه هذه المعلومات أن السجناء والأحرار لم يسجلوا على انفراد، لكن كاتب التقرير يلاحظ أن القسم الأكبر من المرضى هم سجناء. وبما أن الجنود يتلقون العلاج تحت إشراف أطبائهم العسكريين، أما الموظفون وأسرهم فيتلقون العلاج في بيوتهم، لذا فإن الرقم 11309 يضم السجناء وأفراد أسرهم فقط. إذن كل سجين وأفراد أسرته يطلبون العلاج الطبي بما لا يقل عن مرة واحدة في السنة.

إنني أستطيع الحكم على عدم مرض السجناء المنفيين فقط اعتماداً على تقرير عام 1889، لكنه أعد، ويالأسف، بموجب معطيات «السجلات الصادقة» للمرضى، التي دونت هنا كيفما اتفق بشكل واضح، مما جعلني أراجع مرة أخرى سجلات الأحوال الشخصية في الكنائس (الخاصة بالولادات والوفيات) وأستخلص منها أسباب الوفاة خلال الأعوام العشرة الأخيرة. وعادة يسجل الكهنة أسباب الوفاة في كل مرة تقريباً اعتماداً على تقارير الأطباء والمضمدين، وفيها الكثير من الخيال. لكن هذه المادة عموماً هي في جوهرها نفس ما يرد في «السجلات الصادقة» - لا أفضل ولا أسوأ. ومفهوم أن كلا المصدرين غير كافيين تماماً، وكل ما يجد القارئ فيهما حول الأمراض والوفيات، ليس سوى صورة عامة ضعيفة.

لا تنتشر في ساخالين على نطاق واسع حتى الآن الأمراض التي تنسب في التقرير إلى مجموعتين منفصلتين هما: الأمراض المعدية الجماعية والأمراض الوبائية. فقد سجلت ثلاث حالات فقط من الإصابة بالحصبة في عام 1889، بينما لم تسجل إصابة واحدة بالحمى القرمزية والدفتيريا والخناق. وتذكر 45 حالة وفاة بهذه الأمراض، التي تصيب الأطفال بصورة رئيسية، في السجلات خلال عشرة أعوام. وتدرج ضمنها حالات الإصابة «بالذبحة الصدرية» و«التهاب البلعوم»، وهما مرضان معديان ويتسمان بطابع وبائي. وتدل على ذلك وفيات الأطفال الكثيرة خلال فترة قصيرة. وكانت الأوبئة تبدأ عادة في سبتمبر أو أكتوبر، حينما كان ينقل أطفال مرضى في سفن أسطول المتطوعين إلى المستوطنة. علماً أن انتشار الوباء يستمر فترة طويلة، ولكن بفتور. ففي عام 1880 بدأ في دائرة كورساكوفسك وباء «الذبحة الصدرية» في أكتوبر وانتهى في أبريل من العام التالي، بينما بدأ وباء الدفتيريا في دائرة ريكوفسكويه في الخريف واستمر خلال الشتاء كله، ثم انتقل إلى دائرتي ألكسندروفسك ودويه وخمد هناك في نوفمبر 1889، أي تواصل خلال عام كامل. وتوفي 20 طفلاً. أما مرض الجدري فقد ورد في التقرير مرة واحدة، وتوفي بسببه خلال عشرة أعوام 18 شخصاً. وحدثت موجتا وباء في دائرة ألكسندروفسك: إحداهما في عام 1886، من ديسمبر إلى يونيو، والأخرى في خريف عام 1889. إن موجات وباء الجدري

الرهيبة التي اجتاحت في زمن ما جميع جزر بحر اليابان وبحر أخوتسكويه وحتى كامتشاتكا ضمناً، وقضت أحياناً على عشائر كاملة مثل عشيرة آينو، لا تحدث الآن هنا، أو على أقل تقدير لا يذكر شيء عنها. وغالباً ما ترى الوجوه المجدرة بين أبناء الشعب الجيلياكي، لكن سببها هو مرض الحماق (varicella) الذي لا ينتشر في أغلب الظن بين أبناء الأقليات القومية.

أما فيما يتعلق بالتيفوئيد فقد سجلت 23 إصابة به مع الوفاة أي بنسبة 30% وتكرار الإصابة مع ظهور البثور 3 مرات، ولكن بلا حالات وفاة. وترد في سجلات الأحوال الشخصية الإصابة بالتيفوئيد مع الحمى الراجعة 50 مرة، لكنها جميعاً حالات فردية، موزعة في سجلات الدوائر الأربع خلال عشرة أعوام. وأنا لم أعثر في أي خبر صحفي على إشارة إلى أوبئة التيفوئيد، وفي أغلب الظن أنها لم تحدث. وبموجب التقارير فإن الحمى الراجعة سجلت فقط في الدائرتين الشماليتين، وكان سببها نقص مياه الشرب العذبة، وتلوث التربة بالقرب من السجون والأنهار، وكذلك الازدحام واكتظاظ الزنازين بالسجناء. أنا شخصياً لم ألتقِ قط في شمال ساخالين بمصابين بالحمى الراجعة، على الرغم من أنني زرت جميع البيوت والمستوصفات، وقد أكد لي بعض الأطباء أن هذا الشكل من المرض غير موجود البتة في الجزيرة، لكن خامرتني الشكوك الكثيرة بهذا الصدد. أما فيما يتعلق بحمى التيفوئيد الراجعة والحمى النمشية فإنني أعتبر جميع الإصابات التي حدثت في ساخالين حتى الآن قد وردت من خارج الجزيرة ومنها الحمى القرمزية والدفتيريا. وأعتقد أن الأمراض المعدية الحادة لم تجد حتى الآن التربة المناسبة لانتشارها في الجزيرة.

لقد سجلت 17 مرة إصابات «بالحمى غير المحددة بدقة». ويرد هذا الشكل من الحمى في التقرير كما يلي: «ظهرت على الأكثر في أشهر الشتاء، وظهرت بشكل حمى راجعة، وأحياناً مع ظهور الطفح roseola على الجلد، إنها انقباض شامل في مراكز الدماغ، واشتداد الحمى في فترات متفاوتة بين 5 و7 أيام، وأعقب ذلك الشفاء السريع». إن هذا النوع من التيفوئيد ينتشر على نطاق واسع بالأخص في الدائرتين الشماليتين، لكن لا يرد في التقرير ولو بنسبة واحد بالمائة من مجموع الإصابات، لأن المرضى لا يتعالجون من هذا المرض ويحتملونه من دون الرقاد في الفراش، وإذا لزموا الفراش

يكون ذلك في البيت وعلى سطح الموقد. وقد اقتنعت خلال فترة وجودي القصيرة في الجزيرة بإن الإصابة بالبرد تلعب دوراً رئيسياً في تطور هذا المرض، ويمرض عادة الأفراد الذين يعملون في الطقس البارد والرطب في غابات التايغا والذين ينامون في العراء. وغالباً ما يتواجد مثل هؤلاء المرضى في أماكن العمل في شق الطرق والقرى الحديثة البناء. ويعتبر ذلك بمنزلة إصابة بحمى ساخالين febris sachaliniensis.

في عام 1889 أصيب بالالتهاب الرئوي الفصي 27 شخصاً، وتوفي ثلثهم. ويبدو أن هذا المرض خطر بالنسبة للسجناء والأحرار على حد سواء. فخلال فترة عشرة أعوام ورد ذكره في سجل الوفيات 125 مرة. علماً أن نسبة 28% من الإصابات حدثت في شهري مايو ويونيو، حين يكون الطقس في ساخالين مزعجاً ومتقلباً، وتبدأ الأعمال بعيداً عن السجن، علماً أن نسبة 46% حدثت في ديسمبر ويناير وفبراير ومارس، أي في الشتاء[1]. ومما يساعد على الإصابة بالالتهاب الرئوي الفصي هنا بصورة رئيسية البرد القارص في الشتاء، والتغير الحاد في الطقس والأعمال الشاقة في فترة الطقس الرديء. بالمناسبة جاء في تقرير طبيب المستشفى المحلي السيد بيرلين بتاريخ 24 مارس 1888، الذي جلبت معي نسخة منه ما يلي: «كان يروعني دوماً عدد الإصابات الكثيرة بالالتهاب الرئوي الحاد في أوساط العمال من السجناء والمنفيين». ويعتقد الدكتور بيرلين أن من بين الأسباب حسب رأيه: «يجهد السجناء أنفسهم بسحب جذوع الأشجار لمسافة ثماني فرستات، ويبلغ قطر الواحد منها من 6 إلى 8 فيرشوكات (الفيرشوك وحدة قياس طول روسية قديمة= 4,4 سنتيمتر - المترجم) وطولها أربع ساجينات، من قبل ثلاثة عمال، في طريق تغمره الثلوج، يرتدون ملابس دافئة، ويكابدون النشاط المتسارع لجهازي التنفس والدوران».. الخ[2].

1- لم تحدث أية إصابة بالمرض في يوليو وأغسطس وسبتمبر 1889. وفي اكتوبر توفي مريض واحد فقط من المصابين بالالتهاب الرئوي الفصي، ويعتبر هذا الشهر في ساخالين من أفضل الأشهر بالنسبة لصحة الإنسان.

2- بالمناسبة أنا وجدت في هذا التقرير العبارة التالية: «تفرض على السجناء في الأشغال الشاقة عقوبة قاسية بالجلد بالعصي، لدرجة أنهم ينقلون فور العقاب إلى المستشفى».

سجلت 5 إصابات فقط بالزحار أي الإسهال الدموي. ويبدو أنه حدثت في عام 1880 في دويه وفي عام 1887 أوبئة الإسهال الدموي، ويرد في جميع سجلات الوفيات خلال عشرة أعوام ذكر 8 وفيات به. وغالباً ما كان يشار في الأخبار الصحفية والتقارير القديمة إلى حدوث الإصابات بالإسهال الدموي في الأزمنة القديمة، وكانت منتشرة في الجزيرة مثل داء الأسقربوط. وكان يعاني منه السجناء والجنود وأبناء الأقليات القومية المحلية، ويعزى سببه إلى رداءة الطعام وظروف الحياة القاسية.

لم تحدث أية إصابات بالكوليرا الآسيوية في ساخالين. وقد لاحظت شخصياً وجود إصابات بالحمرة والغنغرينا الرطبة، لكن تعالج الإصابات بهذين المرضين في المستشفيات المحلية. كما لم تحدث في عام 1889 إصابات بالسعال الديكي. بينما حدثت إصابات بالحمى الراجعة 428 مرة، وأكثرها في دائرة ألكسندروفسك. ويعزى ذلك إلى ازدحام السكان، وعدم توفر الهواء النقي بقدر كاف، وتلوث التربة بالقرب منها، والعمل في مناطق تحدث فيها الفيضانات بين فترة وأخرى، ووضع القرى في هذه المناطق. وتبدو جلية للعيان جميع هذه الظروف غير الصحية، ولكن مع ذلك لا تولد الجزيرة انطباعاً بأنها من مناطق انتشار الملاريا. وعندما زرت البيوت لم أجد مرضى مصابين بالملاريا ولا أذكر قرية واحدة اشتكى أهلها من هذا المرض. وثمة احتمال كبير في أن كثيراً ممن سجلوا في التقارير أصيبوا بالمرض في مواطنهم الأصلية ووصلوا إلى الجزيرة مصابين بالتهاب الطحال.

تذكر في سجلات الوفيات مرة واحدة حدثت فيها الوفاة بنتيجة الإصابة بالقرحة السيبيرية. ولم تسجل في الجزيرة إصابات بالرعام أو داء الكلب.

يعزى حوالي ثلث الوفيات إلى الإصابات بأمراض الجهاز التنفسي، وبالأخص أن نسبة الوفيات بداء الحديبة تبلغ 15%. وفي سجلات المواليد والوفيات يدون المسيحيون فقط، وإذا أضيف إليهم المسلمون، فإن نسبة الوفيات بسبب مرض التدرن الرئوي في ساخالين عالية جداً عادة. وفي كل الأحوال فإن نسبة تعرض البالغين إلى الإصابة به عالية جداً، ويعتبر من أكثر الأمراض انتشاراً وأكثرها خطراً. وتكثر الوفيات في شهر ديسمبر، حينما يشتد البرد في ساخالين، وكذلك في مارس وأبريل، وأقل الوفيات تكون في شهري سبتمبر وأكتوبر.

ويشكل خطر الوفاة بسبب السل في ساخالين بأكبر قدر على الأفراد في سن 25–35 و35–45 عاماً، وهم من العمال وفي عمر الزهور. ويشكل السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة أكبر نسبة من الذين يتوفون بسبب السل (66%). وأكثرهم من السجناء ومن هم في سن العمال مما يجعلنا نستنتج أن الوفيات الكثيرة بالسل في السجون والمنافي تعزى إلى الظروف الرديئة في الزنزانات المشتركة في السجون والأشغال الشاقة التي تسلب العامل قدراً من الطاقة أكثر مما يمكن أن يعطيه طعام السجن. إن المناخ القاسي وشتى الحرمانات التي يكابدها السجين في أثناء العمل والهرب والحبس في الزنزانات الانفرادية، والحياة المضطربة في الزنزانات المشتركة، ونقص الشحوم في الطعام والحنين إلى الوطن – هي الأسباب الرئيسية لانتشار السل في ساخالين.

سجلت في عام 1889 إجمالاً 246 إصابة بداء السفلس وتوفي بسببه 5 أفراد. وكما جاء في التقرير فإنهم جميعاً كانوا مصابين سابقاً بالمرض وبشكليه الثنائي والثلاثي. وترك المصابون بالسفلس الذين التقيتهم انطباعاً محزناً لدي، فإن حالات المرض المستفحلة والمزمنة أشارت إلى الانعدام التام للرقابة الصحية التي يمكن أن تصبح مثالية، في جوهر الأمر، نظراً لقلة عدد السكان المنفيين. فقد رأيت في ريكوفسكويه يهودياً مصاباً بالسفلس، لكنه لم يتلق أي علاج منذ وقت بعيد، وتهدم جسده شيئاً فشيئاً، وكانت عائلته تنتظر موته بفارغ الصبر، – علماً أنه كان يقطن على مسافة نصف فرستا من المستشفى. وورد في سجل الوفيات 13 مرة ذكر الوفاة بسبب السفلس[1].

1- يلاحظ داء السفلس بأكبر قدر في مخفر ألكسندروفسك. وكما ورد في التقرير فإن سبب ذلك يعزى إلى زحمة السكان لكثرة القادمين حديثاً إليها من سجناء وأفراد أسرهم وقوات الجيش وغيرهم، وتردد السفن على ميناءي ألكسندروفسك ودويه، ومجيء العمال المياومين في الصيف. ويتضمن التقرير التدابير المتخذة لمكافحة السفلس وهي: 1) فحص السجناء في يومي 1 و15 من كل شهر، 2) فحص القادمين الجدد إلى الجزيرة، 3) فحص النساء ذوات السمعة المشبوهة أسبوعيا. 4) مراقبة المصابين بالمرض السابقين. ولكن على الرغم من كل الفحوص وتدابير الرقابة فإن نسبة كبيرة من المصابين بالسفلس يفلتون من الرقابة والتسجيل.

لم يجد الدكتور فاسيلييف الذي انتدب في عام 1869 إلى ساخالين لإعداد تقرير

في عام 1889 سجل عدد المصابين بداء الأسقربوط 271، وتوفي 6 منهم. وقبل 20-25 سنة خلت كان هذا المرض منتشراً في الجزيرة أكثر مما في العقود التالية من السنين. علماً أن بعض الرواد القدامى من دعاة تأسيس مستوطنة للمنفيين في الجزيرة، قد نفوا كلياً وجود الإسقربوط وفي الوقت نفسه كالوا الثناء على نبات الثوم البري بصفته دواء ناجعاً لعلاج الأسقربوط، وكتبوا أن الأهالي اختزنوا مئات البودات من أجل فصل الشتاء. هيهات أن يرحم الإسقربوط الذي تفشى على الساحل التتاري ساخالين حيث الظروف في المخافر ليست بشكل أفضل. وفي الوقت الحاضر غالباً ما ينقل هذا المرض السجناء القادمون في سفن أسطول المتطوعين. ويؤكد ذلك أيضاً التقرير الطبي. وحدثني حاكم المنطقة وطبيب السجن في ألكسندروفسك أنه وصل في 2 مايو عام 1890 في الباخرة «بطرسبورج» 500 سجين بينهم ما لايقل عن مائة مريض مصاب بالإسقربوط. ووضع الطبيب 51 مريضاً منهم في المستشفى ومخفر الشرطة. وقال لي أحد المصابين، وهو أوكراني من بولتافا، التقيته في المستشفى، إنه أصيب بالإسقربوط في السجن المركزي في خاركوف. لقد ذكرت ضمن رداءة الطعام الشاملة، علاوة على الإسقربوط، الخرف الذي يموت بسببه في ساخالين أفراد غير عجائز في سن العاملين. وذكر أحد المصادر أن سنّ أحد المتوفين 27 عاماً، والآخر - 30، والباقون ذكروا الأرقام 35 و43 و46 و47 و48 عاماً... علماً أن هذا ليس خطأ المضمد أو الكاهن، فإن «خرف الشيخوخة»، باعتباره سبب وفاة أفراد ليسوا من الشيوخ ولم يبلغوا سن 60 عاماً، يرد في السجلات 45 مرة. ولا تعرف بعد فترة حياة السجناء المتوسطة للروس، لكن إذا حكم اعتماداً على النظر فإن ساكني ساخالين يدلفون إلى الهرم والشيخوخة بصورة مبكرة، ويبدو السجين أو المستوطن في سن 40 عاماً كأنه شيخ بلغ من العمر أرذله.

إن السجناء المصابين بأمراض عصبية نادراً ما يراجعون المستشفى. وفي عام

حول الوضع الصحي لأبناء الأقليات القومية الجيلياكيين مصابين بالسفلس. علماً أن أبناء شعب آينو يطلقون على السفلس تسمية المرض الياباني. أما اليابانيون الذين كانوا يفدون إلى هناك لصيد الأسماك فيجب عليهم إبراز شهادة طبية إلى القنصل الياباني تؤكد أنهم غير مصابين بالسفلس.

1889 سجلت الإصابة بالنورالجية وحالات الصرع 16 مرة فقط. ويبدو أنه يتلقى العلاج فقط المصابون بأمراض عصبية الذين يتم جلبهم إلى الطبيب. وسجلت 24 إصابة بالتهاب الدماغ والسكتة الدماغية وأدت إلى 10 وفيات، بينما سجلت 31 حالة إصابة بالصرع، وسجلت 25 إصابة بالاضطراب العصبي. وليس في ساخالين، كما أشرت سابقاً، مستشفى خاص بالمصابين بالأمراض العصبية. وفي أثناء وجودي هناك وُضع أحدهم مع المصابين بالسفلس، علماً بأن أحدهم مصاب كما قيل لي بعدوى السفلس، أما الآخرون الذين يعيشون مطلقي السراح فيعملون مع الأصحاء، ويعيشون معهم بصفة خلان، ويهربون، ويقدمون إلى المحكمة التي تصدر أحكامها بحقهم. إنني التقيت شخصياً بالعديد من المجانين في المخافر والقرى. وأذكر أحدهم في دويه، وهو جندي سابق، واصل الثرثرة بلا توقف حول المحيط الجوي والسماوي، وحول ابنته ناديجدا، وشاه بلاد فارس، وأنه اغتال كاهناً مرتلاً يحمل الصليب. وحدث مرة في فلاديميروفكا أن جاء المدعو فيترياكوف، الذي يمضي فترة عقوبة سجن لمدة خمسة أعوام، من السيد «ي» مأمور المستوطنات، بعينين زائغتين وبمظهر معتوه، ومد إليه يده كصديق وقال له: «كيف أحوالك معي؟» – فدهش السيد «ي». وقد تبين أن فيترياكوف جاء ليطلب الحصول من الخزانة على طبر نجار. وقال: «سأبني كوخاً، وبعد ذلك سأهدم الكوخ». علماً أنه مجنون معروف لدى الجميع ومصاب بالبارانويا، ويخضع لرقابة الطبيب. أنا سألته عن اسم أبيه فقال: «لا أعرف». ومع ذلك أعطي له الطبر. ولن أتحدث عن حالات الانحراف الأخلاقي، والمرحلة الأولية للإصابة بالشلل وغير ذلك... حيث يتطلب إجراء تشخيص دقيق لها بهذا القدر أو ذاك. وجميع هؤلاء الأشخاص يعملون ويعتبرون أصحاء. وبعضهم يصلون وهم مرضى أو يجلبون معهم بذور المرض، فيرد في سجل الوفيات أن السجين جورودوف الذي توفي بعد إصابته بالشلل المتأزم، قد أدين بتهمة القتل المدبر سابقاً، ربما ارتكب الجريمة وهو مختل عقلياً. أما الآخرون فيصابون بالمرض وهم في الجزيرة، حيث تتوفر في كل يوم أسباب كافية تجعل الشخص الضعيف الذي يعاني من الأعصاب المختلة يفقد عقله[1].

1- على سبيل المثال تأنيب الضمير، والحنين إلى الوطن، وإهانة الكرامة باستمرار، والوحدة والانعزال، ومختلف المشاحنات بين السجناء في السجن..

في عام 1889 سجلت 1760 إصابة بأمراض المعدة والأمعاء. وتوفي خلال عشرة أعوام 338 شخصاً كانت نسبة الأطفال بينهم 66%. ولعل أكثر الأشهر خطورة بالنسبة إلى الأطفال يوليو، وأغسطس بصورة خاصة، ويشكل الأطفال ثلث الوفيات بهذه الأمراض. أما البالغون فيموتون بسبب اضطرابات المعدة والأمعاء في شهر أغسطس أيضاً، ربما لأنه يجري في هذا الشهر موسم هجرة الأسماك والإسراف في أكلها. ويعتبر التهاب الغشاء المخاطي للمعدة من الأمراض المألوفة هنا. ويشكو أبناء القوقاز دائماً من أنهم يشعرون «بألم في القلب»، وبعد تناول الخبز الأسود وحساء السجن يتقيأون.

في عام 1889 زارت النساء المستشفيات 105 مرات فقط. علماً أنه لا توجد في المستوطنة نساء بصحة جيدة. وجاء في تقرير إحدى اللجان الخاصة بغذاء السجناء بمشاركة رئيس الوحدة الطبية بين أمور أخرى: «أن حوالي 70% من السجينات مصابات بأمراض نسائية مزمنة. ولم توجد بين جميع السجينات القادمات حديثاً امرأة واحدة صحيحة البدن».

وتلاحظ في غالب الأحيان الإصابة بالتهاب الملتحمة من بين جميع أمراض العيون، علماً أن الشكل الوبائي لهذا المرض لا يصيب أبناء الأقليات القومية المحلية. وأنا لا أستطيع قول شيء بصدد أمراض العيون الأكثر خطورة، لأنه ورد ذلك في التقرير الرقم 211 حول جميع أمراض العيون. وقد التقيت في البيوت بذوي عين واحدة ومصابين بغشاوة في العين وعميان كلياً. ورأيت أطفالاً عمياناً أيضاً.

في عام 1889 طلب 1217 شخصاً العلاج من الكدمات والرضوض والكسور وشتى أصناف الجروح. وجميع هذه الإصابات تحدث في أثناء العمل وشتى أنواع الحوادث المؤسفة وفي أثناء الهرب (جروح بالرصاص) وفي العراك. وتنتمي إلى هذه الفئة 4 حالات، حينما جلبت إلى المستشفى امرأة سجينة مصابة بجروح بنتيجة اعتداء خليلها عليها. وسجلت 290 حالة تجمد بالبرد.

وسجلت خلال عشرة أعوام 170 حالة وفاة غير طبيعية بين السكان

الأرثوذكس. وقد أعدم 20 سجيناً منهم شنقاً حتى الموت، بينما شنق اثنان من قبل مجهولين. وانتحر 27 شخصاً، علماً أن أحدهم انتحر في شمال ساخالين (انتحر جندي في نوبة الحراسة)، بينما سمم شخص نفسه في جنوب ساخالين بتناول نبات بوريتس. وهناك عدد كبير من الغرقى والمتجمدين بالزمهرير، والصرعى لدى سقوط أشجار عليهم، وأحدهم افترسه دب. وبالإضافة إلى بعض الأسباب مثل شلل القلب وتمزق القلب والسكتة القلبية والشلل العام للجسم وهلمجرا، فقد وردت في سجلات الوفيات أيضاً أن 17 شخصاً توفوا «فجأة»، وأكثر من نصفهم في عمر من 22 إلى 40 عاماً، وواحد فقط في عمر 50 عاماً.

هذا كل ما أستطيع قوله حول الأمراض في مستوطنة النفي. وعلى الرغم من الانتشار الضعيف للغاية للأمراض المعدية، فلا بد لي من الاعتراف بأهميتها ولو اعتماداً على الأرقام الواردة آنفا. فقد راجع 11309 مرضى الأطباء من أجل العلاج في عام 1889، وبما أن غالبية السجناء يعيشون ويعملون في الصيف بعيداً عن السجن، حيث لا مضمد إلا في التجمعات الكبيرة، وبما أن غالبية المستوطنين بسبب بعد المسافة ورداءة الطقس، لا يستطيعون الذهاب إلى المستشفيات مشياً على الأقدام أو بالتنقل في العربات، فإن هذه الأرقام تمس بصورة أساسية ذلك القسم من السكان الذين يقطنون في المخافر، وبالقرب من المراكز العلاجية. وحسب معطيات التقرير ففي عام 1889 توفي 194 شخصاً، أو نسبة 12,5% من مجموعة 1000 شخص. وكان بالمستطاع اعتماداً على مؤشر الوفيات هذا أن تراودنا الأوهام والقول إن ساخالين تعتبر من أفضل الأماكن في العالم لصحة الفرد. لكن يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار العوامل التالية: في الظروف الاعتيادية تشكل وفيات الأطفال أكثر من نصف جميع المتوفين، بينما يشكل الشيوخ نسبة أقل من الربع. إن عدد الأطفال في ساخالين ليس كبيراً جداً، بينما لا يوجد شيوخ تقريباً، لذا فإن معامل 12,5% يمس، في جوهر الأمر، فقط الأفراد في سن العمل. علاوة على ذلك يظهر أدناه المعامل الفعلي، حيث يؤخذ في الحساب أن عدد السكان يبلغ 15000 نسمة، أي بزيادة مرة ونصف أكثر من عددهم الفعلي.

وتعمل في ساخالين في الوقت الحاضر ثلاثة مراكز طبية، وفقاً لعدد الدوائر: ألكسندروفسك وريكوفسكويه وكورساكوفسك. وتطلق عليها التسمية القديمة «المشافي الإقليمية»، بينما تطلق على المباني التي يرقد فيها المرضى ذوي الإصابات الخفيفة – الأقسام العلاجية. ويخصص طبيب واحد لكل دائرة، بينما يتولى الأعمال الإدارية رئيس القسم الطبي، الدكتور في الطب. وتوجد لدى الوحدات العسكرية مستشفيات خاصة بها بأطبائها، وغالباً ما يحدث أن يقوم الأطباء العسكريون بمهام طبيب السجن: في أثناء وجودي هناك غادر رئيس القسم الطبي في ألكسندروفسك لحضور معرض خاص بالسجون، واستقال طبيب السجن، فتولى مؤقتاً طبيب عسكري مهام طبيب السجن. كما حل الطبيب العسكري محل طبيب السجن لدى تنفيذ العقوبة الجسدية بأحد السجناء. وتعمل المستشفيات المحلية بموجب نظام المؤسسات العلاجية المدنية وتتولى إدارة السجون الإنفاق عليها.

سأتحدث بإيجاز عن المستشفى في ألكسندروفسك. فهو يتألف من عدة مبان من طراز العنابر، ويتسع لـ 180 سريراً. عندما اقتربت من المستشفى تألقت العنابر الجديدة تحت أشعة الشمس بقرماتها الثقيلة المدورة وانبعثت منها رائحة الصنوبر. كل شيء في الصيدلية جديد ولامع، وهناك حتى تمثال نصفي للطبيب بوتكين صنعه أحد السجناء اعتماداً على صورة فوتوغرافية. «إنه لا يشبهه كثيراً» – قال ذلك المضمد وهو ينظر إلى التمثال. وكالعادة توجد صناديق كبيرة تحتوي على لحاء الشجر والجذور وأكثر من نصفها لم يعد صالحاً للاستعمال. وولجت بعد ذلك العنابر حيث يرقد المرضى. وفرشت أغصان شجر الشوح في الممر بين الأسرة. والأسرة خشبية. ويرقد في أحدها سجين من دويه، استأصل بلعومه. إن الجرح البالغ طوله حوالي سنتيمترين ونصف السنتيمتر جاف ومتألق. ويسمع فيه حسيس الهواء. اشتكى المريض من أنه في العمل وقع تحت انهيالات التربة وكسرت ضلوعه. فذهب إلى المستوصف لكن المضمد رفض استقباله، ولكنه لم يصبر على هذه الإساءة وحاول الانتحار – أراد ذبح نفسه بالسكين. لا توجد ضمادات على الجرح، وترك الجرح لحاله. ورقد في الجهة اليمنى لهذا المريض – على مسافة 2-3 أرشينات عنه – صيني يعاني من الغنغرينا – هو

سجين مصاب بالحمرة... وفي الركن الآخر مريض مصاب بالحمرة... إن الضمادات لدى المرضى الذين أجريت لهم عمليات جراحية وسخة، مثل حبل بحري، ومظهرها يولد الشبهات، كما لو داستها الأقدام. الممرضون والخدم لا يعرفون الانضباط، ولا يفهمون الأسئلة ويتركون انطباعاً سيئاً. ويبدو أن السجين سوزين وحده، الذي كان قبل السجن يعمل مضمداً، يعرف الأنظمة في روسيا، وأعتقد أنه الشخص الوحيد في هذا الحشد في المستشفى، لا يجلب العار إلى إله الطب إسكليبيوس بموقفه من العمل.

بعد فترة قصيرة عاينت المرضى الذين يعالجون خارج المستشفى. وتقع حجرة المعاينة إلى جانب الصيدلية، وهي جديدة، تنبعث فيها رائحة الخشب الطري والطلاء. والمنضدة التي يجلس وراءها الطبيب محاطة بسياج مشبك خشبي، كما في مكاتب البنوك، ولهذا فإن المريض لا يقترب من الطبيب في أثناء الفحص، ويقوم الطبيب بهذه المهمة عن بعد. ويجلس وراء المنضدة إلى جانب الطبيب المضمد وهو يلاعب القلم بصمت، ويبدو في مظهره مثل المساعد في أثناء الاختبار. ويقف في باب حجرة الاستقبال سجان يحمل مسدساً، ويبعد عنه بعض الرجال والنساء. إن هذا الوضع الغريب يشوش المرضى، وأعتقد أنه ما من مصاب بالسفلس ولا أية امرأة تقدم على الحديث عن مرضها بحضور الرجال وهذا السجان الذي يحمل المسدس. لم يكن عدد المرضى كبيراً. وجميع إصاباتهم إما sachaliniensis febris، أو الأكزما، أو «وجع القلب»، أو التصنع بالمرض. ويرجو السجناء المرضى كل الرجاء إعفاءهم من العمل. وجاءوا بصبي في عنقه ورم. لابد من استئصاله. فرجوت إعطائي المشرط. وانطلق المضمد ورجلان آخران من مكانهم، وصاروا يهرولون هنا وهناك، وبعد هنيهة عادوا وأعطوني المشرط. وقد تبين أن هذه الأداة غير حادة، لكنهم قالوا إن هذا مستحيل. لأن البراد قد شحذه منذ فترة قريبة. واندفع المضمد والرجلان مرة أخرى من مكانهما وبعد مضي دقيقتين أو ثلاث من الانتظار جلبوا مشرطاً آخر. وبدأت بقطع الورم فتبين أن هذا المشرط غير حاد أيضاً. وطلبت محلول حامض الكاربوليك – فجاءوا به لكن ليس بسرعة. لكن تبين أن هذا المحلول لا يستعمل كثيراً هنا. ولم توجد طاسة، ولا كرات القطن، ولا المسابر، ولا المقاصيص الجيدة، وحتى لا الماء بكمية كافية.

يرتاد هذا المستشفى يومياً للعلاج 11 مريضاً، والمعدل المتوسط السنوي (خلال خمسة أعوام) 2581 مريضاً. أما المعدل الوسط اليومي للمرضى الراقدين في الأسرة فهو 138. وفي المستشفى طبيب أقدم وطبيب أدنى مرتبة ومضمدان وامرأة قابلة (واحدة في دائرتين) وخدم يبلغ عددهم، وهو رقم رهيب، 68 شخصاً: 48 رجلاً و20 امرأة. في عام 1889 بلغت نفقات هذا المستشفى 27832 روبلاً و96 كوبيكاً. وبموجب تقرير عام 1889 جرت أعمال الطب العدلي وتشريح الجثث في جميع الدوائر الثلاث 21 مرة. وثبتت إصابات 7 أشخاص، والنساء الحوامل 58، وتم تحديد قدرة السجين على تحمل العقوبات الجسدية وفقاً لقرارات المحاكم 67 مرة.

استنسخت تلك المقاطع من التقرير المذكور المتعلقة بموجودات المستشفى. وقد وجد في جميع المستشفيات الثلاثة طقم واحد من أدوات علاج الأمراض النسائية، وطقم واحد من أدوات علاج الحنجرة، وعدد من محارير القياس الأقصى، لكن تبين أنها قد كسرت، و9 محارير لقياس درجة حرارة الجسم، اثنان كسرا، ومحرار واحد لقياس «درجات الحرارة العالية»، ومبزل واحد، 3 محاقن برافاتس إبرية – الإبرة مكسورة في واحدة منها، 29 محاقن غسل قصديرية، 9 مقصات – اثنان مكسوران، أنبوبة تصريف واحدة، هاون واحد كبير مع المدقة – فيه شرخ، حزام حلاقة واحد، 14 وعاء للدم.

يرى من «وقائع واردات وصادرات المواد الطبية في المؤسسات الطبية للإدارة المدنية في جزيرة ساخالين» أنه أنفق في جميع الدوائر الثلاث خلال العام الذي يشمله التقرير: ½ 36 بوداً من حامض الهيدروكلوريك و26 بوداً من من مسحوق التبييض، و½ 18 رطلاً من حامض الكاربوليك، 56 رطلاً من أنتيمون الألمنيوم وأكثر من بود من الكافور. البابونج باوند واحد و9 أرطال. لحاء شجر الكينا باوند واحد و8 أرطال والفلفل الأحمر ½ 5 أرطال. (استهلك القدر نفسه من الكحول، ولا يذكر في «الوقائع»). لحاء شجرة البلوط باوند واحد. والنعناع ½ 1 باوند، وزهرة العطاس ½ بود، وجذر ألتايا 3 بودات، والتربنتين ½ 3 بودات، وزيت بروفانس 3 بودات، والزيت النباتي 1 بود و10 أرطال. واليود ½ بود. وحسب معطيات سجل «الوقائع» استهلك إجمالاً، باستثناء الجير وحامض الملح والكحول ومواد

التعقيم والضمادات، ثلاثة وستين ونصف بود من الأدوية، إذن بوسع أهالي ساخالين التفاخر بأنهم تناولوا في عام 1889 جرعة كبيرة منها.

سأذكر اثنتين من مواد القانون التي لها علاقة بصحة السجناء والمنفيين وهما: 1) الأعمال المضرة بصحة الإنسان، ولا يسمح بها حتى لو اختار السجناء أنفسهم ذلك و2) إعفاء النساء الحوامل من العمل حتى انتهاء فترة الحمل، وحتى انتهاء فترة ما بعد الوضع. وبعد هذا الموعد تخفف ظروف عمل الأمهات المرضعات بالقدر اللازم الذي لا يشكل ضرراً على صحة الأم المرضعة وطفلها. تحدد فترة عام ونصف العام للسجينات من أجل إرضاع الطفل. المادة 297 من «نظام السجناء»، إصدار عام 1890.

الطبيعة في ساخالين

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

أراد تشيخوف أن يسجل للحقيقة والتاريخ وللأجيال القادمة وقائع فترة قاتمة من الأحداث الأليمة في جزيرة ساخالين المنعزلة في أقصى روسيا، بعد انتهاء عهد القنانة في روسيا القيصرية، لتكون منطلقاً في عمل جميع الباحثين عن مستقبل أفضل للبلاد. إن الكاتب نفسه لم يذكر أسباب إقدامه على القيام برحلة إلى جزيرة المنفيين هذه من دون الحصول على توصيات من أية جهة رسمية، بالإضافة إلى ما رافقها من أخطار على صحته، وهو المريض بالتدرن الرئوي، وفي فترة الربيع بالذات حين تبدأ فيوض الأنهار في سيبيريا وتزداد الأمطار والعواصف. لكنه قام بهذه المغامرة بدعم صديقه ألكسي سوفورين رئيس تحرير صحيفة «نوفويه فريميا» الذي موّل الرحلة مقابل إرسال «يوميات مسافر» لنشرها في الصحيفة. لكنه لم يكتب من هذه اليوميات إلا القليل حول سيبيريا، أما الكتاب «جزيرة ساخالين» فقد كتبه بموسكو بعد عودته من الرحلة.

انطلق تشيخوف من محطة قطار ياروسلافلسكي في موسكو في ٢١ أبريل عام ١٨٩٠ إلى مدينة أومسك آخر محطة في سيبيريا، ومنها توجه في عربة يجرها حصانان في رحلة لمسافة آلاف الكيلومترات وسط الغابات والمستنقعات عبر سيبيريا والشرق الأقصى واستغرقت ٨١ يوماً. وحدث ذلك بعد أن منح الكاتب لتوّه جائزة بوشكين عن مجموعته القصصية «في الغسق»، وحقق نجاحاً كبيراً ككاتب قصصي ومسرحي، حيث كانت المجلات الأدبية ترحب بنشر قصصه، بينما كانت المسارح تقدم أعماله الفودفيلية ومسرحياته باستمرار.. اختلف الكاتب عن معاصريه في أنه عالج قضايا لم يطرحها الآخرون في أعمالهم، وكان يرى ما لا يلاحظه الآخرون، ونقل ظواهر الحياة العادية المبتذلة إلى الصعيد الفلسفي. وبهذا اختلف عن الكتّاب الروس الكبار من معاصريه في كونه نسيج وحده. وقد وصفه الكاتب الكبير ليف تولستوي بأنه «بوشكين الناثر». فتراه يصور بصدق ما يدور في خلد السجين الذي يرسف في الأغلال، وما تفكر فيه الفتاة ابنة ال ١٦ عاماً الجالسة إلى النافذة، التي أرغمت على الزواج من سجان جلف يكبرها بثلاثة عقود من السنين، وما يدور في خلد الطفلة التي أنزلت للتو جثة أمها في القبر.

9 789933 655914